الفوائد الذهبية

على العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

أبي محمد عبدالحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

الفوائد الذهبية

على العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الشارح

الحمد لله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ولا سميّ ولا نِدَّ ولا ولد وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله وكل من أفرد الله ووحّد.

أمّا بعد، فإنّ من النعم الجليلات والمنن العظيمات والأعمال الفضيلات لهو إفراد ربّ الأرض والسموات بما له من الحقوق في ألوهيّته وربوبيّته وما له من الأسماء الحسنى الجليلات والصفات العلى الكاملات وذلك لأنّ الأعمال الفاضلات بشرف معلومها وأشرفها علم توحيد ربّ البريّات وقد يسّر الله وله المِنّة والفضل تدريس كتاب **العقيدة الواسطيّة** لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية والتعليق على ما حوته من الآيات القرآنيّة والأحاديث الصحيحة النبويّة والعقائد السلفيّة فشرحته وقرّبته ثمّ هذّبته بعد تفريغه ورتّبته ثمّ إنّي لا أدعي أنني أتيت ببدع من الشرح والتعليق بل أنا متبع لا مبتدع ومقتفي لا مبتدي لكن أحببت أن أُدلي بدلوي مع الدلاء لعلّ الله أن يُكرمني بما أكرم به الفضلاء النبلاء من أهل الإصلاح والزكاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والاهتمام بالعقيدة الصحيحة طريقة سلفيّة وسنّة نبويّة ففي صحيح البخاري(٧٣٧٢)، ومسلم(١٩) عن ابن عبّاس قال: لَـمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ**

الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ».

وفي الصحيحين البخاري (٨) ومسلم (١٦) عن ابن عمر قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

وعند ابن ماجه (٦١) عن جندب قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا».

وأخرج مسلم (١٧٣١) عن بريدة قال كان رسول الله إذا أمّر أمير على جيش أو سرية أوصاه خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَ لَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِى يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ

الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا».

وفي مسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد أنّ رسول الله قال يوم خيبر: «**لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**». قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**». فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

وفي سنن الدارقطني (١٨٦) عن طارق المحاربي قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، وَأَنَا فِي بَاعَةٍ لِي أَبِيعُهَا، وَمَرَّةً وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ لَهُ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**» قَالَ: وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا

النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا غُلَامُ بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: عَمُّهُ عَبْدُالْعُزَّى، وَهُوَ أَبُولَهَبٍ، قَالَ: فَلَمَّا ظَهَرَ الإِسْلَامُ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، أَقْبَلْنَا فِي رَكْبٍ مِنَ الرَّبَذَةِ، حَتَّى نَزَلْنَا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَعَنَا ظَعِينَةٌ لَنَا، قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ قُعُودٌ إِذْ أَتَانَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَسَلَّمَ، فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ الْقَوْمُ؟**» قُلْنَا: مِنَ الرَّبَذَةِ، وَجِيُوبِ الرَّبَذَةِ، قَالَ: وَمَعَنَا جَمَلٌ أَحْمَرُ، قَالَ: «**تَبِيعُونِي الْجَمَلَ؟**» قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**بِكَمْ؟**» قَالَ: قُلْتُ: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، قَالَ: فَمَا اسْتَنْقَصَنَا شَيْئًا، وَقَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ بِرَأْسِ الْجَمَلِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَتَوَارَى عَنَّا، فَتَلَاوَمْنَا بَيْنَنَا، قُلْنَا: أَعْطَيْتُمْ جَمَلَكُمْ رَجُلًا لَا تَعْرِفُونَهُ، قَالَتِ الظَّعِينَةُ: لَا تَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهًا مَا كَانَ لِيَخْفِرَكُمْ، مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهُ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، مِنْ وَجْهِهِ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الْعَشَاءُ أَتَى رَجُلٌ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّهُ يَأْمُرُكُمْ، أَنْ تَأْكُلُوا حَتَّى تَشْبَعُوا، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا، فَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا، وَاكْتَلْنَا حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ، وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، أُخْتَكَ، وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ**» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَؤُلَاءِ بَنُو ثَعْلَبَةَ بْنُ يَرْبُوعَ الَّذِينَ قَتَلُوا فُلَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَخُذْ لَنَا بِثَأْرِنَا مِنْهُ، قَالَ: فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، فَقَالَ: «**أَلَا لَا تَجْنِي أُمٌّ عَلَى وَلَدٍ، أَلَا لَا تَجْنِي أُمٌّ عَلَى وَلَدٍ**».

والشاهد من الحديث دعوته إلى تحقيق لا إله إلا الله، وإنها سقته بتمامه للفائدة.

وعند مسلم (٨) عن يحيى بن يعمر قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ – وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ – وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى، وَالَّذِى يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : **«الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»** قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ : **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»** قَالَ صَدَقْتَ، قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: **«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»**. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: **«أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ»**. قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ

لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ؟**». قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

وما زال السلف يناظرون من أجلها، فعن ابن عباس عند ابن عبدالبرّ في جامع بيان العلم وفضله (١١٢٩)، قال : لَـمَّا خَرَجَتِ الْحُرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ وَهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ أَتَيْتُ عَلِيًّا فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّى آتِى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. قَالَ قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ: فَخَرَجْتُ آتِيهُمْ وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ فَأَتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَمَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ قُلْتُ: مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف:٣٢]، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لأُبْلِغَكُمْ مَا يَقُولُونَ وَتُخْبِرُونِي بِمَا تَقُولُونَ فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ وَفِيهِمْ أُنْزِلَ وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرَ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ مُسَهَّمَةٌ وُجُوهُهُمْ مِنَ السَّهَرِ كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكَبَهُمْ ثَفِنٌ عَلَيْهِمْ قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ قَالَ بَعْضُهُمْ لَنُكَلِّمَنَّهُ وَلَنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ. قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا نَقَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ قَالُوا: ثَلَاثًا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ قَالَ اللهُ : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ. فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

قَالُوا: وَأَمَّا الأُخْرَى فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ فَلَئِنْ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبْيُهُمْ وَغَنِيمَتُهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالُهُمْ قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ فَمَا الثَّالِثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ محَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ. قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا. فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا يُرَدُّ بِهِ قَوْلُكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رُدَّ حُكْمُهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ فَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[المائدة:٩٥]، فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[النساء:٣٥]، فَجَعَلَ اللهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةً مَاضِيَةً أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ وَهِيَ أُمُّكُمْ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَيْسَتْ بِأُمِّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ! فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ أَيَّهُمَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا صِرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُلْتُ: أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ محَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «**اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ

الْمُشْرِكُونَ لَا وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ**». فَوَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ. قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ عَبَّاسٍ : (فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ).

وعند مسلم (١٩١) عن يزيد الفقير قال: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِاللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟! وَاللهُ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾[آل عمران:١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[السجدة:٢٠]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟! قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ. قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ. قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ. فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيْحَكُمْ! أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ؟! فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللهِ، مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

إلى غير ذلك من الأدلّة القرآنيّة والأحاديث النبويّة والآثار المرويّة.

وأسميت هذا الشرح **الفوائد الذهبية على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية** .

فأسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله، وأن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي وللمسلمين.

وكان تدريسي لهذا الكتاب من السبت الثالث من شهر محرّم الحرام لعام ١٤٣٤هـ، والحمد لله ربّ العالمين.(١)

عبدالحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

٨/ جمادى الأولى/ ١٤٣٤

(١) إني أشكر الله تعالى أولًا وآخرًا ظاهرًا وباطنًا الذي وفقني لهذا الخير، وأسأله المزيد من فضله.
ثم أشكر لوالدي ومشايخي ومن كان له فضل بعد الله في إعانتي على طلب العلم، رحم الله أمواتهم وحفظ أحياءهم.
وأشكر الشيخ الفاضل أبا عبدالرحمن محمد باجمال الذي أتحفني بمتن العقيدة الواسطية الذي حققه على عدة نسخ خطية. أقول هذا اعترافًا بالفضل لذويه، من باب: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»، والحمد لله رب العالمين.

فوائد تتعلّق بالبسملة

قال المصنف :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

افتتح كتابه بالبسملة اقتداءً بكتاب الله العزيز قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وجاء عن النبيّ كما في الصحيحين البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٢) من حديث ابن عباس أنّ النبيّ كتب في كتابه إلى هرقل: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**» الحديث.

وعند مسلم (١٧٨٤) عن أنس ، أنّ النبيّ لمّا كتب الصلح بينه وبين قريش، قال لعليّ بن أبي طالب : «**اكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا بِاسْمِ الله فَمَا نَدْرِى مَا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللهُمَّ.

وجاء عن البراء بن عازب عند مسلم (١٧٨٣) قَالَ: لَـمَّا أُحْصِرَ النَّبِيُّ عِنْدَ الْبَيْتِ، صَالَحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعَ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ: «**اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ تَابَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا وَاللهِ، لَا أَمْحَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَرِنِي مَكَانَهَا**»،

فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِاللهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ قَالُوا لِعَلِيٍّ: هَذَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ، فَأْمُرْهُ فَلْيَخْرُجْ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَخَرَجَ.

وفي كتاب النبيّ إلى بني أقيش عند أحمد: (٢٣٠٧٧) عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: كُنَّا بِهَذَا الْمِرْبَدِ بِالْبَصْرَةِ قَالَ: فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ مَعَهُ قِطْعَةُ أَدِيمٍ، أَوْ قِطْعَةُ جِرَابٍ، فَقَالَ: هَذَا كِتَابٌ كَتَبَهُ لِي النَّبِيُّ ، قَالَ أَبُوالْعَلَاءِ: فَأَخَذْتُهُ فَقَرَأْتُهُ عَلَى الْقَوْمِ، فَإِذَا فِيهِ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، لِبَنِي زُهَيْرِ بْنِ أُقَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ، وَأَدَّيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَعْطَيْتُمْ مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمُسَ وَسَهْمَ النَّبِيِّ وَالصَّفِيَّ، فَأَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ، وَأَمَانِ رَسُولِهِ**» قَالَ: قُلْنَا: مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ**».

وقص الله تعالى في القرآن أنّ سليمان لمّا كتب إلى ملكة اليمن قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠].

وتُسمّى الجملة بالبسملة، و(الحمد لله) بالحمدلة، و(سبحان الله) بالسبحلة، و(حسبي الله ونعم الوكيل) بالحسبلة، وتُسمّى (حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح) بالحيعلة، و(لا حول ولا قوّة إلّا بالله) بالحوقلة و(لا إله إلّا الله) بالهيللة، ويُقال لهذا النوع من الكلام النحت، والعرب تَنْحِتُ من كلمتين أو ثلاث كلمة واحدة.

و(الباء) في بسم الله للاستعانة، وقيل للمصاحبة، والصحيح الأول، وتأتي لعدة معان تراجع لها المطولات.

والاسم مشتقّ من السموّ وهو العلوّ والاِرْتفَاع وهذا مذهب أهل الْبَصْرَة؛ وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من الوسم، وهو العلامة والصحيح الأول فيقالون فِي تَصْرِيفِهِ سَمَّيْت وَلَا يَقُولُونَ وَسَمْت وَفِي جَمْعِهِ أَسْمَاءٌ لَا أوسام وَفِي تَصْغِيرِهِ سمي لَا وسيم. وَيُقَالُ لِصَاحِبِهِ مُسَمًّى لَا يُقَالُ مَوْسُومٌ.

(الله) لفظ الجلالة علمٌ على الذات العليّة وهو أعرف المعارف وكلّ الأسماء الحسنى تابعة له قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤]، وما جاء في قول الله : ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم:١-٢]، فالعطف عطف بيان لا عطف نسق والفرق بين العطفين أنّ عطف البيان مبيّن لما قبله وعطف النسق يكون تابعًا لما قبله، مثاله: جاء زيدٌ وعمرٌو، فيكون عمرو تابعًا لزيد، وفي عطف البيان جاء أبوحفص عمر فعمر موضّح لأبي حفص ومبيّن له.

ولفظ الجلالة (الله) مشتقّ على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو مشتقٌّ من الإله والإله هو المعبود محبّة وتعظيمًا حتّى قال رؤبة بن العجّاج:

لله دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ   سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

أي: من تعبّدي.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد (١/ ٢٢):

زعم أبوالقاسم السهيلي وشيخه ابن العربي: أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. اهـ

وهو الاسم الأعظم على الصحيح، وورد في خصوص (اسم الله الأعظم) عدة أحاديث، أشهرها:

حديث أبي أمامة أن رسول الله قال: «**اسْمُ اللهِ الأَعظَمُ فِي سُوَرٍ مِنَ القُرآنِ ثَلَاثٍ: فِي (البَقَرَةِ) وَ(آلِ عِمرَانَ) وَ(طَهَ)**».

رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

وحديث أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ)، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**».

رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبوداود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

وحديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**».

رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبوداود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

قال الحافظ ابن حجر : وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

وحديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**».

رواه الترمذي (٣٤٧٨)، وأبوداود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥).

والحديث ضعيف، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف.

وقد اختلف أهل العلم في (اسم الله الأعظم).

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٢٢٤): وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهيته ان تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم وأن أسماء الله كلها عظيمة وعبارة أبي جعفر الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها انه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه فكأنه يقول كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم وقال بن حبان الاعظمية الواردة في الاخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما اطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ وقيل المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبدبه مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى فان من تأتي له ذلك استجيب له ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما وقال اخرون استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه.

وأثبته آخرون معينًا واضطربوا في ذلك وجملة ما وقفت عليه من ذلك **أربعة عشر قولًا:**

الأول: الاسم الأعظم هو ما نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له أنت قلت كذا وإنما يقول هو يقول تأدبا معه.

الثاني: (الله) لأنه اسم لم يطلق على غيره ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ومن ثم أضيفت إليه.

الثالث: (الله الرحمن الرحيم) ولعل مستنده ما أخرجه بن ماجه عن عائشة أنها سألت النبي أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل فصلت ودعت: اللهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ... الحديث. وفيه: أنه قال لها: «**إِنَّهُ لَفِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا**».

قلت: وسنده ضعيف، وفي الاستدلال به نظر لا يخفى.[1]

الرابع: (الرحمن الرحيم الحي القيوم) لما أخرج الترمذي من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ**: ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾، **وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ**: ﴿**الم ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾».

أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي وحسنه الترمذي وفي نسخة صححه. وفيه نظر؛ لأنه من رواية شهر بن حوشب.

---

(١) في الزوائد في إسناده مقال. وعبدالله بن عكيم وثقه الخطيب وعده من الصحابة. ولا يصح له سماع. وأبوشيبة لم أر من جرحه ولا من وثقه. وباقي رجال الإسناد ثقات. انتهى

قلت: أبوشيبة كذبه أبوحاتم وقال البخاري في حديثه عن ابن عكيم نظر.

الخامس: (الحي القيوم) أخرج ابن ماجه (٣٨٥٦) من حديث أبي أمامة الاسم الأعظم في ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه قال القاسم الراوي عن أبي أمامة التمسته منها فعرفت أنه الحي القيوم. وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية مالا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما.

السادس: (الحنان المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم) ورد ذلك مجموعًا في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان.

السابع: (بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام) أخرجه أبويعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي واثنى عليه قال كنت أسأل الله أن يريني الاسم الأعظم فأريته مكتوبًا في الكواكب في السماء.

الثامن: (ذو الجلال والإكرام) أخرج الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يقول: (يا ذا الجلال والإكرام) فقال: «**قد استجيب لك فسل**». واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية؛ لأن في (الجلال) إشارة إلى جميع السلوب وفي (الاكرام) إشارة إلى جميع الإضافات.

التاسع: (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث بريدة وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

العاشر: (رب رب) أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ: «**اسْمُ اللهِ الْأَكْبَرُ رَبِّ رَبِّ**». وأخرج بن أبي الدنيا عن عائشة: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي، سَلْ تُعْطَ**» رواه مرفوعًا وموقوفًا.

الحادي عشر: (دعوة ذي النون) أخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ».

الثاني عشر: نقل الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم فرأى في النوم: (هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

الثالث عشر: هو مخفي في الأسماء الحسنى ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الأسماء وبالأسماء الحسنى فقال لها : إنه لفي الأسماء التي دعوت بها.

الرابع عشر: كلمة التوحيد نقله عياض. انتهى

قوله: (الرحمن) اسم من أسماء الله الحسنى، وهو علمٌ على الذات العليّة وهو من الأسماء المختصّة بالله كاسم الله والقاهر والقهّار والجبّار والصمد وغيرها من الأسماء المختصّة بالله التي لا يجوز أن يُسمّى بها غيره وهو على وزن فعلان، وصيغته أبلغ من وزن فعيل وعند علماء البيان والبلاغة أنّ الزيادة في الأحرف تدلّ على معنى أوسع.

قال ابن القيم بدائع الفوائد (١/ ٢٧): استبعد قوم أن يكون الرحمن نعتًا لله تعالى من قولنا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقالوا: (الرحمن) علم والأعلام لا ينعت بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم الله، قالوا: ويدل على هذا أن (الرحمن) علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي هي العليم القدير والسميع والبصير ولهذا تجري على غيره تعالى قالوا ويدل

عليه أيضًا وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[الرحمن:١-٢]، و﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[الملك:٢٠] وهذا شأن الأسماء المحضة لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا: وما الرحمن ولم يقولوا وما الله ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعا للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة ألا ترى أنهم أيضًا قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا الحكمان والعلمان وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد فقالوا اشترك باب فعلان وباب التثنية ومنه قول فاطمة يا حسنان يا حسينان برفع النون لابنيها ولمضارعة التثنية امتنع جمعه فلا يقال غضابين وامتنع تأنيثه فلا يقال غضبانة وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثنى فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظا ومعنى.

وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه.

قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًّا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط تابعًا لغيره بل متبوعًا وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١١٧] ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها. اهـ

ويُقدّر الفعل مؤخّرًا، وقدر فعلًا لأنّ الأصل في العمل للأفعال، وقدّر مؤخّرًا حتّى يُتبرّك بذكر الله قبل كلّ شيء وحتى لا يسبق اسم (الله) شيء.

قال ابن بدائع الفوائد (١/ ٢٨): لحذف العامل في بسم الله فوائد عديدة: منها أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغني عن فاعله كان ذلك مناقضا للمقصود فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله كما تقول في الصلاة الله أكبر ومعناه من كل شيء ولكن لا تقول هذا المقدر وليكون اللفظ مطابقا لمقصود الجنان وهو أن لا يكون في القلب إلا الله وحده فكما تجرد ذكره في قلب المصلي تجرد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.

ومنها: أن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل فكأنه لا حاجة إلى النطق به لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق كما قيل:

وَمِنْ عَجَبٍ قَوْلُ الْعَوَاذِلِ مَنْ بِـهِ وَهَلْ غَيْرُ مَنْ أَهْوَى يُحِبُّ وَيَعْشَقُ

انتهى.

وقد حثّ الشارع على البدء بالبسملة في كثير من الأمور منها: حال الكتابة كما تقدم وعند إتيان الرجل أهله، قَالَ النَّبِيُّ : «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِي، فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ**

الشَّيْطَانُ» من حديث ابن عباس في البخاري (٣٢٨٣) ومسلم (١٤٣٤)، وبوّب عليه البخاري في صحيحه باب ذكر الله عند الوقاع وغيره.

وعند الخروج من البيت لما صحّ عن أمّ سلمة وأنس أنّ النبيّ كان إذا خرج من بيته قال: «**بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلَى الله**»، رواه أبوداود (٥٠٩٥)، الترمذي (٣٤٢٧).

وعند ركوب الدابّة لما صحّ عن عليّ بن أبي طالب ، فَعَنْ عَلِيِّ بْن رَبِيعَةَ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ بِسْمِ الله ثَلاثًا فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: الْحَمْدُ لله، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[الزخرف:١٣] ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لله ثَلاثًا، وَالله أَكْبَرُ ثَلاثًا، سُبْحَانَكَ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ ضَحِكَ، قُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ**». أخرجه أبوداود (٢٦٠٢) والترمذي (٢٤٤٣).

وقال تعالى في قصة نوح : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[هود:٤١].

وعند دخول البيت لما صحّ عن النبيّ من حديث جابر بن عبدالله عند مسلم (٢٠١٨)، قال : «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ الله عِنْدَ**

دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

وعند الطعام والشراب ولحديث عمر بن أبي سلمة ، قال النبيّ : «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»، البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)، ولحديث حذيفة عند مسلم (٢٠١٧) قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ فَيَضَعَ يَدَهُ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِهَا ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا».

وعند إغلاق الأبواب لحديث جابر في مسلم (٢٠١٢) قال النبيّ : «غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللهِ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ».

وعند النوم كما صحّ عن النبيّ : «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا

بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»، من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وعند القيام من النوم، قال الرسول : «**بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**» من حديث حذيفة عند البخاري (٦٣١٢)، وعن البراء في مسلم (٢٧١١).

وعند الصباح والمساء، لما صحّ من حديث عثمان بن عفّان ، قال النبيّ : «**مَنْ قَالَ بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ، حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ**»، عند أبي داود (٥٠٨٨)، الترمذي (٣٣٨٨)، ابن ماجه (٣٨٦٩).

وعند العلاج وغير ذلك، لما صحّ عن النبيّ أنّه كان إذا جاءه الرجل فيه الجُرح بلّل إصبعه ثمّ وضعها في التراب ثمّ وضعها على مكان الألم ثمّ قال : «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**»، من حديث أبي سعيد عند مسلم (٢١٨٦)، ومن حديث عثمان بن أبي العاص أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ : «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**» عند مسلم (٢٢٠٢)، (٣٥٢٢)، ولمّا جاء جِبْرَائِيلُ، أَتَى النَّبِيَّ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**

يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ، أَوْ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ» من حديث أبي سعيد عند ابن ماجه (٣٥٢٣)، ومسند أحمد (١١٢٢٥).

وعند إرسال الرسل وتوديع الأصحاب والإخوان لما صحّ عن النبيّ من حديث بريدة : «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا» مسلم (١٧٣١).

وعند الرمي لما جاء من حديث صهيب ، أنّ ذلك الغلام لمّا عجز الملك عن قتله قال: «إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ» مسلم (٣٠٠٥).

وعند إرسال الكلب المعلّم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[المائدة:٤]، وقال الرسول : «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ، فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»، من حديث عديّ بن حاتم عند البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩).

وقال: «إِذَا رَمَيْتَ سَهْمَكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ فَإِنْ وَجَدْتَهُ قَدْ قَتَلَ فَكُلْ إِلَّا أَنْ تَجِدَهُ قَدْ وَقَعَ فِي مَاءٍ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِى الْمَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهْمُكَ»، من حديث عديّ بن حاتم عند مسلم (١٩٢٩).

ولمّا نحر النبيّ أُضحيّته قال: «مَنْ كَانَ ذَبَحَ أُضْحِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ - أَوْ نُصَلِّيَ -، فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»، من حديث جندب بن سفيان عند مسلم (١٩٦٠)، وما لم يُذكر اسم الله عليه حال التذكية لا يجوز أكله بحال قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[الأنعام:١٢١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام:١١٨-١١٩].

قال الشوكاني في فتح القدير: نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع مولاه، والشعبي، وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل، وبه قال أبوثور، وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية. ولقوله تعالى في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤] ويزيد هذا الاستدلال تأكيدًا قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد: أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مرويّ عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص. وقد روى أبوداود في المرسل أن النبيّ قال: «**ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ، ذَكَرَ اسْمَ اللهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ**» وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي: إن قومًا يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا**»[1] يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبوحنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسيانًا لم تضرّ، وإن تركت عمدًا لم يحلّ أكل الذبيحة. وهو مرويّ عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاووس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبدالرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي قال: «**الْمُسْلِمُ إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْهُ**» وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس. وكذا أخرجه من قوله عبدالرزاق، وسعيد ابن منصور، وعبدبن حميد، وابن المنذر؛ نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾[البقرة:٢٨٦] كما سبق تقريره، وبقوله: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ**». وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عديّ أن رجلًا جاء إلى النبي فقال: يا رسول الله، أرأيت

---

(١) أخرجه البخاري.

الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ فقال النبي : «**اسْمُ اللهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» فهو حديث ضعيف، قد ضعفه البيهقي وغيره. انتهى

وعند السقوط والتعثّر، فعَنْ رَجُلٍ من أصحاب النبيّ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ، فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «**لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ الله، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»، عند أبي داود (٤٩٨٢)، ومسند أحمد (٢٠٥٩١).

ولمّا قطعت إصبع طلحة بن عبيد الله قال: حَسِّ، فقال رَسُولُ اللهِ : «**لو قلتَ: بسم الله لَرَفَعَتْكَ الملائكة والناسُ ينظرون**»، رواه النسائي (٣١٤٩).

هذه بعض المواطن التي تشرع فيها التسمية، وهناك مواطن أخرى لمن أراد التقصّي ونسأل الله العون والسداد، ومنها ما تكون التسمية عليه واجبة ومنها ما تكون مستحبّة، على تفصيل في كتب الفقه، والله أعلم.

فوائد تتعلّق بالحمدلة

قال المصنف :

الحَمْدُ للهِ.

لّما ابتدأ بالبسملة ثنّى بالحمدلة، الحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. قاله ابن القيم في البدائع (٢/ ٩٣). وهذا أحسن تعريف لها؛ وإلا فإن أكثر العلماء يذهبون في تعريفها إلى أنها: الثناء على الله، وذهب بعضهم إلى أنها شكر الله ، وسيأتي الفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

وقال كما في بدائع التفسير (١/ ١٢٢): نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلًا ووصفًا واسمًا، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلًا ووصفًا واسمًا فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه منزه من العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه. اهـ

كما أن قول: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله عن جميع النقائص والعيوب، ويستلزم إثبات جميع المحامد.

ولعظم هذه الكلمة (الحمد لله) افتتح بها خمس سور من القرآن: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

وكم يجمع الله ورسوله بينهما وبين التسبيح لما تقدم بيانه.

وقد قال رسول الله كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣): «**وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**».

وقال كما في حديث أبي سلام عن مولى رسول الله عند أحمد (٣/٤٤٣)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا «بَخٍ بَخٍ! لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ».

ويسمع الله لحامده كما في حديث أبي موسى عند مسلم (٤٠٤) قال النبي : «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ».

وأخرج الإمام مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة في قراءة الفاتحة في الصلاة، وفيه: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي».

وهي من أحب الكلام إلى الله، كما في حديث سمرة بن جندب: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» أخرجه مسلم (٢١٣٧).

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٤/١٢٢٣): فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك فالأفعال هي المقتضية للحمد ولهذا تجده مقرونًا بها كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[الأنعام:١].

وكقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[الكهف:١]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[فاطر:١]. اهـ

قال السمعاني في تفسير سورة الفاتحة (١/ ٣٦٤): ثم اعلم أن حمد الله تعالى لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم لأن المخلوق لا يخلوا عن نقص فلا يخلوا مدحه نفسه عن كذب فيقبح منه أن يمدح نفسه وأما الله جل جلاله بريء عن النقص والعيب فكان مدحه نفسه حسنًا. اهـ

الفرق بين الحمد والشكر:

وقد ذهب ابن جرير إلى أن الحمد لله هو الشكر لله ورد هذا التعريف ابن كثير في تفسيره : فقال: وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وهذا التعريف الذي ذهب إليه ابن كثير قد رده ابن القيم كما في البدائع (٢/ ٩٥) وبين أن الثناء هو الحمد إذا تكرر فقال:

فإن الإخبار عن المحاسن إما بتكرار أولا فإن تكرار فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فالثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه إلى بعض ومنه تثنية الثوب ومنه تثنية الاسم، واستدل على ذلك بحديث أبي هريرة عند الإمام مسلم (٣٩٥): «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»؛ لأنه كرر الحمد.

واللام في الحمد للاستغراق أي إستغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيمًا وتمجيدًا قاله القاسمي في تفسيره .

وقال القرطبي في التفسير (١/ ١٧٧): الحمد في كلام العرب، معناه: الثناء الكامل، والألف واللام للإستغراق الجنسي من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا. اهـ

وكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، قاله ابن القيم . اهـ من طريق الهجرتين .

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين الحمد والشكر من حيث أن الشكر أعم آله أي أنه يكون بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناءً واعترافًا وبالجوارح طاعةً وانقيادًا بينما الحمد يكون باللسان وبالقلب فقط.

والشكر يكون على الصفات المتعدية فقط، فتقول شكرته على إحسانه وفضله وعدله ولا تقول شكرته على سمعه وبصره وجماله.

بينما الحمد يكون على الصفات المتعدية واللازمة، تقول حمدته على جماله وإحسانه وحمدته على سمعه وبصره. اهـ بتصرف من المدارج (٢/ ٢٤٦).

قال ابن كثير : واختلفوا أيهما أعم الحمد أم الشكر على قولين والتحقيق أن بينهما عموم وخصوص ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن القيم.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الفروق، وأجمعها ما قال ابن القيم في البدائع : فنقول الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الإعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد، فإن المخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الإتساع والكثرة، فمنه قولهم: أمجد الدابة علفا أي أوسعها علفا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس، قال الشاعر:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيلُ   إِذَا تَهُبُّ شَمْأَلٌ بَلِيلُ

ومنه قولهم في شجر الغار: واستمجد المرخ والعفار، أي كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر، أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الإسم فالمثنى مكرر لمحاسن من يثنى عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها. اهـ

مسألة: اختلف العلماء أيهما أفضل قول: (الحمد لله رب العالمين) أم قول: (لا إله إلا الله)، فقال بعضهم: (الحمد لله رب العالمين) أفضل؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ففي قوله: (توحيد وحمد)، وفي قول لا إله إلا الله توحيد فقط، وقالت طائفة لا إله إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك وعليها يقاتل الخلق، وهذا القول هو الراجح لعموم أدلة فضل لا إله إلا الله.

وبدأ بالحمد اقتداءً بكتاب الله، وعملًا بسنة رسول الله حيث كان يفتتح خطبه بالحمد لله كما هو المشهور من خطبة الحاجة ففي حديث عبدالله بن مسعود عند أبي داود (٢١١٨) قال: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ خُطْبَةَ الحَاجَةِ: «**إِنَّ الحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾».

وفي حديث جابر عند مسلم رقم (٨٦٧) قال: كان رسول الله يخطب الناس ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ**».

وفي رواية: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

وفي حديث ابن عباس عند مسلم (٨٦٨) أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ الله يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنَّ الحَمْدَ لله نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**».

والكلام على الحمد ومواطنه يطول، فيا حبذا لو يُفرد بمؤلف مستقل، فهذا اللفظ من أحب الكلام إلى الله كما هو معلوم.

وقد اختلف العلماء أيّهما أفضل (الحمد لله) أو (لا إله إلّا الله) فذهب بعضهم إلى أنّ الحمد لله أفضل لأنّها متضمّنة لمعنى لا إله إلّا الله ولأنّ النبيّ صحّ عنه أنه قال: «**وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**»، من حديث أبي مالك الأشعريّ عند مسلم (٢٢٣).

وأحبّ الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم، قال الرسول : «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، لحديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٠٦)، مسلم (٢٦٩٤)، ولما صحّ عن النبيّ أنّه قال: «**بَخٍ بَخٍ، لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي المِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدَاهُ**» من حديث أبي سلمى عند أحمد (١٥٦٦٢)، في أحاديث كثيرة والصحيح أنّ لا إله إلا الله أفضل لما صحّ عن النبيّ أنّه قال: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ**»، من حديث جابر بن عبدالله عند الترمذي (٣٣٨٣).

والحمد جاء في مواطن:

منها: بعد الصلاة إذ صحّ عن النبيّ أنّه أمر بحمد الله من حديث كعبة بن عجرة في مسلم (٥٩٦): «**مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً**».

ومنها: عند النوم لما صحّ عن النبيّ من حديث عليّ عند البخاري (٣١١٣) ومسلم (٢٧٢٧) واللفظ له، أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنَ الرَّحَى فِي يَدِهَا وَأَتَى النَّبِيَّ سَبْيٌ فَانْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ وَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا فَجَاءَ النَّبِيُّ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ النَّبِيُّ **«عَلَى مَكَانِكُمَا»**، فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ عَلَى صَدْرِي ثُمَّ قَالَ **«أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»**.

وفي مسند أحمد (٦٩١٠) من طرق شُعْبَةُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: **«خَصْلَتَانِ - أَوْ خَلَّتَانِ - لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، تُسَبِّحُ اللهَ عَشْرًا، وَتَحْمَدُ اللهَ عَشْرًا، وَتُكَبِّرُ اللهَ عَشْرًا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، فَذَلِكَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَتُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ - عَطَاءٌ لَا يَدْرِي أَيَّتُهُنَّ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ - إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَ مِائَةِ سَيِّئَةٍ؟»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ: **«يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ إِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُومُ وَلَا يَقُولُهَا، فَإِذَا اضْطَجَعَ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا»**، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يَعْقِدُهُنَّ فِي يَدِهِ.

ومنه قبل الدعاء، لما صحّ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ ، غَدَتْ عَلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَتْ: عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلَاتِي، فَقَالَ : «كَبِّرِي اللهَ عَشْرًا، وَسَبِّحِي اللهَ عَشْرًا، وَاحْمَدِيهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلِي مَا شِئْتِ»، من حديث أنس الترمذي (٤٨١)، النسائي (١٢٩٩).

وعند الصباح والمساء، قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[الروم: ١٧-١٨].

وبعد قراءة القرآن وحضور المجالس، قال الرسول : «كَلِمَاتٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا كُفِّرَ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلَا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ إِلَّا خُتِمَ لَهُ بِهِنَّ عَلَيْهِ كَمَا يُخْتَمُ بِالخَاتَمِ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، أبي داود (٤٨٥٧) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، ومن حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٤٣٣)، وجاء عن عائشة .

وهو من أحبّ الكلام إلى الله، كما تقدّم قوله : «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر**».

وهي من غراس الجنّة، كما قال إبراهيم إلى محمّد : «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ»، من حديث ابن مسعود عند الترمذي (٣٤٦٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»، من حديث جابر بن عبدالله

عند الترمذي (٣٤٦٤)، وجاء من حديث النعمان بن بشير أنّ النبيّ قال: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ الله التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟»، ابن ماجه (٣٨٠٩).

وعند ركوب الدابّة، فقد صحّ عن النبيّ قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ»، من حديث ابن عمر في مسلم (١٣٤٢)، وقد تقدم في حديث علي أنه قال: الحمد لله حين وضع رجله في الغرز.

وعند الانتهاء من الطعام، قال الرسول : «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِأَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، من حديث أنس بن مالك عند مسلم (٢٧٤٣)،

وقد حمد الله نفسه في عدّة مواطن من القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الكهف:١]، وقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[سبأ:١]، وقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر:١]، وحمد نفسه بعد الانتهاء من

القضاء بين العباد حيث قال : ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الزمر:٧٥]، أدخل أهل الجنّة الجنّة بفضله وأدخال أهل النّار النّار بعدله وفي حديث عائشة عند ابن ماجه (٣٨٠٣) وابن عمر عند أبي داود (٥٠٥٨)، قال : «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وأجمل حديث في الحمد وأتمّه حديث أبي هريرة قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ قُبَاءَ النَّبِيَّ فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ – أَوْ قَالَ: يَدَهُ – قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمْنَا وَسَقَانَا وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا الحَمْدُ للهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَايَةِ وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٣١).

إلى غير ذلك وإنّما هذه إشارات إلى فضل هذه الكلمة، وهي متضمّنة لإثبات كلّ كمال لله ومستلزمة لنفي جميع النقائص عن الله .

بيان قوله :

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

قوله: (الذي) اسم موصول عائد على الله وهو بدلٌ منه.

وقوله: (أرسل) الإرسال هو البعث والإطلاق ومنه أرسل الناقة أي أطلقها ومنه إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: (رسوله): أي محمّد ، والرسول له شروط:

الأوّل: أن يكون من بني آدم.

الثاني: أن يكون ذكرًا لقول الله : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[يوسف:١٠٩].

الثالث: أن يكون حُرًّا، فقولنا (ذكر) خرج به الإناث فليس من النساء نبيّة ولا رسولة خلافًا لابن حزم .

وقولنا: (من بني آدم) خرج به الجنّ فليس من الجنّ رسل وإنّما منهم نُذُر قال الله : ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الأحقاف:٢٩-٣٠]، وأمّا قول الله : ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾[الأنعام:١٣٠]، فهو مثل قول الله : ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ

وَٱلْمَرْجَانُ﴾[الرحمن:١٩-٢٢]، وإنّما يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر المالح لا العذب على ما ذكره بعض أهل التفسير، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي رسل من بعضكم وهم من الإنس.

وقولنا (حرّ) خرج به العبدفليس من العبيد أنبياء لأنّ الرقّ فيه قيود والرقيق كالحيوان يُباع ويُشترى ويُورث والنبيّ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعًا أحرار، وكانوا يُبعثون من أشراف قومهم كما قال هرقل لأبي سفيان لمّا سأله عن نسبه، قال: (هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ)، قال هرقل: (فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا) من حديث عبدالله بن عباس عند البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

واختلف العلماء في الفرق بين النبيّ والرسول إلى أقوال أصحّها أنّ الرسول من أوحي إليه بشرع وأرسل إلى قوم مخالفين والنبيّ من أوحي إليه بشرع ولم يُرسل إلى قوم مخالفين، وإنّما هو كالمجدّد لرسالة الرسول الذي قبله، وذهب بعض أهل العلم إلى أنّ النبيّ من أوحي إليه بشرع ولم يُؤمر بتبليغه وهذا غير صحيح لأنّ الله أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذا كان عوام المسلمين مأمورين بذلك على ما يأتي بيانه في آخر الكتاب -إن شاء الله تعالى- فمن باب أولى الأنبياء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقوله: (رسوله) الإضافة هنا للتشريف، والمراد به محمد وسيأتي الكلام على أنواع الإضافات في بابه إن شاء الله.

وقوله: (الهدى) هو العلم النافع، قال الله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣]،

وكان مبعث النبيّ بخمس آيات من أوّل سورة اقرأ، قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق:١-٥] وكان إرساله بخمس آيات من أوّل سورة المدّثر، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[المدثر:١-٥]، والعلم النافع هو علم كتاب الله وسنّة رسوله .

الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيهِ

والنبيّ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، من حديث معاوية عند البخاري (٧١)، مسلم (١٠٣٧)، وصح عن ابن عباس عند الترمذي (٢٦٤٥)، وعن أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٢٠)، ويقول : «**إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»، من حديث عثمان عند البخاري (٥٠٢٨)، وفي رواية: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»، البخاري (٥٠٢٧)، ودعا لابن عبّاس : «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، البخاري (١٤٣) ومسلم (٢٤٧٧)، والهداية تنقسم إلى أربعة أقسام:

الأوّل: هداية التوفيق وهذه خاصّة بالله ، قال الله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]، وقال الله : ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[الرعد:٣١]، وقال الله آمرًا عباده: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

الثاني: هداية الدلالة والإرشاد وهذه عامّة يدخل فيها الأنبياء وغيرهم، قال الله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، أي تدلّ وتُرشد.

الثالث: وهي هداية إلى الجنّة والنّار، قال الله : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس:٩].

الرابع: وهي الهداية العامّة التي هي تيسير الناس إلى معايشهم ومكاسبهم بل تيسير جميع المخلوقات لذلك، قال الله : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

والدعاء من أعظم أسباب الهداية بل الله قد افترض علينا أن نقول في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]، وكان رسول الله يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى**» أخرجه مسلم (٢٧٢١) عن عبدالله بن مسعود ﷺ، وعن علي ﷺ علمه رسول الله أن يقول: «**قُلِ اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ**» أخرجه مسلم (٢٧٢٥)، وفي حديث الحسن بن علي ﷺ عند الترمذي (٤٦٤): «**اللهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**».

وفي مسلم (٧٧٠) عن أَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَتْ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ**

وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وقوله: (دين الحقّ) هو العمل الصالح.

قال شيخ الاسلام في الجواب الصحيح (٣/ ١٠٢): والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح بين الزكا والذكاء فإن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فالهدى يتضمن العلم النافع ودين الحق يتضمن العمل الصالح ليظهره على الدين كله والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق وهدى ويكون باليد والسلاح ليكون منصورا مؤيدا والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا غير المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يعملون به كاليهود ولا الضالين الذين يعملون ويعبدون ويزهدون بلا علم كالنصارى. اهـ

فالله أرسل رسوله بالعلم النافع وبالعمل الصالح، قال الله : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١-٣]، وقال : ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[النحل:٩٧]، قال الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم:٩٦]، في ستّ وخمسين آية قَرن فيها الله الإيمان بالعمل الصالح كما ذكرها الآجرّي في شريعته.

وقوله: (ليظهره على الدين كلّه) ظهور الدين بأمرين:

الأوّل: العلم النافع.

الثاني: العمل الصالح. على ما تقدم بيانه.

وقد قال النبيّ : «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**»، من حديث معاوية عند البخاري (٣٦٤١)، مسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

وقوله: (الدين) يأتي بمعنى الجزاء مثال قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ويأتي بمعنى الملّة وهو هنا على الملّة والطاعة قال الراغب في مفردات القرآن : والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾[النساء:١٢٥] أي: طاعة، ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾[النساء:١٤٦]. انتهى

وهذا الظهور يكون إلى قرب قيام الساعة، ففي مسلم (٢٩٠٧) عن عائشة قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا، قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ**».

وقوله: (وكفى بالله شهيدًا) قال القرطبي في أحكام القرآن (٢٠/ ٣٢٦): أي كفى الله شهيدا لنبيه ، وشهادته له تبين صحة نبوته بالمعجزات. وقيل: (شهيدا) على ما أرسل به، لأن الكفار أبوا أن يكتبوا: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. انتهى

ومن أسماء الله تعالى الشهيد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾[آل عمران:٩٨]، وقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[المائدة:١١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾[الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٦] في آيات كثيرات.

قال السعدي (ص: ٩٤٨): (الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه. انتهى

وللشهادة عدة معان:

منها: الإطلاع، قال الله : ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ١٩].

وتأتي بمعنى الإخبار، كما قال ابن عبّاس : «شَهِدَ عِنْدِي رِجَالٌ مَرْضِيُّونَ وَأَرْضَاهُمْ عِنْدِي عُمَرُ» البخاري (٥٨١).

وتأتي بمعنى الحكم، كما قال الله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[يوسف: ٢٦].

وتأتي بمعنى الحضور، قال الله : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾[البقرة: ١٨٥].

وتأتي بمعنى الإقرار، قال الله : ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾[التوبة: ١٧].

قول المصنف :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

(أشهد) أي أقر وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢]، وأفرد الشهادة على ما تقدم من عدم الإنابة في هذا الموطن.

هذه الكلمة هي: كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، والحسنة، والعروة الوثقى، والكلمة الباقية في عقب إبراهيم إلى يوم الدين، التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٨]، ولها أسماء غير هذه.

وتتكوّن من ركنين أساسيين:

الأوّل: النفي.

الثاني: الإثبات.

وجُمع بين النفي والإثبات؛ لأنّ النفي المحض عدم والعدم ليس بشيء والإثبات وحده لا يمنع المشاركة، فكان الإتيان بالنفي والإثبات لمنع المشاركة وبيان اختصاص الله بالإلوهية الحقّة وحصرها فيه.

وهي أفضل الكلام، لحديث الرسول : «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي دُعَاء يَوْمَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، رواه الطبراني (٨٧٤)، وكما قال النبيّ : «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، من حديث جابر بن عبدالله عند ابن ماجه (٣٨٠٠).

وقد أمر الله بالعلم بها، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩].

ومن مات وهو يعلمها ويعمل بمقتضاها دخل الجنّة، كما في حديث عثمان عند مسلم (٢٦): «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

ومن مات غير شاكٍّ بها كان من أهل الجنّة، لحديث أبي هريرة وأبي سعيد في مسلم (٢٧) أنّ النبيّ قال: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ»، وفي مسلم (٣١) عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ مَعَنَا أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ فِى نَفَرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِى رَسُولَ اللهِ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلأَنْصَارِ لِبَنِى النَّجَّارِ فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا فَلَمْ أَجِدْ فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِى جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ الجَدْوَلُ - فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ: «أَبُوهُرَيْرَةَ؟». فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَزِعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ فَأَتَيْتُ هَذَا الحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِى، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» وَأَعْطَانِى نَعْلَيْهِ قَالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَىَّ هَاتَيْنِ

فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ» فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ. فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً وَرَكِبَنِي عُمَرُ فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : «**مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي قَالَ: ارْجِعْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ : «**يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟**». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ «**فَخَلِّهِمْ**».

وفضائلها جليلة وعظيمة ليس هذا موطن بسطها.

وهي أول واجب على العبيد، خلافًا للمعتزلة الذين أوجبوا النظر، ويُرد عليهم بما أخرجه البخاري(٢٥)، ومسلم (٢٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَـهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**».

وفيهما البخاري (١٣٩٩) ومسلم(٢٠) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: لَـمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ وَكَانَ أَبُوبَكْرٍ ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ**

حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ» فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ : فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

وفي مسلم (٢١) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢١-٢٢].

وفيه (٢٣) عن طارق بن أشيم قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».

وبها يخرج المؤمن من الدنيا، ففي مسلم (٩١٦) عن أَبَي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وفيه (٩١٧) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وهذه الشروط مأخوذة بالتتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ حكمي بقوله:

الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ ... وَالِانْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّهْ ... وَفَّقَكَ اللهُ لِمَا أَحَبَّهْ

ونظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ مَعْ ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالْقَبُولِ لَهَا

وأضاف بعضهم شرطًا ثامنًا ونظمه بقوله:

وَزِيدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سِوَى الْإِلَهِ مِنَ الْأَوْثَانِ قَدْ أُلِهَا

بيان قوله :

وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ.

قوله: (وحده) توكيدًا للإثبات وقوله (لا شريك له) توكيدًا للنفي.

فالله لا شريك له في ملكه ولا شريك له في خلقه ولا شريك له في ربوبيّته وإلوهيته ولا شريك له في أسمائه وصفاته بل ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص:١-٢]، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦]، وقال : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]، وقد تنوّع كفر المشركين فبعضهم يجعل لله شريكًا في ملكه وبعضهم يجعل لله شريكًا في خلقه وبعضهم يجعل لله شريكًا في أسمائه وصفاته وكلّ ذلك نهى الله عنه وبيّن أنّ الوقع على خلافه فقال : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص:١-٢]، أي الذي تصمد إليه جميع الخلائق، وقال : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٣-٤]، ليس له كفؤ ولا نظير ولا معين ولا ظهير ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

بيان قوله :

إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

قوله: (إقرارًا به) أي أشهد هذه الشهادة وأنطق بهذه إقرارًا وَالْمُرَادُ: إِقْرَارُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

وقوله: (توحيدًا) التوحيد مصدر وحد يوحد. وهو إفراد الله بما يجب له وبُعث النبيّ وجميع الرسل بالدعوة إلى التوحيد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وصحّ عن النبيّ من حديث ابن عبّاس أنّ النبيّ لّما بعث معاذًا إلى اليمن قال : «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى**»، البخاري (٧٣٧٢).

وفي لفظ: لما أرسل رسول الله معاذًا إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»، وفي لفظ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ** »، الحديث في البخاري (٧٣٧) ومسلم (١٩).

وفي حديث ابن عمر في مسلم (١٦)، أنّ النبيّ قال: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ**».

والتوحيد هو إفراد الله بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتوحيد الله تعالى ثلاثة أقسام:

أولاً: توحيد الربوبية:

فأما توحيد الربوبية فهو الإقرار بأن الله وحده هو الخالق للعالم والمدبر له، والمالك، والرازق، إلى غير ذلك من خصائص ربوبيته، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد من الأمم كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الزخرف:٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٥].

وهذا في القرآن كثير، ولم ينكر توحيد الربوبية، ويجحد الرب إلا شواذ من المجموعة البشرية تظاهروا بإنكار الرب مع اعترافهم به في الباطن، وإنكارهم له إنما هو من باب المكابرة كما ذكر الله عن فرعون قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص:٣٨]، وقد خاطبه موسى بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل:١٤]، وهم لم يستندوا إلى حجة في جحودهم، كما قال : ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية:٢٤].

ومن أكبر الشواهد على وحدانية الله آياته الكونية قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[الطور:٣٥-٣٦].

وقال الشاعر:

وَفِي كُـــلِّ شَيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ ... تَـــدُلُّ عَـــلَى أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ

ومن المعلوم أن رسول الله قاتل هذه الأصناف التي كانت تقر بأن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر مع أن بعضهم يعبدالأحجار، وبعضهم الأشجار، وبعضهم الملائكة، وبعضهم الشياطين.

وربما اتخذوهم وسائط ووسائل للقربة إلى الله تعالى فلم ينفعهم ذلك قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية قال الشيخ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد (١٧): وهذا التوحيد لا يكفي العبدفي حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرّون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴾[يونس:٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[العنكبوت:٦٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[النمل:٦٢] الآية، فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦]، قال مجاهد: في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره. اهـ

ثانيًا: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بالعبادة.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وهذا أشمل أنواع التعاريف، فالدين كله داخل في العبادة، فالعبادة المأمور بها تتضمن ثلاثة أركان المحبة والرجاء والخوف، وهذا التوحيد يسمى بتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الإرادة، والتوحيد العملي.

وهو الذي دعت إليه جميع الرسل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦].

ومن أجله خلقت السموات والأرضين والإنس والشياطين، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء:٣٦]، في آيات كثيرات في هذا الباب.

وهذا التوحيد مبني على إخلاص التأله لله تعالى: وهي عبادته محبة وتعظيمًا ومن العبادة: المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والدعاء لله وحده، ويبنى على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها، وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئًا لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلًا عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩].

وهذا التوحيد هو أول الأمر وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل، وآخرها، وهو معنى قول: (لا إله إلا الله)، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار... وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد.

وسأذكر من أنواع العبادة ما يكون دلالة إلى ما سواها فمن صرف شيئًا منها لغير الله مما يختص به فقد ناقض معنى لا إله إلا الله، فمنها:

١- المحبة، فمن أشرك بين الله وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٥-١٦٧].

٢- ومنها التوكل، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر.

٣- ومنها الخوف، فلا يخاف خوف السِّرِّ إلا من الله، ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبدمن غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله ، قال تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[النحل:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧].

٤- ومنها الرجاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات، أو غيرهم راجيًا حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢١٨]، وقال علي : لا يرجونّ عبدإلا ربه.

٥- ومنها الدعاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواءً كان طلبًا للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[فاطر:١٣-١٤]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾[الزمر:٤٣].

٦- ومنها الصلاة والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾[الكوثر:٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[الحج:٧٧].

٧- ومنها الذبح، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

٨- ومنها النذر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾[الإنسان:٧]، وقال تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾[الحج:٢٩].

٩- ومنها الطواف، فلا يطاف إلا ببيت الله ، قال تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[الحج:٢٩].

١٠- ومنها التوبة، فلا يتاب إلا لله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور:٣١].

١١- ومنها الاستعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١].

١٢- ومنها الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عبَّاد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى، أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله ، أو أشرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦].

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفّر الله به المشركين وأباح دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها وكانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك).

ومن أنواع الشرك المنتشرة في البلاد الإسلامية صرف العبادات للقبور والمقبورين، يقفون بساحاتها فتسكب العبرات وتنزل بها الحاجات، وتتعلق بها القلوب، وترجى في دفع المضرات، وجلب المنافع، وتطلب منها الأرزاق، وتنحر في ساحتها الجزور، ويقع عندها من الزور ما الله به عليم.

قال ابن الأمير في تطهير الاعتقاد (٥٠): وقد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا، بمجرد

التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى، إلا ما ورد في حديث فيه مقال، في حق نبينا محمد أو نحو ذلك، فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان، فضلا عمن ينذر بماله وولده لميت أو حي أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله تعالى من الحاجات، من عافية مريضه أو قدوم غائبه أو نيله لأي مطلب من المطالب، فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان ويكون عليه عباد الأصنام.

والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر وسماها ماء، ما شرب إلا خمرا وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنه يأتي قوم يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، وصدق فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذا، وأول من سمى ما فيه غضب الله وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه:١٢٠]، فسمى الشجرة التي نهى الله آدم عن قربانها شجرة الخلد، جذبا لطبعه إليها وهزا لنشاطه لقربانها وتدليسا عليه بالاسم الذي اخترعه، كما يسمي إخوانه المقلدون له الحشيشة بلقمة الراحة، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلما وعدوانا أدبا، فيقولون أدب القتل وأدب

السرقة وأدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب، كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم (النفاعة) وفي بعضها إلى اسم (السياقة) وفي بعضها أدب المكاييل والموازين.

وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

وكذلك تسمية القبر مشهدا ومن يعتقدون فيه وليا لا تخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ويطوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام ويستلمونها استلامهم لأركان البيت ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها.

وكل قوم لهم رجل ينادونه، فأهل العراق والهند يدعون عبدالقادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه، يقولون: (يا زيلعي، يا ابن العجيل). وأهل مكة وأهل الطائف: (يا ابن العباس). وأهل مصر: (يا رفاعي، يا بدوي)، والسادة البكرية وأهل الجبال: (يا أبا طير). وأهل اليمن: (يا ابن علوان).

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أَعَادُوا بِهَا مَعْنَى سُوَاعٍ وَمِثْلِهِ يَغُوثَ وَوَدٍّ بِئْسَ ذَلِكَ مِنْ وَدِّ

وَقَدْ هَتَفُوا عِنْدَ الشَّدَائِدِ بِاسْـمِهَا   كَمَا يَهْتِفُ الْمُضْطَرُّ بِالصَّمَدِ الْفَـرْدِ
وَكَمْ نَحَرُوا فِي سُوحِهَا مِنْ نَحِـيرَةٍ   أُهِلَّتْ لِغَيْرِ اللهِ جَهْرًا عَـلَى عَمْـدِ
وَكَمْ طَائِفٍ حَوْلَ الْقُبُـورِ مُقَـبِّلًا   وَيَسْتَلِمُ الْأَرْكَـانَ مِـنْهُنَّ بِالْأَيْـدِ

إلى غير ذلك من الشرك بالله العظيم، نسأل الله السلامة، وحسن الخاتمة.

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإقرار والإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه في كتابه وبما سماه ووصفه به رسوله، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وسيأتي الكثير من ذلك ضمن هذا الكتاب بما يشفي ويكفي إن شاء الله .

قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد (١٩): وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية، والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلًا، وإما عنادًا كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود، وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن قال الشاعر:

(وَمَا يَشَأِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ)

وقال الآخر: (أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا)

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فَـلَا تَكْـتُمُنَّ اللهَ مَـا فِي نُفُوسِـكُمْ لِيَخْفَـى وَمَهْـمَا يُكْـتَمِ اللهُ يَعْلَـمِ

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ذلك كما ردوا عليه توحيد الآلهية، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، لا سيما والسور المكية مملوءة بهذا التوحيد. اهـ

وأهل البدع يشمئزّون من ذكر التوحيد ومن الدعوة إلى التوحيد ومن التصريح بالتوحيد بل إنّ أعظم نُظّارهم لا يعرف الفوارق بين توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية ويظنّهما واحدة وقد ألّف عبدالمجيد الزنداني كتاب (توحيد الخالق) ذهب فيه إلى تقرير توحيد الربوبية الذي أقرّ به اليهود والنصارى والمشركون بل هو نهاية قول المجوس فكلّهم يُقرّون بأنّ الله هو الخالق الرازق المالك المدبّر وإنّما وقعت منهم المخالفة أكثر في توحيد الإلوهية.

بيان قوله :

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلى اللهُ عليه، وعلى آلِهِ، وأصحابِهِ، وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

قوله: (وأشهد) أي وأُخبر مع اعتقادي الجازم أنّ محمّدًا وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطّلب القرشي من ولد عدنان وينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولم يبعث الله نبيًّا من ولد إسماعيل إلّا محمّدًا وهو دعوة إبراهيم كما قال الله : ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٩]، وهو بشارة عيسى كما قال الله : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الصف:٦]، وقد ذكرته الكتب السابقة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٨٩]، ففي مسند أحمد(١٥٨٤١)

فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِالْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِالْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ.

وعند ابن حبان (٦٥٨٠) عَنِ الْفَلْتَانِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ النَّبِيِّ فِي الْمَسْجِدِ، فَشَخَصَ بَصَرُهُ إِلَى رَجُلٍ يَمْشِي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «**يَا فُلَانُ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**أَتَقْرَأُ التَّوْرَاةَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**وَالْإِنْجِيلَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**وَالْقُرْآنَ؟**» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَشَاءُ لَقَرَأْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ أَنْشِدُهُ، فَقَالَ: «**تَجِدُنِي فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؟**» قَالَ: نَجِدُ مِثْلَكَ، وَمَثَلَ أُمَّتِكَ، وَمَثَلَ مُخْرَجِكَ، وَكُنَّا نَرْجُو أَنْ تَكُونَ فِينَا، فَلَمَّا خَرَجْتَ تَخَوَّفْنَا أَنْ تَكُونَ أَنْتَ، فَنَظَرْنَا فَإِذَا لَيْسَ أَنْتَ هُوَ، قَالَ: «**وَلِمَ ذَاكَ؟**» قَالَ: إِنَّ مَعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ سَبْعِينَ أَلْفًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ، وَلَا عِقَابٌ، وَإِنَّ مَا مَعَكَ نَفَرٌ يَسِيرٌ، قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنَا هُوَ، وَإِنَّهَا لَأُمَّتِي، وَإِنَّهُمْ لَأَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا**».

ومن الإيمان به أن تؤمن أنّه خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فمن اعتقد أنّ بعد النبيّ نبيّ أو رسول فقد كفر، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب:٤٠]، أي وآخرهم، ليس كما يقول القاديانية ومن إليهم من الكفرة والزنادقة أنّ المراد بخاتم النبيّين زينة النبيّن، ففي الحديث قال النبيّ : «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (٢٢٨٦)، وفي بعض الروايات: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا رَسُولَ**»، فمن ادّعى أنّ بعد النبيّ رسولًا أو نبيًا فقد كفر.

ومن الإيمان بالنبيّ الإيمان بأنّه رسول الله إلى النّاس كافّة، قال الله :
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[الأعراف:١٥٨].

وقد جاء في حديث جابر وأبي هريرة وغيرهم أنّ النبيّ قال: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**» مسلم (٥٢٣)، وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلَائِكَةِ وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ**». وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى. ويدلّ على ذلك قول النبيّ : «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ، ومن العجب أنّها قد ظهرت طائفة من القوميّين العرب والنصارى يزعمون أنّ الرسول رسول إلى العرب فقط وهذ الاعتقاد فيهم كفرٌ وإن أقرّوا بنبوّته ورسالته فإن حصرها على العرب وحدهم كفرٌ وزندقةٌ، وردٌّ للقرآن، والسنة، فإنّ النبيّ قد أُرسل إلى قيصر وكسرى وإلى النجاشي والمقوقس وأرسل إلى صاحب البحرين يدعوهم إلى الإسلام ويدلّ على ذلك أنّ كثيرًا من النصارى قد أقرّوا بنبوّته ورسالته فأقرّ بها النجاشي وأسلم وأقرّ بها هرقل وأبى الإسلام بسبب الملك، وأقر بها ورقة بن نوفل وأسلم على الصحيح نقول هذا لأنّ كثيرًا

من النّاس قد جهلوا معنى الإيمان بالرسول ، ومن الإيمان بالرسول طاعته فيما أمر قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[المائدة:٩٢] والانتهاء عمّا نهى عنه وزجر قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣] وتصديقه فيما أخبر قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨] وأن لا يُعبدالله إلّا بما شرع قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

وقوله: (عبده) ردٌّ على الصوفيّة الذين يصرفون له الكثير من العبادات من دون الله فيذبحون له ويرجونه ويتوكّلون عليه ويسألونه الشفاعة إلى غير ذلك حتّى قال بعضهم:

يَــا مُحَمَّــدْ كُــنْ حَبِيبِــي   يَــا مُحَمَّــدْ كُــنْ طَبِيبِــي
وَأَجِــرْنِي مِــنْ لَهِيبِــي   إِنَّ أَوْزَارِي ثِقَـــــالْ

مع أن الله يقول مُخبرًا عن إبراهيم : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٨٠]، والنبيّ هو القائل: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ،

وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»، من حديث عائشة عند مسلم (٢١٩١)، وابن ماجه (١٦١٩)، وأحمد (٥٦٥)، يدعو النبيّ أن يُكفّر ذنوبه وأن يُنجّيه من النّار. وهو القائل فيما أخبر الله عنه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨]. ولمّا قالت المرأة:

(وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَعْلَمُ مَا فِي غَدِ)

قال: : «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُاللهِ فَقُولُوا عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ» من حديث عمر عند البخاري (٣٤٤٥).

بل قد غلو في مولده حتى جعلوه أفضل من ليلة القدر حتى قال بعضهم:

صِفْ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ وَصْفًا حَسَنَا ... مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ سِوَاهَا عِنْدَنَا

وقد وصف الله نبيّه بالعبوديّة في أشرف المواطن: كالإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء:١]، والمعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾[النجم:١٠]، وعند الامتنان بإنزال الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[الكهف:١]، وقال : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾[الفرقان:١].

وقوله: (ورسوله) فيه ردٌّ على زنادقة الفلاسفة ومن إليهم من الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ممّن يزعمون أنّ محمّدًا ما هو إلّا رجلٌ ذكيٌّ استطاع أن يُخيّل للناس تخيّلات فجمعهم على دينه فخرج في بيئة عربيّة

يُحبّون النساء وأخبرهم أنّ في الجنّة غانيات، فيها من النساء ما تعجز الألسن عن وصفهنّ حتّى إنّ إحداهنّ ليُنظر إلى مخّ ساقيها ولمّا كانوا يُحبّون الخمر أخبرهم أنّ في الجنّة نهرًا من الخمر ولمّا كانوا يُحبّون العسل أخبرهم أنّ في الجنّة نهرًا من العسلٍ، وهكذا أنهار من لبن ولمّا كانوا يسكنون الخيام أخبرهم أنّ في الجنّة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها في السماء ستّون ميلًا ويُحبّون القصور ويُحبّون الطيور وهكذا جعل يُخيّل لهم فخوّفهم بالنّار وطمّعهم في الجنّة ويقولون ليس هناك ملائكة ولا جنّ وإنما هي قوى خيّر وشرّ.

ولفظ الرسول يُشعر بأنّ هنالك مُرسل وهو الله وقد خيّر الله نبيّه بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملك رسول فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، كما صحّ عن النبيّ من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧١٦٠)، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَنظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: «**إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ**»، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**».

وقوله: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) الصلاة من الله ذكره له في الملأ الأعلى والصلاة من الخلق الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[التوبة:١٠٣]، أي: ادع لهم وقال النبيّ لمّا جاء عبدالله بن أبي أوفى بالصدقة: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**»، من حديث عبدالله بن أبي أوفى عند البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٨٧)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ

﴿تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]، وفضل الصلاة على النبيّ عظيم ففي مسلم عن أبي هريرة (٤٠٨)، قال النبيّ : «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»، وعن كعب بن عجرة قال: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ فَقُلْتُ بَلَى فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قُولُوا: «اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»، رواه البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦)، والصلاة خاصّة بالنبيّ على ما بينّته في شرح السنّة للبربهاري .

وقوله: (وعلى آله) الآل يُطلق ويُراد به أهل الرجل ويُطلق ويُراد به أتباعه وقد اختلف العلماء في الآل هنا هل هم أتباع محمّد أم هم آل بيته؟ فذهب بعض أهل العلم إلى أنّهم آل بيته الذين حُرّموا الصدقة وهم آل عليّ وآل جعفر وآل العبّاس وآل عقيل كما في حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨)، قال عندما سأله حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

ومولى القوم منهم فيشمل تحريم الصدقة على مواليهم وعلى نسائهم كما في حديث أنس عند البخاري (٦٨٦١)، أنّ النَّبِيِّ قَالَ: «مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

والقول الثاني: أنّ آل الرجل هم أتباعه وهذا القول أيضًا صحيحٌ وعليه أدلّته وهو اختيار كثيرٍ من أهل العلم، حتّى قال نشوان الحميري:

آلُ النَّبِـــيِّ هُــــمُ أَتْبَــاعُ مِلَّتِــهِ مِنَ الْأَعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَرَبِ
لَـــوْ لَمْ يَكُـــنْ آلُـــهُ إِلَّا قَرَابَتَــهُ صَلَّى الْمُصَلِّي عَلَى الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

وبعض أهل العلم يُفصّل ويقول إذا ذُكر الآل والصحب فالمراد بالآل من حُرم الصدقة والمراد بالصحب من لقي النبيّ مؤمنًا به ومات على ذلك ولو تخلّلت ردّةٌ على الصحيح وهذا هو أحسن التعاريف في الصحابي.

وقوله: (وسلّم تسليمًا مزيدًا) هو دعاء بالسلامة وينبغي أن يُقرن بين الصلاة والسلام لأنّ الله أمر بهما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

بيان قوله :

أَمَّا بَعْدُ.

كلمة يؤتى بها للفصل بين الحمد والثناء في الخُطبة وبين ما بعدها وغالبًا ما يُؤتى بعدها بـ(الفاء)، وتقدير الجملة ومهما يكن من شيء بعد فإنّه كذا وقد اختلفوا في أول من قالها، فقال بعض العلماء هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود في قوله الله : ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾[ص:٢٠]، وقال بعضهم أوّل من قالها القس ابن ساعدة وقيل غير ذلك والذي يهمّنا أنّ النبيّ كان يقولها في خطبه ومواعظه وبوّب البخاري في صحيحه (باب قول الخطيب أمّا بعد) واستدلّ بحديث أبي أُسيد الساعدي قَالَ: اسْتَعْمَلَ

رَسُولُ اللهِ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا**» ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ**». رواه البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢).

وهكذا من حديث جابر عند مسلم (٨٦٧)، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**».

بيان قوله :

> فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

قوله: (فَهَذَا).

اسم إشارة يشير إلى ما في هذا الكتاب، من العقائد السلفية فهذا الذي سأذكره لكم في هذا الكتاب هو اعتقاد الفرقة الناجية.

قوله: (اعْتِقَادُ). مصدر اعتقد وأصله من (عقد الحبل) ثم استخدم في الاعتقاد الجازم.

قوله: (الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ).

هذه أوصاف أهل السنّة والجماعة فمن أسمائهم الفِرقة -بكسر الفاء- الناجية، ناجون من البدع وناجون من النّار إن شاء الله لحديث النبيّ :
«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ»، من حديث عوف بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، وجاء عن معاوية وله طرق يصحّ بها.

فالفِرقة يراد بها الطائفة قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢]، والفُرقة بالضمّ المراد بهم أهل البدع، فهم أهل الفُرقة والاختلاف ولا يكون الاعتقاد حقًّا إلّا أن يكون موافقًا لاعتقاد هذه الفِرقة.

وهم السواد الأعظم فعن سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الْأَزَارِقَةُ، قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ، لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ : «أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ»، قَالَ: قُلْتُ: الْأَزَارِقَةُ وَحْدَهُمْ أَمِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا؟ قَالَ: (بَلِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا). قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ يَدِي فَغَمَزَهَا بِيَدِهِ غَمْزَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: (وَيْحَكَ يَا ابْنَ جُمْهَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأْتِهِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعْلَمُ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعْهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعْلَمَ مِنْهُ). أخرجه أحمد (١٩٤١٥).

وهم الجماعة ووصفهم النبيّ أنّ الذين يُطيعهم أقلّ ممّن يعصيهم وهم نُزّاع من القبائل يصلحون إذا فسد الناس.

وقوله: (المنصورة) يدلّ عليها حديث معاوية في مسلم (١٠٣٧)، قال النبيّ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»، وفي بعض الروايات (منصورة)، وأخرج مسلم(١٩٢٠) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

قوله : «لا يضُرّهم من خالفهم ولا من خذلهم». المخالف لهذه الطائفة هم أهل البدع ومن إليهم سواء البدع المكفّرة أو المفسّقة ويدخل فيهم جميع المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم فهذا وعد رسول الله المبلّغ عن الله الذي لا خُلف له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]، فما زال أهل السنّة والحمد لله ظاهرون قاهرون لغيرهم مع كثرة المخالفين، بهم حفظ الله الدين وبه رُفِعوا، فالحمد لله ربّ العالمين.

وقوله : «ولا من خذلهم» إشارة إلى أنّ التخذيل قد يقع عليهم من داخل الصفّ السلفي، ومع ذلك هم منصورون.

تنبيه: السرورية ومن إليهم يُفرّقون بين الفِرقة الناجية والطائفة المنصورة فعندهم أهل السنّة السلفيّون هم الطائفة الناجية والنصر حليف الإخوان المسلمين والسروريين والجهاديين على حدّ تعبيرهم واصطلاحهم الذي صار عليه مثل سفر الحوالي وسلمان العودة ومن إليهم والصحيح أنّ الفِرقة الناجية

والطائفة المنصورة وأهل السنّة والجماعة وأهل الحديث وأهل الأثر كلّها أسماء لمسمّى واحد وهم أهل السنّة والجماعة أتباع النبيّ .

وفي البخاري(٣٦٤٠) ومسلم(١٩٢١) عَنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»، وفي صحيح مسلم (١٥٦) عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِاللهِ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، قَالَ: «**فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ**» وقد مرّ معنا أنّ سبب ظهور هذه الطائفة هو العلم والعمل، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[التوبة:٣٣]، وهذه الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية تُسمّى بأهل الحديث نسبة إلى حديث النبيّ حيث يتعبّدون لله به ويُسمّون بأهل السنّة نسبة إلى سنّة النبيّ كما أشار ويُسمّون بالجماعة نسبة إلى اجتماعهم على الحقّ والأخذ بما كان عليه الجماعة وهم الصحابة رضوان الله عليهم ويُسمّون بالسلفيين نسبة إلى السلف الصالح رضوان الله عليهم والسلف إذا أُطلق يدخل فيه الصحابة ابتداءً وذروتهم هو النبيّ ودليلها قوله : «**فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ**»، من حديث عائشة في البخاري (٦٢٨٥) ومسلم (٢٤٥٠)، وضدّ السلف الخَلَف وتأتي الخلف على المدح والذمّ فإذا قيل وهذه طريقة السلف والخلف فالمراد بالسلف المتقدّم والخلف المتأخّر من أهل السنّة الذين ساروا على سيرهم وإذا قيل هذا اعتقاد السلف الصالح وخالفهم الخلف فيكون المراد بالخلف

أهل البدع لكن إذا كانت بالتسكين الخلْف فلا يكون إلّا على الذمّ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم:٥٩].

قوله : «إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ» المراد به قرب قيام الساعة، قلنا ذلك لأنّ النبيّ يقول كما في حديث أنس عند مسلم (١٤٨): «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ اللهُ اللهُ»، وفي مسلم(١٩٢٤) عن عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيُّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُاللهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ، يَقُولُ: «لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»، فَقَالَ عَبْدُاللهِ: أَجَلْ، «ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»، وقال الرسول : «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُوعَلْقَمَةَ: مِثْقَالُ حَبَّةٍ، وَقَالَ عَبْدُالْعَزِيزِ: مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ»، من حديث أبي هريرة مسلم (١١٧)، فإذا جاءت الآيات العظام قبض الله المؤمنين ويرفع الله القرآن من المصاحف ومن صدور الرجال، قال النبيّ : «يُدْرَسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُدْرَسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ. وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ»، من حديث حذيفة بن اليمان عند ابن ماجه (٤٠٤٩).

قوله: (أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ). بدل من الفرقة، والسنة هي الطريقة، والمراد بها هنا طريقة رسول الله .

وقد اختلف الناس في معنى الجماعة على خمسة أقوال:

أحدها: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق.

وممن قال بهذا أبومسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان سئل أبومسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر.

وقال: إياك والفرقة، فإن الفرقة هي الضلالة.

وقال ابن مسعود: بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به، ثم قبض يده، وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة.

وعن الحسين قيل له: أبوبكر خليفة رسول الله ؟ فقال: أي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة.

فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا، وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة لم يدخلوا في سوادهم بحال.

والثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميته جاهلية؛ لأن جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ**» عن عبدالله بن عباس أخرجه الحاكم (١/ ١١٦). وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل، وهي تبع لها، فمعنى قوله: (لن تجتمع أمتي) لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.

وممن قال بهذا عبدالله بن المبارك وإسحاق بن راهوية وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، فقيل لعبدالله بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن يقتدي بهم؟ قال: أبوبكر وعمر فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال: أبوحمزة السكري.

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذ جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله سموه صوافي الأمراء، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق، وعن إسحاق بن راهوية نحو مما قال ابن المبارك.

والثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلًا، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ**» أخرجه مسلم (١٤٨) عن أنس ، وقوله: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**» أخرجه مسلم (٢٩٤٩) عن ابن مسعود ، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن من الأزمان أزمانًا يجتمعون فيها على ضلالة وكفر، قالوا: وممن قال بهذا القول عمر بن عبدالعزيز، فروى ابن وهب عن

مالك قال: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: سن رسول الله ﷺ وولاه الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيها! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خافها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك.

فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

والرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم، وهم الذين ضمن لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه.

قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة.

وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضًا ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر وفيه من المعنى ما في الأول من أنه لا بد من كون المجتهدين فيهم، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلًا فهم إذا الفرقة الناجية.

والخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم؛ لأن فراقهم لا يعدو إحدى حالتين، إما

للنكير عليهم في طاعة أميرهم والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين كالحرورية التي أمرت الأمة بقتالها، وسماها النبي مارقة من الدين، وإما لطلب إمارة من انعقاد البيعة لأمير الجماعة فإنه نكث عهد ونقض عهد بعد وجوبه، وقد قال : «**مَنْ جَاءَ إِلَى أُمَّتِي لِيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ**» عن عرفجة أخرجه مسلم (١٨٥٢). قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكور في الأحاديث المذكورة كالخوارج ومن جرى مجراهم. فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وأنهم المرادون بالأحاديث. قاله الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٠-٢٥٥).

وقد أمر رسول الله بلزوم الجماعة فصح عن الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣): «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ الله أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالجِهَادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ**».

وفي البخاري (٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧) عن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ**

مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**».

ثم إن أساس الجماعة هم أصحاب محمد وخلافهم ضلال وفساد قال الله : ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا**﴾[النساء:١١٥].

والمؤمنون هنا هم أصحاب محمد أزكى الناس عقولًا وأطهرهم قلوبًا، وأصفاهم معتقدًا فمن سلك غير سبيلهم جاهلًا زل، ومن تركه متعمدًا ضل، قال الله : ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ**﴾[التوبة:١٠٠].

وفي حديث أبي موسى عند مسلم (٢٥٣١) قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ العِشَاءَ قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «**مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ العِشَاءَ، قَالَ: «**أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ**» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى**

أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

وفي حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٠٠): «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ».

بيان قوله :

وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

هذه هي الأصول الستّة التي اتفقت عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام فجميع الرسل من نوح إلى أن ختم الله الرسالة بالنبيّ متّفقون على هذه الأصول الستّة وهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيوم الآخر، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلوه ومُرّه، قال الله : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧]، فهذه الآية تضمّنت خمس أصول والأصل السادس هو المذكور في قول الله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، وفي قول الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٣٦]، وقال : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥]. وفي حديث عمر قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإيمان، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، انفرد به مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطّاب وهو المشهور بحديث جبريل واتّفق عليه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧)، ومسلم (٨) و(٩) من حديث أبي هريرة ولفظه: كَانَ رَسُولُ اللهِ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلَا** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان:٣٤]» قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

• الأصل الأوّل: الإيمان بالله :

ويتضمّن هذا الأصل أربعة أركان لا يتمّ إيمان العبد بالله إلّا بها:

الأوّل: الإيمان بوجود الله ، وهذا دليله عقليٌّ وفطريٌّ ونقليٌّ.

أما العقلي: فقيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟

وأما الفطري: فالناس مفطورون على الإيمان بالله وأنّه هو خالقهم ورازقهم ومدبّرهم إلا من تغيرت فطرته وقد عُلِمَ ضرورةً حاجّة الناس إلى الخالق المالك المدبّر.

وأما النقلي: فهو كثير في الكتاب والسنّة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وكلّ ما سوى الله عالم.

الثاني: الإيمان بربوبيّة الله وهو أنّ الله هو الخالق، المالك، الرازق، المدبّر، كما قال : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، وقال : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

الثالث: الإيمان بألوهيّته وهي إفراد الله بأفعال المكلّفين، فلا يُعبدإلّا هو ولا يُذبح إلّا له، ولا يُنذر إلّا له، وبهذا أُرسل الرسل وأُنزل الكتب، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]، وقال تعالى مخبرًا عن كفّار قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:٣٥].

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته وسيتكلّم شيخ الإسلام في هذا المصنّف على هذا النوع من أركان الإيمان بالله .

• الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة:

وملائكة الله خلقٌ من خلقه خلقهم من نور كما في حديث عائشة قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، مسلم (٢٩٩٦).

وقوله: (مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) أي: في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٢-١٤] وقال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[الطارق:٦-٧].

والملائكة خلقٌ من خلق الله خلافًا لما يقوله الفلاسفة والعقلانيّون حيث يزعمون أنّ الملائكة قوى خير والصحيح أنّ الملائكة خلقٌ له أجنحة كما قال الله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[فاطر:١]، ولهم قُدرة عظيمة على التكيّف رزقهم الله إيّاها. وقد صح عن أمّ سلمة أنها رأت جبريل. ورآه غير واحد من الصحابة . وصحّ عن طلحة بن عبيدالله أنّه قال: رأيت عن يمين رسول الله وعن يساره يوم أُحد رجلين عليهما ثياب بيض لم أر أحسن منهما. والنبيّ يقول: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»، من حديث ابن مسعود عند أحمد (٤٣٩٦)، وقال : «رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، من حديث عائشة رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧)، ويقول : «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ

الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»، من حديث جابر بن عبدالله عند أبي داود (٤٧٢٨).

ويُطلق عليهم رجال لحديث سمرة عند البخاري (٧٠٤٧)، قال النبيّ : «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ**»، وفي لفظ (٣٢٣٦) قال النبي : «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالاَ الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ**». وللحديث السابق: رأيت عن يمين رسول الله رجلين. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وهم ذكورٌ ومن زعم أنّهم إناثٌ فقد كفر، قال الله : ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف:١٩]، حيث كان كفّار قريش يعتقدون -تعالى الله عن قولهم- أنّ الله يتزوّج بسروات الجنّ فتُنجب الملائكة وجعلوهم بنات الله تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، لم يكن له صاحبة ولا ولد، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٥٤-١٥٩]

ويكون الإيمان بما أخبرنا الله من أسمائهم كجبريل ، وإسرافيل وميكائيل ومالك خازن النار وملك الموت ولم يثبت أنّ اسمه عِزرائيل وهكذا

خازن الجنّة لم يثبت أنّ اسمه رضوان، ونؤمن أنّهم مكلّفون بأعمال كثيرة ذكرها الله في أوّل سورة الصافات حيث قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾[الصافات:١-٣]، وفي أوّل سورة المرسلات فقال: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفًا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرًا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقًا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾[المرسلات:١-٥]، وفي سورة النازعات: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقًا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾[النازعات:١-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾[المدثر:٣١]، وذكر النبيّ أنّه رأى ليلة أُسري به البيت المعمور ويدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك آخر ما عليهم وقد ذُكر أنّ مع كلّ قطرة ملك ينزل بها والله أعلم وهناك ملائكة موكّلون بالأرحام على ما في حديث عبدالله بن مسعود وحذيفة بن أسيد وأنس ، ولفظ ابن مسعود عند البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

وهناك ملائكة موكّلون بالقبر وبما فيه، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ قال: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ**

مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ» أخرجه الترمذي (١٠٧١).

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عند أحمد (١٨٥٣٤) قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَالْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»

قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَالْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ

الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللهُ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

والنبيّ كان إذا قام من الليل قال: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، من حديث عائشة عند مسلم (٧٧٠)، يتوسّل إلى

الله بربوبيّته لرؤساء الملائكة، فجبريل موكّل بحياة الأرواح، وميكائيل هو الموكّل بالقطر الذي به حياة الأبدان، وإسرافيل هو الموكّل بالنفخ في الصور للإماتة والإحياء ومنهم الكرام الكاتبين: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[الانفطار:١١]، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم:٦]، وخلقوا للطاعة قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨]، وقال النبيّ : «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، من حديث أبي سعيد عند أحمد (١١٦٩٦)، وقال النبيّ : «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ»، من حديث أبي ذرّ عند الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠).

• الأصل الثالث: الإيمان بالكتب:

كتب الله المنزّلة على رسله عليهم الصلاة والسلام كثيرة، قال الله : ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[الحديد:٢٥]، هذه الآية يُستدلّ بها العلماء على أنّ كتب الله كثيرة والمذكور منها الزبور

والتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وموسى والقرآن، فيجب علينا الإيمان بها جُملةً بأنّ لله كتبًا أنزلها إلى رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ونؤمن بأنّ التوراة والإنجيل وغير القرآن قد دخله التحريف والتبديل كما أخبر الله وإنّما الذي يجب علينا أن نؤمن به إجمالًا وتفصيلًا هو القرآن العظيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وهو الكتاب المحفوظ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩]، والمهيمن على غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]، وله أسماءٌ كثيرة ذكرها السيوطي في الاتقان وكل اسم يتضمن صفة من الصفات.

• الأصل الرابع: الإيمان بالرسل:

رسل الله كثيرة، قال الله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨]، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[النساء:١٦٣-١٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٨٣]، بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولًا. وقد صح عن أَبِي أُمَامَةَ عند الطبراني في الكبير (٧٥٤٥)، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ؟

قَالَ: «عَشَرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: كَمْ كَانَ بَيْنَ نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشَرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ كَانَتِ الرُّسُلُ؟ قَالَ: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ». وهو في الجامع الصحيح لشيخنا مقبل برقم(٢٢٨٨).

ومن كفر برسول واحد أو نبيّ واحد أو ملك واحد فقد كفر بهم جميعًا كما قال الله : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦]، ومن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام الإيمان بمحمّد وأنّهم خاتمهم وسيّدهم وأنّه صفوتهم وأنّه بُعث للناس كافّة والإيمان بما جاء به جملةً وتفصيلًا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤] على ما تقدّم، والحمد لله.

• الأصل الخامس: الإيمان بالبعث بعد الموت:

والعث في اللغة هو التحريك والإثارة وهو إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم قال الله : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس:٧٨-٧٩]، وفي هذه الآيات ذكر قدرته على الإعادة والإعادة أسهل من البداءة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٤٠]، وفي الحديث قال النبيّ : «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، من حديث عليّ عند أحمد (٧٥٨).

وقد أجمعت الرسل عليهم والسلام على ذكر البعث والنشور وعلى ذكر ما فيه ويدخل في الإيمان بالبعث الإيمان بأشراط الساعة الكبرى والإيمان بالصراط والميزان والحوض على ما يأتي بيانه في أواخر الكتاب.

• الأصل السادس: الإيمان بالقدر:

القدر من التقدير والقدر هو سرّ الله وعلم الله لم يُطلع عليه ملكًا مقرّبًا ولا نبيًّا مرسلًا والخير والشرّ من الله قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩] وقال رسول الله : «**كُلُّ شَيءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ**»، من حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥) ولا يبلغ العبدحقيقة الإيمان حتّى علم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وسيأتي الكلام على أغلب هذه الأركان في الكتاب وإنّما هذه إشارات.

بيان قوله :

وِمنَ الإيمانِ باللهِ.

(من) للتبعيض وقد مرّ بنا أنّ أركان الإيمان بالله أربعة وهي الإيمان بوجوده وإلوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

بيان قوله :

الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

طريقة أهل السنة في هذا الباب ما قرره شيخ الإسلام وغيره، قال في منهاج السنة (٢/ ٥٢٣): وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

الأول: أن الله تعالى منزه عن صفات النقص كالسِنة والنوم والعجز.

الثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات. اهـ

وأما المخالفون لطريقهم فكلهم على ضلال مبين، وطريق غير مستقيم وهم أقسام عدة، يبينه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، وهذه الأقسام مجموعة في:

القسم الأول: قول الجهمية والقرامطة ومن نحا نحوهم، وذلك أنهم يصفون الله بالسلوب على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا جاهل ولا عالم؛ لأنهم بزعمهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات ولا يخفى فساد قولهم.

القسم الثاني: طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات، فيقولون: ليس بعالم ليس بسميع ولا بصير، ثم يرجعون وينفون النفي فيقولون: ولا ليس بعالم ولا ليس بسميع ولا هو خارج العالم ولا هو داخله[(١)].

القسم الثالث: المعتزلة ومن وافقهم فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، فمنهم من جعل العليم والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات.

---

(١) (السلوب) أي بالصفات السلبية أي بالنفي، فالسلب هو النفي.

(والإضافات) هي الصفات الإضافية، والإضافة هي النسبة والشيء الإضافي هو الشيء النسبي، فهو ليس أمرًا وجوديًا بل أمر اعتباري معنوي، فالصفة الإضافية هي المعنى الذي لا يعقل إلا بوجود مقابل له، ومثال ذلك القبلية والبعدية والأبوة والبنوة، فالقبلية مثلًا ليست صفة ذاتية للشيء، بل صفة باعتبار ما بعده وكذا الأبوة فهي صفة باعتبار ابنه وإن كان هذا الأب ابنًا باعتبار أبيه، فهو اكتسب الصفة بالنسبة لغيره، وليست صفة ملازمة له كيده وطوله ولونه.

ويلاحظ أن هذه الصفات الإضافية لا وجود لها حقيقة، وإنما وجودها عقلي معنوي.

ومن الأمثلة التي تذكر لذلك تسمية الفلاسفة لله تعالى العلة الأولى، وهذا مثل تسمية المتكلمين لله تعالى بالقديم.

فكون الشيء علة يقتضي معلولًا، فالعلية صفة إضافية باعتبار وجود معلول، فهي صفة إضافية نسبية لا وجود لها حقيقة، بخلاف صفة الخلق واسم الخالق فالله تعالى هو الخالق اسمًا ووصفًا، ولو لم يوجد خلق فهو لم يكتسب هذه الصفة من شيء خارج عنه -وهو الخلق- كما تكتسب العلة وصف العلية باعتبار وجود المعلول، وكما يكتسب الأب وصف الأبوة بوجود ابن له.

وكل هذه الطوائف معطلة، ويدخل فيهم الأشاعرة، فهم يثبتون بعض الصفات، وينفون غيرها على ما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

القسم الرابع: أهل التمثيل وهم الذين يثبتون لله الصفات، ولكنهم يشبهونها بصفات المخلوقين رادّين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، فتعالى الله عن أقوال هذه الأقسام علوًا كبيرًا.

القسم الخامس: وهم أهل التجهيل، وهم من أشر أهل البدع كما قال شيخ الإسلام، وهم المفوضة الذين يثبتون ألفاظ الصفات كما وردت في الكتاب والسنة مع تفويضهم العلم بمعانيها إلى الله تعالى، فلا يعلم معناها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا أحد أبدًا.

ولازم قولهم أن الله خاطبنا بكلام لا نعرف معناه، والله يقول: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت:١-٣].

وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١]، ويُجهِّلون رسول الله وأصحابه الكرام وأنهم لم يعرفوا مراد الله إلى غير ذلك، أو أنهم عرفوا ثم كتموا، وكلا القولين ضلال مبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك الحق المبين.

الشبه التي أوصلت المبتدعة إلى التعطيل والتمثيل والرد عليها

الرد على أنواع أهل البدع في هذا الباب:

إن أهل الزيغ والضلال قد تخبطوا وخلطوا في هذا الباب وغيره غاية التخليط والتخبيط، بل تجد العجب العجاب من تناقضاتهم، فيفرون من شيء فيقعون في شرٍ منه، وسنناقش بإذن الله تعالى هذا التناقض باختصار غير مخل، فالله يوفق ويسدد.

الرد على الجهمية:

تقدم معتقد الجهمية في الأسماء والصفات، وأنهم انقسموا إلى قسمين:

قسمٌ منهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل.

وقسم يصفونه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

معنى قولهم أنهم يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل، أي كقولهم: ليس بمستوي على عرشه، ولا يغضب، ولا يحب، ولا ينزل... إلى غير ذلك، وهذا خلاف معتقد السلف، فإن طريقة الرسل وأتباعهم هو الإثبات المفصل: تقول سميع بصير حي مريد... إلى غير ذلك، والنفي المجمل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤].

وأما قولهم بإثبات الوجود المطلق، فمعناه أن الوجود المطلق هو المجرد عن جميع الصفات، وهذا الوجود لا حقيقة له إلا في الذهن، وليس له وجود

خارجي بتاتًا؛ لأن الذات لا تتحقق بلا صفة أصلًا، كمن يقول: أثبت نخلة لا جذع لها ولا ساق ولا ليف ولا غير ذلك.

قال شيخ الإسلام في التدمرية بعد ذكر قولهم السابق (ص١٥-١٦): فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين، فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم -بزعمهم- إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات، فسلبوا عنه النقيضين، وهذا ممتنع في بدائه العقول، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب، وما جاء به الرسول ، ووقعوا في شر مما فروا منه، فإنهم شبّهوه بالممتنعات. اهـ

ولتعلم أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد، بل يلزم من ثبوت أحدهما عدم الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر.

وأما قول أصحاب القسم الثاني، الذين يصفونه بالسلوب والإضافات، فالسلوب جمع سلب، والسلب هو النفي، وذلك مثل قولهم: إن الله ليس بجسم ولا عرض ولا متحيز.

والإضافات: هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل مقابله، مثل قولهم: إن الله مبدأ الكائنات وعلة الموجودات، أي أنه لا تعقل العلة إلا بمعلولها، ولا المعلول إلا بعلته، ومن أمثلة الأمور المتضايفة الأبوة والبنوة، فلا تعقل الأبوة إلا ببنوة ولا بنوة إلا بأبوة.

وقولهم: دون صفات الإثبات، أي أن الله تعالى مجرد عن الصفات الثبوتية ليس له حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام.

قوله: (وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق)، يعني أن وجود الله مشروط بسلب كل أمر ثبوتي وعدمي، أو بسلب الأمور الثبوتية كما قال بعضهم، أفاده صاحب «التحفة المهدية» (٥٢).

قال شيخ الإسلام في «التدمرية» (ص١٧): وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات، وجعلوا الصفة هي الموصوف، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة. اهـ

شبهة الجهمي والرد عليها:

ويقال لهذا الجهمي: لماذا تنفي الأسماء والصفات؟ فسيقول: لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم القدير.

قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي ولا عليم ولا قدير كان ذلك تشبيهًا بالمعدومات، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات؟

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات؟ قيل له: فيلزمك التشبيه بالممتنعات، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودًا معدومًا أو لا موجود ولا معدوم. اهـ «التدمرية» (ص٣٦).

الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات:

فهم انقسموا إلى قسمين كما بين ذلك شيخ الإسلام في التدمرية قسم جعلوا أسماء الله كالأعلام المحضة المترادفات -أي الأعلام الخالصة الخالية من الدلالة على شيء آخر- والمترادفات على ذات واحدة.

وقسم قالوا: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنته من الصفات. اهـ بزيادة.

وهؤلاء عطلوا الله مما يختص به فرارًا من التشبيه فوقعوا في شرٍ منه - أي التشبيه بالمعدومات والممتنعات- مع ما يلزمهم من التحريفات والتعطيلات.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص٢٠): وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو واجب قديم بنفسه -أي خالق وهو الله تعالى- وما هو محدث ممكن -أي مخلوق- يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه... فلا يقول عاقل: (العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود)، إن هذا هو هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود...

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به، إذا أضيفت إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من تماثل الاسمين تماثل مسماهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص...

فقد سمى الله نفسه حيًّا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥، آل عمران:٢]، وسمى بعض عباده حيًّا، فقال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾[الروم:١٩]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي؛ ثم استطرد في ذكر بعض ما سمى الله به نفسه وسمى به بعض مخلوقاته والخالق منزه عن مشابهة المخلوق.

شبهة المعتزلي والرد عليها:

ويقال للمعتزلي الذي يثبت الأسماء وينفي الصفات، ما ذكره شيخ الإسلام في التدمرية (ص٣٥): لا فرق بين إثبات الأسماء وبين إثبات الصفات، فإنك إن قلت: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهًا وتجسيمًا لأننا لا نجد في الشاهد متصفًا بالصفات إلا ما هو جسم؟

قيل له: ولا تجد في الشاهد مسمى بأنه حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت الصفات لكونه لا يوجد في الشاهد إلا ما هو جسم فانف الأسماء، بل وكل شيء؛ لأنك لا تجد في الشاهد إلا ما هو جسم. اهـ

وإن قال المعتزلة: إثبات العلم والقدرة والإرادة يستلزم تعدد الصفات، وهذا تركيب ممتنع.

قيل: وإذا قلتم أنه موجود واجب وعقل وعاقل ومعقول، أفليس المفهوم من هذا هو المفهوم من هذا، فهذه معاني متعددة متغايرة في العقل، وهذا تركيب عندكم؟

فإن قالوا: هذا توحيد في الحقيقة وليس تركيبًا ممتنعًا.

قيل: واتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيدًا في الحقيقة، وليس هو تركيبًا ممتنعًا.

القول في الصفات كالقول في الذات

وكذلك من الرد عليهم: أن القول في الصفات كالقول في الذات، فإذا أثبت لله ذاتًا حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات سائر الذوات.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٢/٧٢٨): ومن ذلك خروجهم عن صريح العقل في قولهم: إن الرب عالم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، حيٌّ بلا حياة، فأنكر عليهم ذلك طوائف العقلاء. اهـ

الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط:

من المعلوم أن الأشاعرة ومن وافقهم يثبتون سبع صفات جمعها أحدهم نظمًا:

حَيٌّ مُرِيدٌ قَادِرٌ عَلَّامُ   لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ

ويقولون هذه الصفات دل عليها العقل، فيجعلونها حقيقة، ثم ينازعون في المحبة والرضا والسخط ويفسرونها إما بالإرادة أو ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: القول في بعض الصفات كالقول في بعض؟

فإن قلت: له إرادة كإرادة المخلوقين، فكذلك محبته وغضبه وهذا هو التمثيل بعينه، وإن قال له: إرادة تليق به، قيل له: وكذلك له محبة تليق به.

فإن قال: الغضب غليان الدم في القلب لطلب الانتقام؟ قيل له: الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ودفع مضرة.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق؟ قيل له: هذا غضب المخلوق.

فإن قال: هذه الصفات السبع إثباتها بالعقل؛ لأن الحادث دل على قدرة والتخصيص دل على الإرادة والإحكام دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو من السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك؟

قيل له: لك جوابان:

الأول: افرض أن العقل لم يدل عليها، فقد دل عليها دليل آخر وهو الكتاب والسنة، وانتفاء الدليل لا يلزم منه انتفاء المدلول.

الثاني: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك -أي العقل- فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة وإكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم؟ وهكذا دوليك.

الرد على الممثلة:

أقسام الممثلة:

الأول: من شبه ذات الرب بذات المخلوق، ومن أمثلة هذه السبئية والهاشمية.

السبئية: هم الذين قالوا إن عليًّا إله، وشبهوه بذات الله.

والهاشمية: هم أتباع هشام بن الحكم -لعنه الله- الذي قال: إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه، تعالى الله عن هذا البهتان علوًّا كبيرًا.

الثاني: من شبه صفات رب العالمين بصفات غيره من المخلوقات، وضلال مذهبهم ظاهر البطلان، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، اهـ من القواعد الكلية (ص٤٣-٤٤).

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦٤): فليس فيها (أي النصوص والآثار) أن صفة المخلوق هي صفة الخالق، بل ولا مثلها، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. اهـ

وقال في (٥/ ٣٢٥): فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما؛ إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات. اهـ

وقال (٣/ ٨٧): فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى، ووجب لها ما وجب للأخرى، فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة، وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة. اهـ بتصرف.

فعُلم من هذا أن الله تعالى مُتصف بالكمال المقدس من كل وجه، وقد تقدم معنا أن المثبت لا بد أن يتخلى من محضوري التكييف والتمثيل، لأن من أثبت المثل لله تعالى فقد وصفه بالنقص وعطله من كماله المقدس، ثم عطل أدلة الأسماء والصفات مما دلت عليه من الكمال، ولهذا قيل كل ممثل معطل.

ثم من المحال أن يكون القيوم الصمد مماثلًا للمخلوق المحتاج الناقص.

الرد على أهل التفويض:

سماهم ابن القيم أهل التجهيل؛ لأنهم جهلوا السلف والأنبياء رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال في الصواعق المرسلة (٢/ ٤٢٢): الصنف الثالث أهل التجهيل الذين قالوا نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله بها، ولكن نقرها ألفاظًا لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلًا لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم:١]، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾[الشورى:١-٢]، ﴿الٓمٓصٓ﴾[الأعراف:١]... إلى أن قال: وبنوا هذا المذهب على أصلين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

الثاني: أن للمتشابه تأويلًا لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين تجهيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، ويروون: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، ولا يعرفون معنى ذلك.

ولازم قولهم: أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض، فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلًا ويقولون تجري على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا.

فهؤلاء غلطوا في المتشابه وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، فأخطئوا في المقدمات الثلاث. اهـ

ومن الأدلة على بيان فساد منهجهم قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٨]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:١٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى واصفًا القرآن بأنه عربي، والكلام العربي يُعقل ويعرف المراد منه، قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

وقد دلت النصوص على تيسير القرآن للناس حتى يفهموه ويعقلوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:١٧،٢٢،٣٢،٤٠].

وأمر بالتدبر سبحانه، وإنما يكون التدبر لما يعقل ويفهم، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ

عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]، إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

وكذلك كثرة الآيات الدالة على إثبات الصفات، ولم يرد في حرف واحد أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا عن معانيها، أو ما المراد بها؛ لأنهم فقهوا قول الله ومراد الله .

ويستحال عقلًا أن النبي الذي علمنا كل شيء حتى الخرءاة كما قال سلمان ، وترك هذا الباب بدون بيان، وهو القائل: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَـهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَـهُمْ**».

وعلم الأسماء والصفات هو أشرف العلوم، فمن المحال أنهم لا يعرفون معاني الآيات ورسول الله بين أظهرهم لا يسألونه ولا يعلمهم، وقد تقدم النقل عن ابن القيم في بيان تناقض مذهبهم، وما هذا إلا لبطلانه وفساده.

هذه الجملة تضمّنت معتقد أهل السنّة في باب الأسماء والصفات، وقد تناقلها علماء أهل السنة قاطبة وقد أمر الله بالإيمان بالكتاب، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[النساء:١٣٦]، ويدخل في الإيمان بالله والرسول والكتاب الإيمان بكلّ ما أخبر الله به وبما أخبر به رسوله وما تضمّنه القرآن ويدخل في ذلك الإيمان بالأسماء والصفات وما جاء عن رسول الله كما جاء عن الله من حيث الحُجّيّة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]، ومنه أسماء الله وصفاته قال الله : ﴿وَمَا

يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، وفي هذه القاعدة من الفوائد العظيمة أنّ باب الأسماء والصفات توقيفي لا مجال للعقل فيه وإنّما يُتلقّى من الكتاب والسنّة والدليل على ذلك قول الله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء:٣٦]، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣]، ولا يعرف كيف هو إلّا هو فلا تُتلقّى أسماء الله وصفاته إلّا من كتاب الله وسنّة نبيّه وهنا إشارة للمسلم إلى ما يجب سلوكه في هذا الباب وهو الجمع بين النفي والإثبات فيُثبت لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله مع الحذر من أمرين حال الإثبات ومن أمرين حال النفي، أمّا حال الإثبات فالتمثيل والتكييف وكلاهما كفر فمن مثّل الله بخلقه كفر، فمن زعم مثلا أنّ وجه الله كوجه المخلوق فهو كافر بالله العظيم ومن كيّف صفات الله فقد كفر لأنّه يقول على الله بغير علم ولأنّ الإنسان مهما تخيّل الكمال لله فعقله عاجزٌ وناقص لا يمكن أن يثبت لله الكمال المقدّس، لأنّ قدرة العقل محدودة ولهذا جاء في الأثر (تفكّروا في مخلوقات الله ولا تتفكّروا في الله)، وأيضًا عند تنزيه الله من مشابهة ومماثلة المخلوقين كن على حذر من التحريف والتعطيل.

التحريف: لغة هو التغيير والتبديل والإمالة قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦].

وينقسم التحريف إلى قسمين:

تحريف لفظي، وتحريف معنوي.

وغالبًا ما ينتج عن التحريف اللفظي التحريف المعنوي، فمثلًا جاء رجل إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: (يا أبا عمرو اقرأ: وكلّم اللهَ موسى)، وسيكون المعنى؟ أنّ الله هو المُكلَّم وأنّ موسى هو المُتكلِّم، وهكذا قال المبتدعة في قول الله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، قالوا استولى فزادوا (اللام) فهذا التحريف اللفظي أدّى إلى التحريف المعنوي وهو تعطيل الله من صفة الاستواء وأمّا التحريف المعنوي فقد لا يكون باللفظ لكن تقول له: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، قال المراد باليد النعمة، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]، قالوا المراد بالوجه الإحسان، فيُحرّفون الكلم عن مواضعه.

التعطيل: التعطيل في اللغة مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾[الحج:٤٥]، أي أهملها أهلها وتركوا وردها.

وهو في الاصطلاح تعطيل الله من أسمائه وصفاته أو تعطيل أسمائه عمّا تتضمّن من الصفات وتعطيل الأدلّة عمّا تدلّ عليه من المعاني الجليلة العظيمة اللائقة بالله تعالى. والتعطيل في حق الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعطيل مصنوع عن صانعه وخالقه، وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون، مثل تعطيل الإشتراكيين والطبائعيين ومن إليهم من الملحدين.

القسم الثاني: ما يجب له من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة، وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئًا من العبادة لغير الله .

القسم الثالث: تعطيل الله عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله، وهذا القسم هو المراد هنا.

التمثيل: التمثيل والتشبيه بمعنى واحد في هذا الباب، وإن كان بينهما فروق عند أهل اللغة.

فالمماثلة هي: المساواة من كل وجه.

والمشابهة هي: مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه، والأولى التعبير بنفي التمثيل لمجئ القرآن به.

ولهذا لم يقل ولا تشبيه ولأنّ التمثيل جاء بنفيه القرآن قال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[النحل:٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ثمّ إنّ التمثيل هو المساواة من كلّ وجه والتشبيه يطلقه المبتدعة على كلّ من أثبت لله الأسماء والصفات.

التكييف: التكييف من (كيّف، يُكيّف، تكييفًا)، أي يجعل للصفة كيفيّة معلومة، وهو حكاية كيفية الصفة من غير أن يقيدها بمماثل.

بينما التمثيل: هو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والتكييف أعم من التمثيل، فكل تمثيل تكييف؛ لأن من مثل صفات الخالق بصفات المخلوقين فقد كيَّف تلك الصفة.

وليس كل تكييف تمثيل؛ لأن من التكييف ما ليس فيه تمثيل مثل قولهم: طوله كعرضه.

ومعنى قول أهل السنة: من غير تكييف: أي من غير تكييف يعقله البشر، وليس المراد أنهم ينفون الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لا بد أن يكون له كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

فأهل السنّة يفوّضون معرفة الكيف ويُثبتون المعاني والمفوّضة يفوّضون المعاني والكيف وهم ضالّون مبتدعون مخطئون وأهل السنّة موفّقون مسدّدون مصيبون، وكيفية الصفة لا تُعلم إلّا بثلاثة أمور:

الأوّل: النظر إلى الصفة.

الثاني: النظر إلى مثيلها.

الثالث: إخبار من رآها عنها، وكلّ هذا منتفي في حقّ الله تعالى.

بيان قوله :

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

أي: طريقة أهل السنّة الإيمان بأنّ الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله معظّمين الله المتصف بصفات الجمال والجلال والكمال والعظمة معتمدين في إثباتهم ونفيهم على هذه الآية العظيمة التي هي عُمدة في الباب فجمعت بين النفي والإثبات فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]،

ردٌّ على الممثّلة والمكيّفة وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ردٌّ على المعطّلة من الجهمية والمعتزلة الذين يزعمون أنّ الله لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلّم إلى غير ذلك، وفيها إشارة إلى الجمع بين النفي والإثبات على ما تقدّم وفيها وجوب الأخذ بدلالة الآية جميعًا فالمعطّلة أخذوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعطّلوا الله من صفاته والممثّلة أخذوا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فمثّلوا الله بخلقه وأهل السنّة أثبتوا له صفات تليق بجلاله .

وقد اختلف المفسّرون في (الكاف) في هذه الآية، فقال بعضهم هي صلة وتوكيد، ويكون تقدير العبارة (ليس مثله شيءٌ)، وقال بعضهم هي داخلة على محذوف وهو (ليس مثل مثله شيء)، فلو قُدّر لله مثيل فليس كمثل مثله شيء فكيف بالله ؟ وقالوا غير ذلك.

والصحيح أنّها صلة وتوكيد كقول الشاعر:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ   خُلُقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

أي ليس مثل زهير أحدٌ يوازيه في الفضائل فالمراد هنا بـ(ليس كمثله شيء) أي ليس مثل الله شيء.

تلخّص أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، عمدة في هذا الباب، المعطّلة يستدلّون بالشطر الأوّل منها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فيقولون الله ليس له صفات، والممثّلة يستدلّون بالشطر الثاني منها: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فيقولون يسمع كسمعنا ويبصر كبصرنا، أهل السنّة يستدلّون بها جميعا فوُفّقوا إلى سواء السبيل، فالله موصوف بصفات الكمال والجلال وهو منزّه عن مماثلة المخلوقين.

قال في أضواء البيان : قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾[الأعراف:٥٤] الآية.

هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[الفتح:١٠] ونحو ذلك. أشكلت على كثير من الناس إشكالًا ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى تعطيل وقوم إلى التشبيه - سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا عن ذلك كله - والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم عن ذلك علوًا كبيرًا.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله . لأنه لا يصف الله اعلم بالله من الله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[البقرة:١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤] فمن نفى عن الله وصفًا أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله زاعمًا أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا. ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾[النور:١٦].

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه

عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا: هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] فنفى عن نفسه جل وعلا مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ دون أن يقول مثلًا: وهو العلي العظيم أو نحو ذلك من الصفات الجامعة أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات. فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى، وبين صفات خلقه. ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة. انتهى

بيان قوله :

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ: مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

لأنّ نفي ما وصف الله به نفسه ردٌّ للقرآن والسنّة والواجب علينا تصديق خبر الله وخبر رسوله وهنا قاعدة عند العلماء وهي أنّ الخبر إذا توفّر فيه ثلاثة أمور وجب قبوله:

- **الأوّل**: صدق المخبر.
- **الثاني**: بيان المخبر.
- **الثالث**: علم المخبر.

والله : ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩]، وهو أصدق قيلًا وأحسن حديثًا قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء:٨٧]، فلا يتردّد في قبول خبره إلّا من سفه نفسه، قال الله : ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠]، وأيضًا النبيّ أصدق حديثًا من غيره من البشر وكان يُسمّى بالصادق الأمين وأعلم بالله من غيره لأنّ الله أوحى إليه، قال الله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[الحشر:٧]، وأيضًا قال : «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)، فهو أفصح من نطق بالضاد كما يقال، أفصح البشر ومن خصائصه على بقيّة الأنبياء فضلًا عن غيرهم أنّ الله بعثه بجوامع الكلم وهي الكلمة المختصرة التي تدلّ على معاني عظيمة ومنها حديث سفيان بن عبدالله عند مسلم (٣٨)، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: بَعْدَكَ - قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ».

فهذه الكلمة تشتمل على الإيمان والدين كلّه وفيها الحثّ على الاستمرار والثبات عليه وفيها الحذر من الزيغ والانحراف وفيها وجوب الاستمرار على الطاعات إلى غير ذلك من المعاني التي إذا أردنا أن نتوسّع فيها لخرجنا عن المقصود، وأيضًا جاء رجل إلى الرسول فقال: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، من حديث أبي هريرة رواه البخاري (٦١١٦)

واللفظ له، والترمذي (٢٠٢٠)، وأحمد (٨٧٤٤)، فقال الراوي: فنظرنا فإذا الغضب يحوي ذلك كلّه، كلّ بلاء سببه الغضب لغير الله ، وهكذا قال النبيّ : «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»، من حديث جابر أخرجه البخاري (٦٠٢١)، وعن عبدالله بن يزيد الخطمي عند أحمد (١٨٧٤١)، وأعرف المعروف لا إله إلّا الله وأدناه إزالة الأذى عن الطريق، إذًا الدين كلّه داخل في هذا الحديث، زد على ذلك أنّ النبيّ أنصح الناس للناس فلا يتردّد في قبول خبره إلّا سفيه رادٌّ لخبر الله ولخبر رسوله وكذلك رادٌّ لأمر الله ولأمر رسوله ، فإذا علمنا هذا فلا يجوز أن ننفي عن الله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله .

فكيف يُخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، ثمّ يقول هذا المعطّل ليس له يدان، نعوذ بالله من الخذلان.

بيان قوله :

وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

ومن طريقة أهل السنة أنهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه كما هو صنيع المعتزلة والجهمية ومن إليهم وتحريف الكلام عن مواضعه طريقة يهوديّة لا طريقة إسلامية، أمّا المسلمون فقد وصفهم الله في قوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥]، وأمّا اليهود فقد قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾[المائدة:١٣]، فالخيانة وتحريف الكلم وتبديل الحقّ ولبس الحقّ بالباطل دين اليهود والنصارى قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٧١]، والتحريف هو الميل،

حرف الشيء أي أماله فيُحرّفون كلام الله عن دلالته الحقّة إلى دلالة باطلة على ما يأتي في باب الصفات فحين يقرءون قول الله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، يقولون بل نعمتاه، ويقولون بل قوّتاه، ويقولون بل قدرته، وهذا سيأتي فساده في كلامنا على صفة اليدين بإذن الله ، فأهل السنّة لا يُحرّفون الكلم عن مواضعه، أثبت الله له وجهًا نثبت له وجهًا، أثبت له سمعًا وبصرًا نثبت له سمعًا وبصرًا، أثبت له قدرةً وإرادةً نثبت له قدرةً وإرادةً، وهكذا.

بيان قوله :

وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ.

(ل ح د) تأتي بمعنى الإمالة ومنه لحد القبر فاللحد هو الشقّ الذي يُدخل به إلى داخل القبر إلى جهة القبلة وقال النبيّ : «اللَّحْدُ لَنَا وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا»، من حديث ابن عبّاس عند أبي داود (٣٢٠٨)، الترمذي (١٠٤٥)، النسائي (٢٠٠٩)، ابن ماجه (١٥٥٤)، ولمّا قُبر النبيّ لُحد له حتّى قال سعد بن أبي وقّاص : «الحَدُوا لِي لَحْدًا، وَانْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبِنَ نَصْبًا، كَمَا صُنِعَ بِرَسُولِ اللهِ »، رواه مسلم (٩٦٦)، فالإلحاد في آيات الله هو الميل بها عن دلالتها إلى غير ذلك وهو أنواع تُجمل فيما يأتي:

النوع الأوّل: إلحاد الجهميّة وهو تعطيل الله من أسمائه وصفاته فلا يُسمّون الله ولا يصفونه ويقولون إنّ الأسماء التي هي لله هي أسماء لمخلوقاته، وإنما هي مجاز في حق الله تعالى.

❁ **النوع الثاني**: إلحاد المعتزلة وهم يؤمنون بالأسماء ويقولون نحن نؤمن بأسماء الله: (الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدّوس، العليم...)، لكن هذه الأسماء لا تتضمّن صفات ولا تدلّ على شيء من المعاني وإنّما هي كالأسماء المجرّدة وهذا إلحاد لأنّ كلّ اسم من أسماء الله يتضمّن صفة كمال ومدح ولهذا قال الله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠].

❁ **النوع الثالث**: إلحاد الأشاعرة وهم يُثبتون الأسماء وسبع صفات ويُعطّلون بقيّة الصفات لا سيّما صفات الأفعال وصفات الأخبار فيقولون:

حَـيٌّ، مُرِيـدٌ، قَـادِرٌ، عَـلَّامُ لَـهُ الـسَّمْعُ وَالْبَـصَرُ وَالْكَـلَامُ

قالوا هذه الصفات السبع دلّ عليها العقل فيقولون وجود المخلوقات يدلّ على القدرة والتخصيص دلّ على الإرادة والاتقان دلّ على العلم وهذه الصفات تدلّ على الحياة والحيّ إمّا أن يكون سميعًا بصيرًا متكلّمًا أو العكس، وإذا قلت لهم الله يرضى، يُحبّ، يسخط، في العلوّ قالوا لا، هذه عندهم لا يدلّ عليها العقل مع أنّ العقل دالٌّ عليها وهي ثابتة بأدلّة الكتاب والسنّة فإن خالف العقل الكتاب والسنّة فهو للوثٍ ولمرضٍ فيه، وأمّا العقل الصحيح كما قال شيخ الإسلام : (لا يناقض النقل الصحيح).

❁ **النوع الرابع**: إلحاد الممثّلة وهم الذين يقولون لله صفات، نؤمن أنّ لله صفة السمع، واليد، والبصر، والقدرة، والوجه، والأصابع، وغير ذلك ممّا ذكره الله في كتابه والنبيّ في سنّته إلّا أنّنا لا نعرف سمعًا إلّا كسمع المخلوق، ولا بصرًا إلّا كبصر المخلوق، ولا يدًا إلّا كيد المخلوق، وهذا إلحادٌ لأنّهم مثّلوا الله الكامل من كلّ وجه بالمخلوق الناقص.

النوع الخامس: إلحاد المشركين الكفّار الذين يشتقّون لآلهتهم أسماءً من أسماء الله كما صنع كفّار قريش حين سمّوا اللات واشتقّوه من اسم الإله، ومناة من المنّان، والعُزّى من العزيز.

النوع السادس: إلحاد النصارى والصوفية ومن إليهم الذين يُسمّون الله بما لم يُسمّ به نفسه، فيُسمّونه بالأب والابن والعلّة الفاعلة والعشق والعاشق واللذّة وهكذا، وهذا إلحادٌ لأنّهم يُسمّون الله بأسماء لم تأت في الكتاب والسنّة وفيه قلّة أدب مع الله مع ما يؤدّي إليه من المعاني الباطلة.

النوع السابع: إلحاد المفوّضة وهم الذين يقولون بأن آدلة الأسماء والصفات ليست لها معاني على ما تقدم.

والإلحاد جناية عظيمة في حقّ ، قال : ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠]، وآيات الله منها الكوني والشرعي فالإلحاد في الآيات الكونيّة يكون بدعوى أنّ مع الله معين أو ظهير أو شريك والإلحاد في الآيات الشرعيّة يكون بالتكذيب والتحريف والردّ وغير ذلك فنسأل الله أن يرزقنا القبول والانقياد.

بيان قوله :

> ولا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ.

فيه أن أهل السنّة يُثبتون لله ما يليق بجلاله ولا يقولون إنّ صفات الله كصفات المخلوقين لأنّ الله يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾[الشورى:١١]، ويقول: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤].

قال الطبري : والكُفُؤُ والكُفَى والكِفَاء في كلام العرب واحد، وهو المِثْل والشِّبْه، ومنه قول نابغة بني ذُبيان:

لَا تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ ... وَلَوْ تَأَثَّفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرِّفَدِ

يعني: لا كِفَاء له: لا مثل له. انتهى

ويقول : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[مريم:٦٥]، وهذا استفهام إنكاري وضابطه أنه بمعنى حرف النفي، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلا أو شبها.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾[البقرة:٢٢]، قال أبوجعفر الطبري: والأنداد جمع نِدّ، والنِّدّ: العِدْلُ والمِثل، كما قال حسان بن ثابت:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني بقوله: (ولستَ له بند)، لست له بمثْلٍ ولا عِدْلٍ. وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا فهو له ند. انتهى وهذه العبارات الثلاث (لا كفؤ، ولا سميّ ولا ندّ له) معانيها متقاربة.

وقَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ.. إلخ) تعليل لقوله عن أهل السنة لا يمثلون على ما تقدم.

بيان قوله :

وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ .

قال الخطيب في الفقيه والمتفقه : القياس على ضربين: ضرب منه في التوحيد، وضرب في أحكام الشريعة: فالقياس في التوحيد على ضربين: ضرب هو القياس الصحيح وهو: ما استدل به على معرفة الصانع تعالى وتوحيده، والإيمان بالغيب، والكتب، وتصديق الرسل، فهذا قياس محمود فاعله، مذموم تاركه والضرب الثاني من القياس في التوحيد: هو القياس المذموم الذي يؤدي إلى البدع والإلحاد، نحو تشبيه الخالق بالخلق، وتشبيه صفاته بصفات المخلوقين، ودفع قايسه ما أثبت الله تعالى لنفسه، ووصفته به رسله مما ينفيه القياس بفعله وأما الضرب الثاني من الأصل وهو المتعلق بأحكام الشريعة فهو على وجهين أيضًا: أحدهما: قياس الشيء على نظيره وشبيهه، فذلك محمود والآخر: قياسه على غير نظيره وشبيهه، فذلك مذموم. انتهى

وقال ابن عبدالبر في جامع بيان العلم : لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة، وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد وإثباته في الأحكام إلا داود بن علي بن خلف الأصفهاني ثم البغدادي ومن قال بقولهم، فإنهم نفوا القياس في التوحيد والأحكام جميعا، وأما أهل البدع فعلى قولين في هذا الباب سوى القولين المذكورين، منهم من أثبت القياس في التوحيد والأحكام جميعا، ومنهم من أثبته في التوحيد ونفاه في الأحكام. انتهى

والقياس في باب التوحيد **ثلاثة أقسام**:

١) قياس الأولى: ومضمونة كل كمال ثبت للمخلوق وجاز أن يتصف الله به؛ فالله أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، فالخالق أحق بالتنزه عنه.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٢/ ٣٥٠): ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية قياس الأولى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠]، إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه. اهـ

٢) قياس التمثيل: وهو القياس الذي يستوي فيه الأصل والفرع والله منزه عن هذا بل هذا النوع من الأقيسة في حقه كفر وضلال؛ لأن من مثل الله بخلقه كفر.

٣) قياس الشمول: وهو الذي تستوي أفراده وضابطه عندهم الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي، وهذا قياس باطل وضلال وكفر؛ لأنه يؤدي إلى مماثلة الخالق بالمخلوق.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ٢٠٠): ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الرب وله المثل الأعلى، فكل كمال حصل للمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق أن ينزه عنه؛ ولهذا كان لله المثل الأعلى، فإنه لا يقاس بخلقه ولا يمثل بهم، ولا تضرب

له الأمثال. فلا يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل بمثل؛ ولا في قياس شمول تستوي أفراده، بل: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[الروم:٢٧]. اهـ

فالواجب على المسلمين أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل مع إثبات الكمال المقدس لله، وسيأتي بيان مذهب السلف الصالح في هذا الباب إن شاء الله تعالى. فكما أن القياس محرم في باب التوحيد والعقائد، ولا يجوز كذلك رد الأدلة بالأقيسة الفاسدة، فلا يجوز كذلك ضرب الأمثال الباطلة المخالفة للأدلة والتي تؤدي إلى ترك الحق والسنة، فما جاءك من أمر الله وأمر رسول الله فخذه واعمل به على ما جاء، سواء كان اعتقادًا، أو عملًا، من غير اتباع الهوى وضرب الأمثال الباطلة؛ فإن اتباع الأهواء سبب للضلال.

بيان قوله :

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.

بيان وتعليل لصحة طريقة السلف في هذا الباب وغيره، حيث أخذوا العلوم من الكتاب والسنة، ومعلوم أن الوحي من الله تعالى، وهو أعلم بنفسه وبغيره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩]، وهو تعالى أصدق قيلا، وأحسن حديثا قال : ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[النساء:١٢٢]، وقال : ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء:٨٧]، وهذا بيان من المصنف إلى وجوب قبول خبر الله تعالى.

بيان قوله :

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ [مُصَدَّقُونَ][1].

أي صادقون في أنفسهم، مصدوقون من ربّهم ومليكهم.

قال الهراس:

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا تَقْصُرُ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ مِنْهُ لِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ: إِمَّا لِجَهْلِ الْمُتَكَلِّمِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ فَصَاحَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَيَانِ، وَإِمَّا لِكَذِبِهِ وَغِشِّهِ وَتَدْلِيسِهِ، وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَرِيئَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَكَلَامُ اللهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ؛ كَمَا أَنَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي الصِّدْقِ وَالْمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ؛ لِصُدُورِهِ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ بِالنِّسَبِ الْخَارِجِيَّةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ النُّصْحِ، وَالشَّفَقَةِ، وَالْحِرْصِ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِرْشَادِهِمْ.

فَقَدِ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي هِيَ عَنَاصِرُ الدَّلَالَةِ وَالْإِفْهَامِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ. فَالرَّسُولُ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرِيدُ إِخْبَارَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ وَالْإِفْصَاحِ عَنْهُ، وَهُوَ أَحْرَصُهُمْ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَأَشَدُّهُمْ إِرَادَةً لِذَلِكَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلَامِهِ شَيْءٌ مِنَ النَّقْصِ وَالْقُصُورِ؛ بِخِلَافِ كَلَامِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ جَمِيعِهَا، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُعْدَلَ بِكَلَامِهِ كَلَامُ غَيْرِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعْدَلَ عَنْهُ إِلَى كَلَامِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ غَايَةُ الضَّلَالِ، وَمُنْتَهَى الْخِذْلَانِ. انتهى

(١) وفي (ف): [مَصْدُوْقُوْنَ]، قال ابن القاسم في الحاشية: في نسخة: [مصدَّقون].

بيان قوله :

بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

أي: من أهل البدع والإلحاد والتعطيل والتمثيل فكلّ من ضلّ في هذا الباب فهو بسبب قوله بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣] وذلك بسبب بعدهم عن فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

بيان قوله :

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾.

قَوْلُهُ: (وَلِهَذَا قَالَ.. إِلَخْ) تَعْلِيلٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ أَكْمَلَ صِدْقًا، وَأَتَمَّ بَيَانًا وَنُصْحًا، وَأَبْعَدَ عَنِ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ مِنْ كَلَامِ كُلِّ أَحَدٍ.

وَ(سُبْحَانَ) اسْمُ مَصْدَرٍ مِنَ التَّسْبِيحِ، الَّذِي هُوَ التَّنْزِيهُ وَالْإِبْعَادُ عَنِ السُّوءِ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّبْحِ، الَّذِي هُوَ السُّرْعَةُ وَالِانْطِلَاقُ وَالْإِبْعَادُ، وَمِنْهُ فَرَسٌ سَبُوحٌ؛ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْعَدْوِ.

وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى الْعِزَّةِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، وَهُوَ بَدَلٌ مِنَ الرَّبِّ قَبْلَهُ. أفاده الهراس

وكلمة (سبحان الله) يؤتى بها للتنزيه (سبحان ربّك) أي: يُنزّه ربّك عمّا يصفه به المبطلون ولهذا جاء عن أصحاب النبيّ أنّهم كانوا إذا صعدوا كبّروا وإذا نزلوا سبّحوا، قال العلماء في معنى ذلك إنّ النزول سُفل والله منزّه عن السفل فناسب أن يُنزّه الله بقوله سبحان الله، وهذه الكلمة متضمّنة لنفي جميع النقائص عن الله وتستلزم إثبات جميع المحامد لله لأنّ نفي النقائص يلزم منه إثبات المحامد وهي ضدّ كلمة الحمد لله من ناحية التضمّن والالتزام فكلمة الحمد لله تتضمّن إثبات جميع المحامد لله وتستلزم نفي جميع النقائص عن الله .

وأضاف الله تعالى الربوبية إلى النبيّ وهي ربوبية خاصّة تقتضي معنى أخصّ وهو العناية والتوفيق والتسديد والحفظ، والربوبية العامّة يدخل فيها البرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

- **ونذكر هنا للفائدة بعض المواطن التي يُشرع فيها التسبيح:**

فمنها في دبر الصلاة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ : «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ تَقُولُ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَاللهُ أَكْبَرُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»، رواه البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥).

ومنها في الركوع وفي السجود، لحديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢)، قال : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**». ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. قَالَ وَفِي حَدِيثِ جَرِيرٍ مِنَ الزِّيَادَةِ فَقَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ**».

ومنها عند النوم، فعن أبي هريرة عند البخاري (٦٣٢٠) ولفظه عند مسلم (٢٧١٤)، قال النبيُّ : «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللهَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**».

ومنها عند النزول، لحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ قَالَ: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»، رواه البخاري (٢٩٩٣).

ومنها عند رؤية سماع ما يُتعجّب منه، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ فَقَالَ: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ**

تَصُبُّ عَلَيْهَا المَاءَ. ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتطَهَّرُ بِهَا». فَقَالَتْ أَسْمَاءُ وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ تَطَهَّرِينَ بِهَا». فَقَالَتْ عَائِشَةُ كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ. وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ فَقَالَ: «تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ - أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ - ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا المَاءَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِى الدِّينِ، رواه مسلم (٣٣٢).

وعند أن يُذكر الله بسوء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠]، أي يُنزّه الله عن هذا وهي من أحبّ الكلام إلى الله ومن أثقل الكلام في الميزان، قال الرسول : «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٦٥٨٣) قال النبيّ : «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا لَـمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ».

وقوله: (ربّ العزّة) أي الموصوف بالعزّة وقد جاء في الحديث: «اجْعَلْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَيْهِ -أي الوجع- وَقُلْ بِسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ، وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا

أَجِدُ، وَأُحَاذِرُ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَقُلْتُ ذَلِكَ، فَشَفَانِيَ اللهُ»، أخرجه ابن ماجه (٣٥٢٢) واللفظ له، وأبوداود (٣٨٩١)، وأحمد (١٦٢٦٨)، من حديث عثمان بن أبي العاص وأصله في مسلم ومن المعلوم أنّ الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلّا الله لا يجوز، فكانت الاستعاذة هنا بالله وبصفته وفي يمين إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص:٨٢]، وفي يمين أيّوب : «بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩)، وهي صفة يتضمّنها اسم العزيز وهي بمعنى مقارب لمعنى القوّة فالله القويّ صاحب العزّة الموصوف بها.

وقوله: (عمّا يصفون) أي عمّا يصفه به المخالفون للرسل من قولهم إنّ له صاحبة وولدًا ويدخل في ذلك من ينكر أسماء الله وصفاته وقوله عما يصفون لكثرة المخالفين في هذا الباب.

بيان قوله :

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾.

قوله: (وسلام) دعاء بالسلامة والله هو السلام، ولّما خلق الله آدم قال: «اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ المَلَائِكَةِ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١)، وفي الحديث: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، من حديث ثوبان عند مسلم (٥٩١)، وكان الصحابة إذا صلّوا خَلْفَ

النَّبِيِّ ، قالوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى الله، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»، من حديث ابن مسعود ،رواه البخاري (٧٣١) و(٨٣٥) و(٦٢٣٠) و(٦٣٢٨) و(٧٣٨١)، ومسلم (٤٠٢).

وقوله: (على المرسلين) المراد بهم من أرسل الله وأوحى إليهم بشرع ويُرسل إلى قوم مخالفين على ما تقدّم، ثم إنّهم قد جمعوا لكونهم قد اتفقوا في باب العقائد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[المائدة:٤٨] وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى الأَنْبِيَاءُ أَبْنَاءُ عَلاَّتٍ وَلَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَ عِيسَى نَبِىٌّ**» أخرجه مسلم.

بيان قوله :

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ١٨٠-١٨٢].

حمد نفسه سبحانه لما له من نعوت الجلال، والكمال، والجمال، والعظمة، وهو سبحانه المتصف بالكمال المقدس من كل وجه، وهو سبحانه يحب المدح ففي عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِى لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ**

مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّى مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ». أخرجه مسلم(١٤٩٩)

وعَنْ عَبْدِاللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ».أخرجه البخاري(٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

قال أبوجعفر الطبري: قد مضى البيان عن تأويل اسم الله الذي هو (الله)، في (بسم الله)، فلا حاجة بنا إلى تكراره في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله: (رَبِّ)، فإن الرّب في كلام العرب منصرفٌ على معان: فالسيد المطاع فيها يدعَى ربًّا، ومن ذلك قول لَبيد بن ربيعة:

وَأَهْلَكْـنَ يَوْمًـا رَبَّ كِنْـدَةَ وَابْنَـهُ   وَرَبَّ مَعَـدٍّ بَـيْنَ خَبْـتٍ وَعَرْعَـرِ

يعني بربِّ كندة: سيِّد كندة. ومنه قول نابغة بني ذُبيان:

تَخُـبُّ إِلَى الـنُّعْمَانِ حَتَّـى تَنَالَـهُ   فِدًى لَكَ مِنْ رَبٍّ طَرِيفِي وَتَالِـدِي

والرجل المصلح للشيء يُدعى ربًّا. انتهى

كل ما سوى الله عالم والعالَمون جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه.

وقوله: (الْعَالَمِينَ) العالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنس منها عالمُ زمانه. ولذلك جُمع فقيل: عالمون، وواحده جمعٌ، لكون عالم كلّ زمان من ذلك عالم ذلك الزمان. ومن ذلك قول العجاج:

* فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ *

فجعلهم عالمَ زمانه. وهذا القول الذي قلناه، قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير، وهو معنى قول عامّة المفسرين. انتهى

بيان قوله :

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

أي نزه نفسه عما وصفه به المخالفون في هذا الباب ولأن قولهم متضمن للتعطيل والتمثيل والتحريف والتأويل بما يؤدي إلى تمثيل الله باالجمادات والمتناقضات.

قوله: (وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).

سلم على المرسلين لسلامة طريقهم وسلامة ما قالوه، فالمرسلون أعلم الناس بالله تعالى والمبلغون وحيه وتنزيله، فطريقهم هو السبيل القويم، والطريق المستقيم الذي من خالفه مخطاء زل ومن خالفه متعمدا ضل.

قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير :

ثم نزّه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠] العزّة: الغلبة، والقوة، والمراد: تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، وربّ العزّة بدل من ربك.

ثم ذكر ما يدلّ على تشريف رسله، وتكريمهم، فقال: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨١] أي: الذين أرسلهم إلى عباده، وبلغوا رسالاته، وهو من السلام الذي هو: التحية. وقيل: معناه: أمن لهم، وسلامة من المكاره: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الصافات:١٨٢] إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين، ومنذرين، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، وما يثنون عليه به. وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين، ونصر الرسل عليهم، والأولى أنه حمد لله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيده حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر في علم المعاني، والحمد هو: الثناء الجميل بقصد التعظيم. انتهى

بيان قوله :

وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.

أي: جمع الله تعالى بين النفي والاثبات لأن النفي وحده عدم والعدم ليس بشيء والإثبات وحده لايمنع المشاركة ويشترط في الصفات المنفية أو السلبية أن تكون متضمّنة لكمال الضدّ، قال الله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨]،

لكمال قوّته، وقال الله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣]، لقيوميّته وحياته، وقال الله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]، لكمال علمه وقدرته فكلّ صفة سلبية دلّ عليها القرآن والسنّة تتضمّن كمال الضدّ، قال الله : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]، لكمال عدله، والصفات المنفية **يشترط فيها أمران:**

- **الأوّل:** دلالة الكتاب والسنّة على ذلك.

- **الثاني:** أنّ لا يكون النفي محضًا، ولهذا قال بعض الشعراء يهجو قبيلته:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وقال الآخر:

وَإِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لأنّهم لا يستطيعون الشرّ أصلًا، وإلّا لو كان الإنسان يستطيع الشرّ وتركه، يكون مدحا في حقه، فصفات الله الثبوتية تدلّ على الكمال، السمع والبصر والقدرة والإرادة، وصفات الله المنفية تتضمّن كمال الضدّ.

ومن هذا عُلم أنّ الصفات **تنقسم إلى قسمين:**

- **القسم الأول صفات ثبوتية:** وهي ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهي منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: صفات ثبوتيّة معنويّة: كالعلم، والقدرة، والسمع، وغير ذلك.

الثاني: صفات ثبوتيّة خبريّة: كالوجه، واليدين، والساق، والساعد، وغير ذلك.

الثالث: صفات فعليّة: كالغضب، والرضا، والسخط، وغير ذلك. وهي المتعلّقة بمشيئة الله .

- **القسم الثاني صفات منفيّة**: وهو ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله مع اعتقاد أنّ هذه الصفات تتضمّن كمال الضدّ.

فائدة: الأصل وصف الله بالصفات الثبوتية لأنّ الصفات الثبوتية كمال فكلّما تعدّدت وتنوّعت ظهر من كمال الله ما لم يكن ظاهرًا من قبل بينما الصفات المنفية يؤتى بها في حقّ الله لثلاثة أمور:

الأوّل: لدفع توهّم نقص كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨]، لمّا أخبر أنّه خلق السموات والأرض في ستّة أيّام قد يتوهّم متوهّم ممّن لم يعرف قدرة الله أنّ الله إنّما خلق السموات والأرض في هذه الأيّام لعجزٍ أو تعب كما قالت اليهود إنه استراحه في اليوم السابع فقال الله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

الثاني: دفع ما ادّعاه في حقّه المبطلون كما قال الله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣]، لمّا زعموا أنّ له ولد وأنّ له صاحبة قال سبحانه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[الأنعام:١٠١].

الثالث: لبيان عموم الكمال في مثل قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١].

بيان قوله :

فَلا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ.

العدول هنا بمعنى أي فلا ميل ولا إنحراف، أي تميلون، لأهل السنّة والجماعة عمّا جاء به المرسلون، ثم هو لا يساوون شيئًا بما جائتهم به الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم– عن الله تعالى، وفي هذا بيان لأهمية المتابعة للنبي في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[الأحزاب:٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

وعَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ:(اتَّبِعُوا، وَلا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ، كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ).

وعَنْ أَبِي الصَّلْتِ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِالْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقَدَرِ فَكَتَبَ أَمَّا بَعْدُ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالاِقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا

لَكَ بِإِذْنِ اللهِ عِصْمَةٌ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا وَلَمْ يَقُلِ ابْنُ كَثِيرٍ مَنْ قَدْ عَلِمَ مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمْقِ وَالتَّعَمُّقِ فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مَحْسَرٍ وَقَدْ قَصَّرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَغَلَوْا وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ كَتَبْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ فَعَلَى الْخَبِيرِ بِإِذْنِ اللهِ وَقَعْتَ مَا أَعْلَمُ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنْ مُحْدَثَةٍ وَلَا ابْتَدَعُوا مِنْ بِدْعَةٍ هِيَ أَبْيَنُ أَثَرًا وَلَا أَثْبَتُ أَمْرًا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ لَقَدْ كَانَ ذَكَرَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهَلَاءُ يَتَكَلَّمُونَ بِهِ فِي كَلَامِهِمْ وَفِي شِعْرِهِمْ يُعَزُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ بَعْدُ إِلَّا شِدَّةً وَلَقَدْ ذَكَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ وَلَا حَدِيثَيْنِ وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ يَقِينًا وَتَسْلِيمًا لِرَبِّهِمْ وَتَضْعِيفًا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ وَلَمْ يُحْصِهِ كِتَابُهُ وَلَمْ يَمْضِ فِيهِ قَدَرُهُ وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَفِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مِنْهُ اقْتَبَسُوهُ وَمِنْهُ تَعَلَّمُوهُ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لِمَ أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ كَذَا لِمَ قَالَ كَذَا لَقَدْ قَرَءُوا مِنْهُ مَا قَرَأْتُمْ وَعَلِمُوا مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا جَهِلْتُمْ وَقَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ وَكُتِبَتِ الشَّقَاوَةُ وَمَا يُقْدَرْ يَكُنْ وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ثُمَّ رَغِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ.

بيان قوله :

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

تعليل لقوله: (فلا عدول لأهل السنة) فهذا هو السبب الذي يلزم به أهل السنّة طريق السلف، قال الله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩]، والصراط المستقيم هو الكتاب والسنّة ولا يكون إلا واحدا قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام:١٥٣]، وقال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٥-٧]، فالصراط كما قال ابن القيّم يتضمّن خمسة شروط: أن يكون مستقيمًا، وأن يوصل إلى المطلوب، وأن يكون واسعًا، وأن يكون مسلوكًا وأن يكون سهلًا.

والصراط ينقسم إلى قسمين: صراط حسّي وصراط معنوي، فأمّا الصراط الحسّي فهو الجسر الممدود على متن جهنّم يجوزه المؤمنون يوم القيامة وأمّا الصراط المعنوي فهو الإسلام كما في حديث النوّاس بن سمعان عند أحمد (١٧٦٣٤)، عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ:

وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

فمن سلم على الصراط المعنوي سلم على الصراط الحسّي ومن انحرف عن الصراط المعنوي انحرف عن الصراط الحسّي بقدر انحرافه.

قوله: (أنعم عليهم) بالإسلام، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

قال السعدي : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله، ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها. انتهى

قوله: (من النبيّين) من لبيان الجنس لا للتبعيض فكل رسل الله تعالى وأنبيائه منعمٌ عليهم، ويدخل في الآية المرسلون دخولًا أوليًا لأنّهم أفضل من الأنبياء ولأن كلّ رسول نبي ولا عكس.

قوله: (الصدّيقين) وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وطبقوه قولا وعملا وحالا وقالا وهم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان أبوبكر صدّيقًا وقال تعالى في مريم : ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[المائدة:٧٥].

قال الطبري : و(الصِدِّيقة) (الفِعِّيلة)، من(الصدق)، وكذلك قولهم: (فلان صِدِّيق)، (فِعِّيل) من (الصدق)... وقد قيل إن (أبا بكر الصدّيق) إنما قيل له: (الصّدّيق) لصدقه. وقد قيل: إنما سمي (صديقًا)، لتصديقه النبي في مسيره في ليلة واحدةٍ إلى بيت المقدس من مكة، وعودِه إليها. انتهى

قوله: (الشهداء) جمع (شهيد)، وهم من قُتل في سبيل الله، وذروتهم من قُتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى وفي البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَىُّ ذَلِكَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللهِ**».

وفي مسلم من حديث أبي هريرة (١٩١٥).عن النبيّ أنّه قال: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ**»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»، قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ**».

وقوله: (الصالحين) جمع (صالح)، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته، وهو القائم بحدود الله تعالى وحقوق العباد ويشملهم قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢] مع تفاوت بينهم.

قوله :

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ.

هذا شروع من المصنف في سوق بعض الأدلة مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهنا قواعد أذكرها قبل الشروع في التفصيل:

القاعدة الأولى: الله موصوف بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وما صح عن نبيه محمد الصادقين الأمين، وبيان ذلك أن أسماء الله توقيفي يُتوقف في أثبتها على الكتاب والسنة الصحيحة؛ لأنه لا يعرف كيف الله إلا الله ، وقد أوحى الله بذلك إلى محمد ، وقد تقدم شيء من ذلك.

والدليل على هذه القاعدة: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣].

القاعدة الثانية: يجب على جميع المسلمين أن ينقادوا للكتاب والسنة، ولا سيما في هذا الباب، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والدليل قوله الله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢]. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧].

ومثال الإثبات: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨]. فنثبت لله السمع والبصر.

ومثال النفي: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، فينزه الله عن النوم، ومقدماته لكمال قيوميته ؛ ولأنه نفى ذلك عن نفسه. وهنا تنبيه يعرف بالقاعدة الثالثة.

القاعدة الثالثة: عند الإثبات والنفي يجب التخلي من محاذير تجر إلى الباطل والضلال وتجر إلى الزيغ والانحراف.

أولًا: عند الإثبات: الحذر كل الحذر من التكييف والتمثيل، والتكييف: أن تتخيل لصفة الله كيفية وهيئة، فإن اقترن هذا التكيف بشيء موجود كان تمثيلًا، وإن لم يقترن كان تكيفًا، والتكييف والتمثيل من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]، ويقول سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ويقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

وفي أثر نعيم بن حماد شيخ البخاري: (من شبه الله بخلقه كفر).

ويجب أن نؤمن أن لصفات الله كيفية وحقيقة لكننا نجهلها؛ لأنها لا تعلم كيفية الشيء إلا بالنظر إليه أو إلى مثيله، أو يحدثك من رآه عنه، وكل هذه منتفية في حق الله تعالى.

وعند التنزيه يجب التخلي من محذورين: الأول: التعطيل، والثاني: التحريف، والتعطيل في اللغة: هو التفريغ وفي الاصطلاح: هو تعطيل الله من معاني الصفات. والتحريف: هو الميل، وفي الاصطلاح: يكون التحريف إما بتغيير اللفظ بزيادة أو نقصان أو بهما أو تغيير المعنى.

ومن هذه الأمثلة المحذورة قول القائل: يد الله كيدي، فهذا باطل وكفر، أو قوله: يد الله كذا وكذا على كيفية ليست كالمخلوقات نقول: وهذا باطل، وكفر وحرام؛ لأنك تقول على الله ما لا تعلم.

ومن أمثلتها في باب التحريف والتعطيل أن يقول القائل: يد الله، هي نعمته، نقول: هذا باطل وحرام وكفر؛ لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره الذي أراده الله ، وهو إثبات اليد لله سبحانه يدًا تليق بجلاله لا تماثل صفات المخلوقين؛ إذ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

القاعدة الرابعة: كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة: كقول الله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، فاسم الحي يتضمن صفة الحياة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧] يتضمن اسم السميع صفة السمع واسم العليم صفة العلم؛ لأن أسماء الله أعلام وأوصاف، ولهذا كانت حسنى تدل على الذات وتدل على الوصف.

القاعدة الخامسة: كل فعل إضافة لله إلى نفسه يشتق منه صفة كقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾[آل عمران:٥٥]، وكقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤] فنثبت لله صفة الكلام كما يليق بجلاله وكقول النبي : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ» الحديث في الصحيحين البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة ، فنثبت لله صفة النزول كما يليق بجلاله.

القاعدة السادسة: ما أضيف إلى الله من المعاني التي تقوم بغيرها كالوجه والعين والكلام واليد وغير ذلك، فهو إضافة صفة إلى موصوف، وما أضيف إلى الله من المعاني التي تقوم بنفسها فإضافتها إلى الله إضافة خلق أو ملك كناقة الله .

القاعدة السابعة: كل دليل يدل على وصف الله فإنه يبقى على ظاهره المتبادر للسان العربي، والفطرة السليمة المستقيمة ولا يجوز تحريفه؛ لأن هذا من الإلحاد الذي حرمه الله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨١].

ومعلوم أن الله أنزل القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[الشعراء:١٩٥] فصرف اللفظ من المعاني الحقة إلى معاني باطلة يعتبر جناية على القرآن وعلى رب العالمين.

القاعدة الثامنة: لِيُعلم أن المتصف بالصفات أكمل من الذين لا صفات له، فلا يعقل أن يكون المخلوق المربوب الضعيف المحتاج يسمع ويبصر ويعلم

ويقدر، والله معطل عن ذلك، بل يثبت لله الكمال اللائق به مما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله .

القاعدة التاسعة: لسنا أحرص من السلف رضوان الله عليهم، فهم قد أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل، فلا يلبس علينا شياطين الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، والقرامطة والفلاسفة بشبه أوهى من خيط العنكبوت.

(وَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ)

القاعدة العاشرة: طريقة السلف أعلم وأحكم، فالسير عليها في جميع جوانب الحياة فما من خير إلا وسبقونا إله، وما من شر وضير إلا وحذرونا منه، وقديمًا قيل: عليك بآثار السلف وإن كرهك الناس.

القاعدة الحادية عشرة: الله أنزل القرآن وذكر فيه صفاته وأسمائه وذكر فيه الأحكام وغير ذلك، وكل هذه الآيات تُتلى على العالم والجاهل والذكر والأنثى، فليبلغ دين الله الحق وخصوصا في هذا الباب.

القاعدة الثانية عشرة: أن القول في بعض الصفات كالقول في الصفات الأخرى، وهذه القاعدة رد على الأشاعرة الذين يثبتون لله سبع صفات وهي: حيٌّ، مريدٌ، قادرٌ، علام له السمع والبصر والكلام، زاعمين أن هذه دل عليها العقل، فيلزمهم أن يثبتوا لله هذه الصفات التي دل عليها الشرع والعقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح والعقل يعتبر في هذا الباب منقادًا لا قائدًا.

قوله :

مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

جاء من حديث أبي هريرة عند مسلم (٨١٢) عن النبيّ ذلك، قال : «**احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ، فَقَرَأَ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ، فَقَالَ: «**إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، في أحاديث كثيرة غير هذا.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ**» فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**»، البخاري (١/ ١٥٥).

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ فقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: (لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا)، فَقَالَ النَّبِيُّ : «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»، رواه البخاري (٧٣٧٥) معلقا، ومسلم (٨١٣).

وجاء في فضلها أحاديث منها حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عند البخاري (٥٠١٣) أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وفي صحيح مسلم (٨١١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وعند أحمد (١٠٩١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «الجَنَّةُ» قَالَ أَبُوهُرَيْرَةَ: فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَأُبَشِّرَهُ، فَآثَرْتُ الْغَدَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، وَفَرِقْتُ أَنْ يَفُوتَنِي الْغَدَاءُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الرَّجُلِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ ذَهَبَ.

وسُمّيت سورة الإخلاص لخلوصها ودلالتها على التوحيد، ودلالتها على توحيد الأسماء والصفات أصرح وأظهر وهي دالة على جميع أنواع التوحيد الثلاثة، فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، لفظ الجلالة (الله)

مشتقّ من الإله فهو دالّ على توحيد الألوهية و(الأحد) كذلك دالّ على إفراد الله سواء في باب الألوهية أو في باب الربوبية أو في باب الأسماء والصفات ودلّت على الأسماء والصفات لأنّها تضمّنت أسماء وصفات على ما يأتي بيانه موضّحًا إن شاء الله وسورة الكافرون تُسمّى إيضا بسورة الإخلاص حتّى ذكر شيخ الإسلام تعالى في التدمرية أنّ النبيّ كان يقرأ بسورتي الإخلاص في المغرب، وجاء عن ابن عمر عند النسائي (٩٩٢)، قال النبيّ : رَمَقْتُ رَسُولَ اللهِ عِشْرِينَ مَرَّةً، يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.

وجاء في الصحيح أنّه كان يقرؤهما في الفجر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. رواه مسلم (٧٢٦).

وفي الطواف جاء عن جابر عند مسلم (١٢١٨) قال: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا.

وهكذا صحّ عن أُبيّ بن كعب عند النسائي (١٦٩٩)، أنّ النبيّ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَفِي الثَّانِيَةِ بِقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَفِي الثَّالِثَةِ بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.

فـ(قل أيّها الكافرون) أخلصت توحيد الألوهية، و(قل هو الله أحد) خلصت توحيد الأسماء والصفات، واستدلّ شيخ الإسلام بهاتين السورتين على أنّ أصلي التوحيد هو باب المعرفة والإثبات وهذا متعلّق بالأسماء

والصفات ويدخل فيه توحيد الربوبية ويدلّ عليه سورة الإخلاص أي قل هو الله أحد، والأصل الثاني توحيد الشرع والقصد والطلب ويدلّ عليها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون:١-٢].

قوله :

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

أي: قل يا محمّد، فالأمر للنبيّ أمر لأمّته، وجاء في سبب نزولها ما لا يثبت، ومنه: ما أخرجه أحمد(٢١٢١٩) الترمذي (٣٣٦٤) وغيرهما من طريق أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ : يَا مُحَمَّدُ، انْسُبْ لَنَا رَبَّك، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. وأخرجه الترمذي (٣٣٦٥) من طريق عبيد الله بن موسى، والطبري (١/ ٣٤٣) من طريق مهران بن أبي عمر العطار، والعقيلي (٤/ ١٤١) من طريق أبي النضر هاشم بن القاسم، ثلاثتهم عن أبي جعفر، به مرسلًا. وقال: هذا أصح من حديث أبي سعد. قلنا: وهو ضعيف أيضًا لضعف أبي جعفر الرازي.

وقوله: (الله) اسم الله علم على الذات العلية وهو متضمّن لصفة الألوهية ويستلزم إثبات جميع صفات الجلال والكمال والعظمة والكبرياء وهو من الأسماء الخاصة بالله وهو الاسم الأعظم على ما تقدّم.

وقوله: (أحد) من أسماء الله الحسنى وهو يتضمّن صفة الأحدية التي تمنع المشاركة والمماثلة، وهو بمعنى الواحد، ويه قال : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[البقرة:١٦٣]، قال : ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[النساء:١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الرعد:١٦]، في البخاري (٤٩٧٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ**».

في سنن أبي داود (٩٨٥) عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ عَلِيٍّ، أَنَّ مِحْجَنَ بْنَ الْأَدْرَعِ، حَدَّثَهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَاالله الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ: فَقَالَ: «**قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**» ثَلَاثًا.

قوله :

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾.

عن ابن عباس في قوله: (الصَّمَدُ) يقول: السيد الذي قد كمُل في سُؤدَده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبَّار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في

حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له.، أخرجه الطبري فاسم الصمد من الأسماء الحسنى العظيمة المتضمّنة لصفة الصمدية المتضمنه لنفي جميع النقائص، والمستلزمة لإثبات جميع صفات الكمال لله .

في سنن أبي داود (١٤٩٣) عن بُرَيْدَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**».

قوله :

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾.

أي لم يكن له ولد ولم يكن له والد وفي هذا بيان لما عليه أهل الحق من تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين وفيه ردٌّ على النصارى ومن قال بقولهم من الضالّين، وهذه من الصفات المنفيّة وقد تقدّمت القاعدة وأنّه يُثبت بها كمال الضدّ وهو هنا كمال حياته وقيوميته.

وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٠١]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾[مَرْيَم:٨٨-٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الْأَنْبِيَاءِ:٢٦-٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصَّافَّاتِ:١٥٨-١٥٩]. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**» وقد تقدم.

قوله :

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيه ولا مِثْل وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبة.والصحيح الأول قال الطبري: والكُفُؤُ والكُفَى والكِفَاء في كلام العرب واحد، وهو المِثْل والشِّبْه؛ ومنه قول نابغة بني ذُبيان:

لا تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لا كِفَاءَ لَهُ   وَلَوْ تَأَثَّفَكَ الأعْدَاءُ بالرِّفَدِ

يعني: لا كِفَاء له: لا مثل له. انتهى

فلم يكن له مثيل ولن يكون لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وقوله تعالى:﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، وقال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[النحل:٦٠]

قال السعدي : فإن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الله متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء، يحقق ذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله، فهو العظيم الكامل في عظمته، العليم الكامل في علمه، الحكيم الكامل في حكمه، فهو الكامل في جميع نعوته وأسمائه وصفاته، ومن معاني الصمد أنه الذي تصمد إليه الخلق كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود. فإثبات الوحدانية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلي، فهذا أحد نوعى التوحيد، وهو الإثبات وهو أعظم النوعين، والنوع الثاني: التنزيه لله عن الولادة والند والكفؤ والمثل، وهذا داخل في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، أي: ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير، فمتى اجتمع للعبدهذه المقامات المذكورة في هذه السورة، بأن نزه الله وقدسه عن كل نقص وند وكفؤ ومثيل، وشهد بقلبه انفراد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين وهما الأحد، الصمد، ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجته الباطنة والظاهرة، متى كان كذلك- تم له التوحيد العلمي الاعتقادي والتوحيد العملي، فحق لسورة تشتمل على هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن. اهـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة (ص: ٢١).

وهذه السورة تضمّنت قواعد يسير عليها أهل السنّة:

القاعدة الأولى: أنّ الأصل في الإثبات التفصيل لا الإجمال، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فتقول (الله السلام، المؤمن، المهيمن، البصير، السميع، القويّ، العزيز...)، وتقول (يسمع، يبصر، يتكلّم، يريد، يشاء...)، وقد يأتي الإجمال في الإثبات وهذه السورة دالة على ذلك فاسم (الصمد) وإن كان من باب التفصيل كذلك يتضمّن إجمالًا من حيث أنّه السيّد الذي كمل في سؤدده فهو متضمّن لصفات كثيرة ومنه قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك:١]، أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنعام:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]، كلّ هذا من الإجمال في الإثبات على ما يأتي بيانه.

القاعدة الثانية: أنّ الأصل في النفي الإجمال وهذه السورة تضمّنت ذلك لقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فهذا إجمال في النفي ويؤتى بالنفي **لثلاثة أمور**:

الأوّل: لدفع توهّم نقص كما في قوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨].

الثاني: لبيان عموم كمال كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وأيضًا قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١].

الثالث: لدفع ما ادّعاه في حقّه المبطلون مثل قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

فهذه السورة تضمّنت الإجمال في النفي والتفصيل في النفي مثل قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وقد اختلفوا في معنى قول النبيّ : «**إِنَّهَا تَعْدِلُ**

ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، والصحيح أنّ القرآن أحكام وتوحيد وقصص فكانت سورة الإخلاص ثلث القرآن من حيث أنّها تتكلّم في التوحيد.

وفي هذا الحديث بيان أنّ القرآن يتفاضل على ما يأتي.

قوله :

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ.

أي يدخل فيما تقدّم من الكلام فيما وصف به نفسه في أعظم آية من كتاب الله وهذه الآية هي آية الكرسي، جاء عن النبيّ أنّه قال لأُبيّ بن كعب ، فقال : «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ : «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»، مسلم (٨١٠)، وقال النبيّ : «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**»، من حديث أبي أمامة عند النسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٠) وصححّه العلاّمة مقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند (٤٧٨)، وحديث أُبيّ يدلّ على أنّ أسماء الله وصفاته تتفاضل لأنّ آية الكرسي من كلام الله وكانت أفضل آية في القرآن واعظم آية في القرآن فدلّ على أنّ الأسماء والصفات تتفاضل، وفي هذا الباب ما أخرجه البخاري (٤٤٧٤) عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ:

«أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]».
ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

قوله :

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ [-أي: لا يُكْرِثُهُ ولا يُثْقِلُهُ-] وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥]، [وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ، لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ].

الحديث الذي أشار إليه المصنف أخرجه البخاري معلّقًا (٢٣١١) من حديث أبي هريرة قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ،

قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**مَا هِيَ؟**»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ : «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ**». وجاء من حديث أبي الدرداء نحو هذا الحديث.

وهذه الآية تضمّنت معانٍ كثيرة، منها:

إثبات اسم الله ، وهو من الأسماء الخاصّة به وفيه إثبات صفة الألوهية فكلّ اسم يتضمّن صفة وإن كان اسم (الله) يدلّ على الذات والصفة بالمطابقة ويدلّ على صفة الألوهية بالتضمّن وتُثبت به بقية الصفات بالالتزام

لأنّ الله هو الإله الحقّ هو الذي يسمع ويبصر ويتكلّم ويريد ويشاء ويعلم وغير ذلك من خصائصه .

وقوله: (لا إله إلّا هو) هذا معنى لا إله إلّا الله، وفيه إثبات اسم الإله لله وهو من الأسماء الحسنى وجمع الله بين النفي والإثبات لأنّ النفي وحده عدم والعدم ليس بشيء والإثبات وحده لا يمنع المشاركة ولهذا يوصف الله بالنفي والإثبات فقوله (لا إله) نفي للآلهة الباطلة وقوله (إلّا الله) إثباته الألوهية الحقّة لله ، ومعنى (لا إله إلّا الله) أي لا معبود بحقٍّ إلّا الله قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[الحج:٦٢].

وقوله: (الحيّ القيوم) من أسماء الله الحسنى والحيّ يتضمّن صفة الحياة العظيمة الكاملة التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء و(القيّوم) يتضمّن صفة القيومية وهو الذي يقيم الخلائق وهو قائم بنفسه ولهذا جاء في البخاري(١١٢٠) مسلم(٧٦٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ، كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ: «اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» .

و(القيّوم والقيّام) بمعنى واحد وقد اختلف في الاسم الأعظم فذهب كثير من أهل العلم إلى أنّه (الحيّ القيوم) وهو المذكور في سورة البقرة وآل عمران وسورة طه، واستدلّوا بحديث النبيّ في ذلك الرجل الذي قال: «**اللهم إني أسألك بأنّك أنت الله الذي لا إله إلّا أنت الحيّ القيّوم**»، وكان النبيّ يقول في دعائه: «**يا حيّ، يا قيّوم**»، كما في حديث أنس عند أبي داود (١٤٩٥)، ولا دلالة للصوفية ومن إليهم بهذه الآية على أنّ الله يُذكر بـ(هو، هو، هو)؛ لأنّ الله له الأسماء الحسنى وليس من أسمائه (هو).

وقوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) هذه من الصفات المنفيّة، نفي السنة وهي مقدّمة النوم وأوائل النعاس ونفي النوم وهو معروف وتعريف المعروف تكلّف فهما صفات سلبيّتان منفيّتان والقاعدة عند أهل السنّة والجماعة أنّ الصفات المنفية في حقّ الله لا بدّ أن تتضمّن كمال الضدّ، فقوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) لكمال حياته وقيّوميّته وإنّما يحتاج النوم المخلوق الضعيف للراحة، والنوم أخو الموت، فعن جابر عند البيهقي في شعبه (٤٤١٦) و(٤٧٤٥) قال: سأل رجل رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال : «**النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ، وَلَا يَمُوتُ أَهْلُ الجَنَّةِ**».

وقوله: (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) هذا أيضًا من الوصف المجمل في الإثبات وإن كان يدلّ على الإثبات المفصّل لبيان ملك الله وهذا يدلّ على أنّ العبيد عبيد الله والملك ملكه، لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١]، وقال : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا

نَصِيرٍ﴾[البقرة:١٠٧]، وقال : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[المائدة:١٧].

وقوله: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فيه إثبات الشفاعة المثبتة وهي ما توفّرت فيها ثلاث شروط: رضى الله عن الشافع، ورضى الله عن المشفوع له، وإذن الله للشافع، قال الله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء:٢٨]، وهي دالّة على الشفاعة المنفيّة بالمفهوم قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، وقال الله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]، ولهذا حين يستشفع النّاس بالنبيّ يوم القيامة، يقوم ويسجد لربّه ثمّ يقول له: «اشفع تُشفّع»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤)، يأذن الله له إكرامًا له وسيأتي الكلام على الشفاعة في بابه إن شاء الله.

وقوله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فيه إثبات علم الله وأنّه محيط بجميع المعلومات جزئيّها وكليّها خلافًا للمعتزلة وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[البقرة:٢٥٥]، أي يعلم ما سلف وما سيأتي، قال الله في شأن الكفّار لمّا سألوه العودة إلى الأرض: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]، وسيأتي الكلام على صفة العلم بأوسع من هذا.

وقوله: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) استدلّ أهل السنّة والجماعة بهذه الآية على أنّ أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا وأدلّة هذه المسألة كثيرة ذكرتها في كتابي التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسع وتسعين ، ومن الأدلّة على أنّ أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا، قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، ومنها أنّ متتبّع القرآن والسنّة يجد

فيها أكثر من التسعة والتسعين ومنها حديث عائشة أنّ النبيّ كان يقول في سجوده: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، مسلم (٤٨٦)، والدلالة من هذا الحديث أنّه لو كان يعلم أسماء وصفات الله كلّها لأحصى الثناء عليه ومنها حديث الشفاعة قال فيه النبيّ : «فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا»، من حديث أنس عند البخاري (٧٤١٠) واللفظ له ومسلم (١٩٣)، فلو كان النبيّ قد أحصى أسماء الله وصفاته لما علّم في ذلك الموطن محامد أخرى لأنّه يعلمها ويدلّ على ذلك وهو من أصرحها حديث ابن مسعود عند الإمام أحمد (٣٧١٢) و(٤٣١٨) وغيره: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»، والحديث ضعّفه بعضهم والصحيح أنّ الحديث محتجٌّ به لأمور بيّنها الشيخ الألباني في الصحيحة وذكرت معها ما صحّ من الأحاديث في الكتاب المذكور آنفًا ومن زعم أنّها محصورة بتسعة وتسعين وعددٍ معلومٍ لنا فقد وافق المعطّلة من بعض الوجوه ولهذا ذكر شيخ الإسلام في بعض المواطن أنّ الذين يقولون بهذا القول هم المخطئون المعطّلون الضالّون المبتدعون ولم يقل بحصر أسماء الله بتسعة وتسعين إلّا ابن حزم[1].

---

(١) ابن حزم إمام له زلّات وأخطاء وهو ظاهريُّ المذهب ولكن مع ذلك له ترجيحات طيّبة ونقولات قويّة حتّى قيل في من حوى كتابه المحلّى و المغني لابن قدامة، و الكبرى =

وابن حزم في العقيدة جهميّ كما قال ابن عبدالهادي ، وقد نقل الإجماع غير واحدٍ من أهل العلم على أنّ أسماء الله غير محصورة بعددٍ معلومٍ لنا.

ونُقل القول بالحصر إيضًا عن ابن كجّ كما أشار الحافظ في تلخيص الحبير وابن كجّ ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنّ له غرائب فلعلّ هذا منها.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[طه:١١٠]، أي لا يعلمون من أسمائه وصفاته إلّا ما علّمهم ومثل قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:٢٦-٢٧].

وقوله: (إِلَّا بِمَا شَاءَ) فيه إثبات المشيئة لله ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، وقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾[البقرة:٢٥٣].

قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) فيها إثبات الكرسي، وقد فسّره ابن عبّاس وجاء عن أبي موسى أنّه موضع قدمين الرحمن، وهو في مقدّمة العرش كالمرقاة التي أمام السرير والعرش هو سرير الملك وسيأتي الكلام عليه في بابه وبعضهم يُنكر الكرسي ويزعم أنّه العلم والصحيح أنّ هذا القول باطل فالكرسي جُرمٌ مخلوقٌ خلقه الله وليس بالعلم، ثمّ إذا

= للبيهقي، و التمهيد لابن عبدالبرّ فهو العالم حقًّا، وزلّاته تُترك، وسبب انحرافه في هذا الباب أنّه تتلمذ على بعض الفلاسفة ثمّ بعد ذلك لم يستطع أن ينزع الشبه التي طرأت على عقله فأراد أن يجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآراء الفلسفية فما استطاع وفي مسائل الإيمان هو من أفاضل من ردّ على الخوارج والمرجئة.

كان الكرسي هو العلم، فيلزم أن ليس في علم الله إلا السماوات والأرض، وذكر هذا التفسير البخاري في صحيحه وليته لم يذكره فإنّه قال قال مجاهد الكرسي العلم، وهذا تفسير باطل.

وقوله: (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي لا يكرثه حفظهما وهذا أيضًا من الصفات السلبية وتتضمّن كمال الضدّ وهو كمال قوّة الله وقدرته، ومثله قول الله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤]، وقوله : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[الحج:٦٥].

وقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) فيه إثبات اسم (العليّ) وهو دالٌّ على صفة العلوّ بالمطابقة والتضمّن، ويُثبت لله العلوّ المطلق من كلّ وجه، علوّ الذات على عرشه وعلوّ القهر وعلوّ القدر، وسيأتي الكلام على صفة العلوم بما يكفي إن شاء الله و(العظيم) اسم من أسماء الله الحسنى وهو دالٌّ على صفة العظمة لله وفيها غير ذلك ولكن هذا مختصر.

إثبات صفة الحياة لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[الفرقان:٥٨].[1]

التوكّل هو صدق الاعتماد على الله وهو فعلُ أمرٍ يُفيد الوجوب، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣].

وقوله: (على الحيّ) أي على الله المتصف بالحياة الأزلية الأبدية التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء، الحياة الكاملة من كلّ وجه، وقد تقدّم قول الله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة:٢٥٥].

وقوله: (الذي لا يموت) صفة سلبية والصفات السلبية تقدّمت القاعدة فيها وأنّها لا بدّ أن تتضمّن كمال الضدّ فقوله: (الذي لا يموت) دلّ على كمال حياته وقيوميته وقد جاء في حديث ابن عباس في مسلم (٢٧١٧)، أنّ النبيّ كان يقول: «أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»، وفي الآية عظم التوكّل على الله وصدق الاعتماد على الله ، قال النبيّ : «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، مسند أحمد (٢٠٥) من حديث عمر ، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣]، وصدق التوكل على الله سبب لتفريج الهموم والغموم قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب:٢٢]، وقال

(١) في المطبوع هذه الآية بعد آية الحديد مباشرة.

الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]، والشاهد من سوق هذه الآية في هذا الموطن إثبات اسم الحيّ لله المتضمّن لصفة الحياة وكذلك ذكر الصفة السلبية التي يؤتى بها لدفع توهّم نقص أو لبيان عموم كمال وهي في هذا الموطن جيء بها لدفع توهم نقص وكذلك لبيان عموم الكمال فالذي لا يموت ولا ينام هو الكامل في حياته وقيّوميّته.

إثبات صفتي العلم والحكمة

قال :

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[التحريم:٢]، [﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾][الأنعام: ١٨][1].

قول الله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[الحديد:٣].

أي يدخل فيما ذكرنا من وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إثبات ما تضمنّته هذه الآية.

وهذه الآية اشتملت على أربعة أسماء لله حسنى:

(الأوّل): يتضمّن صفة الأوّلية وله الأوّلية المطلقة التي لم تسبق بعدم وربّما عبّر عنها بعض العلماء بالأزلية والأزل في الماضي والأبد في المستقبل فإذا قيل الله متّصف بالصفات أزلًا وأبدًا فالأزل ما كان في الماضي وهو القدم المطلق.

وأيضًا من أسمائه (الآخر) ومن أسمائه (الظاهر) ومن أسمائه (الباطن) وهذه الأسماء الأربعة تدلّ على الإحاطة الزمنيّة والمكانيّة، فـ (الأوّل والآخر)

---

(١) زيادة من (ف)، قال ابن القاسم: وفي نسخة [وهو العليم الخبير].

قلت: الذي في القرآن إنما: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[التحريم:٣].

يدلانّ على الإحاطة الزمانية، و(الظاهر والباطن) يدلانّ على الإحاطة المكانية وقد فسّر النبيّ هذه الأسماء كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة (٢٧١٣)، قائلًا: «اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، وقد استشكل بعض العلماء تفسير النبيّ للأسماء الثبوتية بالسلب والصحيح أنّه لا إشكال فإنّ النبيّ أراد أن يُبيّن أنّ الله متّصف بالأوّلية المطلقة فقوله (ليس قبله شيء) دفع لإيهام قد يتصوّره البعض أوّلية نسبية فلمّا قال النبيّ : «فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»، كان قاطعًا لهذا الإيهام.

وقوله: (الباطن) دليل على معيّة الله وحقيقتها أنّ الله على العرش استوى وأنّه مع خلقه بعلمه وسلطانه وقهره وغير ذلك من خصائص ربوبيّته على ما سيأتي بيانه في آخر الكتاب.

واسم (الظاهر) يدلّ على العلوّ المطلق، بما فيه علو الذات كما سيأتي بابه إن شاء الله .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[التحريم:٢] فيهما إثبات صفة العلم لله واسم العليم، وله من الأسماء العلّام والعالم، قال الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾[الأنعام:٧٣]، وهذا من الأسماء المركّبة.

فقوله: (العليم) هو الله من أسمائه العليم ومتّصف بصفة العلم، العليم الذي أحاط بكلّ شيء كما قال الله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[الطلاق: ١٢]، وقال : ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُّحِيطُۢ﴾[فصلت:٥٤]، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٍ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة:٢٥٥]،

ويدخل فيه العلم بالكليّات والجزئيّات خلافًا لما قاله المعتزلة القدرية أنّ الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيّات فالله يقول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]، ويقول: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النساء:١٧٦]، و(كلّ) من ألفاظ العموم، ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ:٣].

وقوله: (الحكيم) فيه إثبات اسم الحكيم لله وهو متضمّن لصفة الحكمة لله وقرن الله بين العليم والحكيم لفائدة عظيمة ذكرها ابن القيّم وهي أن أسماء الله كلّها حُسنى وإذا قُرن الاسم بالآخر فيكون له كمال من مجموعهما فهنا مثلا له كما من علمه وكمال من حكمته وقرن الله حكمته بعلمه وعلمه بحكمته لأنّ الذي يعلم الأشياء من المخلوقين ربّما عاقب سريعًا، ولكن حكمة الله اقترنت بعلمه فالله يعلم ما العباد عاملون ومع ذلك يؤخّر عقابهم لحكمته . وكذلك قوله (الحكيم الخبير) والخبير يتضمّن صفة الخبريّة وهي العلم بالبواطن، ولهذا يجمع الله بين العليم والخبير في كثير من المواطن فيقال العليم بظواهر الأمور والخبير ببواطنها، هذا إذا اجتمعا ولكن إذا افترقا فإنّ العليم يدلّ على مجموعهما والخبير كذلك.

قوله :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾[سبأ:٢].

وهذا بيان لعموم علم الله حيث يعلم بالذي يدخل في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها والعروج هو الصعود من أسفل إلى أعلى ومنه سُمّي المعراج.

قال :

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

وقد جاء تفسير (مفاتيح الغيب) في حديث ابن عمر عند البخاري (١٠٣٩)، وجاء عن غيره: «**مِفْتَاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الأَرْحَامِ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ المَطَرُ**» وهذا ما جاء في قول الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان:٣٤]، فمن ادّعى علم واحدة من هذه الأشياء كفر لأنّه ادعى علم الغيب المطلق والغيب ينقسم إلى مطلق ونسبي فالغيب النسبي ما علمه زيد ولم يعلمه عمرو فإذا قال زيد (أنا معي ١٠ ألف) وعمرو لا يعلم

ليس فيه ادّعاء الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله   ولكن إذا قال الشخص أنا أعلم ما ستحمل امرأتي هذا من ادّعاء علم الغيب المطلق وهو كفر ولا يُشكل ذلك على ما يفعله الأطبّاء من الكشف بالأجهزة على بطن المرأة فيُحدّدون نوع الجنين لأن هذا ليس من الغيب المطلق في شيء فإنّ العلم بالجنين قد خرج إلى الملائكة ثمّ إنّ الطبيب يحكي شيئًا رآه بالجهاز.

وهذه الآية فيها ردٌّ على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الجزئيات فالله يقول: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ﴾[الأنعام:٥٩]، وهو ما سوى البحر ويُسمّى اليابسة فيُعلم ما فيه من مساجد وأنهار وبيوت وأودية وجبال وذكور وإناث وحيوان وطير، وكلّ ما فيه كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[سبأ:٣].

قال السعدي: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا، وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟.

ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ أي: لا يغيب عن علمه: ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط. انتهى

ويقول: ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾[الأنعام:٥٩]، أي ويعلم كل ما في البحر من كائنات عجيبة حتّى لو كانت لا تُرى إلّا بالمجهر، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[الأنعام:٥٩]، سبحان الله ورقة في ليلة شاتية تسقط في منطقة نائية والله لا يعزب عنه مثقال ذرّة، كم من أوراق تسقط في اليوم والليلة والله يعلم عددها ويعلم متى وأين وكيف إلى غير ذلك، سبحان الله، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:٥٩]، حبّة في ظلمات الأرض مطروحة في باطن الأرض، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾[الأنعام:٥٩]، من الحبوب أو الحيوان، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾[الأنعام:٥٩]، من الحجار ونحوها: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]، في اللوح المحفوظ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢]، فهذه الأمور التي تحدث في الكون هي مكتوبة عند الله في كتاب، قال النبيّ : «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكَتَبَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»، مسند أحمد (٢٢٧٠٧) من حديث عبادة بن الصامت ، ثمّ يعمد هؤلاء وينكرون صفة العلم لله هذه الصفة العظيمة الجليلة التي يدلّ عليها الكتاب والسنّة والعقل والفطرة فإنّ هذا الكون يدلّ على وصف الله بالعلم فإنّ الجاهل لا يمكن أن يأتي بمثل هذه الأشياء، قال الله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[فاطر:٤٤]، لماذا؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

قال السعدي في تفسير آية الأنعام:

هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن

الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التيينشئ منها أصناف النباتات.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.

وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل مِنْ إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث. انتهى

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[فاطر:١١].

وهذا بيان لعلم الله العظيم بما في الأرحام كلّ الأناث، سواء كانت انثى إنسان، أوحيوان، أو طير وإذا قرأت في كتب الحيوان تجد العجب العجاب من أنواع الكائنات وأنواع الطيور وأنواع الحشرات فسبحان الله الخالق وسبحان الله العالم، فلا تحمل أنثى ولا تضع إلّا بعلمه ومع ذلك يُرسل الله الملائكة عند بدأ الحمل تكتب رزقه وأجله وعمره وشقي أو سعيد، وفي حديث جابر عند ابن ماجه (٢١٤٤)، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»، وفي حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)، قال النبيّ : «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢].

في هذه الآية بيان لعموم قدرة الله تعالى التي لا يخرج عنها شيء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٨٤].

وفيها بيان إحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات حتّى قلوبنا وما فيها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾[غافر:١٩-٢٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[النحل:١٩]، بل يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]، وفي البخاري (٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) عن عبدالله بن مسعود قال: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ قَالَ الْآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[فصلت:٢٢].

وهكذا في قول الله : ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[هود:٥]، فعن مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ: قَالَ سَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى

السَّمَاءِ فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ، أخرجه البخاري (٤٦٨١)، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٦٤)، ويعلم ما في القلوب ويطّلع عليها والآيات التي فيها إثبات علم الله الأزلي الأبدي كثيرة جدًّا والأحاديث كثيرة جدًّا فالآية تقول: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[الطلاق:١٢]، وأنّ قدرته نافذة وأنّه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض والله على كلّ شيء و(كلّ) من ألفاظ العموم وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٧)، قال الرسول فيما يرويه عن ربّه تعالى: «وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»، وتضمّنت هذه الآيات أسماء وصفات لله وكان أكثرها متضمّنة لإثبات صفة العلم لله ومثل هذه الصفة استحضارها يؤدّي إلى المراقبة وتحقيق هذا الباب العظيم فإنّنا نحتاج أن نعبدالله كأنّنا نراه فإن لم نكن نراه فإنّه يرانا، وفي آية المجادلة يقول الله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، وهكذا قال : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤].

ومنها قول الله : ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[التحريم:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩].

إثبات صفة القوّة

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٨].

صح عند أبي داود(٣٩٩٣)، وغيره عَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ :
«إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وفي الآية إثبات اسم (الرزّاق) لله ويقال (الرازق) وكلاهما من الأسماء الحسنى وعلى القاعدة كلّ اسم متضمّن لصفة فالرازق يرزق والرزّاق صفة مبالغة من الرازق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس:٣١].

وَكقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[الروم:٤٠].

وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الشورى:١٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[الشورى:١٩] وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[الرعد:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذريات:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[ق:١٠-١١].

وَهَذَا كُلُّهِ يُرَدُّ عَلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الرِّزْقَ من غيره، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل:٧٣].

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧].

وفِي صحيح مسلم (٢٨٠٤) عن عَبْدِاللهِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ**».

وقد كتب الله تعالى مقادير الخلق وأرزاقهم، على ما يأتي بيانه في باب القدر إن شاء الله تعالى، وعند أبي داود (٤٠٢٣) عن أَنَسٍ الجهني، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» قَالَ: «**وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، وفِي صحيح البخاري (٣٥٠٥) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَحَبَّ البَشَرِ إِلَى عَائِشَةَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِهَا، وَكَانَتْ لَا تُمْسِكُ شَيْئًا مِمَّا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللهِ إِلَّا تَصَدَّقَتْ.

وفِي مسلم (١٠٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**».

(ذو القوّة) أي صاحب القوّة وهذا دليل على وصف الله بصفة القوّة فإنّ القويّ هو ذو القوّة والرحيم هو ذو الرحمة والعزيز هو ذو العزّة، ففيه إثبات صفة القوّة لله وهي من الصفات الذاتية ومعنى الصفات الذاتية أنها الصفات التي يتصف الله بها أزلًا وأبدًا ولا تعلّق لها بمشيئة الله .

وفي الباب قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[هود:٦٦] وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾[الشورى:١٩]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾[البقرة:١٦٥].

وقوله تعالى: (المتين) هو من الأسماء الحسنى ورد في القرآن في موطن واحد فقط و(المتين) في حق الله تعالى: (المتناهي في القوة والقدرة).

وقال الخطابي: (والمتين) الشديد القوي الذي لا تنقطع قوته ولا تلحقه في أفعاله مشقة، ولا يمسه لغوب. انتهى

وهو في معنى العزيز أيضًا، يقول ابن كثير : (العزيز) الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه.

إثبات صفتي السمع والبصر

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على الممثّلة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطّلة، و(الكاف) فيه صلة وتوكيد، وتقدير الكلام: (ليس مثله شيء). وللعلماء فيها غير هذا القول، لكن هذا القول هو أحسن الأقوال، وهو كما قالت العرب:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ خُلُقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

أي: ليس مثل الفتى زهير أحد يوازيه في الفضائل، والنفي هنا لبيان عموم الكمال، فلمّا كان ليس كمثله شيء كان كاملًا من كلّ وجه .

وفيه إثبات اسم (السميع) وهو متضمّن لصفة السمع، قال الله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، وقال تعالى:﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[غافر:٥٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥]، وَقَالَ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:١٨١]، وَقَالَ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾[آل عمران:١٨١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّنِى

مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، وقال: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾[الزخرف:٨٠].

والله يسمع بسمع يليق بجلاله وهو محيط بالمسموعات، قالت عائشة : الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فأنزل الله قوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، رواه أحمد (٢٤١٩٥).

وقال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، معيّة اطلاع وعلم وسماع وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

وقد تقدّم معنا الحديث الذي في مسلم (يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أسررنا، قال: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إن أسررنا)، وهكذا إبراهيم يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾[مريم:٤٢]، فدلّ أنّ الإله يسمع ولو كان الإله معطّل من هذه الصفة لقال ذلك الكافر: (وربّك أيضًا لا يسمع ولا يبصر)، لكن لمّا كان إبراهيم معيّرًا لعُبّاد الأصنام لأنّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ دلّ على أنّ الله يسمع ويبصر وبيده النفع الضرّ، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[النساء:١٤٨]، وكان في حقّ الله تدلّ على الاستمرار، سميع بسمع، قد يقول قائل يلزم من إثبات السمع

الأذن نقول هذا ليس بلازم فصفات الله ليست كصفات خلقه وأمّا قول النبيّ : «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٤٤)، مسلم (٧٩٢)، والآذن بمعنى الاستماع.

ومما يدلّ على إثبات صفة السمع لله أنّ النبيّ لّما كان في بعض الطرق قال بعض الصحابة : (الله أكبر) يرفع بها صوته، قال : «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ**»، رواه البخاري (٢٩٩٢) و(٤٢٠٥) و(٦٣٨٤) و(٦٦١٠) و(٧٣٨٦)، مسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى . وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٧٢٨): تَلَا رَسُولُ اللهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء:٥٨]، رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ، قال أبوداود : (وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ)، وفي هذا الحديث بيان أنّ الله يسمع بسمع ويبصر ببصر حيث أكّده النبيّ بالإشارة ولا تقتضي هذه الإشارة التمثيل وإنّما أراد النبيّ تأكيد السمع والبصر، وقد وردت الإشارة في عدة أحاديث غير هذا، منها: ما أخرجه أحمد (٣/ ١٢٥) عن ثابت البناني أبي محمد، عن أنس، عن النبي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾[الأعراف:١٤٣] قال: هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر، فقال له حميد الطويل: ما تُريد من هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد، وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ثم تقول أنت: ماذا تريد إليه؟!

وأخرج الحديث الترمذي (٨/ ٤٥١) من طريق حماد عن ثابت، عن أنس أن النبي قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[الأعراف: ١٤٣] قال حماد: هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أُنْمَلة إصبعه اليمنى قال: فانساخ الجبل، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

وأخرج البخاري (٧٤٠٧) من حديث عبدالله بن عمر قال: وذكر الدجال عند النبي فقال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**».

وفي مسلم (٢٧٨٨) من حديث عبدالله عمر يحكي عن رسول الله قال: «**يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ** - وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا - **أَنَا المَلِكُ**» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ؟

وفي مسند أبي يعلى (٢٣١٨) من طريق الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ رَفَعَهُ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، تَخَافُ عَلَيْنَا، وَقَدْ آمَنَّا بِمَا جِئْتَ بِهِ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ**» وَأَشَارَ الْأَعْمَشُ بِإِصْبَعَيْنِ.

وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري تحت باب رقم (٩) (باب وكان الله سمعيًا وبصيرًا) من كتاب التوحيد لعقبة بن عامر حديثًا قال: سمعت رسول الله يقول على المنبر: «**إِنَّ رَبَّنَا سَمِيعٌ بَصِيرٌ**» وأشار إلى عينيه، قال: وسنده حسن.

فالإشارة لتأكيد الصفة وقد بينّت حكمها في كتابي ضوابط تحديث العوام بأحاديث الأسماء والصفات ، واختلف أهل العلم في ذلك فذهب بعضهم إلى أنه يُشار فيما أشار فيه النبيّ ، وإذا كنت في موطن لا تخشى فيه التمثيل فلك أن تشير وإذا خشيت التمثيل فلا تشر وهذا اختيار شيخنا مقبل وشيخنا يحيى حفظه الله.

واستحضار مثل هذه الأدلّة بأنّ الله يسمع ويبصر ويعلم فيها موعظة عظيمة للعبدعلى أنّه يراقب الله في ليله ونهاره وسرّه وجهاره وأنّ الله لا تخفى عليه خافية وفي الآية إثبات صفة البصر لله فالله يبصر بعين وقد نقل الإجماع على إثبات العينين لله ، بل في الحديث الذي تقدّم قال : «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»، رواه البخاري من حديث ابن عمر (٤٤٠٢)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ، فيه دلالة على إثبات العينين لله ، عينان تليق بجلاله يبصر بهما ويرى بهما على ما يأتي بيانه وآيات إثبات السمع والبصر في القرآن أكثر ن أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر ومن سنّة النبيّ حديث عائشة ، الذي أخرجه البخاري (٣٢٣١) و(٧٣٨٩)، مسلم (١٧٩٥) أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ**

لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وفي مسلم(٤٠٤) عَنْ حِطَّانَ بْنِ عَبْدِاللهِ الرَّقَاشِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ صَلَاةً فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْقَعْدَةِ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أُقِرَّتِ الصَّلَاةُ بِالْبِرِّ وَالزَّكَاةِ؟ قَالَ فَلَمَّا قَضَى أَبُومُوسَى الصَّلَاةَ وَسَلَّمَ انْصَرَفَ فَقَالَ: أَيُّكُمُ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَأَرَمَّ الْقَوْمُ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمُ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟ فَأَرَمَّ الْقَوْمُ، فَقَالَ: لَعَلَّكَ يَا حِطَّانُ قُلْتَهَا؟ قَالَ: مَا قُلْتُهَا، وَلَقَدْ رَهِبْتُ أَنْ تَبْكَعَنِي بِهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا قُلْتُهَا، وَلَمْ أُرِدْ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ فَقَالَ أَبُومُوسَى: أَمَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ تَقُولُونَ فِي صَلَاتِكُمْ؟ إِنَّ رَسُولَ اللهِ خَطَبَنَا فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا. فَقَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ثُمَّ لْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذْ قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا وَارْكَعُوا، فَإِنَّ الْإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ، وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «فَتِلْكَ بِتِلْكَ وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ : سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَإِذَا كَبَّرَ وَسَجَدَ فَكَبِّرُوا وَاسْجُدُوا فَإِنَّ الْإِمَامَ يَسْجُدُ قَبْلَكُمْ وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «فَتِلْكَ بِتِلْكَ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْقَعْدَةِ فَلْيَكُنْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِ أَحَدِكُمْ: التَّحِيَّاتُ الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ للهِ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء:٥٨].

فيه أنّ الله يعظ عباده، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس:٥٧]، وهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[النساء:٥٨]، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون، فكلامه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت:٤٢]، وأفعال الله يُشتقّ منها صفات وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾[النساء:٥٨]، (كان) قال ابن عبّاس وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء:٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[النساء:١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء:١٣٤]، فَإِنَّ اللهَ سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْحَلْهُ غَيْرَهُ، (وَكَانَ اللهُ) أَيْ: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ. علقه البخاري ووصله غيره. كما أنّ (عسى) في حقّ الله تدلّ على الوقوع: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء:٧٩]. قال الطبري: و(عسى) من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شكّ أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع الأطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه

لصاحبه غارّ بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذ كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جلّ ثناؤه من صفته الغرور لعباده صحّ ووجب أن كلّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهى أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسى ولعلّ من الله واجبة. انتهى

إثبات صفة المشيئة

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[الكهف:٣٩].

في الآية إثبات صفة المشيئة لله وهي من الصفات الذاتيّة، قال الله : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، وقال : ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[المدثر:٥٦]، وقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾[البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام:١١٢]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام:١٣٧]، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[يونس:١٦]، وقال الله : ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾[الحج:٥] وقال تعَالَى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[فاطر:١] وكقَوْلِهِ جَلَّ وَعلَا: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار:٨] وقَوْلِهِ جلَّتْ عظَمَتُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى:٤٩-٥٠] وقَوْلِهِ تبَارَكَ وتعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾[العنكبوت:٦٢] وقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[النور:٣٥] وقَوْلِهِ : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨] في كثير من الآيات، وفي المأثور عن الشافعي أنه لما سئل عن القدر فقال:

مَـا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَمْ أَشَـأْ | وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَمْ تَـشَأْ لَمْ يَكُـنْ
خَلَقْـتَ الْعِبَـادَ عَـلَى مَـا عَلِمْـتَ | فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَـى وَالْمُسِنْ
عَـلَى ذَا مَنَنْـتَ وَهَـذَا خَـذَلْتَ | وَهَــذَا أَعَنْـتَ وَذَا لَمْ تُعِـنْ
فَمِـنْهُمْ شَـقِيٌّ وَمِـنْهُمْ سَـعِيدٌ | وَمِـنْهُمْ قَبِـيحٌ وَمِـنْهُمْ حَـسَنْ

وفي صحيح مسلم(٢٦٤٥) عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ، أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَاللهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَأَتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ يُقَالُ لَهُ: حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ، يَقُولُ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ**». وقال النبيّ : «**فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ، لَا مُكْرِهَ لَهُ**»، رواه مسلم (٢٦٧٩). وسَمِعَ رَسُولُ اللهِ رَجُلًا يَقُولُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «**بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، من حديث ابن عبّاس عند أحمد (١٩٦٤).

وفي البخاري(١٤٣٢) عن أَبِي مُوسَى قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ**».

وفي البخاري (٧٤٦٥)، ومسلم (٧٧٥) عن عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «**أَلَا تُصَلُّونَ؟**»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤].

وفي صحيح البخاري(١٥٩٥) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ لَيْلَةً، فَقَالَ: بَعْضُ القَوْمِ: لَوْ عَرَّسْتَ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلَاةِ**» قَالَ بِلَالٌ: أَنَا أُوقِظُكُمْ، فَاضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ، وَقَدْ طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «**يَا بِلَالُ، أَيْنَ مَا قُلْتَ؟**» قَالَ: مَا أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُهَا قَطُّ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ، يَا بِلَالُ، قُمْ فَأَذِّنْ بِالنَّاسِ بِالصَّلَاةِ**» فَتَوَضَّأَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَابْيَاضَّتْ، قَامَ فَصَلَّى.

والأحاديث في الباب كثيرة، وإنما هذه إشارات، وبالله التوفيق.

قوله: (قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ) فيه إثبات المشيئة لله ، وهذه الجملة تتمت محاورة ذكرها تعالى حيث قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ

ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[الكهف:٣٢-٤٤].

وقال النبيّ : «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، من حديث أبي موسى في البخاري (٤٢٠٥)، مسلم (٢٧٠٤).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٠٠): لأنّ معنى لا حول لا تحويل للعبدعن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله وقيل معنى لا حول لا حيلة وقال النووي هي كلمة استسلام وتفويض وان العبدلا يملك من امره شيئا وليس له حيلة في دفع شر ولا قوة في جلب خير الا بإرادة الله تعالى. اهـ

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

فيها بيان لما تقدم من إثبات مشيئة الله تعالى النافذة، وعن أنس بن مالك عند البيهقي في شعبه (٨٠٧٠)، قال: خدمت رسول الله عشر سنين فما أرسلني في حاجة قط فلم يتهيأ لي إلا قال لو قضي لكان ولو قدر لكان. أي: لو شاءه الله قدرًا كونيًّا لكان واقعًا.

وإثبات المشيئة يدخل في باب الإيمان بالقدر وإن كانت من صفات الله ، فيؤمن بمشيئة الله النافذة وأنّ مشيئة العباد مردّها إلى مشيئة الله، وفيه أنّ الله يفعل ما يريد والذي يفعل ما يريد أكمل من الذي لا يفعل ما يريد ولهذا قال الله في وصف نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦]، فيغضب ويرضى ويسخط ويضحك وينزل ويتكلّم ويرحم، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ صيغة مبالغة من الفعل،وفيه أنّ الناس ينقسمون إلى قسمين كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (٦٥٦٣)، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ اليُمْنَى: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا**»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا**

يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «**فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**».

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩] وهنا المشيئة ليست على الإذن أو الإباحة والتخيير بل هو على التهديد: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٨٤]، ومما يدلّ على ذلك أنّ الله قال في آخرها: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩]، في هذه الآية تهديد ووعيد لمن خالف أمر الله وخالف توحيده.

إثبات صفة الإرادة لله عز وجل

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة:١].

في الآية أنّ التحليل والتحريم حق الله فالأمر أمره والملك ملكه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]، وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (٥٦٥)، قَالَ: لَمْ نَعْدُ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ فَوَقَعْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ فِي تِلْكَ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلًا شَدِيدًا، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ الرِّيحَ فَقَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ**» فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا**».

وقد أنكر الله تعالى على المشركين بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩].

وفي الآية من الأحكام أنّ الله أحلّ بهيمة الأنعام وهي البقر والغنم والإبل بالإجماع ولا تصحّ الأضحية والهديُ والعقيقة إلّا منها، وذهب بعض أهل العلم لى دخول الوحش المُصاد فيها والتحقيق أن الأنعام هي الأزواج الثمانية، قال الله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[الأنعام:١٤٣-١٤٤]، فهذه الآية تضمّنت التفصيل في بهيمة الأنعام وأن منها الذكر والأنثى، فمن كلّ زوج صنفان، ومسائل الأنعام بل وجميع الحيوان والطير المباح منها وغير المباح بابه واسع وعلمه غزير قد بينت بحمد الله كثيرًا منه في شرحي على منظومة ما يحلّ وما يحرم من الحيوان .

وقوله: (إلّا ما يتلى عليكم) أي: من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[المائدة:٣]، وقال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾[الأنعام:١٤٥]، وقوله إنّه رجس يعود على الخنزير وعلى لحمه ودمه وعظمه وشعره ومن هنا تعلم أنّه لا يجوز استعمال الفرشاة التي تُصنع من شعر الخنزير مع أنّها من أحسن الأنواع عند الأطبّاء.

وقوله: (غير محلّي الصيد وأنتم حُرُم) هذه المسألة لها أحكام كثيرة وهو أنّه من قتل صيدًا وهو مُحرم أو أعان عليه أو أشار يلزمه الفدية يحكم بها ذوا عدلٍ من المسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[المائدة:٩٦]، ففي

الآية أنّ كلّ حيوان البحر حلال ذُبح أو لم يُذبح، وُجد طافيًا أو غير طافي، وأمّا صيد البر فحرام على المُحرم إذا صاده أو صُيّد له ففي الصحيجين عن أَبِى قَتَادَةَ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ حَاجًّا وَخَرَجْنَا مَعَهُ، قَالَ: فَصَرَفَ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُوقَتَادَةَ فَقَالَ: «**خُذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ حَتَّى تَلْقَوْنِى**». قَالَ فَأَخَذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ. فَلَمَّا انْصَرَفُوا قِبَلَ رَسُولِ اللهِ أَحْرَمُوا كُلُّهُمْ إِلَّا أَبَا قَتَادَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُحْرِمْ فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَوْا حُمُرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُوقَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا فَنَزَلُوا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا، قَالَ: فَقَالُوا أَكَلْنَا لَحْمًا وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ، قَالَ: فَحَمَلُوا مَا بَقِىَ مِنْ لَحْمِ الأَتَانِ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا أَحْرَمْنَا وَكَانَ أَبُوقَتَادَةَ لَمْ يُحْرِمْ فَرَأَيْنَا حُمُرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُوقَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا فَنَزَلْنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهَا فَقُلْنَا نَأْكُلُ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ. فَحَمَلْنَا مَا بَقِىَ مِنْ لَحْمِهَا. فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِشَىْءٍ**». قَالَ قَالُوا لَا، قَالَ: «**فَكُلُوا مَا بَقِىَ مِنْ لَحْمِهَا**».

ثمّ قال: (إنّ الله يحكم ما يريد) أي: يشرع ما يريد، وساق هذه الآية على إثبات مشيئة الله الموافقة لإرادته الكونية والإيمان بالإرادة الشرعية وبالتفريق بين الإرادتين الكونية والشرعية تسلم من ضلال المعتزلة القدرية ومن ضلال الجبرية وإن لم تُفرّق بين الإرادتين وقعت في الضلال البعيد، وفيهما عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِىِّ أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالأَبْوَاءِ - أَوْ بِوَدَّانَ - فَرَدَّهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ قَالَ فَلَمَّا أَنْ رَأَى رَسُولُ اللهِ مَا فِى وَجْهِى قَالَ: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ**».

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام: ١٢٥].

قال السعدي :

يقول تعالى -مبينا لعباده علامة سعادة العبدوهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله-: إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذا به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقا حرجا. أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه، عدم إيمانهم، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، يسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى. انتهى

والإرادة في الآية كونيّة وهي المرادفة للمشيئة فلا بدّ أن تقع، فمن يرد الله هدايته وتوفيقه وتسديده لا بدّ أن يسلك هذا السبيل ويشرح صدره للإسلام وللإيمان ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾[الحجرات:٧]، والله هو الذي يهدي من يشاء فضلا ويُضلّ من يشاء عدلا والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق وهي خاصّة بالله على ما تقدّم بيانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].

التفريق بين الإرادتين:

١- **فالإرادة الكونية:** هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾[الرعد:١١].

٢- **والإرادة الشرعية:** تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[النساء:٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾[المائدة:٦].

والفرق بينهما:

١- الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

٢- الإرادة الكونية لابد أن تقع.

- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

٣- الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة.

- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٤- الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.

٥- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه.

- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.

٦- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفترقان في حق العاصي مثاله إيمان أبي بكر أراده الله كونًا وشرعًا، إما كونه أراده كونًا فوقوعه دليل عليه، وأما أنه أراده شرعًا، فالإيمان محبوب إلى الله، بينما إيمان أبي جهل أراده الله شرعًا ولم يرده كونًا، ولو أراده كونًا لوقع[1].

لأنّنا نعلم أنّ مراد الله الكوني لا بدّ أن يقع كما في حديث ابن عبّاس، قال النبيّ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ**

(١) انظر منهاج السنة (٣/ ١٨٠-١٨٣)، الطحاوية (١١٤)، الإيمان بالقضاء والقدر (٩٧-٩٩).

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، الترمذي (٢٥١٦) ومسند أحمد (٢٦٦٩).

إثبات صفة المحبّة لله عز وجل

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:١٩٥].

في هذه الآية الأمر بالإحسان العام والحثّ عليه وهو **نوعان**:

الأوّل: إحسان فيما بين العبدوبين الله :

ويكون بتوحيد الله تعالى وطاعة أمره والانتهاء عن نهيه وزجره، وهذا النوع يدخل دخولا أوليا في الإحسان المأمور به قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧].

الثاني: إحسان يكون بين العباد:

ويكون بكفّ الأذى وبذل الندى وطلاقة الوجه، وهو المعبر عنه بحسن الخلق، وسيأتي الكلام عليه في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

فالإنسان محتاج إلى تطبيق الإحسانين وأهمّها الذي بينه وبين الله وكثير من الناس يهتمّ بتطبيق الباب الثاني ويظنّ أنّ المطلوب هو الإحسان إلى الخلق فيعطي لهذا ويُكرم هذا وهو مضيّع لباب العقيدة، مضيّع لحقّ الله .

والأدلّة في فضل الإحسان كثيرة، منها حديث شدّاد بن أوس عند مسلم (١٩٥٥)، قال النبيّ : «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»، ومنها حديث أبي الدرداء أخرجه أبوداود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، قال النبيّ : «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ العبدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ**»، ومنها حديث أبي هريرة عند ابن عساكر (٨٩٥) قال النبيّ : «**إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّى مَنْزِلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا فِي الدُّنْيَا**»

وفي الآية إثبات صفة المحبّة لله وهي من الصفات الثبوتية الفعلية وقولنا الثبوتية لأنّها ثابتة لا منفية وقولنا الفعلية لأنّها متعلّقة بمشيئة الله ، يُحبّ من شاء متى شاء، وهي منقسمة إلى قسمين:

- **محبّة مقيّدة بوصف**: مثل ما في هذه الآيات، ومثل قزله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة:٥٤].

- **محبّة مقيّدة بشخص**: مثل ما صح في فضل علي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٣٠٩٠) ومسلم (٢٤٠٦)، قال النبيّ : «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**».

قال :

﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩].

فعل أمر بالإقساط وهو العدل ويأتي من قَسَطَ بمعنى الجور، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ.

وفيه إثبات صفة المحبّة على ما تقدّم والمقسطون هم العادلون، وقد أمر الله بالقيام بالقسط، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[المائدة:٨]، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١٨٢٧)، قال النبيّ : «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** ، **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**».

وفي صحيح مسلم (٢٨٦٥): عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**».

قال :

﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧].

الآية في شأن الكفار الذين بينهم وبين رسول الله عهد، وميثاق مع أن حال الكفار نقض العهود والمواثيق بل حالهم كما قال الله تعالى:. ﴿كَيْفَ

وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾[التوبة:٨-١٠]

وفيها إثبات صفة المحبّة لله وأنّه يُحبّ المتّقين، وفي صحيح مسلم (٢٩٦٥): عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَالتَّقِيَّ الْغَنِيَّ الخَفِيَّ».

ومن أسباب **محبة الله للعبدمحبته في الله**، أخرج أبوداود (٥١٢٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : «**أَعْلَمْتَهُ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**أَعْلِمْهُ**» قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**» أبوداود (٥١٢٤).

والمتّقون هم الذين يجعلون بينهم وبين مسخطات الله وقاية أو بينهم وبين النار وقاية، وأعظم ما تتحقّق به التقوى العلم، والنبيّ يقول: «**وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**» من حديث عائشة عند مسلم (١١١٠).

والتقوى من أسباب الفلاح، قال الله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ

أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[البقرة:٢-٥]

ومن أسباب التمييز بين الحقّ والباطل، قال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الأنفال:٢٩].

ومن أسباب تفريج الكرب وقضاء الحاجات وتيسير الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[الطلاق:٤-٥].

وهي من أعظم أسباب دخول الجنة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «**الفَمُ وَالفَرْجُ**». أخرجه الترمذي (٢٠٠٤). إلى غير ذلك.

قوله :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

فيه إثبات صفة المحبّة، وفيا بيان فضيلة التوبة، والتوّاب التوبة، وقد أمر الله تعالى بالتوبة ورغب فيها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١]، وفضلها عظيم قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾[الفرقان:٦٨-٧١]، وهي واجبة على الفور من جميع الذنوب، وتأخيرها معصية تحتاج إلى توبة.

وللتوبة شروط خمسة ذكرتها مع أدلتها في كتابي شروط التوبة إلى الله .

الأوّل: الإخلاص.

لأنّ التوبة عبادة والعبادة يُشترط فيها الإخلاص والدليل على ذلك قول الله تعالى:﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟

ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥] وقول الرسول : «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، من حديث عمر عند البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

الثاني: أن تكون في زمن تُقبل فيه التوبة.

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام:١٥٨] ففي صحيح مسلم (١٥٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ». ولحديث النبيّ : «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»، من حديث ابن عمر أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١١٠)، ولحديث صفوان بن عسّال عند أحمد (٣٠/ ٢٤)، وقال النبيّ : «إِنَّ اللهَ جَعَلَ بِالمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةُ عَرْضِهِ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يُغْلَقُ مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ».

الثالث: أن يُقلع عن الذنب.

لأن الذي يتعاطى الذنب ويزعم أنه تائب هذا عنده استهزاء بشرع الله وكاذب في دعواه.

الرابع: العزم على عدم العود.

ويكون بالقلب فيعزم أنّ لا يعود إلى هذا الذنب أبدًا وهل هو من شروط التوبة أنّ لا يقع منه العود مطلقا، وقد قال بهذا القول بعض أهل العلم، والصحيح أنّ الله يقبل التوبة إن توفّرت شروطها وإن عاد ما لم يكن عازما على العود، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة ، قال الرسول : «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»، رواه البخاري (٧٥٠٧)، مسلم (٢٨٥٧).

الخامس: الندم.

قد جاء حديث لا يثبت عن النبي بلفظ: «التَّوْبَةُ نَدَمٌ»، وهو موقوف على عمر ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (٢٧٧٥١) و(٢٧٧٥٢).

هذه شروط التوبة في الذنوب التي بين العبدوبين الله فإذا كان الذنب بين العبدوغيره من العباد. فيلزم شرطا سادسًا وهو ردّ الحقوق إلى أهلها والتحلّل من ذلك.

فإن كان مالًا ردّه وإن كانت غيبة اختلف العلماء فقال بعضهم يستسمح منه وقال بعضهم إن كانت الغيبة وصلته يستسمح منه وإن كانت لم تصله

يستغفر له، لا يسيء إليه مرّتين مرّة بغيبته ومرّة بأذيّته حين يذهب ويقول أنا اغتبتك وقلت فيك وقلت فيك، هذه أذيّة فوق الأذيّة لكن يستغفر له وإن بلغه الكلام في يوم من الأيّام يقول والله وقعنا فيك ونطلب منك العُذر وإن كان زنا أو لواط أو غير ذلك فهنا لا يجوز أن يذهب ويتحلّل ربّما يُفسد على الرجل أهله أو تحصل مشاكل عظيمة ولكن يتوب إلى الله ويستغفره ويُكثر من ذلك لعلّ الله أن يتجاوز عنه.

فإن كان الذنب بدعة يُضاف إلى ما تقدّم من الشروط، شرطين مذكورين في كتاب الله :

الأوّل: الإصلاح.

الثاني: البيان.

لقول الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[البقرة:١٥٩-١٦٢].

قال السعدي : هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله: ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على الحق المظهرات له، ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا الناس ما منّ

الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته. ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي رجعوا عما هم عليه من الذنوب، ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضًا، حتى يبين ما كتمه، ويبدي ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة، تاب الله عليه، لأنه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: الرجاع على عباده بالعفو والصفح، بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع، إذا رجعوا، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفا وكرما، هذا حكم التائب من الذنب. انتهى

فإن كان الذنب كفرًا فتكون التوبة منه بالإيمان قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال:٣٨]، وهل التوبة من الكفر تهدم جميع الذنوب أم لا بدّ أن يتوب من كلذ ذنبٍ بعينه؟ الصحيح أنه إن تاب توبة مجملة من الكفر إلى الإسلام فإنّها تهدم جميع ذنوبه لحديث عمرو بن العاص رواه مسلم (١٢١)، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**».

ولكن إن أسلم من الكفر وكان لاجًّا في الزنا أو مريدًا للاستمرار في الزنا أو الخمر هنا يلزمه أيضًا التوبة من الذنب وتكون التوبة من الكفر مكفّرة للذنوب التي لم يعزم عليها لحديث عَبْدِاللهِ بن مسعود في مسلم (١٢٠)، قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهِ : يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «**أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ، أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ**».

وإن كان الذنب نفاقًا وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر فعلى الشروط التي تقدّمت مع ما هو مبين في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء:١٤٥-١٤٧].

قال السعدي : يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلِمُوا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما. انتهى

وقوله: (يحبّ المتطهّرين) المراد بالتطهّر هنا طهارة البدن وتدخل فيها طهارة القلب قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر:٤]، وقد ذُكر في أسباب النزول أنّها أُنزلت في شأن أصحاب قباء كانوا إذا قضوا حوائجهم استنجوا بالحجارة والماء ولا يثبت لأنه مرسل عن عطاء.

وأخذ الزينة، والنظافة داخل تحت عمومات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف:٣١]، وفي صحيح مسلم (٩١): عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**».

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾[المائدة:٥٤].

قال ابن كثير (٣/ ١٣٥):

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ وَأَشَدُّ مَنْعَةً وَأَقْوَمُ سَبِيلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[مُحَمَّدٍ: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾[النِّسَاءِ:١٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾[إِبْرَاهِيمَ:١٩-٢٠] أَيْ: بِمُمْتَنِعٍ وَلَا صَعْبٍ. وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ أَيْ: يَرْجِعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: نَزَلَتْ فِي الْوُلَاةِ مِنْ قُرَيْشٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الرِّدَّةِ أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ وَاللهِ أَبُوبَكْرٍ وَأَصْحَابُهُ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَالَ أَبُوبَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَيَّاشٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ هُمْ أَهْلُ الْقَادِسِيَّةِ. وَقَالَ لَيْث بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: هُمْ قَوْمٌ مِنْ سَبَأٍ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُوسَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ الْأَجْلَحِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، ثُمَّ مِنْ كِنْدَة، ثُمَّ مِنَ السَّكُون.

وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُصَفَّى، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ -يَعْنِي ابْنَ حَفْصٍ- عَنْ أَبِي زِيَادٍ الْحَلْفَانِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدر، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ قَالَ: سُئِل رَسُولُ اللهِ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ قَالَ: «**هَؤُلَاءِ قَوْم مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ، ثُمَّ مِنَ السكون، ثم من تُجِيب**». وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ شَبَّة، حدثنا عَبْدُ الصَّمَدِ -يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الْوَارِثِ- حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سِمَاك، سَمِعْتُ عِيَاضًا يُحَدِّث عَنِ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**هُمْ قَوْمُ هَذَا**». وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِنَحْوِهِ.

قلت: وأخرجه ابن أبي عاصم الآحاد والمثاني (٤/ ٤٦٠).

٢٥١٥ - حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَى ﷺ: «هُمْ قَوْمُ هَذَا» يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. انتهى

وقال السعدي (ص: ٢٣٥):

يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه. وأن لله عبادًا مخلصين، ورجالًا صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا، وأقواهم نفوسًا، وأحسنهم أخلاقًا، أجلُّ صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

كما أن من لازم محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**».

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدًّا، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبدًا قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم منَّ الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير -أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرُهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وفرعًا. انتهى

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:٤].

فيها إثبات محبّة الله وأنّه يُحِبّ المقاتلين المجاهدين في سبيله وفيه فضيلة الجهاد في سبيل الله، وفي المستدرك عن عبدالله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب النبي فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ③ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ إلى آخر السورة وقرأها علينا رسول الله .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾[التوبة:١١١]، وقال : ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[الحديد:١٠]، وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الصف:١٠-١١]، والشاهد من سوق هذه الآيات إثبات صفة المحبّة لله.

قوله :

> وَقَوْلُهُ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾[آل عمران:٣١].

ساقها المصنف مدللا بها على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وفيها بيان أنّ من علامة محبّة الله اتباع النبيّ وبهذا عُلم أنّ الله لا يقبل عملًا من أعمال العباد إلّا بتوفّر شرطين عظيمين:

- **الأوّل:** الإخلاص.
- **الثاني:** المتابعة.

قال السعدي : وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية،

والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص. انتهى

إثبات صفة الودّ لله عز وجل

قوله :

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج:١٤].

في الآية إثبات اسمى الغفور، والودود وقد ذكر الغفور في القرآن منها قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[القصص:١٦]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود:٩٠].

قال السعدي : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤] والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبدمن هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه. انتهى

وفيها إثبات صفة المغفرة لله ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الكهف:٥٨]، وفيها إثبات صفة الودّ لله وهي صافي المحبّة فالمحبّة مراتب ومنها الودّ والخُلّة:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي　　وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

فأعلى درجات المحبّة الخلّة ومنها الودّ وهو صافي المحبّة وكلّ هذه الآيات مع ما ذكرنا من الأحاديث إثبات صفة المحبّة لله وهي من الصفات الفعلية، ومن أسباب المحبّة التقرّب إلى الله بالعبادات، قال النبيّ فيما يرويه عن ربه تعالى: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٢).

ومن الأحاديث في إثبات صفة المحبة قول النبيّ : «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٣٧)، وأيضًا حديث عائشة وأبي هريرة وعمران بن حصين وأبي موسى وألفاظهم متقاربة قال الرسول : «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»، رواه البخاري (٦٥٠٧)، مسلم (٢٦٣٨)، وهذه الأحاديث في الصحيح.

وطريقة المعتزلة والأشاعرة أنّهم يُعطّلون الله من صفاته فالمعتزلة ينفون جميع الصفات والأشاعرة لا يثبتون إلّا سبعة صفات وهي (الحياة، والقدرة، الإرادة، والعلم، والسمع، والصبر، والكلام)، ومع ذلك لا يثبتونها بدلالة الكتاب لأنها ظنّية الدلالة، والكتاب والسنّة عاضدًا فقط لعقولهم فيقولون نحن نثبت لله صفة القدرة، لأنّ هذا العالم وما فيه يدلّ على أنّه قادر والتخصيص مثاله رجل أبيض وأسود وامرأة وشجرة وكلب وحمار وحجر يدلّ على الإرادة والإتقان يدلّ على العلم، وهذه الصفات لا يتّصف بها إلّا الحيّ، والحيّ إمّا أن يكون سميعًا، بصيرًا، متكلّمًا، أو العكس وهذه صفات كمال، وضدها نقص، وينفون عن الله بقية الصفات لا سيما الفعلية، ومن هذا الباب نفي صفة المحبّة ويُفسّرونها بإرادة الإحسان، بينما المعتزلة يفسرونها

بالإحسان، وهذا تفسير باللازم وهو تفسير باطل يردّه الكتاب والسنّة والإجماع.

فإنّ الله أضاف المحبّة إلى نفسه وهي معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف، وممّا يدلّ على أنّه يُحبّ أولياءه أنّه يُكرمهم ويُحسن إليهم.

القول في صفة الرحمة

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[النمل:٣٠].

هذه الآية وما بعدها متضمنة لإثبات صفة الرحمة، واسم الله واسم الرحمن من الأسماء الخاصّة بالله لا يجوز أن يُسمّى به غيره ولا نعلم أحدًا تسمّى بالرحمن إلّا مسيلمة الكذّاب لعنه الله سمّى نفسه رحمان اليمامة، والكفار كانوا يثبتون بعض الأسماء والصفات ولمّا ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[الفرقان:٦٠] قالوه مكابرة وإلا ففي أشعار بعضهم:

(أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا)

ورحمة الله صفة من صفاته غير مخلوقة فإن استدلّ مستدلّ بحديث أبي هريرة ، قال الرسول : «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»، أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢)، فهذه الرحمة مخلوقة، أمّا الرحمة المضافة إلى الله فهي صفته، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ : قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ : «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»، البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤)، وقال النبيّ : «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم**

الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، من حديث عبدالله بن عمرو عند أبي داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، مسند أحمد (٦٤٩٤)، وقال عيله الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ لَـمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٢٢) واللفظ له ومسلم (٢٧٥١).

قال :

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧].

هذا دليل على سعة رحمة الله وفيه أنّ الإنسان لا يقنط من رحمة الله ويدع ربّه أن يعفو عنه ويتجاوز عنه ويتوسّل إليه برحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء وفي دعاء الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[غافر:٧]، ويشرع سؤال الله بعلمه: «اللهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الموْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»، من حديث عمّار بن ياسر عند النسائي (١٣٠٥) و(١٣٠٦)، ومسند أحمد (١٨٣٢٥).

ومن أنواع التوسّل التوسّل بالأسماء والصفات قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠].

ومن أنواع التوسل المشروع التوسّل بالعمل الصالح: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٣]، وهكذا ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر، عَنْ رَسُولِ اللهِ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً للهِ فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِيَ صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الآخَرُ اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَاللهِ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفْتَحِ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ. وَقَالَ الآخَرُ اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ

اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي. فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي. قُلْتُ اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا. فَقَالَ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا. فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ».

والنوع الثالث من التوسّل: التوسّل بدعاء الرجل الصالح، عن عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: قُلْتُ بَلَى، قَالَ: هَذِهِ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَأَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ، وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ، دَعَوْتُ اللهَ لَكِ أَنْ يُعَافِيَكِ»، قَالَتْ: لَا، بَلْ أَصْبِرُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ - أَوْ لَا يَنْكَشِفَ عَنِّي - قَالَ: فَدَعَا لَهَا. رواه البخاري (٥٦٥٢)، وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ». رواه مسلم (٢٥٤٢)، والتوسّل المبتدع هو التوسّل بجاه النبيّ أو بجاه الصالحين فإنّ جاه النبيّ مختصٌّ به وكذلك جاه الصالح مختصٌّ به فكيف تقول: (اللهمّ أتوسّل إليك بجاه محمّد) بل التوسل المشروع هو التوسل بالإيمان بالنبي قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران:٥٣].

وأمّا التوسّل بدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو شرك أكبر مخرج من الملّة كأن يقول: (يا محمّد اغفر لي، أو يا حسيناه أجب لي) أو غير ذلك.

قال :

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[الأحزاب:٤٣]، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف: ١٥٦].

هذه الآية تدلّ كسابقتها على إثبات صفة الرحمة لله ، وسعة رحمته للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، هذه الآية تضمّنت أصناف الذين يرحمهم الله فإذا أردت معرفة الآية فانظر إلى سياقها، فمثلًا قول الله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[التوبة:١١١]، يستدلّ بعضهم بهذه الآية على فضيلة الجهاد في سبيل الله ولو نظرت إلى الآية التي تتبع هذه الآية لوجدت أنّ الشراء يتعدّى إلى أصناف كثيرة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[التوبة:١١٢]، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣]، ومنهم المتقون: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٤-١٣٥].

قال :

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤].

وفي الحديث قال النبيّ : «إِنَّ اللهَ لَـمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٢٢)، كتب على نفسه وأوجب تفضّلاً أنّ رحمته تسبق غضبه

قال :

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧].

فيه إثبات اسم الرحيم لله وفيه إثبات اسم الغفور وإثبات صفة المغفرة قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الكهف:٥٨]، أي صاحب الرحمة المتصف بها وفي الحديث قال النبيّ : «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، من حديث ابن عمر عند أبي داود (١٥١٦)، الترمذي (٣٤٣٤)، ابن ماجه (٣٨١٤)، مسند أحمد (٤٧٢٦).وفي الحديث قال النبيّ : «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩)، وكان النبيّ يقول: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ

وَسِرَّهُ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٤٨٣)، ودعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠].

قال :

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

من أسماء الله (الخير) و(الحافظ)، (الرحمن والرحيم) وقوله: ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، هذا من الأسماء المركبة، وكذلك من الأسماء المزدوجه، فله كمال من إفراده، وكمال من تركيبه، واقترانه، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على أنّ الأسماء المركّبة مما يُدعَى اللهُ بها، ومنها: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤]، و: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، و﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾[آل عمران:٩]، و﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[الأنعام:٧٣]، و(مقلّب القلوب، مصرّف القلوب).

وصفة الرحمة صفة ذاتية من حيث تعلّقها بالذات وصفة فعلية من حيث آحادها، والعجب من الأشاعرة حيث يُثبتون صفة الإرادة بالعقل ويُنفون صفة المحبّة وصفة الرحمة مع أنّنا لو استخدمنا الدلالة العقلية على إثبات صفة الإرادة وإثبات صفة الرحمة والمحبة لوجدنا أن دلالتها على صفة الرحمة أقوى من دلالة الاختصاص على الإرادة فإنّنا نرى أنّ الله يرحم أولياءه ويرزقهم ويوفّقهم ويهديهم ويُسدّدهم، ويدافع عنهم وينصرهم، ويُنزّل عليهم الأمطار، وينبت لهم الثمار، ويأتيهم بالأرزاق.

وقوله: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دليل على أنّ عدد أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا وبيانه أنّك إذا تتبّعت القرآن والسنّة وجدت أنّ أسماء الله المذكورة في القرآن مع الأسماء المركّبة أكثر من تسعة وتسعين اسمًا فإمّا أن يقول أصحاب هذا القول أن هذه ليست أسماء لله فيُلحدون وإمّا أن يقولوا إنّها أسماء لله فيُخصمون.

إثبات صفة الرضا لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[المائدة:١١٩].

صفة الرضا من الصفات الفعليه، وقد دلّ عليها الكتاب والسنّة والإجماع، وما ذكره من قول الله تعالى قد تضمّنته عدّة آيات في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة:٨]، وقال : ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، وقال الله : ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾[الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣]، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِأَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، رواه مسلم (٢٧٣٤)، وقال النبيّ : «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٧١٥)، وهكذا يقول الله لأهل الجنّة كما في الحديث القدسي: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا

وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩)، حديث أنس عند مسلم (٦٧٧) أنّ الصحابة الذين قُتلوا: «إِنَّ إِخْوَانَكُمُ الَّذِينَ قُتِلُوا قَالُوا لِرَبِّهِمْ: بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ، فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»، كلّ هذا يدلّ على إثبات صفة الرضا لله وفي حديث أبي هريرة الطويل في قصة الثلاثة من بني إسرائيل عند البخاري (٣٤٦٤)، مسلم (٢٩٦٤)، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»، وفي حديث عائشة عند مسلم (٤٨٦) أن النبيّ كان يقول: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، وفيه الاستعاذة بصفة الله الرضا، فمن زعم أنّ الرضا هو الإحسان فقد أبعد لأنّ الإحسان مخلوق والله يقول لنبيّه : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، وهذا الوجه من الأدلّة التي يخصم بها المبتدعة.

وَعَنْ جُوَيْرِيَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ : «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، رواه مسلم (٢٧٢٦).

إثبات صفة الغضب لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[النساء:٩٣].

فيه إثبات صفة الغضب لله وهي من الصفات الفعلية دلّ عليها القرآن والسنّة والإجماع، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[الأعراف:١٥٢]، وقال : ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[النور:٩]، وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة:١٤] في آيات كثيرات.

ويدلّ على إثبات صفة الغضب حديث الشفاعة وفيه: «**إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٤٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٤)، فكلّ نبيّ ممن يأتونهم يقول هذا القول، وفي الحديث الذي تقدّم: «**أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»، وفي البخاري(٢٣٥٦) ومسلم (١٣٨) عَنْ عَبْدِاللهِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»، قَالَ: فَدَخَلَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُوعَبْدِالرَّحْمَنِ؟ قَالُوا: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صَدَقَ أَبُوعَبْدِالرَّحْمَنِ، فِيَّ نَزَلَتْ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ أَرْضٌ بِالْيَمَنِ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ:

«هَلْ لَكَ بَيِّنَةٌ؟» فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَيَمِينُهُ»، قُلْتُ: إِذَنْ يَحْلِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[آل عمران:٧٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وفي مسلم (٢٥٠٤) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا، قَالَ فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فَأَتَاهُمْ أَبُوبَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي.

وفي البخاري (٤٠٧٣) ومسلم(١٧٩٣) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ، يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

وفي البخاري (٤٠٧٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ فِي سَبِيلِ اللهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ نَبِيِّ اللهِ »

وفي الآية عِظَمُ قتل المؤمن وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾[النساء:٩٣]، هذا إن جزاه وإلّا فإنّ من عقيدة المسلمين أنّ من مات على التوحيد وإن اقترف الذنب فإنّ مآله إلى الجنّة وقال بعضهم إن قتله مستحلًّا والصحيح إن استحلّ دمه فهو كافر سواء قتله أو لم يقتله وأحاديث النهي عن القتل كثيرة استوعبنا الكثير منها في كتاب أحكام قتل النفس المعصومة .

واللعن هو الطرد من رحمة الله وقد اتّفق العلماء على جواز اللعن بالوصف، كأن تقول لعنة الله على الكافرين، ولعنة الله على اليهود والنصارى، ولعنة الله على الكاذبين إلى غير ذلك، واختلفوا في لعن المعين، فذهب جمهورهم إلى تحريم لعن المعيّن المسلم والكافر الحيّ مع اتفاقهم على جواز اللعن بالوصف، ففي حديث ابن مسعود في البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (٢١٢٥) قال: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ لِخَلْقِ الله.

والصحيح جواز لعن المعين إذا فعل ما يستوجب ذلك لحديث عائشة عند مسلم (٢٦٠٠): دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا أَصَابَهُ هَذَانِ قَالَ: «**وَمَا ذَاكِ؟**»، قَالَتْ قُلْتُ لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا قَالَ: «**أَوَمَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّى قُلْتُ اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا**»، والنبيّ يقول كما في حديث أبي هريرة، عائشة وأنس وكلّها في صحيح مسلم (٢٦٠١): «**اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً**»، وهذا شرط اشترطه على الله لأنّ دعاء النبيّ يُستجاب غالبًا. ثم إن لعن المسلم دعاء بطرد مؤقّت من رحمة الله واللعن في حقّ الكافر طرد مؤبّد وهذا الترجيح أشار إليه شيخ الإسلام والإمام النووي رحمة الله عليهما ونقل هذا الخلاف ابن مفلح في كتاب (الآداب الشرعية)، وقد لعن السلف أبا حنيفة والكرابيسي، ولعنوا حفص الفرد وبشرًا المرّيسي ولعنوا غير واحد، وحديث

أبي الدرداء أن الرسول قال: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه مسلم عن (٢٥٩٨)، على ظاهره ودلالته والمراد به المكثرون اللعن لغير ما حاجة، فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ، قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ، وَتَضَايَقَ بِهِمِ الْجَبَلُ، فَقَالَتْ: حَلْ، اللهُمَّ الْعَنْهَا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ : «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»، مسلم (٢٥٩٦)، لأنّه علم بالوحي أنّ اللعنة قد أصابتها والدعوة وقعت عليها أو يكون ذلك زجرا عن الإكثار من لعن الدواب والأحجار والأبناء والزوجات، لكن الدعاء على المستحقّ جائز إجماعًا فكذلك اللعن للمستحقّ هو دعاء، ويأتي اللعن بمعنى السبّ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْه» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»، من حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (٥٩٧٣)، وقد نقلت ذلك في ردّي على طارق السويدان الذي زعم أنّه لا يجوز لعن اليهود والنصارى ويقول: (إيش هذه المهزلة: لعن الله اليهود والنصارى، أنا تتبعت القرآن من أوّله إلى آخره ما وجدت فيه: لعن الله اليهود والنصارى) لأنّه تتبع القرآن –إن كان صادقًا– تتبع الزائغين قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[المائدة:٧٨] وبنوا إسرائيل هم اليهود والنصارى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[الأحزاب:٦٤]، وفي الصحيحين البخاري (٤٣٥)،

مسلم (٥٣١) من حديث ابن عبّاس ، قال النبيّ : «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، وفي مسند أحمد شيء من ذلك نقلتها في ذلك الكتاب وبالله التوفيق وله الحمد.

إثبات صفة السخط لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾[محمد:٢٨]، ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[المائدة:٨٠].

فيها إثبات صفة السخط وهي من الصفات الفعلية إذ يفعلها الله متى شاء وفي الحديث: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ**»، من حديث عائشة عند مسلم (٤٨٦)، وقد تقدّم الحديث قال النبيّ : «**فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٤٦٤)، مسلم (٢٩٦٤).

وفي قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾[محمد: ٢٨]، بيان من الله تعالى أن من أسباب إحباط الله للعمل اتباع ما يسخط من أنواع المعاصي، وعظيم الأثام، وكراهة الوحي والخير.

قال السعدي : (ذَلِكَ) العذاب الذي استحقوه ونالوه: (بـ) سبب: (أنهم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ) من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه. انتهى

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:٨٠].

أي مما تعطوه من الغلو، واتباع الهوى، وترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتولي الكافرين، والمخالفين لدين رب العالمين، حتى أوصلهم ذلك إلى اللعن والطرد من رحمة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٧٧-٨١]

إثبات صفة الأسف لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[الزخرف:٥٥].

والأسف هو شدّة الغضب، والانتقام لازمه، وهذه الآية تُبيّن ذلك، يقول الله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي بالغرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٩٠-٩٢]، ويأتي الأسف بمعنى الحزن قال الله تعالى مخبرًا عن يعقوب : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[يوسف:٨٤]، وهذا يُنزّه الله عنه، وهذه الآية قاضية على تأويل المعطّلة الذين يقولون بأنّ الغضب هو الانتقام كما تقول المعتزلة أو إرادة الانتقام كما تقول الأشاعرة فهذه الآية فرّقت بين الغضب ولازمه، وفي الآية بيان عظم انتقام الله من قوم فرعون لّما طغوا فأغرقهم في البحر نكالًا وبطشًا بهم.

فإن قالوا الغضب هو الانتقام قلنا اقرأ الآية على هذا التفسير سيكون (فلمّا انتقمنا انتقمنا منهم) هذا الكلام على هذا التقدير فيه ركاكة لا يقوله أسمج العرب فكيف بكلام الله الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]، فعُلم أنّ الانتقام من لوازم الغضب.

إثبات صفة الكراهة لله عزوجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾[التوبة:٤٦].

فيه إثبات صفة الكره لله ، ويدل عليها قول النبيّ : «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»، من حديث المغيرة بن شعبة عند البخاري (١٤٧٧)، مسلم (٥٩٣)، وهي من الصفات الفعلية وفيه إثبات صفة التثبيط لله وهي من الصفات الفعلية، يُثبّط المنافقين ومن إليهم ممّن في خروجهم ضرر على الإسلام والمسلمين قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣]، وقال : ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾[التوبة: ٤٧-٤٨]، ومع ذلك لما كان الله علما بسرائرهم كره انبعاثهم فثبّطهم، وهذه من حكمة الله ولُطفه بعباده المؤمنين.

إثبات صفة المقت لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف:٣].

ومثلها في إثبات صفة المقت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[غافر:١٠].

وفي حديث عياض بن حمار المشاجعي عند مسلم (٢٨٦٥)، قال النبيّ : «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»، فنثبت هذه الصفة على ظاهرها والمقت هو أشد البغض ولله مقتٌ يليق بجلاله، كما أنّه موصوف بمحبّة ورضا وسخط يليق بجلاله، وما أضيف إلى الله من الأفعال يشتق له منه صفة، والله فعّال لما يريد فأفعاله لا منتهى لها وكذلك صفاته ولهذا كان باب الصفات أوسع من باب الأسماء. والمقت والكره والمحبّة والغضب والسخط والرحمة والرضا معانٍ تقوم بغيرها فتكون إضافتها إلى الله إضافة صفة إلى موصوف على ما هو مقرّر من قواعد أهل السنّة والجماعة وفي الآية أنّ القائل بالحقّ ينبغي له أن يكون مطبّقًا له فإنّ الله يمقت ويكره الذي يقول ما لا يفعل وفي الحديث قال النبيّ : «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ**

الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»، من حديث أسامة بن زيد عند البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم، وقد جاء عند الحاكم في مستدركه (٢٨٩٩) عن عبدالله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب النبي فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:١-٤] إلى آخر السورة وقرأها علينا رسول الله . وفي الآية التي بعدها إثبات صفة المحبّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:٤]، والذي يقول الحقّ ويعمل بخلافه آثم، قال النبيّ : «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ**»، من حديث أنس في مسند أحمد (١٢٢١١)، خطباء ووعّاظ، لكنّهم تُقرّضهم ألسنتهم ومشافيرهم، لأنّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ومع ذلك يتعاطون المنكر ويتركون المعروف، وفي حديث ثوبان الذي أخبر فيه النبيّ بقوله: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**»، رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، عندهم أعمال صالحة من قراءة القرآن والصيام والحجّ والقيام وطلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يجعلها الله هباءً منثورًا، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ**

كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»، وقال تعالى مبكتا لبني إسرائيل، ولمن سار على طريقهم هذا الباب: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤].

إثبات صفتي المجيء والإتيان لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[البقرة:٢١٠]، وَقَولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام:١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢١-٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[الفرقان:٢٥].

هذه الآيات تضمّنت الإخبار عن إثبات صفتي المجيء والإتيان لله وهو مجيئ وإتيان حقيقي والمجيء والإتيان معناهما في لغة العرب، وذهب أهل البدع إلى أن المجيء والإتيان مجاز على مجيء أمره، أو ملائكته وهذا تأويل باطل، مخالف لعقيدة السلف.

ومما يدل على أنها حقيقة كونها معنيان يقومان بغيرهما فإضافتهما إلى الله إضافة صفة إلى موصوف والذي يجيء ويأتي أكمل من الذي لا يجيء ولا يأتي وقد عطف الله مجيئه على مجيء الملائكة فلمّا كان مجيء الملائكة حقيقي كان مجيء الله حقيقي والتفريق بين المتماثلات لا يجوز وإن قالوا بأنّ المراد بالمجيء مجيء أمره فأمر الله لا يُخصّص بذلك اليوم بل في كلّ حين وإن قلتم بأنّ المراد مجيء ملائكته سيكون في الآية ركاكة، (هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي الملائكة)، وقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢]، تكون (وجاء الملك والملك صفًا صفًّا).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٥]، تشقّق السماء بالغمام وتتنزّل الملائكة استعدادًا لنزول الجبّار لفصل القضاء بين العباد ومن هذه الأدلّة استدلّ أهل السنّة على أنّ الله متّصف بصفة النزول على ما يأتي في باب أحاديث الصفات وقد قال إسحق بن إبراهيم الحنظلي: (جمعني وهذا المبتدع - يعنى إبراهيم بن أبي صالح - مجلس الأمير ابن طاهر، وسألني الأمير عن أخبار النزول فسردتها فقال إبراهيم: كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء. فقلت: آمنت برب يفعل ما يشاء)، الأسماء والصفات للبيهقي (٩٠٣)، فالمجيء والإتيان أفعال لله وهو فعّال لما يريد.

وإذا قُيّد المجيء والإتيان كان بما قُيّد به، قال الله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[النحل:٣٣]، فهنا جاءت مقيّدة بالأمر، فالمراد به أمر الله الذي أتاهم من عذابه أوغير ذلك وقال الله : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[النحل:٢٦]،أي: بالعذاب، إذ قُيّد الإتيان، لكن تلك الصفة المطلقة المضافة إلى الله تقتضي إثبات صفتي المجيء والإتيان لله ، وفي الآيات تعظيم شأن يوم القيامة وأنّ الله يأتي ويفصل بين العباد، ومنه قول النبيّ : «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود:١٨]**»، من حديث ابن عمر عند البخاري (٢٤٤١)، مسلم (٢٧٦٨)، وفيه عظم رحمة الله بالمؤمنين

وستر الله عليهم وفيه أنّ الإيمان لا ينفع صاحبه إلّا إذا كان في زمن يصلح فيه الإيمان، فالإيمان عند الغرغرة وبعدها لا ينفع، قال النبيّ : «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِمَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»، رواه الترمذي (٣٥٣٧)، ابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر ، والإيمان بعد طلوع الشمس من مغربها لا ينفع وهذه الآية قد فسّرها النبيّ بقوله: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ**»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٥٨)، على ما يأتي بيانه.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[الفرقان:٢٥]، فيه دلالة على أنّ السماء تتشقّق يوم القيامة وتتفطّر والجبال تذهب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[الانفطار:١-٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[التكوير:١-١٣]، وقال : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[الانشقاق:١-٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة:١-٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ

ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[القارعة:١-٥]، الجبال كالصوف تتطاير في السماء، نسال الله السلامة من أهوال ذلك اليوم وتُدكّ الأرض قال الله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه:١٠٧]، وقد سأل اليهودي رسول الله : أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»، من حديث ثوبان عند مسلم (٣١٥)، وتبدّل الأرض غير الأرض ونصبح بيضاء كقرصة النقيّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد، وقال الله : ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[الرحمن:٣٧-٤١].

فائدة: تأويل طلوع الشمس من مغربها بأنّ الإسلام يأتي من الغرب:

تأويل باطل؛ لأنّه يخالف الكتاب والسنّة ويخالف ما أجمع عليه السلف في إثبات أشراط الساعة الكبرى وأنّ الشمس تطلع من مغربها وفي حديث أبي ذرّ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسَ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي**

طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام:١٥٨]»، مسلم (١٥٩).

إثبات صفة الوجه لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨].

في هاتين الآيتين إثبات صفة الوجه لله تعالى وهو من الصفات الذاتية الخبرية، وقلنا الذاتية؛ لأنّ الله متّصف به أزلًا وأبدًا، والخبرية؛ لأنّ الصفات الخبرية تتلقّى من الخبر وهو كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا وهنا معنى آخر يذكره العلماء وهي أنّ الصفات الخبرية ما كان مسمّاه أجزاء وأبعاض بالنسبة لنا فالوجه لنا جزء وبعض ولكن في حقّ الله لا يجوز أن تُعبّر بهذه التعابير ولكن تستخدم اللألفاظ الشرعية من أنّ صفة الوجه صفة خبريّة وقد دلّ الكتاب والسنّة والإجماع على إثبات صفة الوجه لله ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الليل:٢٠]، وذكر الله الوجه في أحد عشرة آية في القرآن وفي حديث أبي موسى الأشعريّ في مسلم (١٧٩)، عن النبيّ : «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»، ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند أبي داود (٤٦٦)، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، قَالَ: أَقَطْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ، وكذلك

في حديث فضالة بن عُبيد وأبي الدرداء أنّ النبيّ كان يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ» وهو في الصحيح المسند للإمام الوادعي (١٥٠٨)، ومن حديث جابر عند البخاري (٤٦٢٨) قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ»، ففي هذه الأدلّة وغيرها أكثر إثبات صفة الوجه لله وجهًا حقيقيًّا يليق بجلاله.

ونرجع إلى دراسة الأدلّة المذكورة، الأوّل قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]، قال المعطّلة بأنّ ذا الجلال والإكرام وصف للذات فقال أهل السنّة لو كان ذو الجلال والإكرام وصف للذات لقال الله (ويبقى وجه ربّك ذي الجلال والإكرام)؛ لأنّ الصفة تابعة للموصوف بينما الرفع يدل على أنه وصف للوجه، ويُذكر هنا للرد على المعطلة الذين يفسرون الوجه بالثواب أن الثواب المخلوق لا يوصف بأنه ذي الجلال والإكرام.

الثاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]، قال المبطلون (إلّا ذاته) ونحن نفسّر الآية كلّ شيء هالك إلّا ذاته المتصفة بالوجه وهذا فرق بين كلامنا وكلام أهل التعطيل ويدلّ على ذلك ما في القرآن من قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[النساء:٩٢]، فإنّ في لغة العرب قد يطلق الشيء ويراد به الموصوف به كما في الآية السابقة، هل يقول عربي بما أنّي وقعت على امرأتي في نهار رمضان، أذهب إلى هذا العبدأشتري ما بين أذنه وعاتقه، هل سيقبل أحد هذا الكلام وإنّما المراد تحرير العبدالمتّصف بالرقبة.

ومن أوجه الردّ عليهم ما تقدّم من حديث جابر عند البخاري (٤٦٢٨)، قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، والاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلّا الله شركٌ أكبر مخرج من الملّة ولو كان الوجه هو الإحسان لكان النبيّ بمخلوق وحاشاه لكان فإنه معصوم عن الشرك فما دونه والله قال لنبيّه : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، فالواقع أنّ النبيّ استعاذ بصفة من صفات الله وصفات الله غير مخلوقة ولو أقسم آخر بوجه الله لا أفعل كذا، هل نقول له أشركت أم نقول له كفّر عن يمينك إن حنثت، نقول كفّر عن يمينك وقد نقل العلماء الإجماع على جواز الحلف بالله وبصفاته وإن كانوا قد اختلفوا في بعض الصفات وبعضهم اكتفى بالصفات التي حلف بها النبيّ والصحيح جواز الحلف بجميع صفات الله فلو قلت وكلام الله ووجه الله وعزّة الله وغضب الله ورضا الله للزمك ما في اليمين المكفّرة إن كنت صادقًا فيمين مبرّة وإن كنت كاذبًا فيمين غموس وفي حديث عبدالله بن عمرو أنّ النبيّ قال: «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، قَالَ: أَقَطْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ، رواه أبوداود (٤٦٦)، وقد قال الله : ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل:٩٨].

وممّا يُبطل تحريف المحرّفين أنّ النبيّ وصف وجه الله في قوله: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ

عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، من حديث أبي موسى عند مسلم (١٧٩)

وقد اختلف العلماء في تفسير قول الله : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[البقرة:١١٥].

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٦/ ١٥): وَكُنْت قَدْ قُلْت: أَمْهَلْت كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي ثَلَاثَ سِنِينَ إنْ جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَنِ السَّلَفِ يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْته كَانَتْ لَهُ الْحُجَّةُ وَفَعَلْت وَفَعَلْت، وَجَعَلَ الْمُعَارِضُونَ يُفَتِّشُونَ الْكُتُبَ فَظَفِرُوا بِمَا ذَكَرَهُ البيهقي فِي كِتَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[البقرة:١١٥] فَإِنَّهُ ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ قِبْلَةُ اللهِ فَقَالَ أَحَدُ كُبَرَائِهِمْ - فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي - قَدْ أَحْضَرْت نَقْلًا عَنِ السَّلَفِ بِالتَّأْوِيلِ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا أَعَدَّ فَقُلْت: لَعَلَّك قَدْ ذَكَرْت مَا رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[البقرة:١١٥] قَالَ: نَعَمْ. قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللهِ فَقَالَ: قَدْ تَأَوَّلَهَا مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَهُمَا مِنَ السَّلَفِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا نَاظَرُونِي فِيهِ صِفَةَ الْوَجْهِ وَلَا أَثْبَتُّهَا لَكِنْ طَلَبُوهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ وَكَلَامِي كَانَ مُقَيَّدًا كَمَا فِي الْأَجْوِبَةِ فَلَمْ أَرَ إحْقَاقَهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَلْ قُلْت هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: لَا تُؤَوَّلُ آيَاتُ الصِّفَاتِ. قَالَ: أَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ فَلَمَّا قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللهِ. قَالَ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ؟ قُلْت: لَا. لَيْسَتْ مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ فَإِنِّي إنَّمَا أُسَلِّمُ أَنَّ

الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ - هُنَا - الْقِبْلَةُ فَإِنَّ (الْوَجْهَ) هُوَ الْجِهَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ: قَصَدْت هَذَا الْوَجْهَ وَسَافَرْت إلَى هَذَا (الْوَجْهِ) أَيْ: إلَى هَذِهِ الْجِهَةِ وَهَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فَالْوَجْهُ هُوَ الْجِهَةُ. وَهُوَ الْوَجْهُ: كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة:١٤٨] أَيْ مُتَوَلِّيهَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ كِلْتَا الْآيَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَانِ وَكِلَاهُمَا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَالْوَجْهِ وَالْجِهَةِ هُوَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَّا نُوَلِّيهِ: نَسْتَقْبِلُهُ. قُلْت: وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وَأَيْنَ مِنْ الظُّرُوفِ وَتُوَلُّوا أَيْ تَسْتَقْبِلُوا. فَالْمَعْنَى: أَيُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتُمُوهُ فَهُنَالِكَ وَجْهُ اللهِ فَقَدْ جَعَلَ وَجْهَ اللهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ هَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وَهِيَ الْجِهَاتُ كُلُّهَا كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:١٤٢] فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجِهَاتِ لَهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إضَافَةُ تَخْصِيصٍ وَتَشْرِيفٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ جِهَةُ اللهِ وَقِبْلَةُ اللهِ. انتهى

وقالت طائفة من أهل العلم: إن الآية على ظاهرها ويُثبَت بها صفة الوجه لله والدليل على هذا المعنى حديث النبيّ : «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى»، من حديث ابن عمر عند البخاري (٤٠٦)، مسلم (٥٤٧)، وهو على عرشه ، وهو محيط بكلّ شيء، وهو فوق كل شيء ، قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى : وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِهَةُ اللهِ، أَيْ: قِبْلَةُ اللهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ وَعَلَى أَنَّ الْعَبْدَيَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ» وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: «لَا يَزَالُ اللهُ مُقْبِلًا عَلَى

عَبْدِهِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ فَإِذَا انْصَرَفَ صَرَفَ وَجْهَهُ عَنْهُ» وَيَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ. فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ. انتهى

والمعطّلة ذكروا أن الوجه في القرآن على **ثلاثة أوجه**:

الأول: أنّ الوجه هو الذات.

الثاني: أن الوجه هو الثواب.

الثالث: أن لفظ الوجه مدرجة فيكون تقدير الكلام (ويبقى ربّك)، وهذا تحريف باطل **لإمور**:

الأول: لو كان كما قالوا لجر (ذو) في قوله: (ذو الجلال والإكرام).

الثاني: أنّ الوجه صفة من صفات الذات وقد بيّن الله ذلك.

الثالث: أنّ تفسّر الوجه بالثواب أو الإحسان تفسير بمخلوق والنبيّ قد استعاذ بالوجه فدلّ أنّ الوجه صفة حقيقيّة لله ، تعالى الله أن لا يكون له وجهًا وتنزّه أن يكون وجهه كوجه المخلوقين بل هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأما معنى قول الله : ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان:٩].

فالآية دالّة على إثبات صفة الوجه لله لأنّه لا يُذكر بالوجه إلّا من كان له وجهًا، وتفسّر الآية فأهل السنّة يُثبتون الصفة واللازم.

إثبات صفة اليدين لله عز وجل

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤].

هذا خطاب من الله لإبليس عليه لعنة الله وإبليس كان مسكنه الجنّة مع الملائكة، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**لَـمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ**»، وكان من شأنه ما قص الله تعالى علينا في القرآن حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص:٧١-٨٣]، فاعترض إبليس عليه لعنة الله على أمر الله بالسجود لآدم؛ لأنّ أصل إبليس خير من أصل آدم، وهذه العلّة عليلة وميّتة؛ ولهذا ذهب بعض الفلاسفة ومن إليهم من مفضّلي الشمس والنار على التراب.

قال البغدادي في الفرق بين الفرق (ص: ٣٩): وَحكى أَصْحَاب المقالات عَن بشار أَنه ضم إلى ضلالته فِي تَكْفِير الصَّحَابَة وتكفير على مَعَهم ضلالتين أُخْرَيَيْنِ: إِحْدَاهمَا قَوْله: يرجع برجعة الأموات الى الدُّنْيَا قبل يَوْم الْقِيَامَة، كَمَا ذهب إليه أصحاب الرّجْعَة من الرافضة. وَالثَّانية: قَوْله بتصويب إِبْلِيس فِي تَفْضِيل النَّار على الأرض، وَاسْتَدَلُّوا على ذَلِك بقول بشار فِي شعر لَهُ:

الأَرْض مظْلمَة وَالنَّار مشرقة ... وَالنَّار معبودة مذ كَانَت النَّار

وَقد رد عَلَيْهِ صَفْوَان الْأَنْصَارِيّ فِي قصيدته الَّتِي قَالَ فِيهَا:

زعمت بِأَن النَّار أكرم عنصرا ... وفى الأَرْض تحيا فِي الْحِجَارَة والزند
ويخلق فِي أرحامها واروومها ... أَعَاجِيب لَا تحصى بِخَط وَلَا عقد
وفى القعر من لج الْبحار مَنَافِع ... من اللُّؤْلُؤ الْمكنون والعنبر الْورْد
وَلَا بُد من أَرض لكل مطير ... وكل سبوح فِي الغمائر ذِي خد
كَذَلِك وَمَا ينساح فِي الأرض مَاشِيا ... على بَطْنه يمشى المجانب للقصد
وفى فلك الاجبال فَوق مقطم ... زبرجد أملاك الورى سَاعَة الحشد
وفى الْحرَّة... معادن ... لَهُنَّ مغارات تحبس بِالنَّقْدِ
من الذَّهَب الإبريز وَالْفِضَّة الَّتِي ... تروق وتغنى ذَا القناعة والزهد
وكل فلذ من نُحَاس وآنك ... وَمن زنبق حى ونوشادر سندى
وفيهَا روانيخ وشب ومرتب ... ومزمر قشا غير كاب وَلَا مكدى
وفيهَا ضروب القار والزفت والمها ... وأصناف كبريت مطاولة الوقد
وَمن أثمد جوز وكلس وَفِضة ... وَمن توتيا فِي معاربها هندى

وكـل يَوَاقِيـت الانـام وحليهـا — من الأرض والأحجار فاخرة الْمجد
وفيهَا مقَام الْحل والركن والصفا — ومستلم الْحجَّاج من جنه الْخلـد
مفاخر للطين الذى كَـانَ أصلنَا — وَنحن بنوه غير شكّ وَلَا جحـد
فَـذَلِك تَـدْبِير ونفـع وَحِكْمَـة — وأوضح برهَان على الْوَاحِد الْفَرد
فيا ابن حَلِيف الشؤم واللؤم والعمى — وأبعد خلق الله من طرق الرشـد
أتهجـو أَبَـا بكـر وتخلـع بعـده — عليًّـا وتعـزو كـل ذَاك إِلى بـرد
كَأَنَّك غَـضْبَان علـى الـدّين كُلـه — وطالب ذحل لَا يبيت على حقـد
تواتــب أقــمارًا وَأَنــت مُــشَوه — وَأقرب خلق الله من نسب القرد

انتهى.

ثمّ لو لم يكن هذا لكان اعتراض إبليس على الله كفر.

والأدلة على إثبات صفة اليدين كثيرة في القرآن والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[الزمر:٦٧]. وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾[آل عمران:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[الفتح:١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[الملك:١]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[يس:٧١].

وممّا يدلّ على إثبات هذه الصفة قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾[المائدة:٦٤]، واليهود هم قوم موسى لكن قد بدّلوا وغيّروا وكفروا بعيسى وكفروا بمحمّد فلُعنوا قال الله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ

لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٨-٧٩]، وهم أهل حسدٍ، قال النبيّ ﷺ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»، من حديث عائشة ﵂ عند ابن ماجه (٨٥٦) و(٨٥٧)، وقال الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة:١٠٩]، وكفروا بالنبيّ ﷺ وهم يعلمون أنّه رسول الله ومع ذلك جحدوا بنبوته ورسالته ظلمًا وعلوًّا حتّى وصل بهم الحال أن صوبوا طريق الكفّار عُبّاد الأصنام والأوثان على طريق رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[النساء:٥١]، وهذا يدلّ على غاية الحقد والحسد فإنّ محمّد ﷺ يدعو إلى عبادة الله وإفراده بما يجب له وهؤلاء الكفّار يعبدون الأصنام والأوثان ومع ذلك فضّلهم اليهود على محمّد ﷺ وبلغ بهم غاية الكفر أنهم وصفوا الله بأقبح الأوصاف فقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة:٦٤]، والغلّ صفة ذميمة إذا اتّصف بها المخلوق، فكيف بالله ﷻ، تعالى الله عن قولهم، أليس رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ يَمِينَ الله مَلْآ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»، من حديث أبي هريرة ﵁ عند البخاري (٧٤١٩)، مسلم (٩٩٣)، ومن أسماء الله الأكرم والكريم والرزّاق والرحيم قال تعالى مبينا فضله وكرمه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣]، ثمّ يدّعي اليهود أنّ الله بخيل قاتلهم الله ولعنهم فقال الله : ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾[المائدة:٦٤]، بسبب اتهامهم لله بهذه التهمة الشنيعة عاقبهم الله بأن سلّط عليهم البخل لو ذهبت إلى بروكسيل تلك المدينة العظيمة التي فيها الذهب والمجوهرات والدنيا تجد اليهودي يدخل بدجلته التي إن شممت ريحها تكاد تتقيّأ لعدم غَسلهم لها، ولقذارتهم، ولنتنهم، سلّط الله عليهم البخل وأصبحوا شرّ البريّة، ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[المائدة:٦٤]، وطردوا من رحمة الله بسبب هذا القول الشنيع، هذا القول الذي لا يصدر إلا ممّن لم يعرف الله العظيم الغنيّ، وما أحلم الله وما أصبر الله كما قال النبيّ : «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ**»، من حديث عبدالله ين قيس عند مسلم (٢٨٠٤)، انظر كيف يتكلّم عليه اليهود وهو يصبر عليهم لكن سيكون مصيرهم الجحيم، قال الله : ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، فأثبت لنفسه تعالي يدين مبسوطتين، ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[المائدة:٦٤]، وقال النبيّ : «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»، من حديث أبي موسى عند مسلم (٢٧٥٩)، فهذا ردٌّ على اليهود وفيه إثبات صفة اليدين لله على ما يليق بجلال وجهه وعلى أنّها يدان حقيقيّتان وصفهما بصفة البسط والقبض، قال الله : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧]، وفيه إثبات صفة الطيّ، وله كفٌّ يليق بجلاله كما قال النبيّ : «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ**

كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٤١٠) و(٧٤٣٠)، وأخرجه مسلم، ولله ساعدٌ يليق بجلاله كما في حديث ابن نضلة قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ وَأَنَا قَشِفُ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ المَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ المَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ، فَقَالَ: «إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا، فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بُحُرٌ، وَتَشُقُّهَا، أَوْ تَشُقُّ جُلُودَهَا، وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرُمٌ وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ، وَعَلَى أَهْلِكَ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللهُ لَكَ، وَسَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ - وَرُبَّمَا قَالَ: سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ -» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا نَزَلْتُ بِهِ، فَلَمْ يُكْرِمْنِي، وَلَمْ يَقْرِنِي، ثُمَّ نَزَلَ بِي أَجْزِيهِ بِمَا صَنَعَ، أَمْ أَقْرِيهِ؟ قَالَ: «اقْرِهِ». رواه أحمد (١٥٨٨٨) و(١٥٨٩١)، والساعد معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف.

وجاء من حديث ابن مسعود في الصحيحين قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧]. البخاري (٤٨١١)، مسلم (٢٧٨٦).

انظر إلى هذه السماوات العظيمة، السبع الطباق بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وسُمك كلّ سماء خمسمائة عام، مطويّة في يد الله العظيم كطيّ السجل للكتب، والأرض جميعًا بما فيها من الجبال والأنهار والبحار والأودية والصحارى وغير ذلك قبضته، سبحان الله الملك، وكذلك يهزّهنّ ففي البخاري(٧٣٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**» ونحوه عن ابن عمر أخرجه البخاري(٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨) ولفظه عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللهُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ - وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا - أَنَا المَلِكُ**» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ؟

وأخرجه مسلم من طريق عُمَرَ بْنِ حَمْزَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِاللهِ، أَخْبَرَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**» ولفظ الشمال منكرة لضعف عمر بن حمزة.

قال البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٣٩):

وَذِكْرُ الشِّمَالِ فِيهِ تَفَرَّدَ بِهِ عُمَرُ بْنُ حَمْزَةَ عَنْ سَالِمٍ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ نَافِعٌ وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، لَمْ يَذْكُرَا فِيهِ الشِّمَالَ، وَرَوَاهُ أَبُوهُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمُ الشِّمَالَ، وَرُوِيَ ذِكْرُ الشِّمَالِ

فِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ ضَعِيفٌ بِمَرَّةٍ؛ تَفَرَّدَ بِأَحَدِهِمَا جَعْفَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَبِالْآخَرِ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ، وَهُمَا مَتْرُوكَانِ، وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ؟ وَصَحِيحٌ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ سَمَّى كِلْتَيْ يَدَيْهِ يَمِينًا، وَكَأَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ أَرْسَلَهُ مِنْ لَفْظِهِ عَلَى مَا وَقَعَ لَهُ، أَوْ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذِكْرِ الشِّمَالِ فِي مُقَابَلَةِ الْيَمِينِ. انتهى

يشير إلى حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم: (١٨٢٧): «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** ، **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»

وفي حديث النوّاس بن سمعان وحديث عائشة وأمّ سلمة عند أحمد وجاء من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم (٢٦٥٤) وعن أنس عند الترمذي (٢١٤٠) واللفظ له، قال الرسول : «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»، والنبيّ كان يقول في أيمانٍ كثيرة: «**والذي نفسي بيده**»، وقال الله تعالى: ﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الملك:١]، وقال الله تعالى: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران:٢٦]، وفي أثر ابن عمر : (خلق الله أربعة أشياء بيده، العرش، وجنات عدن، والقلم)، أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٥٧) وفي حديث المغيرة بن شعبة عند مسلم (١٨٩): «**سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ**

مَنَازِلَـهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:١٧].

وفي البخاري(٣٣٤٠)، ومسلم(١٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ القَوْمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوالبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟». الحديث

وفي البخاري (٧٥١٦)، ومسلم(١٩٣) عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «يُجْمَعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُوالبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ

بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ المَلَائِكَةَ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا، فَيَقُولُ لَـهُمْ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ لَـهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ». الحديث

وفي البخاري(٣٤٠٩)، ومسلم(٢٦٥٢) عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟» قَالَ رَسُولُ اللهِ : «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

وفي البخاري (٦٥٢٠) ومسلم(٢٧٩٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ النَّبِيُّ : «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ» فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا القَاسِمِ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالَامٌ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة موضعها كتاب الإيمان يسر الله بإخراجه وسيأتي مزيد أدلة في تفريعات هذه المسألة إن شاء الله.

وصفة اليدين لله من الصفات الذاتية الخبرية وهي صفة حقيقية تليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، تعالى الله أن يكون بلا يد وتنزه أن تشبه يده يد المخلوق.

وذهب أهل التعطيل إلى إنكار هذه الصفة وقالوا إنها مجاز في النعمة أو القدرة، وهذا باطل من وجوه بينها شيخ الإسلام ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/١٥٣-١٧١) نذكر بعض ما يحتاج المجال إلى ذكره بدون تطويل ممل أو اختصار مخل.

قال في رد دعواهم أنها مجاز: الأصل الحقيقة، فدعوى المجاز مخالفة للأصل، ومدعي المجاز يلزمه إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة إلى المجاز الذي عينه بأنه المراد.

وقال : واطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[ص:٧٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:٦٧]، فلو كان مجازًا في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ يمين.

وقال: إن اقتران لفظ الطي والقبض والإمساك باليد يصير المجموع حقيقة هذا في الفعل، وهذا في الصفة بخلاف اليد المجازية.

وقال: إن لفظ المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية ولا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا كقوله: له عندي يد وله عندي آياد.

ولو كان بمعنى القدرة لم يفد تخصيص آدم فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوقون بقدرة الله، ولم تكن خصوصية في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥].

وقال : إن يد النعمة لا يتجاوز بها لفظ اليد، فلا يقال فيها كف ولا إصبع ولا يمين ولا شمال لا في اليد بمعنى النعمة ولا القوة.

ومن وجوه الرد عليهم أن الله أنكر على اليهود وصف الله بالبخل ولم ينكر عليهم إثبات اليدين.

وليعلم أن اليد بمعنى القدرة والقوة والنعمة لا يعرف استعماله البتة إلا فيمن له يد حقيقة.

وأما دعوى من ادعى أنه لو أثبت أن لله يدًا لزم التشبيه، فيلزمه نفي السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة، فسيقول هذه ليست كصفات المخلوقين بل هي صفات تليق بالله سبحانه، قيل له وكذلك لله يد ليست كيد المخلوقين بل هي يد تليق بجلاله. اهـ مختصرًا.

شبهة والجواب عليها:

قد يقول قائل: إن لله أكثر من يد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾[يس:٧١]، فأيدينا هنا جمع.

الجواب: جاءت اليد في القرآن مفردة ومثناة وجمعًا، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[الملك:١]، وقال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]. وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾[يس:٧١].

واليد المفردة جاءت مضافة، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم أي يشمل كل ما يثبت لله من يد، ودليل عموم المفرد: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤].

وأما المثنى والجمع، فإجماع أهل السنة أن الله ليس له إلا يدان اثنتان كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة: ﴿بَلۡ يَدَاهُ﴾[المائدة:٦٤]، «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، والمقام مقام تشريف فلو كان له أكثر من يدين لذكرهما.

وأما قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[يس:٧١]، فيقال قيل إن أقل الجمع اثنان، وعليه فأيدينا لا تدل على أكثر من اثنين.

والدليل على ذلك قول الله تبارك تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾[التحريم:٤]، ومن المعلوم أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد قال الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[الأحزاب:٤]، والمرأة كذلك.

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾[النساء:١١]، إخوة جمع والمراد به اثنان.

أو نقول المراد بهذا الجمع التعظيم لأن الجمهور من أهل اللغة يقولون إن أقل الجمع ثلاثة، والمراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١].

والفساد قد يقع بالرجل والفرج واللسان لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

وفرق بين قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[يس:٧١]، وبين قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥]، فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[يس:٧١]، كأنه قال مما عملنا، لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥]، اليدان دون الذات. فيزول الإشكال بهذا. اهـ بتصرف من شرح الواسطية للعثيمين (ص٢٥٤).

وقال أبوالحسن الأشعري في كتابه الإبانة (ص٩٠) بعد أن ذكر الآيات الدالة على إثبات صفة اليدين لله ورادًا على أهل الزيغ والريب: وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل عملت كذا بيدي يريد بها النعمة. اهـ

وقال (ص٩٢): وكذلك إذا قدر اثنان أحدهما يقدر أن يفعل بيديه ويقبل بوجهه والآخر لا يمكنه ذلك إما لامتناع أن يكون له وجه ويدان، وإما لامتناع الفعل والإقبال عليه باليدين والوجه، كان الأول أكمل، فالوجه واليدان لا يعدان من صفات النقص في شيء مما يوصف بذلك. اهـ

قال ابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٩٩) رادًّا على من فسر اليد بالقوة: وزعم بعض الجهمية أن معنى قوله: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ بِيَدَيْهِ**»، أي بقوته، فزعم أن اليد هي القوة وهذا من التبديل أيضًا وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنما تسمى الأيد في لغة العرب لا اليد، فمن لا يفرق بين اليد والأيد، فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى الترأس والمناظرة، قد أعلمنا الله أنه خلق السموات بأيد واليد واليدان غير الأيد، إذ لو كان الله خلق آدم بأيد كخلقه السماء دون أن يكون الله خص خلق آدم بيديه لما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥].

وقال (١/ ١٩٧): وزعمت الجهمية أن معنى قوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، أي نعمتاه، وهذا بتنزيل لا بتأويل، والدليل على نقض دعواهم أن نعم الله كثيرة لا يحصيها إلا الله البارئ، ولله يدان لا أكثر منهما كما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥].

فأعلمنا أنه خلق آدم بيديه فمن قال أنه خالق آدم بنعمته كان مبدلًا لكلام الله وقال الله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الزمر:٦٧]، الآية.

أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعًا لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ولو كانت اليد بمعنى النعمة لقرأت الآية (بل يداه مبسوطة)، أو (منبسطة). اهـ

وسأذكر هنا صفات ثابتة لله متعلقة بإثبات صفة اليدين تدفع دعوى المجاز:

١- صفتي الطي والقبض: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[الزمر:٦٧].

٢- صفة الإمساك، يدل عليه حديث عبدالله بن مسعود عند الشيخين البخاري(٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦) أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالخَلاَئِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩١]. قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: وَزَادَ فِيهِ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِاللهِ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ تَعَجُّبًا وَتَصْدِيقًا لَهُ.

وجاء بلفظ: (يضع)، وبلفظ: (يجعل). وكلها في الصحيح.

٣- صفة الهز: حديث عبدالله بن مسعود المتقدم ثم يهزهن ويقول: (أَنَا المَلِكُ).

٤- صفة الأخذ: حديث أبي هريرة عند مسلم: «**لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ بِيَمِينِهِ**».

٥- صفة الكف: الحديث الذي قبله وفيه: «**فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ**».

٦- صفة الساعد: حديث مالك بن نضلة عند أحمد: «**مُوسَى اللهِ أَحَدُّ - وَرُبَّمَا قَالَ - سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ**».

٧- صفة الأصابع: لحديث عبدالله بن مسعود المتقدم، وحديث عبدالله بن عمرو: «**إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».

٨- صفة البسط: لحديث أبي موسى عند مسلم: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**».

فائدة في خلق إبليس لعنة الله عليه:

إبليس خلقه خلقه كما يخلق المخلوقات، قال الله : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وإنما أوتي من كبره، والذي يتكبّر ويتعاظم ينتكس غالبا، فعلى الإنسان أن يتواضع لله ، يتواضع للذي خلقه ورزقه وأعطاه وزوّجه وفي حديث عياض بن حمار قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا، فَقَالَ: «**وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا**

يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، مسلم (٢٨٦٥)، والتواضع من أسباب الرفعة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»، مسلم (٢٥٨٨)، الكبر ما يجعلك تطلب علمًا ولا تُصلّي مع الناس ولا تقبل الحقّ؛ ولهذا قال الله : «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عند مسلم (٢٦٢٠)، وقال النبيّ : «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» من حديث ابن عمر عند أحمد (٥٩٩٥)، وصححّه العلّامة مقبل بن هادي الوادعي في الجامع الصحيح (٤٢٤٢)، وقال النبيّ : «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ**»، الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧). وفي المستدرك على الصحيحين أَنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَخْزُومِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّهُ لَقِيَ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّا بَنُو الْمُغِيرَةِ قَوْمٌ فِينَا نَخْوَةٌ، فَهَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ وَيَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**».

نسأل الله السلامة والعافية.

إثبات صفة العينين لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[القمر:١٣-١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩].

فيه إثبات صفة العينين لله على ما يليق بجلاله وهما عينان حقيقيّتان تليق بجلال الله ، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وفي الآية الحثّ على الصبر: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الطور:٤٨]، أي لحكمه الكوني فإنّ الكفّار كانوا يؤذون النبيّ فأمر الله نبيّه أن يصبر لحكمه ولقضائه والحكم ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي فالحكم الكوني هو قضاء الله وقدره فيُصبر على البلاء ويُؤمن بالقضاء والحكم الشرعي هو أمر الله ونهيه فيُفعل المأمور ويُترك المحظور.

وقول الله : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[القمر:١٤]، أي تجري بمرأى منّا وفيه إثبات العينين لله وقلنا بمرأى منّا لأنّ من زعم أنّ السفينة كانت تجري بعين الله فقد كفر فالله على عرشه استوى بائن من خلقه وإنّما السفينة تجري بمرأى منه ويحفظها ويكلؤها على ما هو معلوم كقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:٤٨].

وقول الله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[طه:٣٩].

قال السعدي : قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فكل من رآه أحبه، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبّر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثديا. انتهى

وموسى كان يُربّى في بيت فرعون والله على عرشه ففي الآيات إثبات صفة العينين لله ويدلّ على إثباتها ما جاء في أحاديث الدجّال أنّ النبيّ قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ - وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**»، من حديث ابن عمر عند البخاري (٧٤٠٧)، مسلم (١٦٩)، وقرأ أبوهريرة هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨]، قال : رأيت رسول الله يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه. قال أبوداود: (وهذا رد على الجهمية)، رواه أبوداود (٤٧٢٨)، وهذا لتحقيق أنّ الله يسمع بسمع حقيقي ويرى، ويبصر بعين حقيقية تليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وفي مسلم(١٧٩) عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ **لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

وصفة العين من الصفات الذاتية الخبرية التي تُتلقّى بالخبر ويُثبت لله صفة البصر، يُبصر بعينين حقيقيتين تليق بجلاله ومما يدلّ على ذلك تعيير إبراهيم لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم:٤٢]، فالأصنام لا تسمع ولا تُبصر فدلّ على أنّ الإله الحقّ يسمع ويُبصر وينفع ويضرّ.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٥): فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة، ليس إلا كما يقول القائل: أفعل هذا على عيني، وأجيئك على عيني، وأحمله على عيني، ولا يريد به أن له عينًا واحدة، فلو فهم أحد هذا من ظاهر كلام المخلوق لعد أخرق. وأما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر١٤]، وقوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[هود:٣٧]، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد، كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك:١] و﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[آل عمران:٢٦]، وإن أضيفت إلى ضمير جمع جمعت، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾[يس:٧١]، وكذلك إضافة اليد

والعين إلى اسم الجمع الظاهر، كقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، وقوله: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾[الأنبياء:٦١]، وقد نطق القرآن والسنة بذكر اليد مضافة إليه سبحانه مفردة ومثناة ومجموعة. وبلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة، كما قال عطاء عن أبي هريرة عن النبي : «**إن العبدإذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت إلى خير لك مني**»، وقول النبي : «**إن ربكم ليس بأعور**» صريح في أنه ليس المراد. انتهى

وذهبت المعتزلة إنفي صفة العين عن الله إطرادا لقاعدتهم في نفي الصفات، وهم محجوجون بما تقدم من الأدلة، واضطرب الأشاعرة فأثبتوا البصر، ونفوا صفة العينين، وهذا من تناقضهم مع أن أبا الحسن الأشعري يثبتها.

إثبات صفة السمع لله عزوجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقّٖ﴾[آل عمران:١٨١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف:٨٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦].

في هذه الآيات إثبات صفة السمع لله ، قالت عائشة : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، رواه النسائي (٣٤٦٠)، ولما كان الصحابة يسيرون مع النبيّ في الطرق فَلَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»، من حديث أبي موسى عند البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)، يعني هوّنوا عليكم ولا تظنّون أنكم تدعون أصمًّا غائبًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾[الإسراء:١١٠]، فالله يسمع كلامك على أيّ حال كان، بل يعلم ما في

ضميرك ويعلم ما في قلبك، بل يعلم ما لم تتحدّث به ولم تُفكّر فيه بعد بل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فقل يا ربّ يسمعك وأنت ساجد، وهو السميع البصير لا تخفى عليه خافية وهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت زوجة رجل من الأنصار فظاهر منها فقال أنت عليّ كظهر أمّي فشكت به إلى النبيّ وقالت: (يا رسول الله، بعد أن نثر بطني)، يعني بعد أن أعطيته مجموعة من الأولاد، (وذهب شبابي)، يقول أنت عليّ كظهر أمّي وكانت عادة العرب أنّ الرجل إذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمّي حرُمت عليه مؤبّدًا فظنّت أنها حرُمت عليه مؤبّدًا فأنزل الله آيات الظهار وفيها أنه يجب عليه أن يعتق رقبة فإن عجز صام شهرين متتابعين فإن عجز أطعم ستّين مسكينًا المبيّن في سورة المجادلة والأحاديث في هذا، وفيه الشكوى إلى الله فإذا نزلت بك حاجة فأنزلها بالله وقد يستجيب الله دعاءك ويكفيك شرّ عدوّك أو ينصرك عليه، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ الحوار هو الكلام المتبادل بين اثنين ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بسمع يليق بجلاله وبصير ببصر يليق بجلاله ويبصر بعينين على ما تقدّم.

وقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران:١٨١]، هذه نزلت في اليهود قاتلهم الله مع أن الله هو الغنيّ الحميد، فعَنِ أبي ذرّ عند مسلم (٢٥٧٧)، قال النَّبِيِّ ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي**

أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، ثمّ يأتي هؤلاء الكفرة، الفجرة لا يسلم منهم الله الذي يُعطيهم ويُرزقهم ويُعينهم ويُؤويهم ويغني الفقير، ويجبر الكسير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢]، ظالم، جاهل، باغي، إلّا من سلّمه الله وهداه، انظر إلى أيّ حال وصل يحتاج إلى الأكل والشرب والدواء وإلى كلّ شيء والله هو الذي يُعطيه ومع ذلك يقول الله فقير،وفرعون يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، نعوذ بالله من الكفر، نعوذ بالله من الزندقة، نعوذ بالله من الضلال.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف:٨٠].

أي هل يظنّون أنّا لا نسمع ما يتسارون وما يتناجون به،والسر ما في قلوبهم، والنجوى ما يتناجون به وهو فوق السر، ودون النداء، بلى إنّا نسمع ذلك وزيادة عليه ورسلنا الذين هم الملائكة لديهم يكتبون أقوالهم وأفعالهم، (بلى) يأتي بها في جواب الاستفهام، سرّهم ما كان في السرار ونجواهم ما كان بين اثنين وثلاثة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف:٨٠]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، وفيه إثبات المعية لله معية تليق بجلاله وهو على عرشه استوى وسيأتي الكلام عليها بتوسّع إن شاء الله.

وفيه إثبات السمع لله وهو يسمع بسمع يليق بجلاله وقد جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٤٤)، مسلم (٧٩٢) النبيّ : «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» أي: ما استمع الله.

إثبات أنّ الله يرى بعينين حقيقيتين:

وقوله :

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[العلق:١٤].

هذه الآية نزلت في أبي جهل لما قال: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ. فقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**». رواه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة ، وفي الآية أنّ الله يرى ويبصر بعينين حقيقيتين.

قال :

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٨-٢٢٠].

سياق الآيات في التوكل، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ففيها الحث على التوكل وقد أمر الله تعالى به في آيات كثيرات، وبين أنه حال المؤمنين فقالَ تَعالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران:١٢٢]، وَقالَ تَعالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[الأحزاب:٢٢]، وَقالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤].

وَقالَ تَعالَى في بيان فضله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]: أي كافيه. وَقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

ومن فضائله في السنة ما جاء عن ابن عباس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ، والنبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، والنبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فقيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ، ولكنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فقيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظيمٌ، فقيلَ لِي: هذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ**»، ثُمَّ نَهَضَ فَدخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذينَ صَحِبوا رَسُولَ اللهِ ، وَقالَ بعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بالله شَيئًا - وذَكَرُوا أشياءَ - فَخَرجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ: «**مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟**» فَأَخْبَرُوهُ فقالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرقُونَ، وَلا يَتطَيَّرُونَ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُون**» فقامَ عُكَّاشَةُ ابنُ محصنٍ، فَقَالَ: ادْعُ الله أنْ يَجْعَلني مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

وفيه إثبات رؤية الله لعباده على أي حال كانوا، يراهم في الليل والنهار وفي السرّ والجهار: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢٢٠]، يسمع أصواتهم ويعلم أحوالهم على ما تقدّم من إثبات صفة العلم وفيه استحباب المسارعة إلى الخيرات.

قال :

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:١٠٥].

قال السعدي : يقول تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى. ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة. انتهى

فيه إثبات رؤية الله وفيه الحثّ على العمل الصالح وفيه فضل المؤمنين وقبل ذلك فضل الرسول وهو أفضل المؤمنين فالعمل الصالح يُرى ويظهر ولهذا جاء عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»، مسلم (٢٦٤٢). وقال النبيّ : «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**»، رواه البخاري (٦٤٩٩) من حديث جندب ، مسلم (٢٩٨٦) ومن حديث ابن عبّاس .

إثبات صفات الجزاء والمقابلة لله عز وجل

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢٩٠-٢٩٢)-عن صفات المكر والخداع والكيد والاستهزاء ونحوها-: (لا ريب أن هذه المعاني يذم بها كثيرًا، فيقال فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء، ولا تكاد تطلق على سبيل المدح بخلاف أضدادها، وهذا هو الذي غر من جعلها مجازًا في حق من يتعالى ويتقدس عن كل عيبٍ وذم.

والصواب: أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما لكونه متضمنًا للكذب والظلم أو لهما جميعًا، وهذا هو الذي ذمه الله تعالى لأهله...فلما كان غالب استعمال هذه الألفاظ في المعاني المذمومة ظن المعطلون أن ذلك هو حقيقتها، فإذا أطلقت لغير الذم كان مجازًا، والحق خلاف هذا الظن، وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم، فما كان منها متضمنًا للكذب والظلم فهو مذموم، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود، فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسُن من المجازي له أن يخدعه بحقٍ وعدلٍ -إلى أن قال- إذا عرف ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى -إلى أن قال- أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد عُلِم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟. انتهى

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[الرعد:١٣].

أي: قوي في مكره، وكيده، وهذه الآية شبيهة بقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النمل:٥٠]، كما يأتي.

وقال ابن جرير : قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي والله شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتَا وتمادى في كفره و(المحال): مصدر من قول القائل: (ما حَلْتُ فلانًا فأنا أُمَاحِلُهُ مُمَاحَلَةً ومحِاَلًا) و(فعلت) منه: (محَلت أمحَلُ محْلا إذا عرّض رجلٌ رجلا لما يهلكه)، ومنه قوله: (وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ). انتهى

وقال السعدي : وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب. انتهى

ولها سبب نزول، من حديث أنس أخرجه البيهقي في دلائل النبوّة (٢٥٤١)، قال: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى رَأْسٍ مِنْ رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ يَدْعُوهُ إِلَى اللهِ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُ: هَذَا الْإِلَهُ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ فَتَعَاظَمَ مَقَالَتُهُ فِي صَدْرِ رَسُولِ رَسُولِ اللهِ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِ**» فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِ**»، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ صَاعِقَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَرَسُولُ رَسُولِ اللهِ فِي الطَّرِيقِ لَا يَدْرِي، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَ صَاحِبَكَ**» وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ : ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[الرعد:١٣]، أي شديد المكر بهم .
والله يقول: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

قال :

> وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[آل عمران:٥٤]،
> وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[النمل:٥٠]،
> وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾[الطارق:١٥-١٦].

وهذه الآيات تضمّنت الإشارة إلى ما يذكره أهل السنّة والجماعة في صفات المقابلة وضابط صفات المقابلة أنها التي تكون في جزاء ومقابلة على ما تقدم.

والصفات تنقسم إلى **ثلاثة أقسام**:

الأوّل: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه فهذه تثبت إلى الله مطلقًا كالسمع والبصر.

الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه كالعمى والبكم فهذه تُنفى عن الله مطلقًا.

الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه فهذه تُثبت إلى الله حال كونها كمالًا وتُنفى عن الله حال كونها نقصًا.

وضابط هذه الصفات إن لا تكون الصفة صفة نقص مطلق؛ ولهذا قال الله : ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾[الأنفال:٧١]، ولم يقل الله سيخونهم؛ لأنّ الخيانة صفة نقص وذمّ وهي الخيانة في موطن الائتمان وصفات المقابلة من الصفات الفعلية.

إثبات صفتي العفو والمغفرة لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[النساء:١٤٩].

وفي الآية التي قبلها: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[النساء:١٤٩]، فيها أنّ الله مطّلع على الظواهر والبواطن وإنّ الله يجازي عن الإحسان بالإحسان وفيه أنّ إخفاء الخير أعظم أجرًا، قال النبيّ : «**الجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ، كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ، كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**»، من حديث عقبة بن عامر الجُهني عند أبي داود (١٣٣٣)، الترمذي (٢٩١٩)، النسائي (٢٥٦١). وعن أبي هريرة يرفعه قال: سُئِلَ أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ وَأَيُّ الصِّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ فَقَالَ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ**» رواه مسلم (١١٦٣).

قال السعدي : وهذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن

زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص. انتهى

وفي الآية إثبات اسم (العفو) لله واسم (القدير) وهما متضمّنان لصفة العفو والقدرة، وفي الآية استحباب العفو.

قال :

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢].

فيه إثبات صفة المغفرة لله واسم (الغفور) واسم (الرحيم) ولفظ الجلالة (الله) وكلّ اسم يتضمّن صفة، وهذه الآية لها سبب نزول وهو ما أخرجه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى

الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهُ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ

رَسُولُ اللهِ ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، فَقُلْتُ: ائذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «**يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟**»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ العَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا وَاللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، وَاللهِ

لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللهِ عَلَى المِنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ وَبَكَيْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ،

حتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «**يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ**»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَقُلْتُ: لاَ وَاللهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمۡ**﴾[النور:١١] الآيَاتِ، فلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُوبَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ**﴾[النور:٢٢]، فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «**يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ؟ مَا رَأَيْتِ؟**»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ.

إثبات صفة العزّة لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

فيه إثبات صفة العزّة لله تعالى، وأن العزة لأهل الإيمان والإسلام والاستقامة، وفي أحمد (١٥٩١٨): عَنْ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لِلْإِسْلَامِ مِنْ مُنْتَهَى؟ قَالَ: «**نَعَمْ، أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ، أَوِ الْعُجْمِ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ خَيْرًا، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ**» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**ثُمَّ تَقَعُ فِتَنٌ كَأَنَّهَا الظُّلَلُ**» فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: كَلَّا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ النَّبِيُّ : «**بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَعُودُنَّ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

وفي البخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢): عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقِي فِي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[المنافقون:١] فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[المنافقون:٤] قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

قال :

وَقَوْلُهُ مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٨٢].

هذا يمين وقسم من أبليس بعزّة الله التي هي وصف الله ، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠]، أي الموصوف بالعزّة ومن حديث أبي هريرة : «**بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»، رواه البخاري (٢٧٩) و(٣٣٩١) و(٧٤٩٣). وفي حديث عثمان أبي بن العاص أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ، قَالَ عُثْمَانُ : وَبِي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يُهْلِكُنِي قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**امْسَحْهُ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَقُلْ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ**»، عند أبي داود (٣٨٩١)، الترمذي (٢٠٨٠)، ابن ماجه (٣٥٢٢)، مسند أحمد (١٦٢٦٨)، وأصله في مسلم.

ومن أسماء الله (العزيز) الذي يتضمّن صفة العزّة لله فهي ثابتة بالكتاب والسنّة والإجماع وقد اشتقّ الكفّار من اسم العزيز اسمًا لآلهتهم فسمّوها العُزّى، فعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا**»، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا، أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا،

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى». من حديث خالد بن الوليد في السنن الكبرى للنسائي (١١٥٤٧).

فالعزّة لله ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر:١٠]، من أعزّه فهو العزيز ومن أذلّه فهو الذليل وأمّا المخلوق قد يوصف بالعزة ولا عزّة له: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١]، ولا عزّة له وهو على الكفر، امرأته تراود فتاه عن نفسه وهو يقول اعرض عن هذا واستغفري لذنبك، أين غيرة الرجال وأين معاقبة المخطئ وهكذا يقول الله في شأن المشرك: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩]، ليس له من العزّة شيء لأنّه في النار.

في هذه الآية حرص إبليس على إغواء الناس حيث أقسم بالله لَيُغوينّهم أجمعين وأكّد القسم بـ(اللام) ثم أكّد إغواءه بقوله (أجمعين) ولكن خيّبه الله وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٤٠]، ليس معنى ذلك أنّ إبليس لا يريد إغواء المخلصين من المؤمنين ولكنّه عاجز عن ذلك لخلوصهم وإقبالهم على طاعة الله وإلّا فإنّه لن يترك أحدًا يستطيع إغواءه كما أخبر الله أنّه قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٦-١٧]، وإبليس علم على الشيطان الأكبر، الشيطان الرجيم.

القول في الإثبات المفصل والنفي المجمل

الله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصَّل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، قال أهل اللغة: (هل تعلم له سميًّا) أي نظيرًا يستحق مِثْل اسمه، ويقال مُسامِيًا يُسامِيه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مِثْلًا أو شبيهًا.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٠٠-١٠١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[الفرقان:١-٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ

ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات:١٤٩-١٨٢]، فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلَّم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصَّل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥] الآية بكمالها، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:١-٤] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[التحريم:٢]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[الروم:٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[إبراهيم:٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٤-١٦]، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٣-٤] .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[محمد:٢٨]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[المائدة:١١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[غافر:١٠]،

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١] .

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم:٥٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص:٦٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢] .

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤] .

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلى الله عليهم أجمعين. انتهى

قاله شيخ الإسلام في التدمرية صـ(٨-١٢).

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

بعد أن قدّم شيئا من الأدلة في التفصيل في الإثبات ذكر هذه الآية وفيها الإجمال في النفي.

فقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ومنها قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[الفرقان:١].

وقوله: ﴿ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ دليل على أنّ لله أسماء تليق بجلاله وأنّها غير مخلوقة، فالمخلوق لا يوصف أنّه تبارك وإنّما يُقال فيه مبارك أمّا الذي تبارك هو الله .

وقوله: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾هذا اسم مركّب من أسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تُسمّي عبدًا بهذا الاسم تقول عبدذو الجلال والإكرام، وأسماء الله منها المفردة كـ(الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدّوس...) ومنها المركبّة كـ(ربّ العالمين، مالك يوم الدين، جامع الناس ليوم لا ريب فيه، خير الوارثين، نعم المولى، نعم النصير...) والأسماء المركّبة من أسماء الحسنى بالإجماع لأنّ الله يُدعى بها والنبيّ يقول: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»، من حديث أنس عند النسائي (٣٥٢٥)، أي ألزموه وأكثروا من الدعاء بهذا الاسم العظيم، وهذا الاسم يتضمّن إثبات جلال الله وعظمته تعالى، ويتضمّن كمال الله من كلّ وجه وأنّه مع جلاله وعظمته وكبريائه متصف بالإكرام، قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[العلق:٣]، وقد تقدّم معنا في قول الله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]، أنّه

لمّا كان ذو الجلال والإكرام وصف للوجه رُفع ولمّا كان ذي الجلال والإكرام وصفًا للربّ والذات جُرَّ لأنّه تابع.

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

قال السعدي :

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[طه:١٣١] إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه:١٣٢] الآية. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم لله مساميا ومشابها ومماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مساميا ولا مشابها، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى. انتهى

فقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ من النفي المُجمل والقاعدة عند أهل السنّة والجماعة أنّ الله يُوصف بالإثبات المفصّل وبالنفي المجمل، وقد يتخلّف

هذا الأصل ويوصف الله بالإثبات المجمل والنفي المفصّل لكن في موطنين فقط وهو ردّ ما ادّعاه في حقّه المبطلون ودفع توهّم نقص وأمّا النفي المجمل فيُؤتى به لبيان عموم الكمال وأوّل الآية: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، وهذه الآية تضمّنت **أنواع التوحيد الثلاثة:**

- الأوّل: **توحيد الربوبية.**
- الثاني: **توحيد الألوهية.**
- الثالث: **توحيد الأسماء والصفات.**

وفيها الحثّ على الصبر على طاعة الله، لأنّ الإنسان تأتيه المثبّطات إمّا من الشياطين قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:٨٣]، والإرسال هنا كوني، وإمّا بالنفس الأمّارة بالسوء أو بسبب الهوى أو بغير ذلك، **والصبر ثلاثة:**

- صبر على أقدار الله ، وهو الذي يتضمنه قول الله : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الطور:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل:١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].
- صبر عن معاصي الله ، قال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠].
- صبر على طاعة الله ، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه:١٣٢].

والصبر قد يكون جبليًّا وقد يكون بالتعود، قال النبيّ : «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»، رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد ، وسمّاه النبيّ ضياء فقال : «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»، من حديث أبي مالك الأشعريّ عند مسلم (٢٢٣).

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص:٤].

أي ليس له مثيل ولا نظير ولا سميّ ولا ندّ، وليس ثَمّ أحد يُكافئ الله لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله لكماله المطلق من كل وجه والآية تدل على النفي المجمل.

قال :

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه. أفاده السعدي.

قال :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥].

أي ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا أي نظراء ومثلاء إمّا في العبادة وإمّا في الصفات على ما يتصوّرون فيُحبّون هؤلاء الأنداد وهؤلاء الأصنام كحُبّهم لله وقيل كحبّ المؤمنين لله وكلاهما كفر فإذا أحبّ الرجل صنمًا أو حجرًا أو قبرًا أو وثنًا أو ملكًا أو بشرًا كمحبّة الله فقد كفر حيث أشرك في عبادة المحبة ولأنّ الله هو الخالق المالك المدبّر يُعبدبالمحبّة كما يُعبدبالخوف وإذا أحبّ عبدٌ مربوبه من دون الله كحبّ المؤمنين لله فقد كفر ففي كلا الحالين كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

هذا عليه أدلّته منها حديث أنس في الصحيحين البخاري (١٦)، مسلم (٤٣)، قال النبيّ : «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

وقال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤]، وقال تعالى:﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٤].

وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٣٠٠٩) و(٤٢٠٩) و(٤٢١٠)، قال الرسول : «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فمحبّة الله يأتي معها الانقياد لله بالتوحيد والطاعة وكم من الناس الذين يدّعون محبّة الله وهم مخالفون لشرعة بل حتى اليهود والنصارى والصوفية القبورية والرافضة ومن إليهم يدّعون محبّة الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[المائدة:١٨]، وقد قطع الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١]، فإذا كنت تحبّ الله فاتبع الرسول فإنّ من علامة حبّ الله امتثال أمر الله والدعاوى إن لم تُقم عليها بيّنات أصحابها أدعياء والنبيّ يقول في خُطبَتِهِ: «البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي، وَاليَمِينُ عَلَى المُدَّعَى عَلَيْهِ»، الترمذي (١٣٤١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعن ابن عباس (١٣٤٢)، فمن ادّعى شيئًا أتى بالبيّنة فإذا كنت تُحبّ الله فبادر إلى ما يُرضي الله .

قال :

> ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[الإسراء:١١١].

هذه الآية تضمّنت عدّة معانٍ:

الأوّل: الأمر بحمد الله والحمد من الصفات الثبوتية فحمد الله يتضمّن الإجمال في الإثبات، وإنّما يكون الحمد على ما هو من خصائص الكمال والجلال والعظمة فلفظ الحمد لله يتضمّن إثبات كلّ كمال لله فيدخل فيها إثبات السمع والبصر والقدرة والإرادة والمشيئة والعلوّ وغير ذلك كما أنّ كلمة (سبحان الله) تتضمّن نفي جميع النقائص عن الله وتستلزم إثبات جميع المحامد لله .

الثاني: في قوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ﴾ هذا من النفي المفصّل؛ لأنّ اتخاذ الولد صفة نقص في حق الله تعالى، وصفة كمال في حقّ المخلوقين لأنّ الآدمي يكبر ويهرم ويموت فيحتاج إلى ولد يرث ماله ويقوم عليه في حال كبره قال الله : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء:٢٣]، لكن الله هو الحيّ القيّوم، الحيّ الذي حياته أزليّة أبديّة، القيّوم القائم بنفسه والمقيم لغيره ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣]، فالله منزّه عن الصاحبة والولد، وله الكمال المطلق.

وقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لكماله ومعلوم عندنا أن الصفات المنفية تتضمن كمال الضد فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾[الإخلاص:٣]، يدل على كمال حياته، وقيوميته، وسيادته إلى غير ذلك فإنّ الصفة المنفية قد تدلّ على عدّة كمالات كما في قول الله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]، فنفي صفة العجز دلّ على إثبات صفة القدرة والعلم.

الثالث: في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ هذا من النفي المجمل الذي يُبيّن عموم ملك الله وعموم كمال ولم يكن له شريك في الملك كما لم يكن له معين ولا ظهير لقوّته وجبروته وقهره وعزّته وعظمته .

الرابع: في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ خرج به ما اتخذ الله من الأولياء الصالحين، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال النبيّ فيما يرويه عن ربّه: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»، البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ، فالله اتخذ أولياء من المؤمنين إكرامًا لهم ولم يتخذهم أولياء لذلّة تلحق به أو لحاجة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[الإسراء:١١١]، بل هو تفضّل على الأولياء وأكرمهم بولايته، أمّا البشر المخلوقون المربوبون العاجزون فإنّهم يتّخذون الأولياء من أجل إذا وقعت عليهم المشاكل استنصروا بهم وإذا وقعت عليهم ديون استنجدوا بهم واستعانوا بهم إلى غير ذلك، قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[فاطر:١٥-١٧].

الخامس: في قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ عظّمه وكبّره وهذا فيه إجمال في الإثبات فيشمل تعظيم الله بصفات الجلال والجمال وصفات الجبروت والملكوت وغير ذلك ممّا يتعلّق بالذات العليّة، وفيها الحثُّ على ذكر الله بالتكبير وغيره.

قال :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التغابن:١].

التسبيح يُراد به تنزيه الله عن جميع النقائص والمعائب ونُزّه الله عن جميع النقائص المعائب لعموم كماله، فالله يُسبح له ما في السماوات والأرض واختلف العلماء في هذا التسبيح هل هو بلسان الحال أو لسان المقال، فذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية على عمومها وهي أن الله يُسبّح له من في السماوات ومن في الأرض بلسان مقالها وقد قال النبيّ : «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»، من حديث جابر بن سمُرة عند مسلم (٢٢٧٧). فالله لا يُعجزه شيء، وذهب بعضهم إلى أنّ هذه الكائنات والمخلوقات تُسبّح لله بلسان حالها فوجود هذه الجبال العظيمة وهذه المخلوقات يدلّ على تنزيه الله عن النقائص لأنّه الخالق المالك الرازق المدبّر المتّصف بجميع صفات الكمال، قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:٤٤]، وقال : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:٧٩]، وقال : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[سبأ:١٠]، فمن قال إنّ التسبيح بلسان الحال لا يُنكر عليه ومن قال إنّ التسبيح بلسان المقال لا يُنكر عليه ومن قال أنّ التسبيح بلسان المقال في حقّ المؤمنين الطائعين وبلسان الحال في حقّ الكافرين والعصاة المجرمين لا يُنكر

عليه وهذا الذي يظهر لي والله أعلم، لأنّ كثير من الكفّار ما يقول سبحان الله عُمره، ولا يعرف الله فيكون وجوده دالٌّ على تنزيه الله عن النقائص.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فيه الإثبات المفصّل وأيضًا المجمل لأنّ صاحب الملك المطلق هو المتصف بالكمال من كلّ وجه، قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك:١-٢]، وله الحمد على ما تقدّم بيانه، فـ(أل) في الحمد للاستغراق.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه إثبات صفة القدرة لله ، القدرة العظيمة التي يدخل تحتها كلّ مقدور و(كلّ) من ألفاظ العموم.

قال :

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:١-٢].

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه إثبات نزول القرآن من الله ومن أسماء القرآن الفرقان، وفيه إثبات أنّ النبيّ عبدٌ أكرمه الله بهذه المرتبة العظيمة التي امتنّ بها عليه في هذا الموطن وهو موطن الإنزال أي إنزال القرآن عليه، وفيه أنّ النبيّ بُعث للناس كافّة لقوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١]، وهذا موافقٌ لقول الله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ:٢٨].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ دلّ على الإجمال في الإثبات على تقدّم بيانه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فيه إثبات صفة الخلق لله وهي من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية إلّا أنّ خلق الله لآحاد المخلوقين من الصفات الفعلية، فالله خلق زيدًا متى شاء وخلق عمرو متى شاء، وفيه إثبات القدر في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ على ما يأتي بيانه، والإثبات المجمل في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والنفي المُجمل في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، وقد تقدّم فائدة كلّ هذا.

قال :

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٩١-٩٢].

فيه نفي الولد عن الله وهذه صفة منفية والصفة المنفية لا بدّ أن تتضمّن كمال الضدّ كما تقدّم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾ لأنّ وجود الآلهة مع الله مردّه إلى فساد العالم وقد استدلّ بعض النُظّار بهذه الآية على دليل التمانع وضابط أنّه يمتنع أن يكون في الكون خالقين فإمّا أن يغلب أحدهما فهو الإله وإمّا أن يعجزا جميعًا فليسا بآلهة وإمّا أن لا يتحقّق أمر أحدهما، والصحيح أنّه لا يُستدلّ بها على هذا وإنّما الاستدلال بها على توحيد الإلهية أعظم فإنّ الذين ذهبوا

بالاستدلال بها على دليل التمانع استدلّوا بها على أنّ الفساد في العالم يقع بالإشراك في توحيد الربوبية وهذا خطأ بل الفساد يقع في العالم بجميع أنواع الشرك سواء شرك الألوهية أو شرك الربوبية وقول الله : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١]، أي يُنزّه الله نفسه أن يكون معه إله أو يكون معه شريك أو يكون معه نظير أو يكون له معين والله منزّه عن جميع النقائص ثم قال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي الله عالم بالغيب والغيب هو الغائب عن الأبصار والشهادة هو الشيء المشاهد، وهذا من الأسماء المركّبة: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[المؤمنون:٩١]، كقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:١٤].

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا من النفي المجمل (تعالى) أي تنزّه وتقدّس وتعاظم عن صفات المخلوقين وعن أقوالهم وأفعالهم الشركيّة.

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٧٤].

هذه الآية يُشكل معناها على من لم يفقه هذا الباب وذلك لأنّ الله يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠]، وهذا ليس بمشكل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، والقرآن والسنّة الصحيحة يؤيّد بعضهما بعضًا إذ لا تناقض لأنّ كلام الله : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، لكن لا يُضرب لله مثل السوء، قال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[النحل:٦٠]، والمراد بالمثل الأعلى الوصف الأعلى الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه من التعظيم، والإجلال، والمحبة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أنّ الله متّصفٌ بصفة العلم وأنتم لا تعلمون إلّا ما علّمكم الله فيجب علينا أن لا نصف الله تعالى، وسميه إلا بما وصف وسمى به نفسه، ويُتبين المراد من الآية من سياقها وسباقها قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٣-٧٨].

قال السعدي :

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا

ينزلون مطرا، ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟!!

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبدمن دونه، أحدهما عبدمملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا، والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبدالذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟!!

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني مثل: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي: يخدمه

مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبدمن دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها، ولا يكون كفوا وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه. انتهى

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣].

الخطاب للنبي ، وهو عام لجميع أمته، واستدلّ العلماء بهذه الآية على تحريم القول على الله بغير علم في جميع أبواب الدين ومنه وصف الله بما لم يصف به نفسه أو تمثيل الله بخلقه أو تعطيل الله من صفاته كلّ هذا من الحرام الذي هو أعظم أنواع الإلحاد، بل قد ذهب ابن القيّم إلى أنّ القول على الله بغير علم أعظم أنواع الذنوب والمعاصي على الإطلاق وأعظم من الشرك بالله، وقد يُشكل على بعضهم حين يَسمع مثل هذا الكلام، فنقول لا يُشكل فإنّ الشرك بالله إنّما يقع بالقول على الله بغير علم وما مُثّل الله بخلقه إلّا بسبب القول على الله بغير علم وما عُطّل الله عن صفاته إلّا بالقول على الله بغير علم وليس المراد بأنّك إذا أفتيت في مسألة خالفت فيها الحقّ أنّك قلت على الله بغير علم، هذا يدخل في قول الله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء:٣٦]،

فلا إنكار على ابن القيّم في ترجيحه على أنّ القول على الله بغير علم أعظم من الشرك لأنّ الشرك سببه القول على الله بغير علم، لماذا عبدكفّار قريش اللات والعُزّى وهُبل ومناة؟ عبدوها لاعتقادهم أنّ هذه لها منزلة عند الله وأنّ الله قد أمر بتعظيم أوليائه وهذا من تعظيم الأولياء فسببه القول على الله بغير علم، قال النصارى على الله الأب وعلى عيسى الابن وبأنّ له صاحبة؟ لأنّهم قالوا على الله بغير علم، إذًا القول على الله بغير علم ذنب عظيم مؤدّاه إلى جميع أنواع الشرك والإلحاد والزندقة والكفر والضلال ولا حول ولا قوّة إلّا بالله وقد ذكر ابن القيم أنّ الله ذكر المحرّمات في هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى قوله: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾[الأعراف:٣٣]، تطلق على ما فَحُش من الذنوب، والمعاصي كالزنا واللواط، قال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٨٠] وقوله : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان ظاهرًا للعيان وما كان باطنًا، مما يتعلق بحركات البدن، وخبايا القلوب كالعجب، والكبر، ونحوه، وقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾[الأعراف:٣٣] هي الذنوب الموجبة للعقوبة، والإثم يتنوّع فمنه شرب الخمر والزنا، ونحوها.

قال ابن عادل في اللباب :

بيَّن في هذه الآية الكريمة أنواع المحرمات، فحرَّم أولًاالفواحش، وثانيها الإثم، واختلفُوا في الفَرْقِ بينهما، فقيل: الفواحشُ: عبارة عن الكبَائر؛ لأنَّ قبحها قد تَفَاحَشَ أي: تزايد، والإثم عبارة عن الصغائر، والمعنى: أنَّهُ حرَّم الكبائِرَ والصَّغائِرَ.

وطعن القاضي في ذلك بأن ذلك يقتضي أن يقال: الزِّنا والسرقة والكفر ليس بإثْمٍ، وهو بعيد، وأقلُّ الفواحش ما يجب فيه الحدُّ، والإثم ما لا حدّ فيه.

وقيل: الفاحِشَةُ اسم للكبيرةِ، والإثمُ اسم لمطلق الذَّنْبِ سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، وفائدته: أنَّهُ لَمَّا حرّم الكبيرة أردفه بِتَحْرِيمِ مطلق الذَّنْبِ، لئلَّا يتوهم أنَّ التحريم مقصورٌ على الكبيرة، وهذا اختيار القاضي.

وقيل: إنَّ الفاحشة وإن كانت بحسب اللُّغَةِ اسمًا لكلِّ ما يتفاحش وتزايدُ في أمر من الأمور، إلَّا أنَّهُ في العُرْفِ مخصوصٌ بالزِّنَا، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى في الزنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾[الإسراء:٣٢]، ولأنَّ لفظ الفاحشة إذا أطلق لم يفهم منه إلَّا ذلك.

وإذا قيل: فلانٌ فحاشٌ، فُهِم منه أنَّهُ يشْتِمُ النَّاسَ بألفاظ الوِقَاع؛ فوجب حمل لفظ الفاحِشَةِ على الزِّنَا، فعلى هذا يكون: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ أي: الذي يقع منها علانية، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الذي يقع منها سرًّا على وجه العشق والمحبَّة.

وقيل: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾: المُلامسة والمُعانقة، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الدُّخول. انتهى

قوله: ﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾[الأعراف:٣٣] البغي وهو تجاوز الحدّ في ظلم الناس سواء كان ذلك في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، فشملت الآية ما يتعلق بحق الله تعالى، وحق العباد، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾خرج به ما كان صورته البغي وهو بحق لأنّ الله قال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾[النساء:١٤٨]، وقال الله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى:٤١].

قال ابن عادل في اللباب :

فإن قيل: البغيُ لا يكون إلا بغير الحقِّ، فما الفائدة في ذكر هذا الشرط؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنَّ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ حال، وهي حال مؤكدة؛ لأنَّ البَغْيَ لا يكون إلَّا بغير الحق.

والثاني: أنَّهُ مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام:١٥١]، والمعنى: لا تُقدمُوا على إيذاءِ النَّاسِ بالقَتْلِ والقهر، إلا أن يكون لكم فيه حق فحينئذ يخرج عن أن يكون بغيًا. انتهى

وقال الله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[الأعراف:٣٣]، أي حجة، وبرهان، وليس معنى ذلك أنّ بعض الشرك أنزل الله به حجّة من السماء فالشرك محرّم ولكن قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ صفة كاشفة ومبيّنة أنّ ذلك لن يكون. فإذا قال لك المشرك: أنا أُشرك بهذا الصنم وبهذا القبر؛ لأنّ الله قد أمر بذلك، قل له: (هات سلطانك) لن يستطيع أن يأتي بدليل من القرآن أو حديث صحيح على أنّ الله أذن بالشرك، تعالى الله أن يأذن بالشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي في شرعه، ودينه، ويدخل في ذلك القول في الأسماء والصفات.

إثبات صفة الاستواء

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس:٣] فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ.(١)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس:٣]، وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الرعد:٢]، وقوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الفرقان:٥٩]، وقوله تبارك تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقوله :

---

(١) وقع في (ف) سرد تلك المواضع، وعدم ذكرها أصوب، يؤيد هذا: أنه أورد آية طه حين العد، فصارت سبعة! ووقع في المطبوع: [﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ في سبع مواضع...] ثم سردها، والواقع أن هذه الآية ليست إلا في سورة طه، أما التي في ستة مواضع فالآية الأخرى. وإليك الآيات التي سردت في (ف) وفي المطبوع قال:

في سورةِ الأعرافِ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]. وقال في سورةِ يونسَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس:٣]، وقال في سورةِ الرعدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الرعد: ٢]، وقال في سورةِ طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقال في سورةِ الفرقانَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الفرقان:٥٩].وقال في سورة الم السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[السجدة: ٤]، وقال في سورةِ الحديدِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الحديد: ٤].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[السجدة:٤]، وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الحديد:٤]، كلّ هذه الآيات تضمّنت الدلالة على صفة الاستواء لله وصفة الاستواء من الصفات الفعلية وهي ثابتة بالقرآن والإجماع ولا أعلم دليلًا من السنة للدلالة عليها إلّا عند تفسيرها بمعنى العلوّ فالأحاديث الدالة على إثبات صفة العلو لله كثيرة.

وفي الآيات دلالة أنّ الله خلق السموات والأرض في ستّة أيّام، وحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٢٧٨٩)، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِي فَقَالَ: (خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) الراجح وقفه على كعب الأحبار.

والجمع بين هذه الآيات وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت:٩-١٠]، المراد أنّه خلق السماوات والأرض في يومين ثمّ كان تقدير ما فيها في أربعة أيّام فكان تمام الخلق في ستّة أيّام.

وصفة الاستواء صفة حقيقية لله وأجمع العلماء على تفسيرها بالعلوّ والاستقرار والارتفاع والصعود فمعنى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]،

أي علا على العرش وارتفع عليه وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[البقرة:٢٩]، فسّرها بعضهم أي قصد إلى السماء لأنّ الاستواء هنا عُدّي بـ(إلى) ونقل شيخ الإسلام ابن القيّم الإجماع على ذلك، ويكون المراد قصد إلى خلق السماء من العلوّ وهو على عرشه.

وفسّر أهل التعطيل الاستواء بالاستيلاء، فشابهت الجهميّة اليهود، حيث قال الله تعالى آمرًا لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[البقرة:٥٨]، فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ. رواه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٣٠١٥) من أحديث أبي هريرة .

قال ابن القيّم :

أُمِرَ الْيَهُودُ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّةٌ ... فَأَبَوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ لِهَوَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ اسْتَوَى ... فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ

قَالَ اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ ... لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سِيَّانِ

نُونُ الْيَهُودِ وَلَامُ جَهْمِيٍّ هُمَا ... فِي وَحْيِ رَبِّ الْعَرْشِ زَائِدَتَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ عَطَّلَ وَصْفَهُ ... وَيَهُودُ قَدْ وَصَفُوهُ بِالنُّقْصَانِ

فَهُمَا إِذَنْ فِي نَفْيِهِمْ لِصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُلْيَا كَمَا بَيَّنْتُهُ أَخَوَانِ

وتفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير باطل لا يدلّ عليه العقل ولا النقل، أمّا النقل فقد تبيّن أنّ الاستواء بمعنى الارتفاع والعلو والصعود والاستقرار وأمّا العقل فإنّ الاستيلاء يكون عن مغالبة بين اثنين أو أكثر والله له الملك المطلق ثمّ هو تعالى مستولي على جميع مخلوقاته ليس على عرشه فقط.

وتناقلوا عن الأخطل بيتًا لا حجة لهم فيه:

قَـدِ اسْـتَوَى بِـشْرٌ عَـلَى الْعِـرَاقِ   مِـنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْـرَاقِ

والعجب أنّ هؤلاء إذا قلت لهم قال الرسول : «يَنْزِلُ رَبُّنَا» من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)، قالوا: هذا خبر آحاد نحن لا نأخذ به في العقيدة، قال النبيّ : «أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَالكَسَلِ، وَأَرْذَلِ العُمُرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ»، من حديث أنس عند البخاري (٤٧٠٧) ومسلم (٢٧٠٦)، قالوا: نحن لا نؤمن بعذاب القبر؛ لأنّه خبر آحاد.

وهذا البيت لا سند له واستدلّوا به على باطلهم وهذا من تناقضهم يردّون أخبار الرسول التي في الصحيحين ويقبلون بيت الأخطل النصراني.

وقد أحسن شيخ الإسلام إذ يقول:

قُبْحًـا لِمَـنْ نَبَـذَ الْقُـرَانَ وَرَاءَهُ   وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَـالَ الْأَخْطَـلُ

وقال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِـيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَـوْلٌ قَالَـهُ   فِـيمَا يُقَـالُ الْأَخْطَـلُ النَّـصْرَانِي

فهم يُقسّمون الحديث إلى قسمين: **آحاد ومتواتر**، والآحاد هو رواية الواحد أو الاثنين أو الثلاثة وربّما رواية العشرة فيدخل فيه العزيز والمشهور والغريب، فكلّ هذه الأنواع عندهم آحاد، والآحاد عندهم لا يؤخذ به في العقائد. وسيأتي الردّ على هذه الشبهة في موطنه إن شاء الله تعالى. وتقسيم الحديث إلى آحاد ومتواتر تقسيم مبتدع لم يأت من قِبل السلف، وإنّما جاء عن

إبراهيم بن كيسان الأصمّ، وكان من رءوس المعتزلة، الذي قيل في ترجمته: كان عن الحقّ أصمٌّ. وعنه إبراهيم بن عُليّة الجهمي. وإلّا فحديث النبيّ إذا توفرت فيه شروط القبول يجب قبولها آحادها ومتواترها، ثمّ الرسول واحد، والذي ذهب بالكتاب إلى هرقل واحد، والمؤذّن واحد والآذان فيه التوحيد، وهذا التقسيم مبتدع ردّ عليه الإمام الشافعي في كتاب الرسالة ردًّا طيّبًا وفي كتاب صحيح البخاري (كتاب أخبار الآحاد)، وهكذا الإمام أبومحمّد ابن حزم في كتاب أحكام الأحكام ، والإمام ابن القيّم كما في مختصر الصواعق ، وللشيخ الألباني (كتاب في بيان حجيّة خبر الآحاد) وغيرهم كثير، وهذا المذهب ما زال ساريًا متبنّيه حزب التحرير حيث لا يؤمنون بعذاب القبر ولا يؤمنون بكثير من المغيّبات وحجّتهم أنّ عذاب القبر إنّما جاء عن طريق الآحاد والصحيح أنّ أحاديث عذاب القبر على اصطلاحهم متواترة لفظًا ومعنًى. وقد جمعت فيها في رسالتي عذاب القبر ونعيمه أكثر من مائة دليل صحيح، ثمّ هم عندما يُصلّون يقولون: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»، تقول له: لماذا تدعو بهذا الدعاء؟ يقول: لأنّه في باب الأحكام وفي باب العبادات، وقد صحّ عن النبيّ أنّه قال: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٥٨٨)، ومن الذي فرّق بين العقائد والعبادات فكلّها من عند الله، نسأل الله السلامة.

شاهدنا إنّ تفسير الاستواء بالاستيلاء باطل يُخالف المعقول والمنقول والقواعد والأصول.

والاستواء إمّا أن يُعدّى بنفسه كما قال الله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾[القصص:١٤]، فالمراد به الكمال، وإن عُدّي بـ(على) مثل قوله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[الزخرف:١٣]، وقوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، فالمراد به العلوّ وقد نُقل الإجماع على ذلك وإذا عُدّي بـ(إلى) قال الخليل بن أحمد استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء نقله عنه ابن عبدالبر في التمهيد.

وإذا عُدّيت استوى بـ(الواو) المراد به المساواة مثل (استوى الماء والخشبة).

وكلّ دليل يستدلّ به أهل السنّة والجماعة على إثبات صفة الاستواء لله ففيه دلالة على إثبات صفة العلوّ لله ، والعرش هو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩]، وقال النبيّ : «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»، من حديث جويريّة عند مسلم (٢٧٢٦)، وفي البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله : فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة قال محمد بن فليح عن أبيه وفوقه عرش الرحمن.

والعرش جُرم مخلوق ليس بالملك كما يُفسّره المعتزلة والجهمية فإنّهم حينما فرّوا من إثبات العلو أرادوا أن ينفوا كلّ شيء يدلّ عليه فزعموا أنّ العرش هو الملك ويُردّ عليهم بأوجهٍ كثيرة:

الأوّل: قول الله : ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[الحاقة:١٧]، فالعرش محمول فدلّ على أنّه جُرم مخلوق، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عند البخاري (٤٦٣٨) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ فِي وَجْهِي، قَالَ: «ادْعُوهُ» فَدَعَوْهُ قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَقُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟! وَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: «**لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**». والقوائم معروفة. وقد جاء عن النبيّ أنّه يقول: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١). فالعرش له ظلّ ويُحمل وعظيم واسع وهو سقف الجنّة، قال النبيّ : «**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ**

الجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩٠).

فدلّ هذا على أنّ العرش مخلوق لله وأنّ الله مستوٍ على العرش استواء يليق بجلال وجهه وعظيم سُلطانه وهو غير محتاج إلى العرش فمن زعم أنّ الله استوى على العرش لحاجته إليه فقد كفر ومن زعم أنّ العرش يحويه فقد كفر فالله هو الذي يقيم الخلائق، فهو الحيّ القيّوم، فحملة العرش والعرش بحاجة إلى الله .

تنبيه:

ما يُسمّيه أصحاب الهيئة الجديدة بتمدّد الكون، وما استدلّ به الزنداني ومن إليه بقول الله : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات:٤٧]، أي نوسعها الآن، والآية قد فسّرها ابن عبّاس : ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أوسعناها فمؤدّى قول الهيئة الجديدة على أنّ الأرض مركز العالم ويحيط بالأرض سبع كواكب سيّارة والأرض ومن حولها من الكواكب هي مجموعة شمسيّة لهذه الشمس التي نراها وهذه الشمس التي نراها ويأتينا حرّها وهذا القمر هو عبارة عن مجموعة واحدة من ملايين المجموعات الشمسية في مجرّة درب التبّانة ومجرّة التبّانة ما هي إلا واحدة من هذه المجرّات في هذا العالم، فليس عندهم سماء، ألم نُخبر أنّ السماوات سبع وأنّ بين كلّ سماء وسماء مسافة وسُمك كلّ سماء كذا، أين العرش؟ ليس عندهم عرش، فمؤدّى قولهم إنّه لا سماوات ولا عرش ولا إله مستوٍ على العرش، تعالى الله عن قولهم، وهكذا جاءوا بنفي الاستواء لنفي العلوّ وقالوا بالحلول والاتّحاد لنفي العلوّ وقد ذُكر

في بعض كتب المدارس (الله معنا في كلّ مكان) وهذا عنوان باطل لأنّ فيه إجمال وصاحبه قاصدٌ لهذا لأنّ أكثر من يتولّى الإشراف على مناهج المسلمين إمّا أشاعرة، وإمّا معتزلة، وإمّا شيعة، وإمّا إخوان جُهّال، لا يعرفون التوحيد ولا يعرفون باب الأسماء والصفات ولهذا كان من الضلال البعيد وضع هذا العنوان يُدرّس لأبناء المسلمين في الصفّ الثالث الابتدائي بمجرّد ما يعقل الطالب إذا بهم يُقرّرون (الله معنا في كلّ مكان).

فيا طُلّاب العلم ازرعوا العقائد الصحيحة بين الناس، عرّفهم أين ربّك؟ واذكر له حديث معاوية بن الحكم عند مسلم (٥٣٧) قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**»، فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قَالَتْ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**»، قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**». فبثُّ العقائد أمرٌ مطلوب لا سيّما والمجتمعات مغلغلة بالأشاعرة والمعتزلة والجهمية لا تظنّ أنّ هذه الفرق كانت في زمان أحمد بن حنبل فقط، لا يأتي زمان وإلّا الذي بعده أشرّ منه، كانوا في زمن أحمد وهم الآن أشرّ وأكثر ولهم وسائل، منها التلفيزيونات، والدشوش والفضائيات والانترنت والإذاعات والصحف والمجلّات والجامعات كلّها تخدم مصالحهم إلّا ما رحم ربّي وتُنشر كُتبهم، يُقرّر في جامعة صنعاء على جميع الطُلّاب كتاب المذاهب الإسلامية لمحمّد زُهرة ويُسمّونه الإمام الأكبر، هذا الكتاب يُقرّر مذهب الأشاعرة، ماذا تتوقّع من إنسان في

الجامعة بدوي بعضهم في الفيزياء وبعضهم في الكيمياء، دخل الجامعة وقرّروا عليه دراسة كتاب المذاهب الإسلامية المعاصرة ويجد أنّ محمّد (أبا زُهرة) يُقرّر مذهب الأشاعرة ويلمز ويتكلّم على دعوة الشيخ محمّد بن عبدالوهّاب وفي دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وفي طريقة السلف وذكر في كلامه على الصفات: (والصحيح في هذا أنّ المذهب الحقّ هو ما ذهب إليه الماتريدي وقرّره ابن الجوزي) وإن كان ابن الجوزي حنبلي إلّا أنّه قد زلّ في هذا الباب وصار على طريقة غير مرضية.

إثبات صفة العلوّ

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران:٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾[النساء:١٥٨]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر:١٠]، ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[المعارج:٤]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[غافر:٣٦-٣٧]، وقولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾[الملك:١٦-١٧]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾[السجدة: ٥].

أشار في هذه الآيات إلى إثبات صفة العلوّ لله وهو علوّ الذات وأهل السنّة متّفقون على أنّ الله عالٍ على عرشه بذاته، وخالف في ذلك المبتدعة الضالون وزعموا أنّ العلو المراد هو علوّ القدر والقهر.

قال الإمام ابن القيم في الكافية في رده على من قال: إن الفوقية فوقية القدر والقهر:

وَالفَوْقُ وَصفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ مِنْ ... كُلِّ الْوُجُوهِ لِفَاطِرِ الْأَكْوَانِ
لَكِنْ نُفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ ... جَحَدُوا كَمَالَ الْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ
بَلْ فَسَّرُوهُ بِأَنَّ قَدْرَ اللهِ أَعْـ ... ـلَى لَا بِفَوْقِ الذَّاتِ لِلرَّحْمَنِ

قَالُوا وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّاسِ فِي ... ذَهَبٍ يُرَى مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ لَا ... بِالذَّاتِ بَلْ فِي مُقْتَضَى الْأَثْمَانِ
وَالْفَوْقُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا ... للهِ ثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ
هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقُ الْقَهْرِ وَالْـ ... ـفَوْقِيَّةُ الْعُلْيَا عَلَى الْأَكْوَانِ

ومن الأدلة قول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى:١]، وكان النبيّ يقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، من حديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢)، بل إن بعض الجاهليين كانوا يُثبتون العلوّ لله، فقد جاء أنّ رجلًا ذهب من عند امرأته وعاد وقد وضعت ولدًا، وكانت غيبته طويلة، لا يحتمل معها أنّها تأتي منه بولدٍ، فقال لها:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ الْقَصِيِّ ... مِنِّي ذِي الْقَاذُورَةِ الْمَقْلِيِّ
أَوْ تَحْلِفِي بِرَبِّكِ الْعَلِيِّ ... أَنِّي أَبُو ذَيَالِكِ الصَّبِيِّ

وأدلّة العلوّ متنوّعة، منها أدلّة الاستواء، على ما تقدم، ومنها كلّ أدلّة المعراج، ومنها كلّ أدلّة الإنزال منه، ومنها كلّ أدلّة الفوقيّة، ومنها أدلّة الرؤية؛ لأنّ النبيّ يقول: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ**»، من حديث جرير عند البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣). (وكما ترون الشمس في وقت الظهيرة والقمر والشمس)، يُريان في العلوّ على ما يأتي بيانه، ومنها كلّ أدلّة الصعود وأدلّة العروج.

قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج:٤]، وقول النبيّ : «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ،**

فَيَسْأَلُـهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

ومنها قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فكلّ دليل فيه إنّ الله في السماء يدلّ على العلوّ، قال النبيّ : «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»، من حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤)، وقال النبيّ : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، من حديث عبدالله بن عمرو عند أبي داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤)، قَالَ أَنَسٌ : لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَعَنْ ثَابِتٍ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾[الأحزاب:٣٧]، (نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ)، من حديث أنس عند البخاري (٧٤٢٠)، وكلّ دليل يضمّ عشرات الأدلّة. وقد قال ابن القيّم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٩٤): يوضحه أن أدلة مباينة الرب لخلقه وعلوه على جميع مخلوقاته أدلة عقلية فطرية توجب العلم الضروري بمدلولها، وأما السمعية فتقارب ألف دليل. انتهى

أي: من الكتاب والسنّة وأقوال السلف.

ويدلّ على العلوّ الفطرة السليمة، فإنّ الإنسان إذا جرّد نفسه عن الهوى وعن المؤثّرات الخارجية تكون فطرته دالّة على العلوّ وهذه ضرورة لا يستطيع

أن يخرج منها أحد فإنّ الطفل إن لم يجد من يحرفُه عن عقيدة السلف إذا قيل له أين الله؟ سيشير إلى السماء، قبل أن تتغيّر عقيدته.

وقد سألت مرّة طفلًا من أطفال الشيعة: أين الله؟ أشار إلى السماء، ثمّ ضربه أبوه أمامنا، فبعد ذلك ما عساه أن يقول إن قلت له: أين الله؟! سيقول بما عوده أبوه.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ فِينَا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

والنبيّ يقول: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨)، ولم يقل يُمسلمانه؛ لأنّه وُلد على الفطرة، وهي الإسلام. وذكر شيخ الإسلام أنّه كان في مجلس من المجالس فجاءه رجل من منظّري وعلماء المعتزلة، فجعل يطالبه ببعض الأشياء، وشيخ الإسلام معرضٌ عنه، فلمّا أعياه التعب قال: (يا الله ورفع إصبعه إلى السماء) فقال شيخ الإسلام : (أنت تُقرّ بالعلوّ؟) فجعل يستغفر وجعل يسترجع على أنّه وقع في أمر عظيم؛ لأنّهم يرون حُرمة الإشارة، حتّى قال سلطان العلماء العزّ بن عبدالسلام وهو أشعريٌّ[1]: (لا يُسأل عن الله بأين ولا يُشار إليه) مع أنّ النبيّ قال: «**اللهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثًا**»، من حديث جابر عند مسلم (١٢١٨)، أمام أكثر من مائة ألف ولم يقع نكير أو استفصال من الصحابة لأنّهم يعرفون أنّه يُشير إلى السماء يُشهدُ الله

---

(١) له رسالة في التوحيد لولا ضيق الأوقات لرددت عليها أتى في مقدّمتها بالبلاوي يعني كلام فلسفي ما هو من كلام من سلمت عقائدهم.

وكذلك حديث الجارية أين الله؟ قالت: «**في السماء**» كما تقدّم، فقد سأل عنه بـ(أين) من هو أعلم منّا ومن غيرنا بربّه، بل هو أعلم الخلق بربّه ، فعند ذلك أقرّ شيخ الإسلام ذلك الرجل بالقول بالعلوّ، قال له: (انظر ما تخلّصت فطرته من المؤثّرات الخارجية) أي: الهوى والشبهة كيف أشرت إلى السماء، واعتقد بعد ذلك العلوّ.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع الفتاوى : وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ عَبْدُالسَّيِّدِ الَّذِي كَانَ قَاضِيَ الْيَهُودِ ثُمَّ أَسْلَمَ وَكَانَ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَمِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْسَنِهِمْ إسْلَامًا أَنَّهُ كَانَ يَجْتَمِعُ بِشَيْخٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الشَّرَفُ البلاسي يُطْلَبُ مِنْهُ الْمَعْرِفَةُ وَالْعِلْمُ. قَالَ: فَدَعَانِي إلَى هَذَا الْمَذْهَبِ، فَقُلْت لَهُ: قَوْلُكُمْ يُشْبِهُ قَوْلَ فِرْعَوْنَ، قَالَ: وَنَحْنُ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، فَقُلْت لِعَبْدِالسَّيِّدِ وَاعْتَرَفَ لَك بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَانَ عَبْدُالسَّيِّدِ إذْ ذَاكَ قَدْ ذَاكَرَنِي بِهَذَا الْمَذْهَبِ، فَقُلْت لَهُ: هَذَا مَذْهَبٌ فَاسِدٌ وَهُوَ يَئُولُ إلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، فَحَدَّثَنِي بِهَذَا، فَقُلْت لَهُ: مَا ظَنَنْت أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، لَكِنْ مَعَ إقْرَارِ الْخَصْمِ مَا يَحْتَاجُ إلَى بَيِّنَةٍ. قَالَ عَبْدُالسَّيِّدِ: فَقُلْت لَهُ: لَا أَدَعُ مُوسَى وَأَذْهَبُ إلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: وَلِمَ؟ قُلْت: لِأَنَّ مُوسَى أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ. فَانْقَطَعَ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالظُّهُورِ الْكَوْنِيِّ، فَقُلْت لِعَبْدِالسَّيِّدِ - وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ - نَفَعَتْك الْيَهُودِيَّةُ يَهُودِيٌّ خَيْرٌ مِنْ فِرْعَوْنِيٍّ. انتهى

لأنّ من الأدلة أن الله في العلوّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾[غافر: ٣٦-٣٧]، ما الذي جعل فرعون يطلب هذا الأمر من هامان لأنّ موسى

أخبره أنّ ربّه في السماء حتّى أنّه يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾[غافر:٣٧]، يعني إنّي أظنّ موسى كاذبًا في هذا القول فمن زعم أنّ ربّه في السماء فهو محمّدي موساوي، ومن زعم أنّ ربّه في كلّ مكان فهو فرعوني هاماني.

الدليل العقلي: ويدلّ العقل على علوّ الله مع دلالة الكتاب والسنّة والفطرة فإنّنا نعلم أنه ليس إلا علوّ أو سُفُلْ، والعلوّ صفة كمال والسُفُلْ صفة نقص فإذا لم يكن في العلوّ فهو في السفل وصفة النقص ممتنعة عنه فلم يبق وصفه إلّا بالعلوّ على ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله .

ومن يقولون إنّ الله في كلّ مكان يقال له ما الحكمة من العروج بالرسول إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، كما في الصحيحين البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُوذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِى وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِى ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِى صَدْرِى ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِى فَعَرَجَ بِى إِلَى السَّمَاءِ فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا افْتَحْ. قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ نَعَمْ مَعِى مُحَمَّدٌ . قَالَ فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ فَفَتَحَ، قَالَ: فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، قَالَ: فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، قَالَ: فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالاِبْنِ الصَّالِحِ، قَالَ: قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالأَسْوِدَةُ الَّتِى عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِى جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى

السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ. فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ خَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ». فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِى السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ آدَمَ فِى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ: «**فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ بِإِدْرِيسَ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - قَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قَالَ: ثُمَّ مَرَّ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا إِدْرِيسُ، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا مُوسَى، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ**». قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِى ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِىَّ كَانَا يَقُولَانِ قَالَ رَسُولُ اللهِ «**ثُمَّ عَرَجَ بِى حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ**». قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ «**فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِى خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى فَقَالَ مُوسَى مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ، قَالَ: قُلْتُ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ لِى مُوسَى فَرَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّى فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّى فَقَالَ هِىَ خَمْسٌ وَهِىَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّى، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ بِى جِبْرِيلُ حَتَّى نَأْتِىَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى**

فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، قَالَ: ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ».

وكثير من الناس الذين يزعمون أنّ الله في كلّ مكان لا يعرف لازم هذا القول وأذكر لمّا كنّا في جزيرة زنجبار قلنا لصاحب سيارة أجره أين الله؟ فقال الله في كلّ مكان، فذكرت له الأدلّة على أنّ الله في السماء من الكتاب والسنّة فمازال على إعراضه، فمررنا بمكان القاذورات، فقلت له الله هنا؟ فكاد إن يقلب السيّارة، فقلت له أنت تقول هذا، حيث تزعم أنّ ربّك في كلّ مكان، فعندها اقتنع أنّ الله في العلوّ، إذ القول بالحلول والاتحاد من أفسد أقوال العالم وأخبثها، وكفرهم أعظم من كفر اليهود والنصارى بإجماع المسلمين حتّى قال ابن عربي الطائي –لعنه الله– تلك الأبيات المشهورة:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ ... فَمَرْعًى لِغُزْلَانٍ وَدَيْرٌ لِرُهْبَانِ
وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةُ طَائِفٍ ... وَأَلْوَاحُ تَوْرَاةٍ وَمُصْحَفُ قُرْآنِ

ومن قوله:

عَرَفْتُ رَبِّي بِعَيْنِ رَبِّي ... فَقَالَ مَنْ أَنْتَ قُلْتُ أَنْتَا

أما ابن الفارض فيؤكد مذهبه في وحدة الوجود في قصيدته المشهورة بالتائية:

لَهَا صَلَوَاتِي بِالمَقَامِ أُقِيمُهَا ... وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِي صَلَّتِ
كِلَانَا مُصَلٍّ عَابِدٌ سَاجِدٌ إِلَى ... حَقِيقَتِهِ بِالجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةِ
وَمَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ فَلَمْ تَكُنْ ... صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةِ

وَمَازِلْـتُ إِيَّاهَـا وَإِيَّـايَ لَمْ تَـزَلْ وَلَا فَرْقَ بَـلْ ذَاتِي لِـذَاتِي أَحَبَّـتِ

فمبدأ القول بوحدة الأديان كان مصدره القول بوحدة الوجود كما بيّنت ذلك في كتاب الزجر البيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان .

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران:٥٥].

عيسى هو رسول الله أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف:٦]، خلقه الله تعالى بقوله كن فكان خلقه بالكلمة لا هو نفس الكمة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:١٧١].

وفي البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ».

قوله: (متوفيك) قال بعض العلماء: أي منيمك ورافعك إليَّ، أي في تلك النومة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[الأنعام:٦٠]الآية. وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[الزمر:٤٢].

والرفع يكون من أدنى إلى أعلى، وهذه الآية دالّة على علوّ الله ويدلّ على أنّ عيسى حيٌّ وإنّما يموت بعد قتله للدجّال وبعد أن يمكث في الأرض زمنًا ليس بين الناس خصام على ما يأتي بيانه، قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾[النساء:١٥٨]. اهـ من أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (١/ ٢٣٢).

وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر:١٠].

من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى اللهّ ويعرض عليه ويثني اللهّ على صاحبه بين الملأ الأعلى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح: ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ اللهّ تعالى إليه أيضًا، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبدالصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى اللهّ تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى اللهّ تعالى، ويرفع اللهّ صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولا ولهذا قال: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئا، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل. أفاده السعدي

والصعود يكون من أسفل إلى أعلى.

وقوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[غافر:٣٦-٣٧] لأنّ موسى أخبر أنّ الله في السماء.

قال السعدي :

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع: ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل: ﴿إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة. انتهى

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾[الملك:١٦-١٧].

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تأتي بمعنى على السماء، وفيها وجهان:

الأوّل: أنّ أحرف الجرّ تتناوب، وهي هنا بمعنى على ومثال ذلك قول الله : ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾[الملك:١٥]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[طه:٧١].

الثاني: أنّ السماء في الآية بمعنى العلوّ فيكون: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من في العلوّ، وفي الآية تهديد من الله للذي يأمن مكر الله فنسأل الله السلامة.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾[السجدة:٥]، أي: الأمر القدري، والشرعي تصريفه وتدبيره بيد الله تعالى، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[يونس:٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[سورةيونس:٣١]، ومعنى يعرج إليه أي يرفع وتمامها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:٥].

هذه الآية الكريمة أي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج:٤٧] تدل على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة وكذلك قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:٥].

وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى في سورة سأل سائل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج:٤] الآية، إعلم أولًا أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلًا من ابن عباس وسعيد ابن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها ويقول لا أدري.

وللجمع بينهما وجهان:

الوجه الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى. ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:٩-١٠] ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان. والعلم عند الله. أفاه الشنقيطي في دفع إيام الاضطراب .

ومن الأدلّة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠]، ومن الأدلّة قول الرسول : «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٥٤)، وأخرجه مسلم.

ومما يستدل به على علو الله تعالى أدلة النزول، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

وهذا التنوع يدل على أن صفة العلو ثابتة لله تعالى، والأدلة على علوه كثيرة جدًّا، وإنما ذكرنا بعضها فائدة للمستبصر.

وقد أجمع السلف رضوان الله عليهم قاطبة على علو الله بذاته، وأنه مستوي على عرشه، بائن من خلقه، تعالى الله عن قول الحلولية علوًا كبيرًا.

والفطرة السليمة تدل على أن الله في السماء، فلا يصيب الإنسان خطب من الخطوب إلا وتعلق قلبه بالسماء.

فقد جاء عن أبي جعفر الهمذاني: أنه حضر مجلسًا لأبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو وهو يقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبوجعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟ فلطم أبوالمعالي على رأسه ونزل، قال: وبكى وقال: حيرني الهمذاني حيرني الهمذاني، أراد الشيخ أن هذا أمرٌ فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المعلمين يجدون في قلوبهم طلبًا ضروريًا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو. اهـ من شرح الطحاوية .

قال ابن القيم :

وَإِلَيْهِ أَيْـدِي الـسَّائِلِينَ تَوَجَّهَـتْ   نَحْــوَ الْعُلُــوِّ بِفِطْـرَةِ الــرَّحْمَنِ

وَإِلَيْـهِ آمَـالُ الْعِبَـادِ تَوَجَّهَـتْ ... نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِـلَا تَـوَاصٍ ثَـانِي
بَـلْ فِطْـرَةُ اللهِ الَّتِـي لَمْ يُفْطَـرُوا ... إِلَّا عَلَيْهَـا الْخَلْـقُ وَالـثَّقَلَانِ
وَنَظِـيرُ هَـذَا أَنَّهُـمْ فُطِـرُوا عَـلَى ... إِقْـرَارِهِمْ لَا شَـكَّ بِالـدَّيَّانِ
لَكِنْ أُولُوا التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا ... مَـرْضَى بِـدَاءِ الْجَهْـلِ وَالْخُـذْلَانِ

وقال في موضع آخر:

وَعُلُـوُّهُ فَـوْقَ الْخَلِيقَـةِ كُلِّهَـا ... فُطِـرَتْ عَلَيْـهِ الْخَلْـقُ وَالـثَّقَلَانِ
لَا يَـسْتَطِيعُ مُعَطِّـلٌ تَبْـدِيلَهَا ... أَبَـدًا وَذَلِـكَ سُـنَّةُ الـرَّحْمَنِ
كُـلٌّ إِذَا مَـا نَابَـهُ أَمْـرٌ يُـرَى ... مُتَوَجِّهًـا بِـضَرُورَةِ الْإِنْـسَانِ
نَحْوَ الْعُلُوِّ فَلَـيْسَ يَطْلُـبُ خَلْفَـهُ ... وَأَمَامَـهُ أَوْ جَانِـبَ الْإِنْـسَانِ

قال ابن القيم في الصواعق (/ ١٢٨١): وجميع الطوائف تنكر قول المعطلة؛ إلا من تلقاه منهم، وأما العامة من جميع الأمم ففطرهم جميعهم مقرة بأن الله فوق العالم. اهـ

ومع أن العلو ثابت بالكتاب والسنة حتى ولو لم تدل عليه العقول لوجب الإيمان بما أخبر الله تعالى به وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فالعلو ثابت بدلالة السمع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع ذلك قد دل العقل على هذه الصفة من عدة وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس ثم إلا علو أو سفل، والعلو صفة كمال، والسفل صفة نقص، والله جل وعز متنزه عن النقائص. قال الله : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم:٢٧]، ومعلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله

لا تحيطه المخلوقات ولا تحويه جل وعز، وقد تقدم أنه متنزه عن السفل، فثبت أنه في العلو جل وعز، ولكن المعطلة قومٌ بهت لا يعقلون حديثًا، مسخت فطرهم وتبلدت أذهانهم، فلا يعرفون إلا ما أشرب من هواهم، فنعوذ بالله من الخذلان.

وزاد ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٣٢٥): الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجًا عن ذاته، والأول باطل:

أما أولًا: فبالاتفاق، وأما ثانيًا: فلأنه يلزم أن يكون محلًا للخسائس والقاذورات -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعًا خارج ذاته، فيكون منفصلًا، فتعينت المباينة؛ لأن القول أنه غير متصل بالعالم وغير منفصل غير معقول.

الثالث: أن كون الله لا داخل العالم ولا خارجه ينفي وجوده بالكلية. اهـ

شبه المعطّلة على أنّ الله في كلّ مكان:

الشبهة الأولى: استدلّالهم بقول الله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]، وسيأتي بيانها وقول المسلمين فيها.

الشبهة الثانية: استدلّالهم بقول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف:٨٤]، قالوا إذًا هو في السماء وفي الأرض، ولأهل العلم في الآية قولان:

الأوّل: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ﴾، أي معبود و﴿إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، أي معبود، لأن الإله هو المعبود.

الثاني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ أي موجود، و﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي معبود.

ويستدلون على قولهم الفاسد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الأنعام:٣]

ولا دلالة لهم فيها فالمعنى الحق على ما تقدم في الآية الأولى من كون الإله هو المعبود، والمعنى الثاني يكون (وهو الله في السموات) أي موجود، (وفي الأرض يعلم سركم وجهركم)،

الشبهة الثالثة: أن المراد بالفوقية فوقية القدر.

وهذا القول من أسمج ما يقال في هذا الباب، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٣٢٣): فإن قول القائل: ابتداء الله خير من عباده، وخير من عرشه هو من جنس قول القائل: الثلج بارد والشمس حارة، والشمس أضوء من السراج، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه، فكيف بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، بل في ذلك تنقص كما قيل:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـسَّيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَـصَا

ولو قال قائل: الذهب فوق قشر البصل، وقشر السمك، لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجًا على مبطل كما في قول

يوسف: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩]، وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[النمل:٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[القصص: ٦٠]، وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن إثبات الفوقية المطلقة من كل وجه، فله فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، من أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه سبحانه مطلق من كل الوجوه. اهـ

الشبهة الرابعة: أن السماء قبلة الدعاء.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: لو كانت السماء قبلة الدعاء للزم التوجه إليها عند الدعاء، وهذا لم يرد عن رسول الله ولا عن الصحابة الكرام ولا التابعين لهم بإحسان، بل ورد أنه كان يستقبل القبلة في كثير من دعاءه كما في حديث عبدالله بن زيد المتفق عليه أنه خرج يستسقي فاستقبل القبلة يدعو، وكما في حديث جابر عند مسلم في وصف حجة الوداع وأنه استقبل القبلة يدعو طويلًا في كل وقوف على الصفا والمروة، ولما كان في عرفة استقبل القبلة يدعو.. الحديث بطوله، إلى غير ذلك من الأدلة.

الثاني: أنه قد ورد النهي عن استقبال السماء ورفع البصر إليها عند الدعاء قال رسول الله : «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ**»، الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة وجاء من حديث أبي هريرة بمعناه.

الثالث: أن رسول الله قد رغب في الدعاء في السجود وحال الساجد مستدبرًا للسماء كما هو معلوم، قال رسول الله كما في حديث ابن عباس : «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»، أخرجه مسلم.

الرابع: أن هذا قول محدث لم يقله أحد من السلف إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها أهل العلم.

القول في المعيّة

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنفال:٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:٢٤٩].

تضمّنت هذه الآيات إثبات صفة المعيّة لله وهي من الصفات الذاتية وهي على حقيقتها ولكن ما حقيقتها؟ المبتدعة ظنّوا أنّ حقيقة (مع) الاختلاط والاتحاد وهذا ليس بصحيح **لأوجه:**

الأول: إنّ لفظة (مع) في لغة العرب إنّما تدلّ على مطلق مصاحبة مثل قولهم (ما زلت أسير والقمر معي) والقمر في السماء الرابعة على الصحيح وهو يمشي على الأرض ومثل قول أحدهم (زوجتي معي وهي في بلد وهو في آخر) ومثل قولهم (سرت مع زيد) وزيد لا متحد فيك ولا مختلط بك ومثل (ما زلت أسير والمتاع معي) وهو على ظهرك.

الثاني: دلالة القرآن والسنّة على خلا ما قالوه، فإنّ الله تعالى افتتح هذه الآية بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الحديد:٤]، ففيها إثبات صفة استواء الله تعالى على العرش، والعرش في السماوات وهو سقف الجنّة وهو أعلى المخلوقات، ثمّ قال : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[الحديد:٤]، فيه إثبات صفة العلم لله ، والولوج هو ما يدخل في الأرض وما يخرج منها أي ما يخرج من بطنها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والبركات وغير ذلك: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة ثمّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]، فتضمّنت هذه الآية عدّة جُمل:

الأولى: إثبات صفة الخلق لله .

الثانية: استواء الله على العرش.

الثالثة: بيان علم الله الأزلي الأبدي الذي لم يُسبق بجهل ولا يلحقه نسيان المحيط بكلّ شيء: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢].

الرابعة: لإثبات المعيّة، وهي معيّة عامّة ويُراد بها معيّة العلم والإحاطة والسلطان والقهر والبصر وغير ذلك من خصائص ربوبيّته. وقوله : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إخبار أنّه يُبصر ما عليه عباده من الأعمال والأقوال ومن زعم أنّ (معكم) تقتضي الاختلاط والاتحاد؟ فيُرد عليهم هذه الآية، نقول لهم يا معشر من لم يفقه كلام الله أليس لكم عقول تفهمون بها وقلوب تتفكّرون بها وأعينٌ تُبصرون بها ألم يذكر الله في هذه الآية أنّه استوى على العرش والاستواء بمعنى العلوّ، وأخبر الله أنّه بصير بأعمالنا وأخبر بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فلا وجه لها إلا أنه معنا بعلمه وبصره وهو على عرشه وكلام الله

لا يتناقض: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وقال الله : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، فنحن نؤمن بالآية على ظاهرها وظاهرها أنّ الله مستوٍ على عرشه وظاهرها أنّ الله عليم بما نعمل وظاهرها أنّ الله معنا ببصره وظاهرها أنّ معيّة الله معيّة علم وإحاطة وسلطان وغير ذلك من خصائص الربوبيّة.

وأما آية المجادلة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، افتتح الله هذه الآية بالعلم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واختتمها بالعلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فدلّ أنّ المعيّة معيّة علم وإحاطة لأنّ كلام العرب يُعرف بسابقه ولاحقه ويُعرف بسياقه، يقول الله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ولو كان الله مختلطًا بهم أومتحدًا لكانت الآية: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو ثالثهم ولا أربعة هو رابعهم ولا خمسة إلا هو خامسهم) فَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو شُعَيْبٍ كَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ فَقَالَ لَهُ أَبُو شُعَيْبٍ اصْنَعْ لِي طَعَامَ خَمْسَةٍ لَعَلِّي أَدْعُو النَّبِيَّ خَامِسَ خَمْسَةٍ. أخرجه البخاري (٢٤٥٦) ومسلم (٢٠٣٦)، لأنّه من جنسهم، لكن إذا كان من غيرهم يخرج عنهم كما قال تعالى أيضًا: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف:٢٢].

القول في المعيّة الخاصّة:

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، هذه في حقّ الرسول وأبي بكر ، وذلك لمّا كان وأبوبكر في الغار قال أبوبكر : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»، من حديث أبي بكر عند البخاري (٣٦٥٢) ومسلم (٢٣٨١)، فأنزل الله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهي معيّة مقتضية للنصر والتأييد، والمعيّة العامّة يشترك فيها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر وكلّ من في السماوات والأرض هو معهم مُطَّلِعٌ عليهم وعليم بهم إلى غير ذلك ولكن المعيّة الخاصّة هي التي تقتضي نصرًا وحفظًا وتأييدًا وكلاءةً.

وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، في حقّ موسى وهو معهم حقيقة، وحقيقتها أنه يسمع كلامهما ويرى مكانكما كما قال تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وهي مقتضية للنصر، والحظ والتأيد.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

في هذه الآية إثبات المعيّة الخاصّة وهي مقيدة هنا بوصف، أي مع كل من اتصف بهذه الصفات الحميدة، فهو تعالى مع المحسنين، والمتّقين، والصادقين.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[الأنفال:٤٦].

تقتضي هذه المعيّة، معيّة نصر وإحاطة وحفظ وكلاءة، وفي الآية الحثّ على الصبر **والصبر أنواع:**

- **النوع الأوّل:** صبر على طاعة الله .

النوع الثاني: صبر عن معاصي الله .

النوع الثالث: صبر على أقدار الله .

وقَوْلُهُ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:٢٤٩].

هذه الآية في شأن قوم طالوت لمّا قاتلوا أصحاب جالوت ولم يبق مع طالوت إلّا عدد يسير ومع ذلك نصرهم الله وأخبر أنّ الله مع الصابرين وسيأتي مزيد كلام على صفة المعيّة بتوسّع في موطن آخر إن شاء الله تعالى.

إثبات صفة الكلام لله عز وجل

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١١٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[الأعراف:١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم:٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشعراء:١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف:٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص:٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٦٥].

تضمّنت هذه الآيات مع غيرها مما يأتي من أدلة الكتاب والسنة، الإخبار عن صفة الكلام لله ، وعقيدة أهل السنة في هذا الباب أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم بحرف وصوت يسمع على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومّما يدلّ على أنّ الله متكلّم بحرف، قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾[آل عمران:٥٥]، و(يا) حرف نداء وكلمة (عيسى) تتكوّن من أحرف وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾[الأعراف:١٤٤]، وقد ألّف السجزي رسالةً لأهل

زَبيد في إثبات الحرف والصوت نقل منها شيخ الإسلام كثيرًا كما في مجموع الفتاوى .

والصوت يدلّ عليه قول النبيّ كما في حديث أبي سعيد ، قال الرسول : «يَقُولُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا آدَمُ يَقُولُ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ قَالَ يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ أُرَاهُ قَالَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ» ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج:٢]، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ : «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. رواه البخاري (٤٧٤١)، فقد صرّح النبيّ أنّ الله يتكلّم بصوتٍ والصوت، إمّا أن يكون مرتفعًا أو يكون خافتًا، وقد أخبر الله تعالى أنّه نادى موسى ، وناجاه قال الله تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم:٥٢]، وفي حديث جابر الذي علّقه البخاري قبل حديث رقم (٧٤٨١) وهو من رواية محمّد بن عبدالله بن عقيل وفيه ضعفٌ والبخاري يُقوّي حديثه، قال الرسول : «يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ».

وكلام الله منه بدأ قولًا وتكلّم به وإليه يعود أي قبل يوم القيامة حيث يُرفع من صدور الرجال كما في حديث حذيفة عند ابن ماجه

(٤٠٤٩)، قال الرسول : «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا» فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: (يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ)، وقد يستدلّون بهذا الحديث على أنّ تارك الصلاة ليس بكافر ولا دلالة في الحديث لأنّ الحديث يدلّ على أنّ الناس لا يعرفون صلاةً ولا صيامًا ولا حجًّا، ولا يعرفون شيئًا من شعائر الإسلام مفصّلًا وإنّما يعرفون من شعائر الإسلام (لا إله إلّا الله)، فلمّا عرفوا أنّها من شعيرة الإسلام قالوها فكانوا مسلمين وهذا من أدلّة العذر بالجهل.

وقد كلّم الله آدم ، ففي حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢٢٨٨) سُئل النبيّ : أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ». قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ: أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ قَالَ: «نَعَمْ. نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ». وكلام الله له في القرآن: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[الأعراف:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

ويُكلّم الله أهل الجنّة، كما قال النبيّ فيما يرويه عن ربّه جلّ وعلا: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، من حديث أبي سعيد عند البخاري: (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

ويُكلّم الله أهل الموقف كما قال النبيّ : «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ -قَالَ ابْنُ الْعَلَاءِ:- بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟» من حديث عبدالله بن عمر في الصحيحين وأبي داود (٤٧٣٢) وهذا لفظه. وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ : «فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ...»، أخرجه البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢). وكلّم الله محمّدًا وكلّم موسى وعيسى إلى غير ذلك ممّا ثبتت به الأدلّة، وكذلك قال الرسول : «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٨). وكلّم جبريل في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم (٢٠٢) أنّ النبي : تلا قول الله في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[إبراهيم:٣٦] الآية، وقال عيسى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**». وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُقْرِئُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ**» فَقَالَتْ: إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. أخرجه النسائي في الكبرى (٨٣٥٩).

وأدلّة كلام الله كثيرة، ومن السنة على ما تقدم إذ الأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله نذكر منها قطفًا تكون نورًا للمستبصر وحجة على الزائغ المتكبر.

ومنها: ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨) ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة : أن النبي قال: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟**». فَقَالَ النَّبِيُّ : «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**».

وما أخرجه أحمد وغيره (٣/ ٣٩٠) من حديث جابر بن عبدالله : أن رسول الله كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي** » الحديث صحيح وهو في الصحيح المسند .

ومنها: حديث أبي أمامة عند ابن حبان وغيره (٢٠٨٥) أن رجلًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قال: «**نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ**»، الحديث صححه شيخنا الوادعي في صحيحه المسند .

ومنها: حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري رقم (٣١٧٠) ومسلم رقم (٢٢٢): أن رسول الله قال: «**يَقُولُ اللهُ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**» الحديث.

ومنها: حديث أنس عندهما، البخاري رقم (٣١٦٢) ومسلم رقم (١٩٣): أن رسول الله قال في حديث الشفاعة الطويل: «**فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ...**» الحديث.

وحديث عدي بن حاتم: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ**» متفق عليه.

والنصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله كثيرة جدًّا نذكر منها ما تيسر:

منها: ما أخرجه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة قالت: (والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى...) الحديث.

وأخرج الدارمي في رده على الجهمية عن عمرو بن دينار (٨٨) قال: (أدركت أصحاب النبي فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود).

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في الأسماء والصفات : (وقد أدرك عمرو بن دينار أَجِلَّة أصحاب النبي

من البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبدالله وأبي سعيد الخدري وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وأجلة التابعين. وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة).

وأخرج الدارمي أيضًا بسند صحيح (ص٨٨) عن جعفر بن محمد: أنه سئل عن القرآن خالق أو مخلوق؟ قال: (ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله).

وأخرج أيضًا بسنده عن عبدالله بن المبارك، عند أن سئل عن القرآن: فقال: (هو كلام الله غير مخلوق). وبهذا القول قال بقية بن الوليد والقاسم الجزري، والمعافى بن عمران وغيرهم كثير، وهو قول أهل السنة قاطبة من السلف والخلف ولا يخالف هذا إلا جهمي خبيث.

قال البخاري في خلق أفعال العباد (ص٣٧): (القرآن كلام الله غير مخلوق).

قال الصابوني في رسالته في السنة : (ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه وتنزيله، غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم).

وقد قال اللالكائي -وهو أبوالقاسم هبة الله بن الحسن الطبري - في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٣١٢) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر العلماء الذين قالوا: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخيين والنيسابوريين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر،

فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسًا أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام.

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبوالقاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: (من قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه).

وأفتى به أيضًا سفيان بن عيينة وعبدالرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضًا غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه لأنه كافر وامرأته مسلمة، كعبدالله بن المبارك وأبوالوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضًا جمع منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد والثوري ويزيد بن هارون، وأبومعاوية الضرير والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم أنهم لا يورثون ولا يصلى خلفهم ولا تعاد مرضاهم ولا تشهد جنائزهم وإن موالاة الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين. اهـ

ثمّ إن الكلام صفة كمال ومعطي الكمال أولى به، المتكلّم أكمل من الأبكم، ولو كان الله لا يتكلّم لقال قوم إبراهيم لإبراهيم لمّا عيّرهم بأنّ آلهتهم لا تتكلّم وربّك يتكلّم.

قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء:٦٥]، فقال لهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٦٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ

شَيْئًا﴾[مريم:٤٢]، فلو كان الله لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلّم لقال كفّار ذلك الزمن لإبراهيم (وربّك لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلّم) لكن لمّا كان الله متصفًا بالكمال المطلق من كلّ وجه وآلهتهم متصفة بالنقص من كلّ وجه عمدوا إلى تعذيبه وإحراقه، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:٦٨]، والمبطل ينتقل إلى القوّة إذا عجز عن الحجّة اللسانية، ففرعون لمّا وقع بينه وبين موسى ما قصه الله تعالى عمد إلى القوة قال تعالى مخبرا عنه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾[الشعراء:٢٣-٢٩].

بقي قول النبيّ وقول الله : «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَـهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، لا يكلّمهم كلام رحمة وإلّا فإنّ الله يُنادي أهل الموقف جميعًا قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[القصص:٦٥]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ عندما قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ**»، قَالُوا لَا. قَالَ: «**فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ**». قَالُوا لَا، قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَفَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ**

أَفظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِ. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ أَي فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَي رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٦٨).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، فيه إثبات الحديث لله وأنّه يتكلّم، وفيها إخبار أن أخبار الله تعالى في أعلى مراتب الصدق.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]، فيه إثبات القول لله والحديث والقول يكون بحرف وصوت.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١١٦]، فيه إثبات القول لله وأنّه بحرف وصوت.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]، فيه إثبات الكلمة لله وقد استعاذ النبيّ بكلمات الله فلو كانت مخلوقة ما جاز الاستعاذة بمخلوق، قال النبيّ : «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»، من حديث خولة بنت حكيم السلمية عند مسلم (٢٧٠٨) ومن حديث أبي هريرة عند

مسلم (٢٧٠٩)، وفي رواية قال : «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ»، من حديث عبدالله بن مسعود في الكبرى للنسائي (١٠٧٩٢).

وهل يجوز أن يُستعاذ بالمخلوق من كلّ شرّ والاستعاذة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلّا الله شرك وكفر فيلزم على حدّ قولهم أنّ النبيّ وقع في الشرك والكفر وحاشاه إذ استعاذ بكلمات الله التامّة.

ومن الأوجه على أن الله تعالى متصف بالكلام أن الكلام معنى يقوم بغيره، فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف ولمّا تناظر عبدالعزيز مع بشر المرّيسي عليه لعنة الله قال له: تقول إن كلام الله مخلوق. فقال: إن القرآن مخلوق، قال عبدالعزيز فقلت له يلزمك واحدة من ثلاث لا بد أن تقول إن الله خلق القرآن وهو عندي أنا كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائما بذاته ونفسه فقل ما عندك.

قال بشر: أقول إنه مخلوق وإنه خلقه كما خلق الأشياء كلها. قال عبدالعزيز فقلت: يا أمير المؤمنين تركنا القرآن والسنن والأخبار عند هربه منها وناظرناه بالقياس والكلام لما ادعاه وذكر أنه يقيم الحجة علي به وإني أقر معه بخلق القرآن، فقد رجع بشر إلى الحيدة عن الجواب وانقطع الكلام فإن كان يريد مناظرتي على أنه يجيبني عما أسأله عنه وإلا فأمير المؤمنين أعلا عينا في ما يراه في صرفي فإنما يريد بشر أن يقع معه من لا يفهم فيحيد عن دينه ويحتج عليه بما لا يعقله فتظهر حجته عليه فيبيح بذلك دمه.

قال فأقبل عليه المأمون فقال: أجب عبدالعزيز عما سألك فقد ترك قوله ومذهبه وناظرك على مذهبك وما ادعيت أنك تحسنه وتقيم الحجة به عليه.

فقال بشر: قد أجبته ولكنه يتعنت. فقال له المأمون: يأبى عليك عبدالعزيز إلا أن تقول واحدة من ثلاث.

قال: هذا بشر من مطالبته بالتنزيل ما عندي غير ما أجبت به.

قال عبدالعزيز: فأقبل علي المأمون فقال يا عبدالعزيز تكلم أنت في شرح هذه المسألة وبيانها ودع بشرًا فقد انقطع عن الجواب من كل جهة.

فقلت: يا أمير المؤمنين سألته عن كلام الله أمخلوق هو قال: نعم. فقلت له ما صح يلزمك في هذا القول وهو واحدة من ثلاث لابد منها أن تقول إن الله خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائما بذاته. فإن قال إن الله خلق كلامه في نفسه فهذا محال لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر معقول لأن الله لا يكون مكانا للحوادث ولا يكون فيه شيء مخلوق ولا يكون ناقصًا فيزيد فيه شيء مخلوق، ولا يكون ناقصا فيزيد فيه شيء إذا خلقه تعالى الله عن ذلك وجل وتعاظم. انتهى

وقوله: ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام أي ما أخبر به الله كان كما قال الله ، إن أخبر عن أمور ماضية فهي كما قال الله فهو أعلم، وإن أخبر عن أمور آتية ستكون كما قال الله صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، والأحكام هي الأوامر والنواهي.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء:١٦٤]، هذه الآية العظيمة ثقلت على المعتزلة حتّى أنّ أحدهم يتمنّى أن يحُكّها من المصحف بل جاء في ترجمة بعضهم أنّه قرأ القرآن حتّى أتى إلى سورة القصص فركل المصحف برجله وقال (هنا أيضًا) يعني يُذكر موسى (وناديناه) هم ما يريدون أن يقرؤوا قال الله ولا نادى ولا ناجى ولا شيء من ذلك في إثبات الكلام وبعضهم كان يُجالس عمرو بن عُبيد فرأى رؤيا في المنام وعمرو بن عُبيد يقول (وددت لو أنّي أمسح آية من القرآن) فقال له ما هي؟ فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء:١٦٤]، قهرتهم لأنّهم لا يستطيعون تأويلها، (كلّم) فعل ماضي و(الله) لفظ الجلالة فاعل، (موسى) مفعول به إذ هو المُكلَّم و(تكليمًا) مفعول مطلق، مصدر مؤكد للفعل وهذا يمنع المجاز، وجاء بعضهم إلى أبي عمرو بن العلاء وقال: أقرأ (وكلّم اللهَ موسى تكليمًا) يعني حرّف اللفظ فقال (هب أنّي قرأت وكلّم اللهَ موسى تكليمًا)، فماذا تقول في قول الله : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[الأعراف:١٤٣])، إذ الضمير يعود إلى الربّ الذي هو أقرب مذكور.

وقال الله : ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾[البقرة:٢٥٣]، أي الأنبياء ومن امتنّ الله عليه بالكلام واختصّه به، وهذه مزيّة زائدة على مزيّة الرسالة والنبوّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾[الشورى:٥١]، فبعض الأنبياء يُكلّمهم الله من وراء حجاب، وقال النبيّ : «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا»؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ

اللهَ بِهِ أَبَاكَ»؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا»، من حديث جابر بن عبدالله عند الترمذي (٣٠١٠)، ابن ماجه (١٩٠)، وقال النبيّ : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»، من حديث عديّ بن حاتم عند البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦)، وأيضًا قالت : «وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ»، أخرجه البخاري (٢٦٦١).

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[الأعراف:١٤٣].

وكان هذا الميقات بعد أن امتن الله تعالى على موسى وقومه بالسلامة من فرعون، وأعطاه الله فيه الكتاب قال تعالى مبينا ذلك: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤١-١٤٣]

وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم:٥٢].

على ما تقدّم، فيها إثبات الكلام والحرف والصوت.

قال السعدي :

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت.مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من اليمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[النمل:٨] ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم. انتهى

قوله: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشعراء:١٠]، وهذا لا يكون إلّا بصوت إذ نادى الله موسى ، ونبأه، وأرسله إلى فرعون عليه لعائن الله تترى قال تعالى في سياق ذلك: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٠-١٧].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[الأعراف:٢٢]، هذا النداء لآدم وزوجه حواء حين أغواهما أبليس وأكلا من الشجرة التي نهاهم الله عنها وكان ما قصه الله تعالى في القرآن: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[الأعراف:٢٣-٢٤]، وساقها المصنف لإثبات صفة الكلام، والحرف، والصوت.

وقوله فيه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص:٦٥]، في الآية إثبات كلام الله لأهل الموقف يوم القيامة.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الأعراف:٦] الآية، هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر:٩٢-٩٣]، وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات:٢٤]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص:٦٥]، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[الرحمن:٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[القصص:٧٨].

والجواب عن هذا من **ثلاثة أوجه**:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبا (لم)، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[الصافات: ٢٤-٢٥]، وكقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[الطور:١٥]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾[الأنعام:١٣٠]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾[الملك:٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤدة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ والعلم عند الله تعالى. انتهى

شبهة: إذا قال شخص (إذا قلنا أن الله يتكلّم) لزم أن نثبت الشفتين؟. نقول الله يتكلّم بحرف وصوت ولا يلزم من إثبات الكلام إثبات الأحبال الصوتيّة أو إثبات اللسان أو إثبات الجوف الذي يخرج منه الهواء، كلّ هذا تخرّصات فالله يُخبرنا أنه متكلم وجب علينا أن نؤمن بأنّه يتكلّم كيف يشاء، وقد تكلّم الحجر كما في حديث جابر بن سمرة عند مسلم (٢٢٧٧)، قال الرسول : «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»، حجر يقول: (السلام عليك يا رسول الله). وقال الله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، وليس فيها أحبال صوتيّة ولا لسان وليس فيها جوف، قال عبدالله بن مسعود : كان الحصى يُسبّح بين يديّ النبيّ . أخرجه البخاري.

القول في القرآن

قوله :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[الفتح:١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الكهف:٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[النمل:٧٦].

أشار في هذه الآيات إلى عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن، وناسب ذكر ذلك بعد أن بين طريقة أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى من حيث هو، والله تكلّم بالقرآن حقيقةً فهو تنزيله، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:١-٢]، وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:١-٣]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان:١-٣]، وقال : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[غافر:١-٢]، وكلامه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، وقال الله : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح:١٥]، وقوله قال الله : ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[الفتح:١٥].

وأجمع المسلمون على أنّ كلام الله غير مخلوق منه بدأ قولًا وإليه يعود، أمّا منه بدأ قولًا فقد تقدّم قال الله : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١]، و(من) للابتداء فالله تكلّم بالقرآن وسمعه منه جبريل وسمعه النبيّ من جبريل ولهذا قد يحلف المسلمون بالقرآن ولا نكير فيه، ويمينه منعقدة بخلاف من حلف بغير الله وقد نُقل الإجماع على أنّ اليمين لا تنعقد إلّا إذا كان الحالف حالفًا بالله والنبيّ يقول: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ**»، من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٣٢٤٨) والنسائي (٣٧٦٩)، فالحلف بالقرآن حلف بصفة من صفات الله كمن يحلف بعزّة الله ويستعيذ بكلمات الله ويحلف بالقرآن فكلّ هذا جائزٌ وصائغ.

تنبيه: لا يجوز الحلف بالمصحف لأنّ المصحف يتكوّن من الأوراق والحبر والجلد وكلّ هذه مخلوقة والحلف بالمخلوق لا يجوز فهو شرك والأصل في الحلف بغير الله أنّه شركٌ أصغر إلّا إذا اقترن به تعظيم مثل تعظيم الله أو أكثر فإنّه شرك أكبر مخرج من الملّة.

تنبيه آخر: ما يفعله كثر من الناس وهو الحلف على المصحف، فهذه بدعة لم تكن على عهد النبيّ ولا على عهد أصحابه وإنّما هي طريقة محدثة أخذها المسلمون من المبتدعة ولعلّها أيضًا من اليهود والنصارى.

ونعود إلى مسألتنا وهي أنّ كلام الله غير مخلوق فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فقد كفر وقد نقل اللالكائي تكفير من قال بخلق القرآن عن خمسمئة وخمسين عالمًا من علماء المسلمين في جميع الأمصار، قال ابن القيم في النونية:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَاللَّالَكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

وهذا إجماع. وقد كفّر الأئمّة بشر المرّيسي وغيره ممّن قال بخلق القرآن.

وفتنة القول بخلق القرآن معلومة ذكرها الذهبي في السير، وابن كثير في البداية والنهاية، وذكرها صالح في المحنة وذكرها غير واحد وهي أنّ المأمون تأثّر بابن أبي دؤاد فدعا الناس إلى القول بخلق القرآن وامتحنهم بذلك فمن أجاب تركوه ومن أبى عذّبوه وقتلوه وممّن ابتلي وصبر الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، إمام أهل السنّة، سجنوه سنتين وثمانية أشهر أو نحو من ذلك وعذّبوه عذابًا شديدًا من أجل أن يقول إنّ القرآن مخلوق وهو يقول ائتوني بآية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله فأقول به، فكان الخليفة يقول له: (يا أحمد، قل مخلوق حتّى أفكّ عنك بيديّ) وكان ابن أبي دؤاد يقول: (اقتله يا أمير المؤمنين ودمه في عنقي، اقتل هذا الكافر)، ولهذا قال علي بن المديني: (نصر الله الدين برجلين بأبي بكر في الردّة وبالإمام أحمد في المحنة) ثمّ انتصر الحقّ وانتصرت السنّة وأنّ القول بخلق القرآن كفر لأنّ القرآن من الله وما كان من الله فليس بمخلوق وقد احتجّ سفيان بن عيينة على بشر المريسي بقول الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، فقال (يا دويبة ألم تر أنّ الله فرّق بين الخلق والأمر)، ونحن نعلم أنّ الخلق إنّما يكون بأمره قال الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وعيسى كان بكلمة الله، قال النبيّ: «**وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**»، من حديث عبادة بن الصامت عند البخاري (٣٤٣٥)

ومسلم (٢٨). أي خلقه الله بكلمته إلى مريم (كن) وليس معنى ذلك أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام هو الكلمة كما ظنّ النصارى وجعلوا يعبدون عيسى من دون الله ، وإنّما كان وجود عيسى بكلمة الله ، وذكر الآجرّي في الشريعة بسنده عن يَحْيَى بْنِ يُوسُفَ الزِّمِّيِّ، قال: بَيْنَا أَنَا قَائِلٌ فِي بَعْضِ بُيُوتِ خَانَاتِ مَرْوٍ فَإِذَا أَنَا بِهَوْلٍ عَظِيمٍ، قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: لَيْسَ تَخَافُ، يَا أَبَا زَكَرِيَّا قَالَ قُلْتُ: فَنعَمْ، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: وَقُمْتُ وَتَهَيَّأْتُ لِقِتَالِهِ، فَقَالَ: أنا أَبُو مُرَّةَ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا حَيَّاكَ اللهُ، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي هَذَا الْبَيْتِ لَمْ أَدْخُلْ، وَكُنْتُ أَنْزِلُ بَيْتًا آخرَ، وَكَانَ هَذَا مَنْزِلِي حِينَ آتِي خُرَاسَانَ قَالَ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ قَالَ: مِنَ الْعِرَاقِ قَالَ وَقُلْتُ: وَمَا عَمِلْتَ بِالْعِرَاقِ؟ قَالَ: خَلَّفْتُ فِيهَا خَلِيفَةً، قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: بِشْرٌ الْمَرِّيسِيُّ، قُلْتُ: وَإِلَى مَا يَدْعُو؟ قَالَ: إِلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ قَالَ: وَآتِي خُرَاسَانَ فَأُخْلُفُ فِيهَا خَلِيفَةً أَيْضًا قَالَ: قُلْتُ: إِيش تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا وَإِنْ كُنْتُ شَيْطَانًا رَجِيمًا أَقُولُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

وبشر عليه لعنة الله كانت أُمّه تحذّر منه، كانت تقول للشافعي (يا بُنيّ لا يغرنّك بشر فإنّه زنديق) وقال آخر: (مرّ يهوديٌّ فقال يا معشر المسلمين لا يغرنّكم بشر فإنّ أباه قد أفسد علينا ديننا وهذا سيفسد عليكم دينكم).

ناظره غير واحد من أهل العلم وأفحموه وممّا ذُكر في ترجمته أنّه قيل له: (يا بشر أرأيت ما تدع الناس إليه، ألك عليه حجّة من كلام الله وكلام رسوله؟) قال (الحجّة في خلافه لكن قول دعونا الناس إليه أربعين سنة لا يسعنا الخروج منه) أو نحو هذا.

وممّا يدلّ على أنّ كلام الله غير مخلوق أنّ الله تحدّى البشر أن يأتوا بمثله أو يأتوا بعشر سور مثله أو يأتوا بسورة مثله قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود:١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس:٣٨]، والعرب أفصح الناس لا سيّما قريش ولهذا نزل القرآن بلغتهم فلو كان القرآن كلام البشر لاستطاعت قريش أن يأتوا بمثله أو بعشر سور ممن مثله أو حتّى سورة لكن ما استطاعوا لما تقدم، وكان يأتي شعراء العرب إلى النبيّ فإذا سمعوا كلامه قال (والله لقد قلت الشعر وليس بشاعر ولقد أتيت الكهان وليس بكاهن، ولقد عرفت السحرة وليس بساحر) كما قاله أُنيس لمّا أرسله أخوه أبوذرّ : خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِى قِيلَ لَهُ فَقُلْتُ لَهُ أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ. فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِى فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ بِثَلَاثِ سِنِينَ. قُلْتُ لِمَنْ قَالَ لله. قُلْتُ فَأَيْنَ تَوَجَّهُ قَالَ أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّى أُصَلِّى عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّى خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ. فَقَالَ أُنَيْسٌ إِنَّ لِي حَاجَةً

بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي. فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاث عَلَيَّ ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ مَا صَنَعْتَ قَالَ لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ قُلْتُ فَمَا يَقُولُ النَّاسُ قَالَ يَقُولُونَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ. وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِى أَنَّهُ شِعْرٌ وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. رواه مسلم (٢٤٧٣).

وعن ابن عبّاس عند مسلم (٨٦٨): أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِى مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ لَوْ أَنِّى رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَىَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِى مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللهَ يَشْفِى عَلَى يَدِى مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**»، قَالَ فَقَالَ أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلَامِ - قَالَ - فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «**وَعَلَى قَوْمِكَ**». قَالَ وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٥]، توعّده الله بسقر فقال : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:٢٦]، فمن زعم أنّ كلام الله مخلوق ككلام البشر فقد كفر وتوعّده الله بسقر فالقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله تكلّم به حقيقة فسمعه منه جبريل وبلّغه جبريل لمحمّد ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ:٢٣] **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَوَصَفَ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ**». أخرجه البخاري(٤٥٢٢).

ومن الأدلة على إثبات الكلام لله أنّ الله أضاف الكلام إلى نفسه والكلام معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف ثمّ ما تقدّم من أنّ الكلام كمال ومعطي الكمال أولى به والنبيّ كان يقول: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟**»، من حديث جابر عند أحمد (١٤٤٥٦) و(١٤٦٥٣)، والله : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف:١٠٩]، فعُلم من هذا أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فمن زعم أنّ القرآن مخلوق قد كفر.

افتراق الناس في مسألة الكلام:

قال ابن أبي العز تعالى في شرح الطحاوية (١٧٩): وقد افترق الناس في مسألة الكلام إلى **تسعة أقوال**:

الأول: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عن بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والفلاسفة.

الثاني: أنه مخلوق خلقه الله منفصلًا عنه، وهذا قول المعتزلة.

الثالث: أنه معنى واحد قائمًا بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب والأشعري وغيره.

الرابع: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

الخامس: أنه حروف وأصوات؛ لكن تكلم الله بها بعد إن لم يكن متكلمًا، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

السادس: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في كتابه المطالب العالية.

السابع: أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلقه في غيره، وهو قول الماتريدي.

الثامن: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي وأتباعه.

التاسع: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، وهذا قول أئمة الحديث والسلف. اهـ

العاشر: زاد ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢٨٦) مذهب أهل الاتحاد القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود هو كلام الله نظمه ونثره، وحقه باطله سحره وكفره، والسب والشتم والهجر والفحش كما قال قائلهم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وهذا مبنيٌّ على مذهبهم الذي أصلوه، أن الله تعالى وتنزه عن قولهم عين الوجود. اهـ

الرد على الفلاسفة والصابئة في تعريف الكلام:

الناظر في تعريفهم للكلام يرى أنهم جعلوا كلام الله لا وجود له خارج نفس الرسول، وإنما هو ما يفيض على النفوس من المعاني أو هو ما يفيض من العقل الفعال أو غيره.

وربما قالوا: العقل الفعال هو جبريل وربما قالوا غيره.

ويقولون: كلام الله محدث في نفس النبي، والكلام الذي سمعه موسى كان موجودًا في نفسه لم يسمع موسى كلامًا خارجًا عن نفسه.

وقد كفر شيخ الإسلام أصحاب هذا القول بقوله: (وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول القرآن مخلوق). مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٣).

وقال (١٢/ ٤٢): وقد تنازعوا في كلام الله نزاعًا كثيرًا، وأبعدهم عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصائبة -ثم ذكر بعض الأقوال السابقة-، وقول هؤلاء في الحقيقة:

- تعطيل صفة الكلام لله رب العالمين على الحقيقة.
- تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن القرآن منزل على الحقيقة.
- تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن الذي كان ينزل القرآن هو جبريل ، وليس هو العقل الفعال.
- عدهم ألفاظ القرآن وحروفه من إنشاء النبي لأن العقل الفعال فاض عليه بالمعاني والألفاظ.
- موافقتهم الجهمية في كونه مخلوقًا.

وأما الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن:

وقد استدل المعتزلة على هذا القول ببعض الشبه التي سرعان ما تتهاوى أمام البراهين الدامغة من الكتاب والسنة والحجج الساطعة من أئمة السنة.

الشبهة الأولى: القرآن شيء، وقد قال الله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[الزمر:٦٢]، ولفظ (كل) يفيد العموم، فالقرآن داخل في هذا العموم.

قال ابن أبي العز (ص١٨٣) وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[الزمر:٦٢]، والقرآن شيء فيكون داخلًا في عموم (كل) فيكون مخلوقًا، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعًا لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله

في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر والآخر بآخر...

إلى أن قال : وعموم (كل) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[الأحقاف:٢٥]، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك أن المراد بالتدمير كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذلك قوله سبحانه حكاية عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل:٢٣]، المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام.

والمراد بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، أي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله، فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتمًا، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره. اهـ

والله قد وصف نفسه بأنه نفس، قال تعالى عن عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة:١١٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[آل عمران:١٨٥]، فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟

الشبهة الثانية: قالوا القرآن مجعول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف:٣]، والجعل الخلق.

قال ابن أبي العز تعالى (ص١٨٦): وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، فما أفسده من استدلال، فإن (جعل) إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[الأنعام:١]، وقوله:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:٣٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[الأنبياء:٣١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢]، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل:٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة:٢٢٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر:٩١]، وغيرها إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[الزخرف:١٩]. اهـ

فلو كان جعل بمعنى خلق لكان من أفسد الفساد كيف يجوز أن يقال: (وقد خلقتم الله)، فنعوذ بالله من الضلال ومن اتباع الهوى.

الشبهة الثالثة: قالوا القرآن محدث والمحدث مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[الشعراء:٥].

والجواب عن هذه الشبهة: اعلم أن محدث في اللغة هو كون الشيء بعد أن لم يكن، قال أبوعبيد القاسم بن سلام، كما في خلق أفعال العباد للبخاري (ص٣٧)، (محدث) حدث عند النبي وأصحابه لما عَلَّمه اللهُ ما لم يكن يُعْلَم.

وقال ابن قتيبة في (الاختلاف في اللفظ): المحدث ليس هو في مَوْضِع بمعنى مخلوق، فإن أنكروا ذلك فليقولوا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق:١]، أنه يخلق كذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[طه:١١٣]، أي يحدث لهم القرآن ذكرًا، والمعنى يجدد عندهم ما لم يكن، وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء:٢]، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك. اهـ

وقال شيخ الإسلام (١٢/ ٥٢٢): فإن احتج بعضهم بهذه الآية: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء:٢]، قال: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء:٢]، قال علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث.

ويُعلم: أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولًا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا. اهـ

الشبهة الرابعة: قالوا جعل الله أمره مقدورًا والمقدور المخلوق، وأمره كلامه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

قال صاحب العقيدة السلفية (ص٣١٠): ولفظ الأمر إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

الأول: يراد به المصدر كقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، وهو غير مخلوق، وهذا يجمع على (أوامر).

والثاني: يراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، فالأمر هنا هو المأمور، وهذا يجمع على (أمور)، وهو مخلوق، وقد قال الإمام أحمد في احتجاجه على الجهمية، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، ففرق بين الخلق والأمر.

وقال أيضًا: وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[التوبة:٦]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، فأخبر

بالخلق، ثم قال: والأمر، وأخبر أن الأمر غير مخلوق، وبهذا الجواب أجاب سفيان بن عيينة شيخ الإمام أحمد رحمهما الله، فقال: ما يقول هذا الدويبة -يعني المريسي بشر-؟ قالوا: يا أبا محمد يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، فالخلق خلق الله تبارك وتعالى، والأمر القرآن. اهـ

وقال شيخ الإسلام (٨/ ٤١٢): ففي قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾[الطلاق:٥]، فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النساء:٥٨]، فهذا الأمر هو كلامه.

وقال قبل ذلك (٨/ ٤١٢): ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول، فالمفعول مخلوق مثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾[النحل:١]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، فهنا المراد به المأمور به، ليس المراد به أمره الذي هو كلامه، ثم بين أن مصدر الأمر هو كلامه، وهو غير مخلوق. اهـ

ومما استدل بها هؤلاء الضُّلال على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠]، قالوا: إن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها.

وهذا القول بيّن فساده ابن أبي العز في شرح الطحاوية فقال: استدلوا بالآية على أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ

﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾[القصص:٣٠]، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠]، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٣٠]، وهل قال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ غير ربّ العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، صدقًا؛ إذ كلا الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقًا غير الله. اهـ

وقال شيخ الإسلام : باب ما أنكرت الجهمية من أن الله كلم موسى، فقلنا لهم: لم أنكرتم؟ قالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، إنما كون شيئًا فعبر عن الله خلق صوتًا فأسمعه، فقلنا لهم: هل يجوز أن يكون لمكوَّن غير الله أن يقول: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[طه:١١-١٢]، أو يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾[طه:١٤]، فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية، ولو كان كما زعم الجهمية أن الله كون شيئًا كان يقول ذلك المكوَّن يا موسى إن الله رب العالمين، ولا يجوز أن يقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. اهـ

الشبهة الخامسة: قالوا قد قال الله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[التكوير:١٩، الحاقة:٤٠]، وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبريل أو محمد.

قال شيخ الإسلام في جواب هذه الشبهة كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢١): قال: وإن احتج بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾[التكوير:١٩-٢٠]، قيل: له فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة:٤٠-٤٢]، فالرسول في هذه الآية محمد والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث، ولهذا قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾، ولم يقل ملك ولا نبي، ولا شك أن الرسول بلغه كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾[المائدة:٦٧]، فكان النبي يعرض نفسه على الناس في الموسم، ويقول: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**». اهـ

وقال ابن أبي العز تعالى (ص١٨٧): ذكر الرسول معرِّف أنه مبلِّغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل إنه قول ملك أو قول نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه إنشاء من جهة نفسه، وأيضًا الرسول في إحدى الآيتين جبريل وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأيضًا فقوله: رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسله بتبليغه، ولا ينقص منه، وأيضًا فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد بشر فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك.

والكلام كلام من قاله مبتدأ لا من قاله مبلغًا، ومن سمع قائلًا يقول: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، قال هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: هذا كلام الله، ولهذا لو سمع أحد من أحدٍ نظمًا أو نثرًا يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أم كلام غيرك؟

الشبهة السادسة: قالوا: إن الله سمى عيسى كلمته، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء:١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[آل عمران:٤٥]، وعيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة.

ومعنى الآية: أن عيسى مخلوق خلقه الله بأمره حين قال له: ﴿كُن﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

والكلمة: ﴿كُن﴾ لا عين عيسى، والمكون هو عيسى ، وبهذا أجاب غير واحد من الأئمة؛ اهـ، أفاده صاحب كتاب العقيدة السلفية .

وقال السلمان في الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص٣٨٠-٣٨١): وأما قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء:١٧١]، فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من الروح، فعيسى ناشئ عند الكلمة وليس هو نفس الكلمة، وقوله: ﴿وَرُوحٌ

مِّنْهُ﴾[النساء:١٧١]، يعني أنه كائن منه تعالى، أي موجده وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣]، أي مخلوقة بأمره. اهـ

ومن شبه هؤلاء النوكى أنهم يقولون: يلزم من إثبات كلام الله التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا تر أنه قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[فصلت:٢١]، وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر على رسول الله ﷺ كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف، أفاده ابن أبي العز ﷺ (ص١٨١).

ومن قولهم أيضًا قالوا: القرآن ترد عليه سمات الحدوث والخلق من وجوه عدة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[النحل:١٠١]، فأخبر عن وقوع النسخ فيه.

هو حروف متعاقبة يسبق بعضها بعضًا.

لا يكون إلا بمشيئة واختيار، فيلزم منه أن تسبقه الحوادث ويتأخر عنها.

له ابتداء وانتهاء وأول وآخر.

هو متبعض متجزئ.

منزل والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.

مكتوب في اللوح والمصاحف وما حد وحصر فهو مخلوق.

وهذه الصفات وما يشبهها صفات للمخلوق المُحْدَث.

قال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٩٩): هذه المعاني جميعًا مبنية على أصلهم الذي ابتدعوه لإثبات خلق العالم، وقدم الصانع، وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركة، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث الأعراض القائمة بها الحركة والسكون، فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى. اهـ

ولو أنهم استسلموا لله وامتثلوا قوله وصاروا على هدي رسول الله وطريقة السلف لما وقعوا في هذه الأصول الفاسدة، فنسأل الله السلامة.

ومن شبه المعتزلة أيضًا، قولهم: إن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله.

والإضافة إلى الله ، تنقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة صفات، والأعيان التي تقوم بنفسها إضافتها إلى الله تكون إضافة تشريف أو خلق وملك وغير ذلك.

وإن كانت معاني لا تقوم بنفسها، فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

فمن هنا يتبين أن إضافة الكلام إلى الله تعالى هو من النوع الثاني، أي إضافة الصفات ككلام الله، وعلم الله، وقدره الله وغيرها.

ولتعلم: أن المعتزلة قد فرخوا وباضوا، ومن هذه الأفراخ الكلابية والأشاعرة ومن وافقهم من ماتريدية وسالمية، وإن اختلفوا في بعض التفريعات؛ لكنهم لم يُصَفُّوا معتقدهم من شوائب البدع والضلال.

فزعم الأشاعرة أن القرآن حكاية عن كلام الله، أو عبارة عنه، قال العمراني في الانتصار (٢/ ٥٤٤): وقالت الكلابية والأشاعرة: كلام الله الذي ليس بمخلوق هو معنى قائم بنفسه لا يفارق ذاته، وهذا القرآن المتلو والمسموع عبارة وحكاية عن الكلام القائم بنفسه، وكذلك القول عندهم في كلام البشر هو معنى قائم بذات المتكلم، وهذه الحروف والأصوات المسموعة عبارة عن المعنى القائم بالذات لا تسمى كلامًا حقيقة بل مجازًا أو توسعًا. اهـ

ومؤدى القول بأن الكلام عبارة أو حكاية عن كلام الله إلى أن هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، إما لأنه كلام محمد، أم كلام جبريل ، ومع ذلك فقد صرح بعضهم بالقول بالخلق، قال الجويني في الإرشاد (١١٧): فإن معنى قولهم يعني المتعزلة وهذه العبارات كلام الله، إنها مخلوقة، ونحن لا ننكر إنها خلق لله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلمًا به، فقد أطبقنا على المعنى وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته. اهـ

وقد صرح بخلقه من الأشاعرة شارح جوهرة التوحيد وغيرهم كثير، وقال الجويني في إرشاده (١٣٠): المعنى بالإنزال أن جبريل صلوات الله

عليه أدك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سموات، ثم نزل إلى الأرض فأفهم الرسول ﷺ ما فهمه عند سدرة المنتهى من غير نقل لذات الكلام. اهـ

قال ابن القيم في نونيته:

وَخَوَاصُهُمْ لَمْ يَقْرَءُوهُ تَدَبُّرًا ... بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لَا لِفَهْمِ مَعَانِ

وَعَوَامُهُمْ فِي السُّبْعِ أَوْ فِي خَتْمِهِ ... أَوْ تُرْبَةٍ عَوْضًا لِذِي الْأَثْمَانِ

هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ أَوْ ... صَوْتِيَّةُ الْأَنْغَامِ وَالْأَلْحَانِ

يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْلَامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ

إِلَّا الْمِدَادَ وَهَذِهِ الْأَوْرَاقَ وَالْـ ... ـجِلْدَ الَّذِي قَدْ سُلَّ مِنْ حَيَوَانِ

وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتَ بِقَائِلٍ ... أَصْلًا وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ

إِنْ ذَاكَ إِلَّا قَوْلُ مَخْلُوقٍ وَهَلْ ... هُوَ جِبْرَئِيلُ أَوِ الرَّسُولُ فَذَانِ

قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا ... أَشْيَاخُهُمْ يَا مِحْنَةَ الْقُرْآنِ

لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ ... إِلَّا الْمِدَادَ وَكَاغَدَ الْإِنْسَانِ

يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ مِنْ ... تِلْكَ الْقُلُوبِ وَحُرْمَةُ الْإِيمَانِ

وَجَرَى عَلَى الْأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ ... مَا بَيْنَنَا للهِ مِنْ قُرْآنِ

مَا بَيْنَنَا إِلَّا الْحِكَايَةُ عَنْـ ... ـهُ وَالتَّعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

والعجب أنهم يستدلون على إثبات الكلام النفسي ببيت قاله الأخطل النصراني، قال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

وهذا البيت هو:

إِنَّ الْكَـلَامَ لَفِـي الْفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَـلَى الْفُؤَادِ دَلِـيلَا

وهذا البيت لا خطام له ولا زمام، والعجب من ردهم للأدلة المتكاثرة من القرآن والسنة، ثم يعمدون إلى هذا الكلام الذي لم تعرفه العرب، ثم قد وُجد البيت بسياقة أخرى:

إِنَّ الْبَيَـانَ لَفِـي الْفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَـلَى الْفُؤَادِ دَلِـيلَا

وأيضًا مما يدل على أن ما في النفس لا يسمى كلامًا هو ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»، أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧)، فلو كان ما في النفس كلامًا لكتب عليهم، ولو حدث أحدهم نفسه بطلاق امرأته وقع الطلاق قبل التلفظ، وهكذا الظهار والعتاق وغير ذلك.

قال العمراني في الانتصار في الرد على المعتزلة والقدرية الأشرار (٢/ ٥٦٤): ويقال للأشعري إذا قرأ آية من القرآن: هذا قول الله أم قول البشر؟ فإن قال: هو قول الله فقد رجع إلى ما عليه السلف وأهل الحق، وإن قال: بل من قول البشر قلنا عن ذلك أجوبة: أحدها أن يقال له: فهذه أقوال الوليد بن المغيرة فيما أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٥]، فقال الله متوعدًا له على قوله هذا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:٢٦]، فلو كان قوله بذلك صحيحًا لما توعد الله عليه.

الجواب الثاني: أن يقال له: فمن البشر الذي هذا قوله، فليس أحد يدعي أن هذا قوله، بل الكل منهم يقول هذا قول الله، وإذا سمعوا القارئ بهذا الكلام قالوا: صدق الله، ومن البشر الذي يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾[طه:١٤].

والجواب الثالث: أن يقال له: إذا كان هذا من قول البشر فأت بسورة من مثله، وإن قال: بل هو كلام البشر عبارة عن كلام الله، والمفهوم منه كلام الله، فيضاف إليه ويقال: هذا عبارة فلان، فإن أحدًا لا يدعي أنه عبارته.

فإن قال: هو عبارتي عن كلام الله، قلنا له: فحقيقة المعبر أن يسمع كلامًا فيعبر عنه، وأنت لم تسمع كلام الله حقيقة، وإنما سمعت قول معلمك عبارة معلمك إلى أن يتناهى إلى الصحابة، وهم لم يسمعوا قول الله حقيقة وإنما سمعوا عبارة النبي ﷺ عن عبارة جبريل، ولا أدري عما عبر عنه جبريل. فقول الأشعري هذا لا يستقيم أنه عبارة عن كلام الله.

وقول الأشعري: إن المفهوم من هذا الكلام كلام الله فغير صحيح؛ لأن مفهوم كل إنسان معه، ولا يسيل للخلق إلى العلم بفهم ما في نفس الباري سبحانه، وقال تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾[المائدة:١١٦].

ولأن ما في النفس لا يسمى كلامًا حقيقة، وإنما يسمى حديث نفس، بدليل أن رجلًا لو حلف بطلاق امرأته أن لا يتكلم، فحدث نفسه بشيء أو نظم في نفسه كلامًا لم تطلق امرأته بإجماع الفقهاء، فدل ذلك على أن حقيقة الكلام هو المسموع المفهوم، ولا يكون ذلك إلا بحروف وصوت.

ويقال للأشعري: إذا قرأ آية من كتاب الله: أهذا كلام أم كلامات؟ فإن قال: بل كلام، قيل له: أهو كلام الله أم كلامك؟ فإن قال: كلام الله: رجع إلى ما عليه أهل الحق، وإن قال: كلامي، بان كفره؛ لأنه خلاف المسلمين، وإن قال: كلامي أعبر به عن كلام الله، قلنا له: فكلام الله قديم وكلامك محدث، فميز لنا كلامك لنوقع عليه الحدث عن كلام الله لنسميه قديمصا، ولا سبيل له إلى ذلك الجملة.

ويقال للأشعري: ما القرآن الذي جاء به النبي وادعى أنه كلام ربه، فقال: «مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟»، وجعله الله معجزة للنبي، ودليلًا على صحة نبوته، أهو كلام الله القائم بذاته، أم هو هذه السور والآيات؟

فإن قال: هو هذه السور والآيات رجع إلى الحق وإلى ما عليه كافة المسلمين، وإن قال: بل هو المعنى القائم بذات الله، قيل له: فإن هذا ما أن يقولوا: إن هذا الكلام القائم بذات الله لهم تسمعه فكيف تأتي بسورة من مثله، وإنما تأتي بمثل ما سمعناه.

ويقال للأشعري: قد أقررت بأن لله سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وحياة وكلامًا لتنفي عنه ضد هذه الصفات، فلما كان السمع الذي أثبته لله هو السمع المعهود في لغة العرب، وهو إدراك المسموعات، وكذلك ضد المنفي عنه هو المعهود في كلام العرب وهو الصمم، وكذلك البصر الذي أثبته لله هو المعهود في كلام العرب وهو إدراك المبصرات والعلم هو إدراك المعلومات، وجب أن يكون الكلام لله هو الكلام المعهود في كلام العرب، وهو ما كان بحرف وصوت، كما أن ضده المنفي عنه وهو الخرس، والمعهود عندهم فأما أثبات الكلام لما يفهم لا يعلم فمحال. اهـ

البيان في أن القرآن منزلٌ من الله عز وجل

قال :

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠١-١٠٣].

فيه هذه الأدلة دلالة على أنّ القرآن أُنزل من عند الله ومثله قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[غافر:٢]، وزعم المعطّلة أنّ إنزال القرآن كإنزال الماء من السماء أو كإنزال الأنعام أو كإنزال الحديد حيث قال : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[الزمر:٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[المؤمنون:١٨]، وهي مخلوقة.

فكان جواب هذه الشبهة أن إنزال القرآن جاء مقيدًا بأنّه من الله، قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١]، وإنزال الحديد جاء مقيّد من الجبال والمعلوم أنّ الحديد ينزل من رؤوس الجبال إلى بطون الأودية بسبب الأمطار وهكذا إنزال الأمطار قُيّد بالسحاب وقيّد بالسماء والمراد بالسماء العلوّ فالماء ينزل من السحاب وإنزال الأنعام من أنّ الذكر من الأنعام يعلو الأنثى فيقع الإنزال والأنثى حين تضع جنينها ينزل منها فكان هذا إنزال مقيّد بالمخلوقات وذلك إنزال من الله .

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:٩٢]، من بركته أنّه شفاء فقال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء:٨٢]، ومن بركته أنّه نور وضياء وموعظة ورحمة كما وصفه الله وهدى وأنّه قرآن عظيم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢].

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر:٢١].

فيه أنّ المخلوق لا تتصدّع له الجبال وأنّ القرآن كلام الله حقًّا وصدقًا ولو أُنزل على الجبال لتصدّعت من خشية الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[الرعد:٣١]، والمعنى لو أن هناك ما تُقطّع به الأرض وتُسيّر به الجبال لكان هذا القرآن وهذا لا يكون في حقّ مخلوق وإنّما هذا في حقّ الله وصفته .

وقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل:١٠١-١٠٢].

قيّد الإنزال من الربّ وأنّ جبريل أنزله من الله فالله تكلّم به حقيقةً وسمعه منه جبريل حقيقةً ثمّ نزل جبريل بالقرآن إلى النبيّ وسبب كون القرآن نزل منجّمًا أي متفرّقًا.

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل:١٠٢].

فالله أنزل القرآن في أوقات متعدّدة لتثبيت المؤمنين ولتسليتهم فإنّهم إذا وقعت بهم حادثة نزل القرآن يُصبّرهم ويُثبّتهم يكون أوقع في قلوبهم.

قال السعدي :

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾[النحل:١٠١] قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٥] فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾[النحل: ١٠٢] وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: نزوله بالحق وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا [من الأحكام] ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا. وأيضًا فإنه كلما نزل شيئا فشيئا، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه بل ينزل الله حكما وبشارة [أكثر] فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة به مبلغا عظيما، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية. انتهى

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل:١٠٣].

زعموا أنّ الذي يُعلّم النبي هو ابن الحضرمي وكان نصرانيًّا وكان أعجميًّا فقالوا إنّما تلقّى محمّدٌ من ذلك النصراني فردّ الله عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾[النحل:١٠٣]، هذا الذي تزعمونه أنّه يُعلّم محمّدًا القرآن أعجمي: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]،

ومعلوم أنّ اللسان الأعجمي حتى ولو تعلّم العربية يبقى عنده شيء من الرطانة وتكسير الكلام ولا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الكتاب أو بما يُقاربه فضلًا عن مثله قال الله : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]،

وقال السيوطي في الإتقان (١/ ٥٨): وقال أبوالمعالي عزيزي بن عبدالملك المعروف بشيدلة بضم عين عزيزي في كتاب البرهان اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسمًا، سماه كتابًا ومبينًا في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[الزخرف:١-٢]، وقرآنًا كريمًا في قوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾[الواقعة:٧٧]، وكلامًا في قوله : ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، ونورًا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء:١٧٤]، وهدى ورحمة في قوله : ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس:٥٧]، وفرقانًا قال الله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾[الفرقان:١]، وشفاء في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾[الإسراء:٨٢]، وموعظة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[يونس:٥٧]، وذكرًا ومباركًا في قوله : ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[الأنبياء:٥٠]، وعليًا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:٤]، وحكمة في قوله : ﴿حِكۡمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾[القمر:٥]، وحكيم ومهيمنًا في قوله : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[المائدة:٤٨]، وحبلًا في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران:١٠٣]، وصراطًا مستقيمًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا﴾[الأنعام:١٥٣]، وقيمًا في قوله : ﴿ٱلۡحَمۡدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ﴾[الكهف:١-٢]، وقولًا وفصلًا في قوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾[الطارق:١٣]، ونبأ عظيمًا في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[النبأ:١-٢]، وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهًا في قوله : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[الزمر:٢٣] وتنزيلًا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٩٢]، وروحًا في قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾[الشورى:٥٢]، ووحيًا في قوله : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾[الأنبياء:٤٥]، وعربيًا في قوله : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[يوسف:٢]، وبصائر في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾[الأعراف:٢٠٣]، وبيانًا في قوله : ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٨] وعلمًا في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾[البقرة:١٢٠]، وحقًا في قوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾[آل عمران:٦٢]، وهاديًا في قوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي﴾[الإسراء:٩]، وعجبًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾[الجن:١]، وتذكرة في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ﴾[الحاقة:٤٨]، والعروة الوثقى في قوله : ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦]، وصدقًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾[الزمر:٣٣]، وعدلًا في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾[الأنعام:١١٥]، وأمرًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾[الطلاق:٥]، ومناديًا في قوله : ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾[آل عمران:١٩٣]، وبشرى في قوله : ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[البقرة:٩٧]، ومجيدًا في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾[البروج:٢١]، وزبورًا في قوله : ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾[الأنبياء:١٠٥]، وبشيرًا ونذيرًا في قوله : ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[فصلت:٣-٤]، وعزيزًا في قوله

تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾[فصلت:٤١]، وبالغًا في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٥٢]، وقصصًا في قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يوسف:٣]، وسماه أربعة أسماء في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾[عبس:١٣-١٤]. انتهى

وأسماء القرآن تتضمّن معاني، وكلّ اسم يتضمّن صفة إذ ليست أسماء جامدة لا معاني لها.

فائدة: الحروف المقطّعة التي ذكرها الله في القرآن يأتي بعدها ذكر القرآن غالبًا، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١-٢]، وقال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[آل عمران:١-٣]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١-٢]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[يونس:١]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١]، وقال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[يوسف:١]﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الرعد:١]، وهكذا إلّا ما جاء في سورة مريم قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[مريم:١-٢]، ومع هذا فهو يتضمّن كلام الله : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾[مريم:٣-٤]، ثمّ ذكر الله أنّه أوحى إليه وهكذا قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الشورى:١-٣]، فكلّ الحروف المقطّعة في

القرآن يأتي بعدها الحلف أو الوصف لهذا الكتاب الحكيم وقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم:١]، وهذه أيضًا يدخل فيه ذكر القرآن وكذلك قول الله : ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[طه:١-٢]، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا علومه، وبركاته.

تنبيه: حديث بريدة قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» . قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا». رواه أحمد(٢٢٩٥٠) وله شواهد. فالمراد به أجر القرآن؛ إذ يجعل الله تعالى المعاني أعراضًا كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ - زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ - فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ - فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا قَالَ

فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ». قَالَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم:٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا. رواه البخاري(٤٧٣٠)، ومسلم(٢٨٤٩).

القول في الرؤية

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين:٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥].

أشار في هذه الآيات إلى إثبات رؤية المؤمنين لربّهم في الآخرة ويُرى الله في موطنين:

الموطن الأوّل:

في أرض المحشر كما في قول الله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، وفي قول الله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]، فلمّا حُجب الكفّار في السخط دلّ على أنّ المؤمنين يرونه في الرضا وبهذه الآية استدلّ الشافعي على أنّ الله يُرى، ومنها عموم أدلة اللقاء مثل قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾[البقرة:٢٢٣]، وقال : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[الأحزاب:٤٤]، وقال : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠]،

ومن الأدلّة قول الله : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣]، والصفات المنفية يؤتى بها لبيان عموم كمال الله فلا تدركه الأبصار لعظمته وكبريائه ولكبره ـ فهو العظيم المجيد تراه الأبصار

يوم القيامة ولا تدركه ولا تحيط به قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[طه:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة:٢٥٥]، وممّا يستدلّون به على أنّ الله يرى في المحشر ما جاء عن عديّ بن حاتم عند البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، ولقاء الله يكون برؤية ولهذا أجمع العلماء أنّ آيات اللقاء تثبت بها الرؤية لأنّ اللقاء يكون بمعاينة، وفي حديث جرير قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣)، فشبّه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، وفي الحديث الآخر قَالَ أبوهريرة : قَالَ أُنَاسٌ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ : «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»، رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٣)، والنبيّ كان يقول في سجوده: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»، من حديث عمّار بن ياسر عند النسائي (١٣٠٤)، وهو في الصحيح المسند للإمام الوادعي (١٠٥٨) ومن حديث فضالة بن عبيد ، وفي حديث أبي موسى عند البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ

إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (٤٧٢) الطويل ومن حديث أبي هريرة في مسلم (١٨٣): قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَـهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَـهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَـهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَـهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا.، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ». والحديث فيه إثبات رؤية الله وقد تكلّمت بحمد الله على هذه المسألة في مؤلّف مستقلّ عنونته بـ رؤية المؤمنين للجبّار في المحشر ودار القرار ، وللإمام الدارقطني كتاب الرؤية وهو من أنفس الكتب ولأبي شامة كتاب في الرؤية لكن كأنّه يسير فيه على طريقة الأشاعرة وأنّ الله يُرى لا في جهة وهذا قول سمج بل يُرى في العلوّ كما أنّه قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، والشمس والقمر تُرى في العلوّ.

و للآجرّي رسالة في الرؤية مطبوعة ضمن (كتاب الشريعة) وهي من أمهّات المسائل وتكلّم عليها الإمام ابن القيّم بكلامٍ موسّع في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وكلّ من ألّف في الأيمان والعقائد يذكر في الرؤية ما يدل على ثبوتها، وأقرب الراجع بين يديك صحيح البخاري، ومسلم.

الموطن الثاني:

ويُرى سبحانه في الجنّة كما في حديث صهيب الرومي عند مسلم (١٨١)، وابن ماجه (١٨٧) واللفظ له: تَلَا رَسُولُ اللهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾[يونس:٢٦]، وَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ – يَعْنِي إِلَيْهِ – وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ».

فالزيادة هي النظر إلى وجه الله وهكذا قول الله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين:٢٣]، أي على السرر المزينة بالفرش الحسان ينظرون لله .

واختلف العلماء في رؤية الله تعالى في أرض المحشر لمن تكون، إلى ثلاثة أقوال:

- **الأوّل**: أنّه يراه كلٌّ من في الموقف من المؤمنين والمنافقين والكافرين.
- **الثاني**: أنّه يراه المؤمنون فقط.
- **الثالث**: أنّه يراه المؤمنين والمنافقون.

وكلّ هذه الأقوال لها أدلّتها من الكتاب والسنّة فالذين يذهبون إلى أنّه يراه كلّ من في الموقف احتجّوا بعموم أدلّة اللقاء، وفي حديث أبي هريرة قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى العَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ، فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ،

وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؛ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ: لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي؛ فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ». مسلم (٢٩٦٨).

والذين ذهبوا إلى أنّ الكفّار لا يرونه احتجّوا بقول الله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]، والصحيح من هذه الأقوال أنّ الله يراه كلّ من في الموقف ثمّ يحتجب عن الكافرين ومفهوم الآية يدلّ على ذلك، فالحجب يكون بعد الرؤية لكن رؤية المؤمنين رؤية تنعّم ورؤية الكافرين رؤية خوف وسخط كما يقول العلماء كرؤية اللصّ للسجّان، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)، أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ: الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ: القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ: الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا -شَكَّ إِبْرَاهِيمُ-؛ فَيَأْتِيهِمُ اللهُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا؛ فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَيَتْبَعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ

مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمُ المُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ أَوِ المُوثَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ أَوِ المُجَازَى أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ المَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ؛ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ؛ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ؛ فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ؛ فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ وَيَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ؛ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ.

فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الجَنَّةُ؛ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ، فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ لَا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ؛ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ الله مِنْهُ؛ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ الله لَهُ: تَمَنَّهْ؛ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ الله لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ الله: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

وفي البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا، ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا؛ فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فَيَقُولُونَ:

فَارَقْنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ؛ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ؛ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا؛ فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ؛ فَيَأْتُونَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ اذْهَبُوا: فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[النساء:٤٠]؛ «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا؛ فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ

كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ؛ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ؛ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/ ٤٦٧): وَقَالَتْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ: بَلْ يَرَوْنَهُ ثُمَّ يَحْتَجِبُ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا مَعَ مُوَافَقَةِ ظَاهِرِ القُرْآنِ قَالُوا وَقَوْلُهُ: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ثُمَّ حُجِبُوا وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الحَجْبَ كَانَ يَوْمَئِذٍ. فَيُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ اليَوْمِ وَذَلِكَ إنَّمَا هُوَ فِي الحَجْبِ بَعْدَ الرُّؤْيَةِ. فَأَمَّا المَنْعُ الدَّائِمُ مِنَ الرُّؤْيَةِ فَلَا يَزَالُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: وَرُؤْيَةُ الكُفَّارِ لَيْسَتْ كَرَامَةً وَلَا نَعِيمًا؛ إذْ (اللِّقَاءُ) يَنْقَسِمُ إلَى لِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ الإِكْرَامِ وَلِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ العَذَابِ فَهَكَذَا الرُّؤْيَةُ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا اللِّقَاءُ. اهـ

الردّ على نفاة الرؤية:

ذهب المعتزلة إلى أنّ الله لا يُرى واحتجّوا بعدة شبه منها:

الشبهة الأولى:

قولهم: المراد بقول الله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] أي: منتظرة، أو منتظرة لثوابه، ويُرد عليهم بما قاله ابن القيم في حادي الأرواح (٢٣٧-٢٣٨):

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحًا إن الله سبحانه يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلًا؛ فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا، وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينه، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بالي خلاف حقيقة وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فان النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله:

﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾[الحديد:١٣] وأن عدى بـ(في) فمعناه التفكر والاعتبار كقوله أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن عدى بـ (إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾[الأنعام:٩٩] فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. اهـ

الشبهة الثانية:

استدلالهم بقول الله : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[الأنعام: ١٠٣]، قالوا: وهذه الآية دليل على أنه لا يُرى .

وقد تقدم بيان أن: (الإدراك) بأنه رؤية وزيادة، رؤية مع الإحاطة، والإحاطة منفية في حق الله ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾[طه:١١٠]، فهم يرونه بغير إحاطة، وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية إلى الله يوم القيامة.

الشبهة الثالثة:

استدلالهم بقول الله : ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣]، على أنه لا يُرى، وبأن: (لن) تفيد التأبيد.

وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٩١-١٩٢): فَالاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ الله وَرَسُولِهِ الكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ، أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ المُحَالِ.

الثَّانِي: أَنَّ الله لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[هُودٍ:٤٦].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أُرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَتِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرْئِيٍّ، وَالفَرْقُ بَيْنَ الجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعِمْنِيهِ، فَالجَوَابُ الصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرْئِيٌّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِضَعْفِ قُوَى البَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى.

يُوَضِّحُهُ الوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[الأَعْرَافِ:١٤٣]. فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

الخَامِسُ: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الجَبَلَ مُسْتَقِرًّا، وَذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرُ أَنْ يَقُولَ: إِنِ اسْتَقَرَّ الجَبَلُ فَسَوْفَ آكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[الأَعْرَافِ:١٤٣]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ، الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى أَنَّ الجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالبَشَرُ أَضْعَفُ. السَّابِعُ: أَنَّ الله كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ وَأَنْ يُسْمِعَ مُخَاطِبَهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَتُهُ أَوْلَى بِالجَوَازِ؛ وَلِهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَتِهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا

بَيْنَهُمَا، وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْبِيدُ النَّفْيِ بِـ(لَنْ) وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الآخِرَةِ؛ فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قُيِّدَتْ بِالتَّأْبِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[البقرة:٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزُّخْرُف:٧٧]، وَلِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْبِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَا جَازَ تَحْدِيدُ الفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾[يُوسُف:٨٠]، فَثَبَتَ أَنَّ لَنْ لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشيخ جمال الدين ابن مالك :

وَمَـنْ رَأَى النَّفْـيَ بِلَـنْ مُؤَبَّـدًا فَقَوْلَـهُ ارْدُدْ وَسِـوَاهُ فَاعْـضُدَا

انتهى.

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٩٣١) عن رجل من أصحاب النبي ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ**». وجاء من حديث أبي أمامة عند ابن ماجه (٤٠٧٧)، فمن زعم أنّ الله يُرى في الدنيا والآخرة كما هو قول الصوفية فقد كفر، ومن زعم أنّ الله لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة كما هو قول الجهمية فقد كفر، وقول أهل السنّة أنّ الله يُرى في الآخرة ولا يُرى في الدنيا.

مسألة: رؤية الله في المنام:

النبيّ رأى ربّه في المنام كما في حديث أبي هريرة وابن عبّاس ومعاذ بن جبل وجاء مرسلًا عن مكحول وطرقه في الرؤية للإمام الدارقطني ، قال رسول الله : «**أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ**، - قَالَ

أَحْسَبُهُ فِي المَنَامِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟» قَالَ: قُلْتُ: «لَا»، قَالَ: «فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ» أَوْ قَالَ: «فِي نَحْرِي، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فِي الكَفَّارَاتِ، وَالكَفَّارَاتُ المُكْثُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَالمَشْيُ عَلَى الأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِي المَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ، قَالَ: وَالدَّرَجَاتُ إِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» من حديث ابن عباس عند الترمذي (٣٢٣٣).

وهذه رؤية منامية وقد تكلّم شيخ الإسلام عن هذا وذكرت قوله في كتاب أحكام النوم من الشريعة الإسلامية على أنّ الله يُرى في المنام ولا مانع من ذلك ولكن رؤية العبدلربّه في المنام على قدر إيمانه ولا يجوز له أن يُكيّف أو يُمثّل والرؤية المنامية لها تأويلها.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ٢٥١): وَمَنْ رَأَى اللهَ فِي المَنَامِ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ بِحَسَبِ حَالِ الرَّائِي إِنْ كَانَ صَالِحًا رَآهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ؛ وَلِهَذَا رَآهُ النَّبِيُّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ. اهـ

وقال (٣/ ٣٩٠): وَقَدْ يَرَى المُؤْمِنُ رَبَّهُ فِي المَنَامِ فِي صُوَرٍ مُتَنَوِّعَةٍ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ؛ فَإِذَا كَانَ إِيمَانُهُ صَحِيحًا لَمْ يَرَهُ إِلَّا فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَإِذَا كَانَ فِي إِيمَانِهِ نَقْصٌ رَأَى مَا يُشْبِهُ إِيمَانَهُ وَرُؤْيَا المَنَامِ لَهَا حُكْمٌ غَيْرُ رُؤْيَا الحَقِيقَةِ فِي اليَقَظَةِ وَلَهَا، تَعْبِيرٌ وَتَأْوِيلٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الأَمْثَالِ المَضْرُوبَةِ لِلْحَقَائِقِ. اهـ

مسألة: أنّ محمّدًا رأى ربّه:

هذه مسألة خلافية بين أهل السنّة والجماعة والصحيح أنّ النبيّ لم ير ربّه في اليقظة وإنّما رآه منامًا للحديث المتقدّم، وأمّا في اليقظة فلا، فعند مسلم (١٧٧): عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ؛ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الفِرْيَةَ: قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهِ : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[التكوير:٢٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم:١٣] فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ: رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**»، فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣]، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى:٥١].

وعن ابن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ. رواه البخاري (٣٢٣٢) مسلم (١٧٤).

وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتَ لِأَبِي ذرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُوذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ، فَقَالَ: «**رَأَيْتُ نُورًا**». رواه مسلم (١٧٨).

والنور هو الحجاب، لما جاء عن النبي : «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - **لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**». من حديث أبي موسى عند مسلم (١٧٩).

وما جاء عن ابن عبّاس أنّه رأى ربّه وفي بعضها أنّه رآه بفؤاده فالمطلق محمول على المقيّد وأنّها رؤية قلبية لا رؤية بصرية.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/ ٥٠٩-٥١١): وَأَمَّا (الرُّؤْيَةُ) فَالَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: (رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ) وَعَائِشَةُ أَنْكَرَتِ الرُّؤْيَةَ. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ: عَائِشَةُ أَنْكَرَتْ رُؤْيَةَ العَيْنِ وَابْنُ عَبَّاسٍ أَثْبَتَ رُؤْيَةَ الفُؤَادِ. وَالالفَاظُ الثَّابِتَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هِيَ مُطْلَقَةٌ أَوْ مُقَيَّدَةٌ بِالفُؤَادِ تَارَةً يَقُولُ: رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ وَتَارَةً يَقُولُ رَآهُ مُحَمَّدٌ؛ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ لَفْظٌ صَرِيحٌ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ. وَكَذَلِكَ (الإِمَامُ أَحْمَد) تَارَةً يُطْلِقُ الرُّؤْيَةَ؛ وَتَارَةً يَقُولُ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ؛ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهُ سَمِعَ أَحْمَد يَقُولُ رَآهُ بِعَيْنِهِ؛ لَكِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ سَمِعُوا بَعْضَ كَلَامِهِ المُطْلَقِ فَفَهِمُوا مِنْهُ رُؤْيَةَ العَيْنِ؛ كَمَا سَمِعَ بَعْضُ النَّاسِ مُطْلَقَ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَفَهِمَ مِنْهُ رُؤْيَةَ العَيْنِ. وَلَيْسَ فِي الأَدِلَّةِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ وَلَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ بَلِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ عَلَى نَفْيِهِ أَدَلُّ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «**نُورٌ أَنَّى**

أَرَاهُ»[1]. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[الإسراء:١] وَلَوْ كَانَ قَدْ أَرَاهُ نَفْسَهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوْلَى. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم:١٢]. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النجم:١٨] وَلَوْ كَانَ رَآهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوْلَى. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[الإسراء:٦٠] قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، وَهَذِهِ (رُؤْيَا الآيَاتِ)؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا رَآهُ بِعَيْنِهِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ فَكَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ حَيْثُ صَدَّقَهُ قَوْمٌ وَكَذَّبَهُ قَوْمٌ وَلَمْ يُخْبِرْهُمْ بِأَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحَادِيثِ المِعْرَاجِ الثَّابِتَةِ ذِكْرُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَ مَا دُونَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَاتِّفَاقِ سَلَفِ الأُمَّةِ أَنَّهُ لَا يَرَى اللهَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ إِلَّا مَا نَازَعَ فِيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ عِيَانًا كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ. اهـ

مذهب الأشاعرة في الرؤية:

الأشاعرة وإن وافقوا أهل السنّة في إثبات الرؤية إلّا أن طريقتهم في إثباتها طريقة كلاميّة عقلية لا طريقة سنّية نبويّة ولهذا يزعمون أنّ الله يُرى لا في جهة ومعنى ذلك أنّهم لا يُثبتون لله علوًّا، وهذا من أقبح التناقض، حتّى إنّ المعتزلة تكلّموا عليهم بكلام شنيع في هذا الباب؛ لأنّ المعتزلة يُنكرون العلوّ والرؤية،

---

(١) بهذا اللفظ فيه كلام، والمحفوظ: «رأيت نورًا» وهو في مسلم (١٧٨) أيضًا من حديث أبي ذر نفسه.

فأطردوا قولهم، والأشاعرة اضطربوا، قالوا: يُرى لا في جهة، وهذا من تناقضهم، فإمّا أن يُرى في العلوّ أو في السفل أو يمين أو يسار أو أمام أو خلف، والله يُرى في العلوّ كما قال رسول الله : «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا». الحديث.

والشمس في العلوّ، فشبّه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي.

خاتمة الفصل

قال :

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرٌ.

(هذا) اسم إشارة إلى ما تقدّم من الأدلّة على إثبات الأسماء، والصفات، فهو في القرآن كثير لمن أراد أن يتتبّع ذلك وقد ألّف العلماء كتب مفردة، ومضمنة لهذا الباب مثل ابن خُزيمة في كتاب التوحيد ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والبخاري في كتابه الصحيح كتاب التوحيد وكتاب خلق أفعال العباد ومسلم أشار إلى بعض ذلك في كتاب الإيمان ، وبقية السنن على هذا المنوال، وفي شرح أصول اعتقاد أهل السنّة للالكائي وفي الشريعة للآجرّي ، و الإبانة لابن بطّة و الحجّة للأصفهاني ، وكتاب النعوت للنسائي شيء كثير من ذلك لمن أراد أن يتتبّع؛ لأنّ أسماء الله ليست محصورة بعدد معلوم لنا، وصفاته أكثر من أسمائه؛ لأنّ كلّ اسم يتضمّن صفة، وكلّ فعل يُشتقّ منه صفة، والله فعّال لما يُريد. لكن أشار شيخ الإسلام إلى مهمّات في هذا الباب، وطالب العلم النبيه والسُّنِّي الحريص الذي يريد لنفسه السلامة والخير يجعل هذا أصلًا ويمشي في غيره على منواله، فكما أنّه أثبت لله صفة الوجه، والسمع، والبصر، والعلم، واليدين، فكذلك يثبت لله بقيّة الصفات سواء الصفات الخبرية أو الصفات المعنوية أو الفعلية، وكما يُنزّه الله عن النقائص في الصفات السلبية ويثبت له تعالى كمال الضدّ منها، فكذلك يكون القول في بقيّة الصفات،

وهنا قاعدة: أن أيّ معنى يضاف إلى الله وهو معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف. لو قال: الله يسمع؟ قلنا نعم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧]، الله يغضب؟ قلنا نعم، لقوله تعالى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾[المجادلة:١٤]، الله ينزل؟ قلنا نعم، لقول النبيّ : «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)، الله يعجب؟ نعم، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾[الصافات:١٢]، بضم (عجبتُ) وقال النبيّ : «**قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ**»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٠٥٤).

فَسِرْ على هذا المنوال ومن كان نبيه يختصر على نفسه الطريق، عرف طريق وأصول أهل السنّة سار عليها، حتى ولو وجد جهميًا أو معتزليًّا يأتيه ببعض التأويلات وبعض الشبه والله أنا ما أعرف قولك وقولك الذي تقوله متشابه وقد حذّرنا الله من اتباع المتشابه وقد قال الرسول لعائشة : «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»، من حديث عائشة عند البخاري (٤٥٤٧)، مسلم (٢٦٦٥)، لكن أنا أفهم أنّ الله في السماء وأنّ الله متّصف بهذه الصفات وهذه الشبه التي تأتي بها أنا ما عندي علم فيها لكن إذا جئت عند العلماء ستجد ردًّا لها، هذا أضعف الإيمان إذا وردت عليك الشبه، إذا لم يكن عندك علم في ردّها وفي رفعها ابقى على عقيدة السلف وعلى منهجه.

قال :

مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

يتبيّن الحقّ بهذين **الشرطين**:

• **الأوّل**: التدبّر والتفكّر والتعقّل لكلام الله ولكلام رسوله ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢] وقال تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩].

• **الثاني**: طلب الهدى فإنّ كثيرًا من الناس يقرأ القرآن والسنّة وهو ليس مريدا للهداية ولا ملتمسًا لطرقها فيظلّ وينحرف، فما أثبته الله ورسوله أثبِتْه من غير تحرّج ما أنت أعلم بالله منه ولا أنت أزهد من الرسول ، الله أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، أخبرنا أنّ له أسماء وصفات.

قال :

(فَصْلٌ) فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ.

عطف على قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ.. إلخ)

أي ودخل في ذلك ما أثبته رسوله لأنّ الرسول أعلم بالله من غيره من البشر، ولأنّه الصادق المصدوق، صادق في نفسه مصدوق من ربّه ولأنّه يتكلّم بلسان عربيّ مبين وليس بألكن قال : «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)، ولأنّه ناصح في قوله وفعله، وإذا وُجدت هذه الصفات في، المُخبِر فلا يردّ الخبر إلّا من سفه نفسه، ثمّ إن من مقتضى شهادة أنّ محمّدا رسول الله تصديقه فيما أخبر، وداخل في قول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[النساء:١٣٦]، والإيمان بالله يتضمّن الإيمان بأسمائه وصفاته وبما أخبر في كتابه والإيمان بالنبيّ يتضمّن الإيمان به وبما أخبر والإيمان بالقرآن يتضمّن الإيمان به وبما تضمّن من آيات صفات وأحكام فلا يكون حالنا كحال الكافرين الذين يُفرّقون بين هذه الأشياء، قال الله تعالى في وصفلاالمؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٦]، ومن تدبر سنّة رسول الله طالبًا للهدى تبيّن له

الحقّ، فالسنّة تُفسّر القرآن وتُبيّنه كما قال الإمام أحمد . وقال يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: (السُّنَّةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَاضٍ عَلَى السُّنَّةِ) أخرجه الدارمي (٦٠٧)، ومراده أنها مفسرة للقرآن، ومبينة له، فالله أخبرنا في كتابه بوجوب الصلاة وبفرضيّتها، فبينتها السنة، وقال : «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، من حديث مالك بن حويرث عند البخاري (٦٠٠٨)، وأمر بالزكاة، وحُدّدت الأنصبة بالسنّة، وأمر بالحجّ، ووضّح الحج وبيّنه النبيّ حيث قال: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر ، فالشاهد أنّ السنّة مفسّرة للقرآن وقد قال بعض السلف: (القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن)، لأنّ الله قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، وكان النبيّ يتأوّل القرآن أي يعمل به ففي حديث جابر عند مسلم(١٢١٨) قال: ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به. وكان الصحابة يعرفون المراد من كلام الله وكلام رسوله وهذا ردٌّ على القرآنيين الذين يزعمون أنّ القرآن يكفي، ومن زعم ذلك، ولا يرى حجّية السنّة كفر كفرًا أكبر مخرج من الملّة لأنّ القرآن أمر بالأخذ بالسنّة قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥]، وقال : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]، وقال : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢] في آيات كثيرات من القرآن، والنبيّ يقول: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ

يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ»، رواه أبوداود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه (١٣) من حديث أبي رافع ، ومن عجيب أمرهم أنّهم يستدلّون بحديث موضوع (إذا جاءكم حديث من حديثي فاعرضوه على القرآن فإن وافق القرآن فخذوا به وإلّا فردّوه) فقال الشوكاني وقبله ويحيى بن معين وغيره: (عرضنا هذا الحديث على القرآن فردّه)، يرُدّه قول الله : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر:٧].

وقيّد الأحاديث بالصحاح ولم يقيده في القرآن لأنّ القرآن ما دخله التغيير والتبديل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩]، والوحي الصحيح من السنّة حفظه الله وإنّما وقع التبديل والتغيير في ما ليس من شرعنا فأُدخلت موضوعاتٌ وضعافٌ ومراسيلُ وغير ذلك فقيّد بالسنّة الصحيحة فالحديث الصحيح يفيد العلم وفي هذا بيان أنّ خبر الآحاد بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ولم يكن شاذًا ولا معللًا سواء كان آحادًا أو متواترًا، والسنة هي الدليل الثاني عند المسلمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[النساء:١١٣]. وَقَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[البقرة:١٢٩].

وَقَالَ آمِرًا لِنِسَاءِ نَبِيِّهِ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾[الأحزاب:٣٤]. والحكمة هي السنة.

قال :

الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِك.

ويدخل في المتلقى من أخبار الرسول الصحيح لذاته، ولغيره، والحسن لذاته ولغيره.

وأشترط أهل المعرفة لأنهم هم أهل الحديث الذين يُميّزون صحيح الحديث من سقيمه وضعيفه من سليمه.

قال الهراس: وَأَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ بِإِزَاءِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فَرِيقَانِ:

١- فَرِيقٌ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ رَدِّهَا وَإِنْكَارِهَا إِذَا وَرَدَتْ بِمَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا أَحَادِيثُ آحَادٍ لَا تُفِيدُ إِلَّا الظَّنَّ، وَالْوَاجِبُ فِي بَابِ الِاعْتِقَادِ الْيَقِينُ، وَهُؤَلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْفَلَاسِفَةُ.

٢- وَفَرِيقٌ يُثْبِتُهَا وَيَعْتَقِدُ بِصِحَّةِ النَّقْلِ، وَلَكِنَّهُ يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِهَا؛ كَمَا يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِ آيَاتِ الْكِتَابِ، حَتَّى يُخْرِجَهَا عَنْ مَعَانِيهَا الظَّاهِرَةِ إِلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَانٍ بِالْإِلْحَادِ وَالتَّحْرِيفِ، وَهُؤَلَاءِ هُمْ مُتَأَخِّرُو الْأَشْعَرِيَّةِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَوَسُّعًا فِي هَذَا الْبَابِ الْغَزَالِيُّ، وَالرَّازِيُّ.

إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل

قوله :

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير من الليل، يؤمنون بذلك من غير تكييف، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، أخرجه البخاري رقم (١١٥٤) (٦٣٢١) (٧٤٩٤)، ومسلم رقم (٧٥٨).

وأخرج الحديث مسلم برقم (٧٥٨-١٧٢) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة بلفظ: «إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ».

وفي لفظ له من حديث أبي هريرة: «يَنْزِلُ اللهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ، أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ، وَلَا ظَلُومٍ».

وفي رواية له أيضًا: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

وفي لفظ له: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ».

وأخرج الإمام أحمد (١/ ٣٦٧٣) من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود أن رسول الله قال: «إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْبَاقِي، يَهْبِطُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»، قال الوادعي في الصحيح المسند: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد (٤/ ١٦) من طريق هلال ابن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن رفاعة الجهمي عن رسول الله قال: «إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ - أَوْ قَالَ: ثُلُثَا اللَّيْلِ - يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي، مَنْ ذَا يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنِ الَّذِي يَدْعُونِي فَأَستَجِيبُ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»، قال الوادعي: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٨١) وابن أبي عاصم رقم (٥١٩) وغيرهما، من طريق حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن نافع بن جبير عن

أبيه أن رسول الله قال: «**يَنْزِلُ اللهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»، إسناده صحيح، وأخرجه ابن خزيمة رقم (١٨٥) من هذه الطريق.

وقد جاء عن غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال ابن القيم: هذا الحديث روي عن ثلاثة وعشرين صحابيًّا، وإنما سقنا بعض هذه الطرق للاستفادة.

وقد جاءت في بعض الطرق زيادات مثل: «**حتى ترحل الشمس**»، وهي شاذة، نصّ على ذلك الحافظ في الفتح (٣/ ٤١).

قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٦٧٧): اعلم رحمك الله بأن حديث النزول حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة. اهـ

وقال: كما في مختصر الصواعق: وهو قرة لعيون أهل الإيمان وشجى في حلوق أهل التعطيل والبهتان. اهـ

واعلم هداك الله أن الأخذ بظاهر هذا الحديث درج عليه السلف ومن تبعهم بإحسان، قال الشافعي في وصيته (٥٤): القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهم، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله... وأن الله على عرشه في سماه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء. اهـ

وقال أبوالعباس السراج: من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب ويضحك وينزل كل ليلة إلى السماء فيقول: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ»، فهو زنديق كافر يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين؛ العلو (ص٥٣٤).

قال الذهبي في السير (١٤/ ٣٩٦) بعد سوق الأثر: إنما يكفر بعد علمه بأن رسول الله قال ذلك ثم إن جحد ذلك ولم يؤمن به. اهـ

وقد قال أبوبكر بن أبي داود في حائيته:

وَقُلْ يَنْزِلُ الْجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ   بِلَا كَيْفَ جَلَّ الْوَاحِدُ الْمُتَمَدَّحُ
إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يِمُنُّ بِفَضْلِهِ   فَتُفْرَجُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ
يَقُولُ أَلَا مُسْتَغْفِرٌ يَلْقَ غَافِرًا   وَمُسْتَمْنِحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيُمْنَحُ
رَوَى ذَاكَ قَوْمٌ لَا يُرَدُّ حَدِيثُهُمْ   أَلَا خَابَ قَوْمٌ كَذَّبُوهُمْ وَقُبِّحُوا

ومراده بقول: (بلا كيف)، أي بلا كيف معلوم لنا، وإلا فإن لنزوله سبحانه كيفية يعلمها هو.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص٢٠): إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته. وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله

واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم. اهـ

ولذلك يقول في لاميته :

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ ... وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيْرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ

قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٦-٢٧): ويثبت أهل الحديث نزول الرب في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون له ما أثبته رسوله ويمرون الخبر الصحيح الوارد على ظاهره ويكون علمه إلى الله تعالى. اهـ

وقال أبوالخطاب الكلواذاني كما في كتاب الكلمات الحسان في علو الرحمن :

قَالُوا النُّزُولُ فَقُلْتُ نَاقِلُهُ لَنَا ... قَوْمٌ تَمَسُّكُهُمْ بِشَرْعِ مُحَمَّدِ

قَالُوا فَكَيْفَ نُزُولُهُ فَأَجَبْتُهُمْ ... لَمْ يُنْقَلِ التَّكْيِيفُ لِي فِي مُسْنَدِ

وما أحسن ما قال أبوعمرو الداني في أرجوزته المنبهة:

فَمِنْ صَحِيحِ مَا أَتَى بِهِ الْأَثَرْ ... وَشَاعَ فِي النَّاسِ قَدِيمًا وَانْتَشَرْ

نُزُولُ رَبِّنَا بِلَا امْتِرَاءِ ... فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ

مِنْ غَيْرِ مَا حَدٍّ وَلَا تَكْيِيفِ ... سُبْحَانَهُ مِنْ قَادِرٍ لَطِيفِ

ونصوص العلماء كثيرة في إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا لله وأدلة النزول استدل بها العلماء على علو الله لأن النزول إنما يكون من العلو.

ولا يجوز السؤال عن كيفية الصفة كما نقل ذلك الذهبي في العلو وصححة الألباني في المختصر (ص٢٣١) قال أبوالطيب: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث النزول، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: النزول معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي عقبه: صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه إذ السؤال عن النزول ما هو عي لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء فالصفة تابعة للموصوف وكيفية ذلك مجهولة عند البشر وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين مات سنة خمس وتسعين ومائتين. انتهى

وقد ذهب المبتدعة من المعتزلة والأشاعرة على طريقتهم الشنعاء في تحريف كلام الله وكلام رسوله فقالوا: إنما هو نزول ملك من الملائكة أو نزول أمر الله ورحمته، والرد عليهم من وجوه يعرف بعضها من لديه مزعة عقل وسلامة معتقد.

الوجه الأول: كيف يعقل أن يقول الملك: «**مَنْ يَدْعُونِي**»، «**مَنْ يَسْأَلُنِي**»، «**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي**»، وهذه عبادات لا تصرف إلا لله وصرفها لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة، والملائكة قد قال الله عنهم: ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم:٦]، والملك إذا تكلم عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول: إن الله أمر بكذا كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا**

جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

الوجه الثاني: في بعض ألفاظ الحديث التي تقدم ذكره يقول الله تعالى إذا نزل: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»، وفي رواية تقدمت أيضًا: «لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي».

قال الحافظ المقدسي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد (١٠٦): وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول ويدحضان حجة كل مبطل. اهـ

الوجه الثالث: لو علم رسول الله أن النازل ملك من الملائكة لصرح بذلك.

الوجه الرابع: من المعلوم أن الذي يغفر الذنوب ويستجيب الدعوات ويعطي السائلين هو الله تعالى لا غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه:٨٢]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[الملك:٣٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[البقرة:١٨٦].

الوجه الخامس: أنه قال في الحديث: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وفي رواية: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ»، فكيف يسوغ لهم صرف الكلام عن ظاهره الحق إلى مجازه الباطل بدون قرينة.

الوجه السادس: أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[النحل:٢]، وقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[مريم:٦٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ**» الحديث.

وأما من تأول النزول بمعنى نزول أمره أو رحمته فالرد كذلك من **وجوه:**

الأول: ما قاله ابن عبدالبر في الاستذكار (٨/ ١٤٨): وقد قال قوم إنه ينزل أمره وتنزل رحمته ونعمته، وهذا ليس بشيء لأن أمره بما شاء من رحمته ونقمته ينزل بالليل والنهار بلا توقيت ثلث الليل ولا غيره.

وقال ابن خزيمة كما في تذكرة الحفاظ (٢/ ٧٢٨): وأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ومن زعم أن علمه ينزل أو أمره ضل.

الثاني: قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٢-٨٧٣): إن من تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك قيل له: الرحمة التي تثبتها إما أن تكون عينًا قائمة بنفسها وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها، فإن كانت عينًا وقد نزلت إلى السماء الدنيا لم يمكن أن تقول: من يدعوني فأستجيب له كما لا يمكن للملك أن يقول ذلك، وإن كانت صفة من الصفات فهي لا تقوم بنفسها بل لابد لها من محل ثم لا يمكن للصفة أن تقول هذا الكلام ولا محلها، ثم إذا نزلت الرحمة إلى السماء الدنيا ولم تنزل إلينا فأي منفعة لنا في ذلك. اهـ

الثالث: معلوم أنه لا يجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويعطي كل سائل إلا الله، وأمره ورحمته لا تفعل شيئا من ذلك؛ الكلمات الحسان (٢٧٠).

الرابع: إجماع السلف رضوان الله عليهم على إثبات نزول الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

الخامس: ما ذكره الدارمي في الرد على الجهمية (ص٨٢) ومعنى عبارته أننا أُتينا بنصوص عن النبي وأصحابه والتابعين صحيحة صريحة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، وقد علمتم أننا لم نخترع هذه الروايات فأتوا ببعضها أنه لا ينزل منصوصًا كما روينا عنهم النزول منصوصًا. اهـ

وذهب بعضهم إلى أن النزول مجاز وأن المراد بالنزول الإحسان والرحمة وأيّد باطله، بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد:٢٥].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ﴾[الزمر:٦]، قال: معلوم أن الأنعام ثمانية أزواج لم تنزل من السماء إلى الأرض، وهذا الكلام مردود على قائله.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجموع (١٢/ ٢٥٧): ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف -أي الهبوط والدنو من علو-، وهذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولًا إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطابًا بغير لغتها. اهـ

وقال (١٢/٢٤٧-٢٤٩): النزول في كتاب الله ثلاثة أنواع نزول مقيد بأنه منه، ونزول مقيد بأنه من السماء، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا -أي مطلق-.

فالأول: لم يرد إلا في القرآن قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام:١١٤].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[النحل:١٠٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١].

ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وأما النزول المقيد بالسماء فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨]، والسماء اسم جنس لكل ما علا، فإذا قيده بشيء معين تقيد به كقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو، ثم قد قيده في موضع آخر بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[الواقعة:٦٩].

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[النور:٤٣].

ومما يشبه نزول القرآن قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[النحل:٢]، فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من عنده.

وأما المطلق فمنها ما ذكر في إنزال السكينة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٤٠]، ومن ذلك إنزال الميزان وجمهور العلماء على أنه المراد به العدل.

إلى أن بين أن المراد بإنزال الحديد هو إنزاله من رءوس الجبال، والمراد بإنزال الأنعام نزولها من بطون أمهاتها وأصلاب أبائها؛ اهـ مختصرًا.

وذكر ابن القيم أيضًا كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢٢٤): من الأوجه التي تدل على أن النزول هنا حقيقي وبعيد عن قرينة المجاز التعبير عنه بعبارات متنوعة كالهبوط والدنو والمجيء والإتيان والطواف في الأرض قبل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[الفجر:٢٢]، وقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾[الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان نفسه.

شبهات أهل التحريف في أهل النزول:

قالوا: الليل ينتقل من مكان إلى آخر، فثلث الليل مثلًا في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب فعلى هذا يكون الله دائمًا في نزول؟

قال شيخ الإسلام (٥/ ٢٤٣-٢٤٤): والليل يختلف فيكون ثلثه في المشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسول الله إلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم وإلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعي المتقرب إليه، والساجد لكل واحد بحسبه أين كان وحيث كان والرجلان يسجدان في موضع واحد، ولكل واحد منهما قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر.

والنصوص الواردة في الهدى والشفاء والذي بلغها بلاغًا مبينًا هو أعلم الخلق بربه وأنصحهم لخلقه وأحسنهم بيانًا وأعظم بلاغًا...

وكل من منّ الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦]، وقال في ضدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام:٣٩]. اهـ

وقال ابن رجب في فضل علم السلف على الخلف كما نقله صاحب الكلمات الحسان (٢٨٦): ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض وأن رسول الله وخلفاءه لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين. اهـ

ويجب علينا أيضًا الإيمان بما جاء من نصوص صفات الله الفعلية والذاتية من المعاني والحقائق والكف عن محاولة التكييف والتمثيل أو التعطيل، فالله ليس كمثل شيء وهو السميع البصير.

فالذي تعبدنا الله تعالى به أن نؤمن أنه ينزل ولم يتعبدنا بكيف ينزل ولا غيرها من تراهات المبتدعة بل: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾[آل عمران:٧].

هل نقول: نزل بذاته أم لا ؟

نحن نؤمن أن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل حقيقة، لكن هل نقول ينزل بذاته؟

جاء حديث مرفوع من طريق نعيم بن حماد عن جرير عن ليث عن بشر عن أنس أن النبي قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ عَرْشِهِ نَزَلَ بِذَاتِهِ».

قال ابن تيمية (٥/ ٣٩٤) من مجموع الفتاوى : ضعف هذا اللفظ أبوالقاسم إسماعيل التميمي وغيره من الحفاظ مرفوعًا، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات . اهـ

وقال ابن القيم كما في المختصر (٢/ ٢٢٣): وهذا اللفظ لا يصح عن النبي .

قال ابن القيم كما في المختصر (٢/ ٢٢٣): إن الخبر وقع عن نفس ذات الله لا عن غيره، فإنه قال: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ»، فهذا خبر عن معنى لا عن لفظ.

وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الرعد:١٦]، هو خبر عن ذات الرب تعالى فلا يحتاج المخبر أن يقول الله خالق كل شيء بذاته...

وكذلك جميع ما أخبر الله به عن نفسه إنما هو خبر عن ذاته لا يجوز أن يخص من ذلك خبرًا واحد البتة، فالسامع قد أحاط علمًا بأن الخبر إنما هو عن ذات المخبر عنه...

فلا حاجة بنا أن نقول استوى على عرشه بذاته وينزل إلى السماء بذاته كما إننا لا نحتاج أن نقول خلق بذاته وقدر بذاته وسمع وتكلم بذاته، وإنما قال أئمة السنة ذلك إبطالًا لقول المعطلة. اهـ

وممن قال إنه ينزل بذاته الإمام أبوحامد والإمام عبدالجليل كوتاه كما ذكر ذلك ابن رجب في فتح الباري (٩/ ٢٧٨).

وقد علق الذهبي على قول كوتاه السابق ومسألة النزول، فالإيمان به واجب وترك الخوض في لوازمه أولى وهو سبيل السلف فما قال هذا نزوله بذاته إلا إرغامًا لمن تأوله، وقال نزوله إلى السماء الدنيا بالعلم فقط نعوذ بالله من مراء في الدين، وكذا قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر:٢٢]، ونحوه فنقول جاء وتنزل، وننتهي عن القول ينزل بذاته كما لا نقول ينزل بعلمه بل نسكت ولا نتصافح على الرسول بعبارة مبتدعة، والله أعلم. اهـ السير (٢/ ٣٣١).

مسألة هل يخلو منه العرش أم لا؟

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٥):... ثم بعد هذا هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟ هذه مسألة أخرى تكلم فيها أهل الإثبات:

١ - فمنهم من قال: لا يخلو منه العرش، ونقل ذلك عن أحمد في رسالته إلى مسدد وعن إسحاق بن راهويه وحماد بن زيد وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم قال: ومنهم من أنكر ذلك وطعن في هذه الرسالة وقال راويها عن أحمد مجهول لا يعرف.

ثم نقل أثر حماد بن زيد الذي ذكره الخلال في كتابه السنة وأنه سئل عن حديث النزول وقيل له: يتحول من مكان إلى مكان، فسكت حماد ثم قال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء.

وأما أثر إسحاق فقد أخرجه ابن بطة أنه قال له ابن طاهر: تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قال: نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام فقال ابن طاهر: ينزل ويدع عرشه فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش، قال: نعم، قلت: ولم تتكلم في هذا.

٢- ومنهم من ينكر أن يقال يخلو ولا يخلو: كما يقول ذلك الحافظ عبدالغني المقدسي وغيره.

٣- ومنهم من يقول يخلو منه العرش: وقد صنف ابن منده مصنفًا في الإنكار على من يقول: لا يخلو منه العرش. اهـ

وقال (٥/ ٤١٤) بعد أن ذكر الأقوال: وكثير من أهل الحديث يتوقف عن أن يقول: يخلو أولًا يخلو وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش. اهـ

والتوقف أسلم نقول: ينزل ربنا نزولا حقيقيًّا يليق بجلاله ولا نخوض في لوازم ذلك.

الحركة والانتقال:

ويلحق بهذه المسألة هل نزول الله إلى السماء الدنيا يكون بحركة وانتقال أم لا؟

أولًا: يجب أن يعلم أن على المسلم أن يؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن النبي على مرادهما: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة:٢٨٥]، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]، إلى غيرها من الآيات.

فإن قول الله هو الحق المبين، ولأن الله هو أعلم بنفسه وبغيره سبحانه ولأن رسول الله أعلم الخلق بالله تعالى وأنصحهم أيضًا فما قاله قلناه وما سكت عنه يسعنا ما وسعه، والأولى في هذه المسألة هو التوقف على الدليل.

قال الذهبي في المهذب في اختصار السنن الكبرى (٢/ ٤٧٠): الصواب في حديث النزول ونحوه ما قاله مالك وأقرانه، يمر كما جاء بلا كيف، ولازم الحق حق ونفي الانتقال وإثباته عبارة محدثة، فإن ثبت في الأثر رويناها ونطقنا بها وإن نفيت في الأثر نطقنا بالنفي وإلا لزمنا السكوت وآمنا بما ثبت في الكتاب والسنة على مقتضاه.

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٦/ ٤٢٦): والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الإثبات تثبت والتي جاءت بالنفي تنفى والألفاظ المجملة كلفظ (الحركة) و(الانتقال)... يجب أن يقال إنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه. اهـ

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢٥٧): وأما الذين أمسكوا عن الأمرين وقالوا: لا نقول يتحرك وينتقل ولا ننفي ذلك عنه، فهم أسعد بالصواب والاتباع فإنهم نطقوا بما نطق به النص وسكتوا عما سكت، وتظهر صحة هذه الطريقة ظهورًا تامًا فيما إذا كانت الألفاظ التي سكت النص عنها مجملة محتملة لمعنيين صحيح وفاسد، كلفظ الحركة والجسم والانتقال والحيّز والجهة. اهـ

وممن ذهب إلى إثبات الحركة لله تعالى عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي (ص١٦٤)، ونقله شيخ الإسلام أيضًا في تعارض العقل والنقل عن حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد قال: وغيرهما، قال: وذكر حرب أنه قول من لقيه من أئمة السنة كأحمد وإسحاق وعبدالله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور، وقال عثمان بن سعيد وغيره: الحركة من لوازم الحياة فكل حي متحرك، وجعلوا نفي هذا من أقوال الجهمية.

قال: وطائفة أخرى من السلف كنعيم بن حماد والبخاري وأبي بكر بن خزيمة وغيرهم كأبي عمر بن عبدالبر وأمثاله يثبتون المعنى الذي يثبته هؤلاء ويسمون ذلك فعلًا ونحوه لكن يمتنعون عن إثبات لفظ الحركة لكونه غير مأثور.

وأصحاب أحمد منهم من يوافق هؤلاء كأبي بكر عبدالعزيز وأبي عبدالله بن بطة وأمثالهما، ومنهم من يوافق الأولين كأبي عبدالله بن حماد وأمثاله. اهـ

معنى النزول عند الأشعري:

معنى النزول عند الأشاعرة ومن وافقهم ممن ينفون قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه: تقريب العرش إلى ذاته من أجل أنه يقوم به فعل، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والإحسان وكل ذلك هو المفعول المنفصل عنه. اهـ شرح حديث النزول لشيخ الإسلام (ص١٨١).

وقال البيهقي في الأسماء والصفات :... عن الأشعري أن المراد بالنزول هو فعل يحدثه الله في السماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولًا بلا حركة ولا نقلة. اهـ

وسبب قولهم هذا أنهم ينفون قيام الحوادث به، وهذا القول مخالف لبدأة العقول، فضلًا عن المنقول، وما عُلم من الأصول.

بينما السلف يقولون: ينزل كيف شاء ويفعل ما شاء وكما شاء.

قال الفضيل بن عياض: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

وسواء عليك فهمت سفسطة القوم أم لا، فالذي يلزم الإيمان بكل ما جاء عن الله، وعن رسوله في مسائل الصفات بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والواجب على المسلم عدم الخوض فيما يعكر عليه معتقده السليم، ولكن لجأ أهل السنة والحديث إلى ذكر أقوال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة من أجل تبيين عوارها لا فرحًا بوجودها، فالله المستعان وعليه التكلان.

فائدة:

أدلّة نزول الله إلى السماء الدنيا يُثبت بها علوّ الله على عرشه وحديث: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِفِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»، من حديث أبي أمامة عند الترمذي (٣٥٧٩)، يدلّ على هذا المعنى على أنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا. انتهى من كتابي سلامة الخلف في طريقة السلف .

إثبات صفة الفرح لله عز وجل

قال :

«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»[1] الحديث متفق عليه.[2]

من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٤٧).

فيه إثبات صفة الفرح لله تعالى، وهي من الصفات الفعليه، وجاء الحديث بنحوه عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِاللهِ أَعُودُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَحَدَّثَنَا بِحَدِيثَيْنِ حَدِيثًا عَنْ نَفْسِهِ وَحَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِى كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِالْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»، رواه مسلم (٢٧٤٤)، عَنِ النُّعْمَانِ بْنُ بَشِيرٍ ، قَالَ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٦) عن البراء بن عازب إلا أنه قال: «**الرجل**» بدل «**أحدكم**».

(٢) متفق عليه: بمعناه عن ابن مسعود خ(٦٣٠٨)، م(٢٧٤٤)، وأنس خ(٦٣٠٩) م(٢٧٤٧)، وانفرد به مسلم عن أبي هريرة والنعمان بن بشير والبراء (٢٧٤٣و٢٧٤٥و٢٧٤٦).

شَيْئًا ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ فِي يَدِهِ فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ»، رواه مسلم (٢٧٤٥)، وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : **«كَيْفَ تَقُولُونَ بِفَرَحِ رَجُلٍ انْفَلَتَتْ مِنْهُ رَاحِلَتُهُ تَجُرُّ زِمَامَهَا بِأَرْضٍ قَفْرٍ لَيْسَ بِهَا طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ وَعَلَيْهَا لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ فَطَلَبَهَا حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِ ثُمَّ مَرَّتْ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ فَتَعَلَّقَ زِمَامُهَا فَوَجَدَهَا مُتَعَلِّقَةً بِهِ»**، قُلْنَا شَدِيدًا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : **«أَمَا وَاللهِ للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ»**، رواه مسلم (٢٧٤٦)، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ **«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ عَلَى بَعِيرِهِ قَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»**، رواه مسلم (٢٧٤٧).

في الحديث فضل التوبة إلى الله وهي مع ذلك من الواجبات، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١].

وفي الحديث العُذر بالخطأ، وفيه دلالة على العذر بالجهل وليس كلّ من وقع في مكفّر كافر بل لا بدّ من توفّر الشروط وانتفاء الموانع، قال الهراس: وَإِذَا كَانَ الْفَرَحُ فِي الْمَخْلُوقِ عَلَى أَنْوَاعٍ؛ فَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ خِفَّةٍ وَسُرُورٍ وَطَرَبٍ، وَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ أَشَرٍ وَبَطَرٍ؛ فَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَفَرَحُهُ لَا يُشْبِهُ فَرَحَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْبَابِهِ، وَلَا فِي غَايَاتِهِ، فَسَبَبُهُ كَمَالُ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانُهُ الَّتِي يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا، وَغَايَتُهُ إِتْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَى التَّائِبِينَ الْمُنِيبِينَ.

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْفَرَحِ بِلَازِمِهِ، وَهُوَ الرِّضَا، وَتَفْسِيرُ الرِّضَا بِإِرَادَةِ الثَّوَابِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ نَفْيٌ وَتَعْطِيلٌ لِفَرَحِهِ وَرِضَاهُ سُبْحَانَهُ، أَوْجَبَهُ سُوءُ ظَنِّ هَؤُلَاءِ الْمُعَطِّلَةِ بِرَبِّهِمْ، حَيْثُ تَوَهَّمُوا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ تَكُونُ فِيهِ كَمَا هِيَ فِي الْمَخْلُوقِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ تَشْبِيهِهِمْ وَتَعْطِيلِهِمْ.

إثبات صفة الضحك لله عزوجل

قال :

وَقَوْلِهِ ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» متفق عليه.[(١)]

من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠).

فيه إثبات صفة الضحك لله وهي من الصفات الفعليّة وهو ضحك يليق بجلاله، وفسّرها المبتدعة بالإحسان أو إرادة الإحسان، وهذا التفسير باطل يخالف طريقة السلف، وقد دلّ على إثبات هذه الصفة عدة أحاديث منها حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٦)، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِى مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِى نَجَّانِى مِنْكِ لَقَدْ أَعْطَانِىَ اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ اللهُ يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّى إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِى غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِىَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لَا تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا فَيَقُولُ لَعَلِّى إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِى غَيْرَهَا. فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا

---

(١) صحيح: خ(٢٨٢٦) م(١٨٩٠) –واللفظ له– عن أبي هريرة.

وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لَا تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا قَالَ بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِى مِنْكَ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا قَالَ يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِّى مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ . فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ إِنِّى لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّى عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ».

ومن حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٧٩٨)، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ: «ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩].

وفي حديث أبي رزين عند ابن ماجه (١٨١)، قال الرسول : «**ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا، وتفسير هذا الحديث أنّ أحدهم يُقتل على الإسلام ثمّ يتوب الله على القاتل فيُقتل على الإسلام وكلاهما يدخل الجنّة وفي الحديث فضل الجهاد في سبيل الله .

والضحك من الصفات الفعلية التي تتعلّق بمشيئة الله

إثبات صفة العجب لله عز وجل

قال :

وَقَوْلِهِ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ [غِيَرِهِ]،»(١) يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِيْنَ قَنِطِيْنَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيْبٌ» حديث حسن.(٢)

---

(١) في المطبوع: [خَيْرِهِ]، ولم نقف عليها في طرق الحديث.

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١١)، وابن ماجه (١٨١)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٥٤)، والآجري في الشريعة (٦٣٨)، من طريق يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن أبي رزين العقيلي، ووكيع بن حدس لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، ولم يوثقه معتبر فهو مجهول. وقال عبدالله بن أحمد في العلل ومعرفة الرجال (١/ ٢٥٥) رقم (١٧٨٩): سمعت أبي يقول: ذكرنا عند وكيع بن الجراح أحاديث يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس، فقلت: هذا يروي عنه خمسة أحاديث، فجعل يذكر ذلك، قال أبي: لم يسمعها؛ هذه أحاديث معروفة لم يسمعها. اهـ فهذا الكلام فيه إشارة إلى أن يعلى بن عطاء لم يسمع من وكيع بن حدس، فيكون السند مع ضعفه منقطعًا، والحديث قد ضعفه شيخنا الإمام الوادعي في تحقيقه لـ تفسير ابن كثير ، عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، وهو في الصحيحة (٢٨١٠) للعلامة الألباني.

والحديث له طرق شديدة الضعف لا تصلح للاستشهاد يطول المقام بذكرها.

تنبيه: لفظة [عجب] لم نقف عليها في طرق هذا الحديث، وإنما فيه [**ضحك**]، ويغني عنها أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها: ما رواه الشيخان خ(٣٧٩٨) م(٢٠٥٤)، وفيه: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ**»، وبما رواه البخاري (٣٠١٠): «**عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**»، كلاهما عن أبي هريرة.

تنبيه آخر: قوله: «**أزلين قنطين يظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**» لم نقف عليه بهذا اللفظ، بل قال العلامة الألباني : لا أصل له في شيء من كتب السنة باللفظ المذكور. اهـ من الصحيحة (٦/ ٧٣٨)، وإنما رواه أحمد وابن خزيمة وابن أبي عاصم، بلفظ متقارب «**أزلين مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غوثكم قريب**»، وفي سنده مجاهيل.

في سنده يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري، قال العقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٤٤٥): (يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري في حديثه وهم كثير ولا يتابعه عليه إلا من هو نحوه حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال سمعت أبي يقول يعقوب بن محمد الزهري ليس بشيء ليس يسوي شيئا).

ومع ذلك صفة العجب ثابتة لله، قال الله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتُ وَيَسۡخَرُونَ﴾[الصافات:١٢] في قراءة، وحديث أبي هريرة عند البخاري (٣٧٩٨)، قال الرسول: «**ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا**»، وفي الحديث الآخر الذي يُحسّنه شيخ الإسلام وغيره قال الرسول: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ شَابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبْوَةٌ**»، أي ليس له ميل إلى النكاح، والعجب له **معنيان**:

• **الأوّل**: ما يأتي عن ذهولٍ فهذا يُنزّه الله عنه لأنّه بكلّ شيء محيط وبكلّ شيء عليم.

• **الثاني**: عجب من خروج الشيء عن نظائره فهذا الرجل الذي أطعم ضيفه طعام أبنائه خرج عن نظائره لأنّ الإنسان في الغالب يُحبّ ابنه ونفسه وزوجة أكثر من محبّته للآخرين وهذا أجاع أبناءه وزوجته ونفسه وأوهم الضيف أنّهما يأكلان فأكل الضيف حتّى شبع والعجب من الصفات الفعلية ويُفسّرها المعطّلة بالإحسان وبإرادة الإحسان وبالثواب وكلّ هذه التفاسير باطلة فهذه لوازم، لازم الفرح، لازم الضحك، لازم العجب، لازم المحبّة، الإحسان والثواب ولكن هذه لوازم مخلوقة وصفات الله غير مخلوقة.

وفي الحديث خطر القنوط من رحمة الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٥٥)، قال النبيّ : «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ الله مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

وفي حديث فضالة بن عُبيد عند أحمد (٢٣٩٤٣)، قال النبيّ : «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ، وَثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللهِ وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ».

وعن ابن مسعود عند عبدالرزّاق في مصنّفه (١٩٧٠١)، قال : «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ».

إثبات صفة الرجل والقدم لله عزوجل

قال :

وَقَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ -وفي رواية- عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ» متفق عليه.(١)

من حديث أنس في البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨).

فيه إثبات صفة العزّة لله وربّ العزّة هو صاحب العزّة قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠]، وليس معناها أنّه خالق العزّة فصفة العزّة للمخلوق مخلوقة وصفة العزّة لله غير مخلوقة؛ ولهذا أقسم بها أيّوب حين قال: «بَلَى وَعِزَّتِكَ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩).

وأمر الرسول بالاستعاذة بها، بقوله: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»، وفيها إثبات صفة الرجل صفة القدم لله ، وهي من الصفات الذاتية الخبرية.

---

(١) صحيح: خ(٦٦٦١) م(٢٨٤٨) عن أنس، ونحوه عن أبي هريرة عند خ(٤٨٤٩) م(٢٨٤٦).

تنبيه: قوله: [**رجله** -وفي رواية- **قدمه**] هما في الصحيحين خ(٤٨٥٠) م(٢٨٤٦) عن أبي هريرة، وجاءت لفظة: «**رجله**» في حديث أنس عند ابن أبي عاصم في السنة (٥٣٢) بسند صحيح.

وفي الحديث إثبات أنّ الله يضع قدمه في النار وفي بعض الروايات على النار، فنحن نؤمن بهذا الحديث وبدلالته، هذا الحديث على مراد الله ومراد الرسول من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل لأنّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ومعرفة الصفة لا يكون إلّا بمعرفة الذات وكلّ هذا منتفي عن الله .

وفي أثر ابن عبّاس : (الكرسي موضع قدمي الرحمن) رواه الحاكم في المستدرك (٣١١٦).

وممّا يدلّ على ذلك إثبات صفة الساق لله تعالى قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾[القلم:٤٢]، والذي فسّرها بالشدّة أخطأ؛ فإنّ الساق مُفسّر بالأدلّة الأخرى، قال النبيّ : «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ**»، من حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٩١٩)، ولو صحّ عن بعض السلف أنّه فسّرها بالشدّة فيكون مراده هذه الآية وإلّا فإنّ السلف يُثبتون أدلّة الأسماء والصفات مع التنازع في بعض الأدلّة هل هي من أدلّة الأسماء والصفات أم ليست من أدلّة الأسماء والصفات مع اتفاقهم على الإثبات مثل حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٦١٢)، قال النبيّ : «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، هذا الحديث بعضهم يجعله من أحاديث الصفات وهو الصحيح وفيه إثبات صفة الصورة لله وبعضهم يُنكر هذا الحديث، مع إثباته الصورة من أحاديث أُخر لكن يقول هذا الحديث عندي ضعيف أو هذا الحديث ليس من أحاديث الصفات والصورة قد ثبتت في حديث أبي هريرة المتّفق عليه، البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)، قال النبيّ : «**يأْتِيهِمُ اللهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي**

يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِالله مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ»، وتقدّم معنا قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١١٥]، قلنا بأنّ بعض السلف فسّر الوجه هنا بالجهة فهل معنى هذا أنّ السلف لا يُثبتون الوجه لا ولكن صفة الوجه يُثبتونها من أدلّة أخرى فلا بدّ ان يُفرّق بين طريقة المعطّلة وبين طريقة السلف فإذا وجدت عالمًا سلفيًّا ينفي دلالة نصّ بعينه على مسألة من المسائل ويثبتها من دليل آخر فهذا ليس بمؤوّل ولكن إذا رأيته يصرف الصفة عن ظاهرها إلى معنى غير مراد أو إلى معنى محرّف مغيّر فهنا تحكم عليه بالتأويل، وفيه إثبات ما دلّ عليه قول الله : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق:٣٠]، والجنّة بخلاف النار فالجنّة يبقى فيها فضل فيُنشأ الله لها خلقًا يُدخلهم برحمته إياهم، ففي بعض طرق حديث أنس : «**وَلَا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئُ اللهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنُهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**»، وهذا الحديث ممّا يردّه المبطلون من العقلانيين وغيرهم، وللرافضة كتاب اسموه عفوًا صحيح البخاري للطعن في صحيح البخاري، وبث الشبه على ما فيه.

وأمّا النار فلا؛ لأنّ الله ليس بظلّام للعبيد، وحرّم الظلم على نفسه، فيزوي بعضها على بعض حتى تقول (قط، قط).

قال شيخ الإسلام في مقدمة في التفسير :

وَأَنَّ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْبُخَارِيِّ «**أَنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ**» مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ وَهَذَا كَثِيرٌ. وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ طَرَفَانِ: طَرَفٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ

الصَّحِيح وَالضَّعِيفِ فَيَشُكُّ فِي صِحَّةِ أَحَادِيث أَوْ فِي الْقَطْعِ بِهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعْلُومَةً مَقْطُوعًا بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ وَطَرَفٌ مِمَّنْ يَدَّعِي اتِّبَاعَ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلِ بِهِ كُلَّمَا وَجَدَ لَفْظًا فِي حَدِيثٍ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ أَوْ رَأَى حَدِيثًا بِإِسْنَادِ ظَاهِرُهُ الصِّحَّةُ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَا جَزَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ حَتَّى إِذَا عَارَضَ الصَّحِيحَ الْمَعْرُوف أَخَذَ يَتَكَلَّفُ لَهُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةَ أَوْ يَجْعَلُهُ دَلِيلًا لَهُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا غَلَطٌ.

وَكَمَا أَنَّ عَلَى الْحَدِيثِ أَدِلَّةً يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ صِدْقٌ وَقَدْ يُقْطَعُ بِذَلِك فَعَلَيْهِ أَدِلَّةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ كَذِبٌ وَيُقْطَعُ بِذَلِكَ. انتهى

وقال ابن القيم في حادي الأرواح :

و أما اللفظ الذي وقع في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة (وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها، فتقول: هل من مزيد) فغلط من بعض الرواة انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه؛ فإنه لا يعذب إلَّا من قامت عليه حجته وكذب رسله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾[الملك:٨-٩] ولا يظلم الله أحدًا من خلقه. انتهى

إثبات صفة اليدين لله عز وجل

قال :

وقولِهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» متفق عليه،[1] واللفظ للبخاري.

من حديث أبي سعيد عند البخاري واللفظ له (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

فيه إثبات صفة الكلام لله ، وأنّه متكلّم. وفيه إثبات صفة الصوت لله . وهذا الدليل قاصم للأشاعرة الذين يزعمون أنّ كلام الله نفساني، فالله متكلّم بصوت والصوت هو المسموع وفي الحديث الآخر قال النبيّ : «فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٨١)، وقد تقدّم الكلام على مسألة الكلام بما يُغني.

وقوله: (يا آدم) هذا نداء والنداء يكون بصوت عالٍ وقد جاء إثبات النداء لله في غير ما آية قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾[الشعراء:١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم:٥٢]، وفي غير ما حديث مثل حديث البراء بن عازب عند أبي

(١) صحيح: خ(٧٤٨٣) -واللفظ له- م(٢٢٢) عن أبي سعيد.

داود (٤٧٥٣)، قال النبيّ فيما يرويه عن ربّه: قال: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ»، وسيأتي بطوله في عذاب القبر، وفي الحديث إثبات صفة اليدين لله ، وفيه شدّة أهوال يوم القيامة، نسأل الله السلامة.

قال :

وقولِهِ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ [حَاجِبٌ وَلا] تُرْجُمَانٌ» متفق عليه.[(١)]

من حديث عديّ بن حاتم عند البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

ولفظه تامًّا: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّه، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» زاد في رواية: «فمن لم يجد فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وفي الحديث إثبات صفة الكلام لله وإثبات رؤية الله فاللُقيّ لا يكون إلّا بالرؤية، وفيه دلالة لمن يقول بأنّ الرؤية عامّة لجميع أهل الموقف وهذا الحديث من الأحاديث القاضية على شبه المعطّلة والمؤوّلة.

---

(١) صحيح: خ(٧٤٤٣) واللفظ له، م(١٠١٦) عن عدي بن حاتم.

تنبيه: ما بين المعقوفتين أخرجه البيهقي في الكبرى (٧٧٤٤)، والذي في البخاري (١٤١٣): «حجاب».

إثبات صفة العلوّ لله عز وجل

قال :

وقولِهِ ﷺ في رُقْيَةِ المريضِ: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ، عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأَ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.[(١)]

أخرجه برقم (٣٨٩٢) فقال: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ مَوْهَبٍ الرَّمْلِيُّ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ زِيَادَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**مَنِ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوِ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: (رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ) فَيَبْرَأَ**».

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٣٨)، واللالكائي (٦٤٨)، عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء، ورواه النسائي أيضًا في عمل اليوم والليلة (١٠٣٧) ولم يذكر فضالة بن عبيد، وفي سندهما: زيادة بن محمد الأنصاري، قال فيه البخاري وأبو حاتم والنسائي: منكر الحديث. كما في التهذيب وكذا قال الحافظ في التقريب ، وقال الذهبي في الميزان : وقد انفرد بحديث الرقية «**ربنا الله الذي في السماء**». اهـ

وللحديث طرق أخرى شديدة الضعف لا تصلح للاستشهاد، وهو في الضعيفة (٢٥٨٩) للعلامة الألباني.

والحديث فيه زياد بن محمد متروك، وساق شيخ الإسلام الحديث لإثبات صفة العلوّ لله في قوله : «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، وقد تقدم الكلام عنها بما يغني عن الإعادة، وفي الحديث جواز الرقى، وها أنا ذاكرٌ بعض ما صح في الباب فمنها ما أخرجه مسلم(٢١٩١) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يَرْقِي بِهَذِهِ الرُّقْيَةِ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ**».

وفيه (٢١٩٢) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي. وَفِي رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ: بِمُعَوِّذَاتٍ.

وله (٢١٩٣) عن عَائِشَةَ قَالَتْ: رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ، لِأَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ كُلِّ ذِي حُمَةٍ.

وفيه (٢١٩٤) عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ، أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ، قَالَ: النَّبِيُّ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا، وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهَا: «**بِاسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا**» قَالَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ: «**يُشْفَى**» وقَالَ زُهَيْرٌ: «**لِيُشْفَى سَقِيمُنَا**»

وفيه (٢١٩٥) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يَأْمُرُهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ.

وفيه (٢١٩٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فِي الرُّقَى قَالَ: رُخِّصَ فِي الْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ وَالْعَيْنِ.

وفيه (٢١٩٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ، قَالَ لِجَارِيَةٍ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ، رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً، فَقَالَ: «**بِهَا نَظْرَةٌ، فَاسْتَرْقُوا لَهَا**» يَعْنِي بِوَجْهِهَا صُفْرَةً.

وفيه (٢١٩٨) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ يَقُولُ: رَخَّصَ النَّبِيُّ لِآلِ حَزْمٍ فِي رُقْيَةِ الْحَيَّةِ، وَقَالَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ: «**مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً، تُصِيبُهُمُ الْحَاجَةُ؟**» قَالَتْ: لَا، وَلَكِنِ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: «**ارْقِيهِمْ**» قَالَتْ: فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**ارْقِيهِمْ**».

وفيه (٢١٩٩) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ، يَقُولُ: أَرْخَصَ النَّبِيُّ فِي رُقْيَةِ الْحَيَّةِ لِبَنِي عَمْرٍو، وقال: لَدَغَتْ رَجُلًا مِنَّا عَقْرَبٌ، وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرْقِي؟ قَالَ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**».

وفيه (٢٢٠٠) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**».

وفيه (٢٢٠١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ كَانُوا فِي سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضِيفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ لَدِيغٌ أَوْ مُصَابٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ، فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَى أَنْ

يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: حَتَّى أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ، فَأَتَى النَّبِيَّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**» ثُمَّ قَالَ: «**خُذُوا مِنْهُمْ، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ**».

وفيه (٢٢٠٢) عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ، أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ : «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**».

قال :

وقولِهِ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» متفق عليه.[1]

حديث أبي سعيد متّفق عليه عند البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤)، وفيه إثبات صفة العلوّ لله ، وقد تقدّم الكلام عليها بما يُغني عن الإعادة، وللحديث قصّة فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ، لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ فَقَالَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ،

---

(١) صحيح: خ(٤٣٥١) م(١٠٦٤) عن أبي سعيد.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، قَالَ: «**وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ**» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: «**لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، وَأَظُنُّهُ قَالَ: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ**».

قال :

وقولِهِ: «والعَرْشُ فَوْقَ الماء، واللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» حديث حسن رواه أبوداود والترمذي وابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي شرط فيه الصحة.[1]

---

(١) ضعيف مرفوعًا، حسن موقوفًا، وله حكم الرفع: بمعناه أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦) وأبو داود (٤٧٢٣) والترمذي (٣٣٢٠) وابن ماجه (١٩٣) وابن خزيمة في التوحيد (ص١٠٢) وغيرهم من طريق الوليد بن أبي ثور عن سماك بن حرب عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس مرفوعًا وهو الحديث المشهور بحديث الأوعال وهو ضعيف جدًّا، فيه ثلاث علل:

الأولى: عبد الله بن عميرة قال الذهبي في الميزان: فيه جهالة، وقال إبراهيم الحربي: لا أعرفه، وقال مسلم في الوحدان: تفرد سماك بالرواية عنه، انظر التهذيب .

الثانية: الانقطاع، قال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف.

الثالثة: الوليد بن أبي ثور واسمه عبدالله الهمداني قال فيه ابن نمير: كذاب، كما في التهذيب ، وقال الحافظ: ضعيف.

والحديث في الضعيفة للعلامة الألباني (١٢٤٧). =

قال أبوداود (٤٧٢٣): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْبَزَّازُ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي ثَوْرٍ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمِيرَةَ، عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ قَالَ: كُنْتُ فِي الْبَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «**مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟**» قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: «**وَالْمُزْنَ**» قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «**وَالْعَنَانَ**» قَالُوا: وَالْعَنَانَ. قَالَ أَبُودَاوُدَ: (لَمْ أُتْقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا) قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**» قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ**» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ «**ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ**». وفي سنده الوليد بن أبي ثور كُذِّب، وعبدالله بن عميرة مجهول، ولم يسمع من الأحنف.

= وحديث الأوعال هو الذي عناه المصنف هنا كما في حكايته المناظرة التي جرت معه في العقيدة الواسطية ، انظر: الفتاوى (٣/ ١٩٢).

وأخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٠٣) بمعناه عن جبير بن مطعم مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ**»، وفي سنده: جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، مجهول حال، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وفي سنده اختلاف أشار إليه أبو داود، فالحديث بهذا السند ضعيف.

وباللفظ الذي أورده المصنف -كما في الفتاوى -، إنما رواه ابن خزيمة في التوحيد (ص١٠٥و١٠٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٢)، واللالكائي في السنة (٦٥٩)، وغيرهم عن ابن مسعود موقوفًا عليه بسند حسن، وهذا الموقوف له حكم الرفع، لأنه لا يقال من قبيل الرأي.

وفي الباب ما رواه أبوداود (٤٧٢٦) من طريق مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ، يُحَدِّثُ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟**» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا**» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**» قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «**إِنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ**» وَسَاقَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ عَبْدُالْأَعْلَى: وَابْنُ الْمُثَنَّى، وَابْنُ بَشَّارٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، وَجُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ وَالْحَدِيثُ بِإِسْنَادِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ هُوَ الصَّحِيحُ وَافَقَهُ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَعَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَرَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ، أَيْضًا وَكَانَ سَمَاعُ عَبْدِالْأَعْلَى، وَابْنِ الْمُثَنَّى، وَابْنِ بَشَّارٍ مِنْ نُسْخَةٍ وَاحِدَةٍ فِيمَا بَلَغَنِي.

أقول: وجبير بن محمد بن جبير بن مطعم مجهول حال، ومحمد بن إسحاق لم يصرح بالتحديث.

هذا الحديث هو حديث الأوعال ويُصحّحه بعض أهل العلم ويُضعّفه بعضهم، وقد دافع عنه ابن القيم بكلام طويل في «تهذيب السنن»، ويغني عنه ما أخرجه كتاب ابن خزيمة في «التوحيد» (١٥٠) عن ابن مسعود موقوفًا وله

حكم الرفع، قَالَ: مَا بَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ السَّمَاءِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وفي الحديث إثبات العرش لله وهو مخلوق عظيم، استوى عليه الله قال تعالى في وصفه: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩]، وقال : ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج:١٥]، على كسر الدال أي الواسع، وفيه إثبات صفة العلوّ لله وصفة العلم لله وأنّ الله بكلّ شيء عليم.

قال :

وقوله ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رواه مسلم.[1]

أخرجه مسلم (٥٣٨) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ

(١) صحيح: م(٥٣٧) عن معاوية بن الحكم.

بِالإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: «**فَلَا تَأْتِهِمْ**». قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ**». قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ: «**فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**». قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قَالَ: «**كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**». قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**». فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**».

في الحديث إثبات أنّ الله في السماء وفيه الاختبار بأين الله ولا حرج في ذلك وفيه جواز السؤال بأين بخلاف من يزعم أنّه لا يجوز أن يُسأل عنه بأين، وفي حديث جابر عند مسلم (١٢١٨)، قال النبيّ : «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ،**

كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «**اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. الحديث.

فيه جواز الإشارة وهم يزعمون أنّها لا تجوز الإشارة والنبيّ كان يُشير إلى السماء وينكتها إلى الأرض ويقول: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**»، أي يا من أنت في السماء اشهد على من في الأرض وفيه أنّ كفّارة الظهار وغيرها من الكفّارات تكون عتق رقبة مؤمنة وإن جاءت مطلقة في بعض الآيات فإنّها جاءت مقيّدة في آية النساء، قال الله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء:٩٢].

القول في المعيّة

قال :

وقولِه ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» حديث حسن.[(١)]

عن عبادة بن الصامت ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٣٦، رقم ٨٧٩٦)، وأبونعيم في الحلية (٦/ ١٠٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٠٧).

وهو حديث ضعيف، ضعّفه العلّامة الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٥٨٩) فقال : (قال أبونعيم: غريب من حديث عروة، لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر)، قال الألباني: (وهو الأنصاري الشامي؛ وهو ثقة، وكذلك سائر الرواة غير نعيم بن حماد فهو ضعيف من قبل حفظه، بل اتهمه بعضهم). انتهى

لكن معنى الحديث ثابت من أدلة أخرى قال الله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]، وقد تقدّم الكلام على المعيّة وسيأتي أكثر من هذا، ويدل على

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٧٩١)، وفي مسند الشاميين (١/ ٣٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٠٧) من طريق عروة بن رويم عن عبدالرحمن بن غنم عن عبادة بن الصامت، وعروة بن رويم قال فيه أبوحاتم -كما في الجرح والتعديل (٦/ ٣٩٦): عامة أحاديثه مرسلة اهـ وقال المزي في روايته عن عبد الرحمن بن غنم: يقال: مرسل. اهـ من التهذيب .

وفي سنده أيضًا: نعيم بن حماد ضعيف، وانظر الضعيفة للعلامة الألباني (٢٥٨٩).

معنى المراقبة فيه حديث عمر في مسلم(٨): قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

القول في حديث: «فإنّ الله قِبلَ وجهه»

قال :

وقولِهِ: «إِذَا قَامَ أَحدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» متفق عليه.[(١)]

أقول: الحديث ساقه ابن تيمية بمعناه، وله طرق وألفاظ كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَأَى بُصَاقًا فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ فَحَكَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى**».

وفي البخاري (٤٠٥) ومسلم (٥٥١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ**».

وفي البخاري (٤١٠ و٤١١) عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَبَا سَعِيدٍ أَخْبَرَاهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَأَى نُخَامَةً فِي حَائِطِ الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ حَصَاةً فَحَتَّهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ، فَلاَ يَتَنَخَّمْ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى**».

---

(١) صحيح: الحديث أورده المصنف بمعناه وقد جاء في الصحيحين عن جمع من الصحابة منهم: ابن عمر خ(٤٠٦) م(٥٤٧)، أبو سعيد وأبو هريرة خ(٤٠٨، ٤٠٩) م(٥٤٨)، أنس خ(٤٠٥) م(٥٥١)، جابر عند مسلم (٣٠٠٨).

وفي لفظ للبخاري (٤١٦) عن أبي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاَةِ، فَلاَ يَبْصُقْ أَمَامَهُ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللهَ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ، فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ، فَيَدْفِنُهَا».

وفي مسلم (٥٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ المَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَخَّعْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ قَدَمِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا» وَوَصَفَ الْقَاسِمُ فَتَفَلَ فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ مَسَحَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ.

وفي مسلم (٣٠٠٨) عن جابر قال: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ فِي مَسْجِدِنَا هَذَا، وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ، فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟» قَالَ فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟» قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟» قُلْنَا: لَا أَيُّنَا، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى، فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا».

ونؤمن بدلالة هذا الحديث من أنّ الله قِبل وجه المصلّي إذا كان يُصلّي، وهو مستوٍ على عرشه ومحيط بكلّ شيء، وفي حديث حذيفة عند ابن ماجه (١٠٢٣) قال النبيّ : «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أَقْبَلَ اللهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، حَتَّى يَنْقَلِبَ أَوْ يُحْدِثَ حَدَثَ سُوءٍ». فنثبت لله ما أثبته له رسوله ، ولا يلزم من

ذلك اتحادًا ولا اختلاطًا ولا حلولًا، بل هو على عرشه استوى وهو قِبل وجه المصلّي كما جاء النصّ وهو في علوّه، فلا يتناقض هذا الحديث مع أدلّة العلوّ، هذا الذي يجب أن يُفهم أنّ مثل هذا الحديث ومثل حديث: «إِنَّ اللهَ قَرِيبٌ» وقول الله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق:١٦]، لا يدلّ على أنّ الله ليس في العلوّ بل الله في العلوّ وهو قريب من عباده وكما يُقال: (قريب في علوّه وعليٌّ في دنوّه).

هنا فائدة للشيخ ابن عثيمين يقول: يمكن الجمع من **ثلاث أوجه**:

الوجه الأوّل: أنّ الشرع جمع بينهما ولا يجمع بين متناقضين وهذا قد تمّ الإشارة إليه وهو أنّ الله أخبر أنّه على عرشه والنبيّ أخبر أنّ الله قِبل وجه المصلّي فهذا على ظاهره وهذا على ظاهره لكن ما هو الظاهر من قِبل وجه المصلّي، الظاهر أنّ الله في الجدار تعالى الله عن ذلك، أم الظاهر أنّ الله على عرشه وهو أمام وجه المصلّي لأنّ الله محيط بكلّ شيء وفوق كلّ شيء.

الوجه الثاني: ممكن أن يكون الشيء عاليًا وهو قِبل وجهك فها هو الرجل يستقبل الشمس أوّل النهار فتكون أمامه وهي في السماء ويستقبلها آخر النهار وتكون هي أمامه في السماء فإذا كان هذا في المخلوق ففي الخالق من باب أولى بلا شكّ.

الوجه الثالث: هب أنّ هذا ممتنع في المخلوق فلا يلزم أنّه ممنوع في الخالق لأنّ الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وهذا هو الذي نُعبّر عنه بأنّ الله فوق كلّ شيء ومحيط بكلّ شيء .

وقال المصنف كما في الحموية :

وكذلك قول النبي : «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ**» الحديث حق على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قبل وجه المصلي، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء ويناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه وكانت أيضًا قبل وجهه. انتهى

قال :

وقولِهِ ﷺ: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ،[1] وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ،[2] أَعُوذُ بِكَ[3] مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا،[4] أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ

---

(١) في المطبوع زيادة: [والأرض]، وفي مسلم زيادة: «**وَرَبِّ الْأَرْضِ**»، وقد رواها بدونها: أحمد (٢/ ٤٠٤)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١١٦)، والحاكم (٤٨٠٥).

(٢) هذه رواية الحاكم (٤٨٠٥)، أما رواية مسلم وغيره: «**وَالْفُرْقَانِ**».

(٣) زاد في (ف) والمطبوع: [أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي] ولم نقف عليها في طرق هذا الحديث، ولذا لم نذكرها في المتن، نعم؛ ثبتت في حديث آخر في أذكار النوم، رواه أبوداود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١١) عن أبي هريرة أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: «**قُلْ: اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، قَالَ: قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ**» وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي رقم (١٣٣٣).

(٤) زاد مسلم وحده -فيما وقفنا عليه-: «**اللهُمَّ**» والله أعلم.

الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، [اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ](١)» رواه مسلم.(٢)

من حديث أبي هريرة .

وقد تقدّم الشاهد منه وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣]، فيُثبت لله صفة الأولية وصفة الآخرية وصفة الظاهرية وصفة الباطنية، وهو تعالى قريب في علوّه وعالٍ في دنوّه

وفيه الاستعاذة بالله من الشرور والآثام جميعًا وفيه أنّ نواصي العباد بيد الله

وفيه استحباب دعاء الله في قضاء الدين ودعاء الله بإزاحة الفقر والنبيّ كان يدع كثيرًا بهذا الدعاء: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» من حديث أبي بكرة عند أبي داود (٥٠٩٠)، النسائي (١٣٤٦)، والفقر مصيبة وبلاء إذا نزل على الإنسان يُحوجه إلى الناس وقد يصيبه اللأواء والمرض والتعب والنصب ويتحمّل الديون كما قال عمر بن عبدالعزيز : (الدين رقّ فانظر عند من تضع رقبتك)، وكثير من الناس لا يعلمون أحكام الديون ولا يعرف ما يتعلّق بذلك وقد ألّفت فيه كتابًا بعنوان الدرّ المكنون في أحكام الديون ، ومن عجيب ما يُذكر أنّ رجلًا كان له صاحب يشغله بسؤاله فقال له:

إِنَّ الْقَـضَاءَ سَـيَأْتِي دُونَـهُ أَجَـلٌ فَاطْوِ الصَّحِيفَةَ وَاحْفَظْهَا مِنَ الْفَأْرِ

---

(١) هكذا عند أبي داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١١٦، ١١٧) وغيرهم بالإفراد، والذي عند مسلم بلفظ الجمع «**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**».

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة، وفي المطبوع: [رواية مسلم] وليس بصواب؛ لأنك قد رأيت عدة مواضع مخالفة للفظ مسلم.

وابن مسعود يقول: (لئن أُقْرِضَ أحبّ إليّ من أن أتصدّق مرّتين)، وفي حديث بريدة عند أحمد (٢٣٠٤٦)، قال: قال رسول الله : «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْم مِثْلِهِ صَدَقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ، قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْم مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ، قَالَ لَهُ: بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»، أجور عظيمة يحصل عليها أصحاب الأموال لو احتسبوا والنبيّ يقول: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٣٨٧)، وفي حديث عائشة : تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ. أخرجه البخاري (٢٩١٦).

إثبات صفتي السمع والبصر لله عز وجل

قال :

وقولِهِ ﷺ لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّما تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» متفق عليه.[١]

من حديث أبي موسى عند البخاري (٧٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤). ولفظه تامًّا: قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ**». قَالَ وَأَنَا خَلْفَهُ وَأَنَا أَقُولُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ فَقَالَ: «**يَا عَبْدَاللهِ بْنَ قَيْسٍ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**». فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**».

قوله : (ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي: هوّنوا على أنفسكم، وارفقوا بها.

قوله : (فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا) هذه من الصفات السلبية والصفات السلبية تتضمّن إثبات كمال الضدّ فيُثبت لله صفة السمع الذي الأصوات كما قالت عائشة ، انظر البخاري (١٨/ ٣٩٥)، ابن ماجه (١٨٨)، النسائي (٣٤٦٠)، وفيه إثبات فضيلة الذكر وحرص الصحابة على الخير وفيه تعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) متفق عليه: خ(٤٢٠٥) م(٢٧٠٤) عن أبي موسى الأشعري، ومن قوله: «**إن الذي تدعونه...**» انفرد به مسلم.

قوله : (إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا) فيه إثبات صفة القرب لله وصفة السمع وصفة البصر لله ولا مناقضة فالله قريب في علوّه فلا يُقال قريب أي معنا متّحد ومختلط هذا قول الاتحادية وهذا أقبح الكفر والإلحاد.

قوله : (إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ) وهو على عرش، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته وهو بائن من خلقه فلا يتوهّم مُتوهّم بهذه الأدلّة الحلول والاتحاد والاختلاط، تعالى الله أن يحلّ في شيء من مخلوقاته.

قال كما في الفتاوى :

فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ فِي الْحَدِيثِ لَـمَّا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**». وَقَالَ النَّبِيُّ : «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِ فَلَا يَبْصُقَن قِبَلَ وَجْهِهِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ**» وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَرْشِ وَعَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا يَفْتَقِرُ إلَى شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ بَلْ هُوَ الْحَامِلُ بِقُدْرَتِهِ الْعَرْشَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ. وَقَدْ جَعَلَ تَعَالَى الْعَالَمَ طَبَقَاتٍ وَلَمْ يَجْعَلْ أَعْلَاهُ مُفْتَقِرًا إلَى أَسْفَلِهِ فَالسَّمَاءُ لَا تَفْتَقِرُ إلَى الْهَوَاءِ وَالْهَوَاءُ لَا يَفْتَقِرُ إلَى الْأَرْضِ فَالْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الَّذِي وَصَفَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧] أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَغْنَى وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَى شَيْءٍ بِحَمْلٍ أَوْ غَيْرِ حَمْلٍ بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ الَّذِي كُلُّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

انتهى

القول في الرؤية

قال :

وقولِه ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ[صَلاةٍ][1] قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» متفق عليه.[2] إلى أمثالِ هذِهِ الأحاديثِ التي يُخْبِرُ فيها رسولُ اللهِ ﷺ عن ربِّه بما يُخْبِرُ به.

من حديث جرير بن عبدالله عند البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣)، وجاء عن عدة، منهم، أبوهريرة، وأبوسعيد ، وقد تقدم الكلام على المسألة بما يغني عن الإعادة والتكرار.

قوله : (لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ) أي لا تزدحمون، وفي رواية (لا تضارون) أي لا يلحقكم ضير، وفيه إثبات رؤية الله وأنّ الله يُرى في العلوّ.

قوله: (إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ).

أي أن هذه أمثلة ساقها شيخ الإسلام للدلالة على سواها من الأحاديث الثابتة التي يُخبر فيها النبيّ عن ربّه فيما يُخبر به، ولو أراد الإستقصاء لطال المقام جدا وخرج عن المقصود، لكن ملا يدرك كله لا يترك جله، وكما أنّنا آمنّا

(١) المثبت رواية الترمذي (٢٧٤٨)، وبدونها متفق عليه، وللبخاري (٧٤٣٤): «**وصلاة قبل غروب الشمس**».

(٢) متفق عليه: خ(٥٥٤) م(٦٣٣) عن جرير، وليس عندهما: «**لَيْلَةَ البَدْرِ**» وإنما: «**هَذَا الْقَمَرَ**».

بآيات الصفات وما دلّت عليه،كذلك يجب علينا أن نؤمن بالأحاديث سواء كانت من أخبار الآحاد أو من المتواتر وكلّ ما ثبت عن النبيّ فإنّه يُفيد العلم ويجب علينا اعتقاد ما دلّت عليه تلك الأحاديث على طريقة السلف والبعد عن التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل لأنّه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

مجمل طريقة الفرقة الناجية في أبواب الإيمان بالأسماء والصفات

قال :

فإنَّ الفرقةَ الناجيةَ أهلَ السنةِ والجماعةِ: يُؤمِنونَ بذلك، كما يُؤمنونَ بما أَخْبَرَ اللهُ بِهِ في كتابِهِ العزيزِ، من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

أي يؤمنون بدلالة الأحاديث النبوية على الصفات كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه والسبب في ذلك أمور:

الأوّل:

أنّ السنّة وحيٌ من الله كما قال الله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤].

الثاني:

أنّ الله قد أوجب علينا الأخذ بقول النبيّ وبخبره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]، وسواء كان التحكيم في باب الأخبار أو الأحكام فيُتحاكم إلى سنّة النبيّ والعرب قسّموا الكلام إلى خبر وإنشاء فخبر الله تعالى وخبر رسوله يقابل بالتصديق، مثل قول الله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، وقول الله : ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾[الحديد:٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]، إلى غير ذلك، وقول النبيّ : «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا».

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣]، فهو إنشاء وهو الطلب والطلب يُقابل بالفعل أو الترك، إذا كان طلب فعل يُقابل بالفعل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾وإن كان طلب ترك فيُقابل بالترك.

وقد تقدم الكلام على بقية المباحث ولله الحمد والمنة.

أهل السنّة الوسط العدل الخيار

قال :

بَلْ هُمُ الوَسَطُ في فِرَقِ الأمةِ، كما أنَّ الأمةَ هي الوَسَطُ في الأُمَمِ.

قوله: (بل هم) يعود على أهل السنة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية التي تقدم ذكر شيء من خصائصها، قال الله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[البقرة:١٤٣] والوسط: العدل الخيار. وفي البخاري من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ، فَتَشْهَدُونَ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ قَالَ: «عَدْلًا» ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾.

وقال الله : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران:١١٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[المائدة:٤٨].

هذا وقد تكلمت - ولله المنة - بتوسع عن فضل هذه الأمة، وفضل نبيها، وفضل كتابها، في كتابي الذي رقمته في الرد على دعاة وحدة الأديان.

وهذا الوصف يدخل فيه ابتداء أهل السنّة والجماعة، أهل الفقه والنظر، والخير والأثر، الّذين هم ملازمون لطريقة المعصوم محمّد . وأمّا غيرهم فقد غيّر وبدّل، ويكون بُعْدُه وقربه بقدر ما هو عليه من التنكّب عن الكتاب والسنّة، واستحقوا هذا الوصف للعدالة التي لازموها في أقوالهم وأفعالهم بعيدًا عن طرق النصارى الضالين الذين غلو حتّى بلغ بهم الغلوّ أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، وألّـهُوا عيسى ، فقال الله ناهيًا لهم عن هذا الصنيع الذميم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[النساء:١٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾[المائدة:٧٧].

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (٢/ ١٠٠): (ومن تدبّر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء في طرف ضلال وهؤلاء في طرف يقابله والمسلمون هم الوسط وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك). اهـ

وقال ابن كثير : (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى ، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه،

فادَّعوْا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقًا أو باطلا أو ضلالا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١]). اهـ

وأمّا اليهود فقد وقع منهم الجفاء حتى قتلوا الأنبياء، قال الله : ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[المائدة:٧٠].

هذا في جانب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووقع منهم الغلو في عزير حتى ألّـهوه قال الله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة:٣٠] فكلّ من الفريقين اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالون وقع منهم الغلو من جانبيه.

قال الشنقيطي في أضواء البيان : (وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملا للتفريط والإفراط). اهـ

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٦٣٣): (والمراد بالآية النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا ومن التفريط غلو اليهود فيه حتى جعلوه لغير رشده). اهـ

قال :

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بابِ صِفَاتِ اللهِ ، بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجَهْمِيَّةِ، وبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ المُشَبِّهَةِ.

وغلت الجهمية في جانب التنزيه زعموا، وهو التعطيل، فزعموا أن لهم ربًّا لا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارج عنه ولا حيّ ولا ميّت وهكذا، وعند التحقيق تجد أنّ هذا ربًّا لا وجود له وإنّما هو العدم ووافقتهم المعتزلة في نفي الصفات وخالفوهم في إثبات الأسماء.

وفي الضدّ قابلتهم طائفة الممثلة فغلوا في الإثبات حتى زعموا أن الله له صفات كصفات المخلوقين المربوبين المحتاجين الناقصين تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ولم يلتفتوا إلى مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤].

مع أنّ أهل السنّة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل له صفات تليق بجلاله ، كما أنه لا مثيل له في ذاته فكذلك لا مثيل له في صفاته.

قال :

وهُمُ وَسَطٌ في بابِ أَفْعَالِ اللهِ تعالى بَيْنَ [القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ].[(١)]

وغلت الجبرية في إثبات القدر حتى زعموا أن الفاعل حقيقة هو الله تعالى عن قولهم علوا كبيرا وأنّ الإنسان لا مشيئة له ولا قدرة ولا استطاعة ولا إرادة وهو كالريشة في مهبّ الريح أو كميّت بين يدي المغسّل لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيث سلبوا العبدمن فعله وقدرته ومشيئته واختياره.

وبالمقابل غلت النفاة من القدرية المعتزلة في إثبات أفعال العباد حتى زعمت أن المخلوق المربوب هو خالق فعله وأنّ الله ليس بخالقٍ للشرّ وأخرجوا أفعال العبدمن عموم قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الزمر:٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]. وقالوا العبدله فعل وقدرة ومشيئة واستطاعة وإرادة، ليس لله فيها شيء فالعبديخلق عمله وسلبوا الله من مشيئته وخلقه وقدرته وإرادته.

وأهل السنّة هم الوسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين وحقٌّ بين باطلين، خرجوا من بين فرث الغلو ودم التفريط لبنًا سائغًا للشاربين؛ لأنّهم عملوا بقول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[البقرة:٢٠٨]، ففي هذا الباب مثلا أثبتوا لله تعالى خلقًا، وقدرتة، وشيئة، وأثبتوا للمخلوق فعلًا وقدرة واستطاعة، ومشيئة لكن مشيئة العبدواستطاعته، وقدرته، وإرادته تكون بمشيئة الله فمشيئة الله نافذة فكان أهل السنّة هدى بين الجبرية الجهمية

---

(١) في المطبوع زيادة: [وغيرهم]، وحذفها أقرب.

وبين المعتزلة الضلّال الذين يردّون مثل قول الله : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الزمر:٦٢]، وصارت المجوس في هذا الباب أحسن حالًا من القدريّة لأنّ المجوس يُثبتون خالِقِينِ للعالم، إله النور وإله الظلمة، وإله النور هو خالق الخير وإله الظلمة هو خالق الشرّ، بينما أولئك أثبتوا خَالِقِينَ، وقول المجوس من أفسد الأقوال: قال بعضهم رادًّا عليهم:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ   تُحَدِّثُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

يعني أنّهم يزعمون أنّ الخير من النور وكم من إنسان يقوم في الليل يقول يا ربّ (فرّج عنّي ما أنا فيه، يا ربّ يسّر أمري) ويدعو الله بما يريد ويُفرّج الله الهمّ ويُقضي الدين ويُفرّج الكرب ويُيسّر الأمور (اللهم لا سهلًا إلّا ما جعلته سهلًا وأنت تجعل الحزن إن شئت سهلًا) ولهذا قال النبيّ في القدرية النفاة: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**»، من حديث ابن عمر عند أبي داود (٤٦٩١) وغيره حسّنه العلّامة الألباني .

والسبب أن أهل السنة يأخذون بجميع الأدلة، أما أهل البدع فإنما يأخذون ما وافق أرائهم وأيد أفكارهم فحادوا وزاغوا عن الصراط المستقيم والطريق القويم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واتبعوا سبيل المعرضين الضالين الذين أمرنا الله بالبعد عنهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الروم:٣١].

والأشاعرة خرجوا من قول الجهمية بحيلة من أفسد الحيل فقالوا نحن ما نقول كالجهمية بأنّ الإنسان مجبور نقول بأنّ للإنسان كسب، وحقيقة الكسب

عند الأشعري كقول الجبرية سواء فهم ينفون أي قدرة للعبد، وقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن تفسيرها فضلًا عن إفهامها لغيرهم، ولهذا قيل:

مِمَّـا يُقَـالُ وَلَا حَقِيقَـةَ تَحْتَـهُ   مَعْقُولَـةً تَـدْنُوا إِلَى الْأَفْهَـامِ
الْكَسْبُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيْ وَالْحَالُ عِنْـ   ـدَ الْبَهْـشَمِيِّ وَطَفْـرَةُ النَّظَّـامِ

قال :

وفي بابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وبين الوَعِيْدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّة وغيرِهم.

أي أن أهل السنة في باب الوعد، والوعيد وسط بين المرجئة، والوعيدية، والوعيد هو ما توعّد به الله تعالى على الذنوب والمعاصي مثل قول الله : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣]، ومثل قول النبيّ : «**مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩). ومثل حديث جُبير بن مُطعم أنّ النبيّ : «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**» رواه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦)، أي قاطع رحم. وما في بابها من الوعيد العظيم على الذنوب والمعاصي فالناس في هذا الباب طرفان ووسط:

• الطرف الأوّل: الخوارج:

وطريقتهم تكفير فاعل الكبيرة، وقاربتهم المعتزلة حيث زعموا أن فاعل الكبيرة في (منزلة بين منزلتين) لا مؤمن ولا كافر واتفقوا على القول بتخليد فاعلها في النار.

• الطرف الثاني: المرجئة:

حيث زعموا أنّ السارق والزاني والفاسق والمغنّي وغيرهم من أصحاب الكبائر إيمانه كامل على إيمان جبريل ومكائيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى إيمان أبي بكر الصديق وعمر الفاروق فوقع بسببهم بلاء عظيم وخطر عظيم، كان تأثيره في البعد عن شرائع الدين أعظم من تأثير الخوارج حتى قال إبراهيم النخعي كما عند ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦/ ٢٧٤): (لأنا على الأمة من هؤلاء -يعني المرجئة- أخوف من عدتهم من الأزارقة -يعني الخوارج-). وأخرج عبدالله بن أحمد في السنة (٧٣٣) عن يحيى بن أبي كثير وقتادة قالا: (ليس من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء). وأخرج رقم (٢٥٨) عن مغيرة بن مقسم كان يقول: (والله الذي لا إله إلا هو ما أعرف منه شر منهم) قيل لأبي بكر: يعني المرجئة؟ قال: المرجئة وغير المرجئة.

ولا يُبالون بهذه الأحاديث اتي تروى في باب الوعيد، ولا ينظرون إليها وإذا رووها يروونها على سبيل التعجّب.

• والوسط هم أهل السنّة:

اتباع السلف أصحاب الحديث فهم وسط بين الخوارج والمعتزلة الوعيديّة وبين المرجئة ويعتقدون أنّ أصحاب الكبائر من أمّة محمّد في النار لا

يُخلّدون ويعتقدون أنّ الذنوب خلا الشرك بالله تعالى تحت مشيئة الله إن شاء غفرها وإن شاء عذّب عليها كما أنّهم يعتقدون فضائل لا إله إلّا الله ويعتقدون أنّه لا يخرج من الإسلام أحدٌ إلّا بمكفّر فكانوا وسط، وسبب ضلال الخوارج أنّهم عمدوا إلى أدلّة الوعيد وتركوا أدلّة الرجاء وسبب ضلال المرجئة أنّهم عمدوا إلى أدلّة الرجاء وتركوا أدلّة الوعيد وسلم أهل السنّة في دينهم لأنّهم جمعوا بين أدلّة الرجاء وأدلّة الوعيد فصار فاعل الكبيرة عندهم فيما دون الشرك مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته بينما يكون عند الخوارج كافرًا وعند المرجئة كامل الإيمان وأهل السنّة أثبتوا له الإيمان بحسب ما عنده من مطلق الإيمان وأثبتوا له الفسوق بقدر ما عنده وزعمت المعتزلة والخوارج أنّه لا يجوز لله أن يُغيّر هذا الحكم أي حكم الوعيد والصحيح أنّ هناك فرق بين الوعد والوعيد فالوعد يُطلق على الشيء الذي المؤمّل وهذا خُلفه لا يجوز، قال النبيّ : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩). وهو في حقّ الله أولى، قال الله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]، بينما الوعيد هو التهديد وخُلفه قد يكون لكرم وفضل وإحسان فمثلًا عندما توعّد أبوبكر الصدّيق مسطح أن لا يُنفق عليه عند أن قال في عائشة ما قال، عاتبه الله فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢]، قال أبوبكر : (بلى نُحب)، القصّة مذكورة في حديث اللإفك عند البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، وعاد إلى الإنفاق على مسطح مع أنّه قد كان توعّده والعرب يمدحون الوفاء بالعهد والوعد ويذمّون إنفاذ الوعيد خصوصًا في من يستحقّ العفو حتّى قال أحدهم:

وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُــــهُ أَوْ وَعَدْتُــــهُ لَـمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

ففرّق بين الوعد والوعيد والمعتزلة أوجبوا على الله إنفاذ الوعيد وصار هذا أصل من أصولهم الخمسة (العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين)، ومرادهم من إنفاذ الوعيد تخليد العصاة من أمّة محمّد في النار، قال بعضهم لعمرو بن عُبيد (إنّما أوتيت من عُجمتك)، أي لم تُفرّق بين الوعد والوعيد.

فالوعد يكون في خير والوعيد يكون في شرّ، فالذي يجب هو الوفاء بالوعد لقول النبيّ : «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩). والوعيد يُستحبّ بل يُثنى على من أخلفه لأنّ الرجل قد لا يستحقّ هذه العقوبة التي توعّدته بها أو قد يكون كرمك وجودك العفو عنه فتتحقّق مصالح فالوعد في حقّ الله في قوله : «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**» من حديث عبادة بن الصامت عند الترمذي (٢٦٣٨). والوعيد في حقّ الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣]، هل كلّ قاتل عمدٍ من المسلمين يجب على الله أن يُدخله النار والنبيّ يقول: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**» من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٠٩)، أي يطعن نفسه، هل يجب على الله أن يدخل من قتل نفسًا النار؟ لا يجب وإذا عفى الله فهذا فضله وكرمه وجوده، ففي حديث جابر عند مسلم (١١٦) أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ

عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ - قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ إِلَى المَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوُا المَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**اللهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ**».

قال :

> وفي بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ، بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ.

الحروريّة اسم للخوارج، نسبة إلى حروراء منطقة في العراق، انعزلوا فيها وجعلوا يُكفّرون المسلمين ويستبيحون دماءهم، وجعلوا يتعمّقون في الدين تعمّقًا مفضيًا إلى الإلحاد، والمروق من الدين، كما قال رسول الله عن بعضهم: «**يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه من حديث علي البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦). وقد جاءت معاذة العدويّة رحمها الله إلى عائشة فقالت لها: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ:

لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ. أخرجه مسلم (٣٣٥).

واستباح الخوارج دماء المسلمين بأدنى الشُّبه، وقد بيّن عوار مذهبهم وفساد شبههم وأنّها كخيوط العنكبوت الواهية عبدُالله بنُ عباس حيث أخرج ابن عبدالبرّ في جامع بيان العلم وفضله (١١٢٩)، قال : لَـمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ وَهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ أَتَيْتُ عَلِيًّا فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. قَالَ قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ: فَخَرَجْتُ آتِيهُمْ وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ فَأَتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَمَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ قُلْتُ: مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف:٣٢]، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لِأُبْلِغَكُمْ مَا يَقُولُونَ وَتُخْبِرُونِي بِمَا تَقُولُونَ فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ وَفِيهِمْ أُنْزِلَ وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرَ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ، مُسَهَّمَةٌ وُجُوهُهُمْ مِنَ السَّهَرِ، كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكَبَهُمْ ثِفَنٌ، عَلَيْهِمْ قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ: لَنُكَلِّمَنَّهُ وَلَنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ. قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا نَقَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالُوا: ثَلَاثًا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ قَالَ اللهُ :

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ. فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالُوا: وَأَمَّا الأُخْرَى فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ فَلَئِنْ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبْيُهُمْ وَغَنِيمَتُهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالُهُمْ قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ فَمَا الثَّالِثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ مَحَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ. قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا. فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يُرَدُّ بِهِ قَوْلُكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رُدَّ حُكْمُهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[المائدة:٩٥]، فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللهُ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[النساء:٣٥]، فَجَعَلَ اللهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةً مَاضِيَةً أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ وَهِيَ أُمُّكُمْ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَيْسَتْ بِأُمِّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ! فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ أَيَّهُمَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا صِرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُلْتُ: أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لَا وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ». فَوَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ. قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ عَبَّاسٍ : (فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ).

وهم كلاب النار، قال النبيّ : «الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ» رواه ابن ماجه (١٧٣) من حديث ابن أبي أوفى . وفي حديث أَبِي غَالِبٍ، قَالَ: رَأَى أَبُو أُمَامَةَ رُءُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: «كِلَابُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران:١٠٦]، قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا حَتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ. رواه الترمذي (٣٠٠٠). وقال عنهم: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» من حديث عليّ بن أبي طالب عند البخاري (٣٦١١) وزاد مسلم (١٠٦٦) في أوّل الحديث: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لَا

تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، صفات عظيمة قالها عنهم النبيّ كما في آخر كتاب الزكاة من صحيح مسلم وما بيّن الرسول صفة فرقة من الفرق كما بيّن صفات الخوارج.

و(وَالْمُعْتَزِلَةِ): هم أتباع واصل بن عطاء الغزّال وعمرو بن عبيد بن باب اعتزلوا مجلس الحسن البصري ، جاء رجل إلى الحسن فقال له: (ماذا تقول في فاعل الكبيرة؟)؛ لأنّ الخوارج كانوا يُكفّرون فاعل الكبيرة والمرجئة يحكمون له بالإيمان فاعتزل واصل بن عطاء الغزّال وعمرو بن عبيد بن باب وابتدعوا القول بـ (المنزلة بين منزلتين) ويعنون بها أن العبدلا مؤمن ولا كافر في الدنيا، وأوجبوا له في الآخرة الخلود في النار موافقة للخوارج، وقولهم مخالف للكتاب، والسنة، وإجماع السلف.

قال :

وبين الْمُرْجِئَةِ والجَهْمِيَّة.

والمرجئة أقسام على ما يأتي بيانه، ومذهبهم أنهم يخرجون الأعمال من مسمى الإيمان، ومرجئة الفقهاء منهم يزعمون أنّ الإيمان إعتقاد القلب مع قول اللسان فقط، ومنهم أبوحنيفة وحمّاد بن أبي سليمان والطحاوي، وقولهم فاسد وضلال فإنّ الله أمر بالإيمان والعمل، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٥]، سواء كان عمل الجوارح أو القلب أو اللسان، قال النبيّ : «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

وقال الله : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[البقرة:١٧٧]، فتضمّنت الآية الأعمال القلب والجوارح واللسان، وبوّب البخاري في صحيحه (باب أمور الإيمان)، واستدل بالآية السابق ذكرها، وجاء من حديث أبي ذرّ أنّ رجلًا سأل النبيّ عن أمور الإيمان فقرأ عليه الآية ولا يصحّ، وبوّب البخاري في صحيحه (باب قيام ليلة القدر من الإيمان)، وهكذا يردّ بهذه التبويبات على المرجئة الذين يُخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، وحصروا الكفر بالجحود.

وأمّا الجهمية فهم أشرّ المرجئة، فالجهمية يزعمون أنّ الإيمان هو المعرفة فقط، ويلزم على قولهم أن يكون إبليس مؤمنًا، لأنّ إبليس عرف ربه ويقول (ربّي) و(خلقتني) (فبعزّتك) فعرف ربّه وفرعون على حدّ قولهم مؤمن؛ لأنّه كان يعرف ربّه بقلبه حتى قال له موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء:١٠٢]، وقال الله : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]، ويلزمهم أنّ اليهود مسلمون مؤمنون أليس يقول عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة:١٤٦]، قال بعض السلف: (ومن العجب أنّ جهم أدخل إبليس في الإيمان وأخرج نفسه من الإيمان)؛ لأنّ إبليس عرف ربّه وجهم لم يعرف ربّه لمّا قيل له: (أين ربّك؟) قال: (لا فوق ولا تحت، ولا داخل ولا خارج، ولا متصل ولا منفصل، ولا حيّ ولا ميّت).

قال :

وفي أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وبَيْنَ الخَوَارِجِ.

وكما أنهم وسط فيما تقدم، فهم وسط في أصحاب النبيّ بين الرافضة والخوارج، فطريقة الرافضة تكفير أصحاب النبيّ إلّا أحد عشر صحابيًّا وقيل سبعة عشر وقيل غير ذلك، والخوارج كفّروا أصحاب النبيّ وقاتلوهم، وأهل السنّة يُثنون على أصحاب رسول الله ويصفونهم بالجميل ويستغفرون لهم ويكفّون عمّا شجر بينهم وإن شئت قل وسط بين الخوارج والرافضة والنواصب فالنواصب ينصبون العداوة لأهل البيت رضوان الله عليهم مع أن أبا بكر يقول: (ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي آلِ بَيْتِهِ) ويقول : (لَئِنْ أَصِلْ قَرَابَةَ رَسُولِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَصِلَ قَرَابَتِي. على ما سيأتي بيانه إن شاء الله وما من مؤلّف يؤلّف في كتب العقائد إلّا ويذكر فضائل أصحاب النبيّ ؛ لأنّ الطعن فيهم طعن في الدين، فهم مبلّغوه، وهم حُفّاظه، وهم وزراء النبيّ وهم سفراؤه، والطعن فيهم طعن في الدين، وطعن في النبيّ ، وطعن في الله ؛ إذ كيف يرضى أن يكون وزراء النبيّ وهم على الخيانة وعلى الكذب وعلى التلوّن وعلى التلبيس كما يزعم الرافضة والخوارج.

والصحابة لهم المكان الأعلى والشرف العظيم حتّى جعل الله طريقتهم ومنهجهم حجّة على من سواهم فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، والمؤمنون هم الصحابة ومن سار على سيرهم وقال الله : ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧]، فجعل الله الحجّة والسبيل للصحابة ؛ لأنّهم ساروا على سير النبيّ وما وعد الجنّة إلّا لمن اتبعهم وسار على سيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠]، وأخبر الله أنّ الفيء والغنائم تُقسّم فيهم، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:٨-١٠]، فالذي لا يستغفر لهم ولم يكن سائرًا على سيرهم، فليس له في الفيء نصيب بهذه الآية، والأخرى التي في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح:٢٩].

القول في المعيّة

قال :

فصل

وقد دخل فيما ذكرناه مِنَ الإيمانِ باللهِ: الإيمانُ بما أَخْبَرَ اللهُ به في كتابِهِ، وتَواترَ عن رسولِهِ ﷺ، وأَجْمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ، مِنْ أَنَّهُ سبحانه فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ على عرشِهِ، عَلِيٌّ على خلقِهِ، وهو سبحانه مَعَهُمْ أينما كانوا، يعلمُ ما هم عليه، وما هم عاملونَ، كما جَمَعَ بَيْنَ ذلك في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فإن هذا لا تُوْجِبُهُ اللغةُ، [وهو خلافُ ما أجمعَ عليه سلفُ الأمةِ، وخلافُ ما فطر اللهُ عليه الخلقَ][1] بل القمرُ آيةٌ من آياتِ اللهِ، من أصغرِ مخلوقاتِهِ، وهو موضوعٌ في السماءِ، وهو مع المسافرِ وغيرِ المسافرِ أينما كان! وهو سبحانه فوق العرشِ، رقيبٌ على خلقِهِ، مهيمنٌ عليهم، مطلعٌ إليهم، إلى غيرِ ذلك من معاني ربوبيتِهِ، وكلُّ هذا الكلامِ الذي ذكره اللهُ سبحانه -من أَنَّه فَوْقَ العرشِ، وأَنَّه مَعَنَا- حقٌّ على حقيقتِهِ لا يحتاجُ إلى تحريفٍ، ولكنْ يُصَانُ عن الظنونِ الكاذبةِ؛ مثلِ: أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قولِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماءَ تُقِلُّهُ أَوْ

(١) ما بين المعقوفتين ليس في المطبوع.

تُظِلُّهُ؛ وهذا باطلٌ بإجماعِ أهلِ العلمِ والإيمانِ، فإن اللهَ قد ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وهو الذي ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾، ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾.

الدليل على إثبات هذه الصفة القرآن والسنّة والإجماع ويدلُّ على وجوب الإجماع قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، ووجه الدلالة منه قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فما أجمع عليه المؤمنون حقٌّ لحديث النبيّ : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٥٩٠) وابن عبّاس عند الحاكم (٣٩٩).

قوله: (مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ) قد تقدمت الكلام وذكر الأدلة على صفة العلو بما يغني عن الإعادة مع ذكر أنها تنوعت على أوجه كثيرة تمنع القول بمجازها وتحريفها عن دلالتها، ومع ذلك ساق المصنف في هذا الموطن الجمع بين أدلة العلو، والمعية إقامة للحجة، ودفعا للشبهة، وهذا المبحث من أمتن ما كتب مع إختصار في هذا الباب، والحمد لله رب العالمين.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الحديد:٤].

لكن الحلولية والاتحادية ومن إليهم من المعطّلة والجهمية نظروا إلى هذه الأدلّة بنظرة قاصرة مع ما عندهم من المعتقدات الفاسدة، فيجب الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، فالإيمان بأدلّة العلوّ والإلحاد في أدلّة المعيّة ممنوع شرعا وعقلا، والإيمان بأدلّة المعيّة والإلحاد في أدلّة العلوّ كذلك، بل يجب علينا الإيمان بأدلّة العلوّ وما تضمّنته من المعاني العظيمة وبأدلّة المعيّة وما تضمّنته من المعاني العظيمة ولكن ينبغي لطالب العلم وغيره من المسلمين أن يكون متجرّدًا عن التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل ثمّ تأمل كلام العرب الذي نزل به القرآن ماذا تعني كلمة (على) وماذا تعني كلمة (مع) فكلمة (على) تدلّ على العلوّ والظهور: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[الزخرف:١٣]، وماذا يعني كلمة (فوق) في قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وكلمة (مع) تدل على مطلق مصاحبة.

فهل يمكن للمسلم أن يؤمن بأدلّة العلوّ وأدلّة المعيّة في آنٍ واحد؟ الجواب، نعم؟ لأنّ أدلّة العلوّ في القرآن والسنّة وأدلّة المعيّة في القرآن والسنّة وما كان فيهما يجب اعتقاده وصيانته عن التحريف والتمثيل والتعطيل والتكييف، ولا يمكن أن يناقض أو يختلف قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢].

والمبتدعة زعموا أن كلمة (مع) تقتضي الحلول والاتحاد والاختلاط، فيُقال أين وجدتم هذا؟ بآية أم بأثر أم بإجماع تقولون؟ فسينقطعون عندئذ.

قوله: (يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]) في هذا بيان أنّ معيّة الله لخلقه تكون بعلمه وإحاطته وقهره وسلطانه وغير ذلك من خصائص ربوبيّته فهو سبحانه على عرشه وهو مع عباده يعلم ما هم عاملون كما جمع الله بينهما والقرآن لا يُناقض بعضه بعضًا وإنّما يُوافقه لأنّه قال الله : ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وقال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢].

ففي هذه الآية التي ذكرها بيان أنّه معنا وأنّه على العرش والمعيّة فُسّرت في الآية بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]، فهي معيّة علم وإحاطة وبصر وإطّلاع وفي آية المجادلة أيضًا ما بيّن ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، فافتتح الله الآية بالعلم، وختمها بالعلم فدلّت على المقصود والحمد لله.

قوله: (وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرُ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ) فإذا كانت لاتوجبه اللغة، كما لم

يُوجبه الشرع، فمن أين لهم أنها توجب الحلول، والإتحاد، والإختلاط إلا مجرد الهوى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ) على ما تقدم من ذكر أدلة العلو، ثم إنّ المعية تفسر، بما هو أعم من معية العلم، والذي يُفسّر المعية بالعلم فقط تفسيره صواب من حيث أنه يردّ به على المعتزلة إلّا أنّ تفسير المعيّة العامة بما هو أعمّ من العلم أولى فتفسيرها بالعلم والإحاطة والسلطان والبصر، والقهر، وغير ذلك من خصائص الربوبية، وتُفسر المعيّة الخاصة بالحفظ والكلاءة والنصر والتأيد، ويدلّ على المعيّة العامّة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ويدلّ على المعيّة الخاصّة المقيّدة بشخص قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، وعلى المقيّدة بوصف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]، ونحوه.

قوله: (وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ـ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا ـ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: (فِي السَّمَاءِ) أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ) وحقيقة العلو أنه على عرشه استوى، وعلا، وارتفع، وحقيقة المعية أنه مع خلقه بعلمه، وإحاطته، وقهره، وسلطانه، وقهره، وغير ذلك من خصائص ربوبيته تعالى، على ما هو ظاهر القرآن، والسنة الصحيحة، بينما المبتدعة ظنوا أنّ حقيقة (معكم) الاتحاد والاختلاط، وهذا ليس بحقيقة اللفظ على ما تقدم، بل هو من الظنون الكاذبة الفاسدة المخالفة للكتاب، والسنة، والعقل الصحيح، والنقل الصريح. قال

تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[النجم:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾[يونس:٣٦].

فمن اعتقد أنّ السماء تُظلّه بمعنى أنها ظرفية له، أو تُقلّه بمعنى أنها تحمله فقد كفر لأنّه اعتقد أنّ الله في المخلوق والله منزّه عن الحلول والاتحاد بالمخلوقات، ومنزة عن الحاجة بل هو الغني الحميد سبحانه، وتعالى.

قوله: (وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ) أي أنّ معنى (في السماء) داخل السماء، هَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ، لأنه مخالف لظاهر القرآن، والسنة، وإجماع السلف الصالح، واعتقاده يؤدي إلى قول الاتحادية، والحلولية، والكفر والزندقة نسأل الله السلامة.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) والعرش أعظم من الكرسي بل قد جاء في الآثار أنّ الكرسي في العرش كحلقة في فلاة والله أعظم وأكبر وأجلّ، فكيف تُقلّه السماء أو تحتويه. والكرسي هو كالمرقاة للعرش وهو موضع قدمي الجبّار، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الجبّار فالعرش أكبر المخلوقات قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩]، فلو كان أكبر منه لأضافه لنفسه والنبيّ يقول: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»، من حديث جويرية عند مسلم (٢٦٢٧)، فلو كان أكبر من العرش لذكره.

قوله: (وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[فاطر:٤١]، فكيف تقلّه السماء أو تُظلّه وهو يمسك السماء أن تقع على الأرض، قال الله : ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾[الروم: ٢٥].

إثبات صفة القُرب لله عز وجل

قال :

فصل

وقد دخل في ذلك: الإيمانُ بأنه قريبٌ مِنْ خلقِهِ مجيبٌ، كما جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

أي ودخل في الإيمان بالله الإيمان بأنه قريب مجيب ويدل على ذلك ما ذكر مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود:٦١]، وفي الحديث «**أَقْرَبُ ما يكون الرَّبُّ من العبدجَوْف اللَّيْلِ الآخِرِ فإن استطعت أن تكون ممن يَذْكُرُ الله في تلك الساعة فَكُنْ فإن الصلاة مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ إلى طلوع الشمس**»، عن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ أخرجه النسائي (٥٧٢).وتُثبت لله صفة القرب على ظاهرها، وليس ظاهرها أنّ الله متّحد بمخلوقاته أو حال فيهم، لأنّه لو كان ظاهر القرآن لكان ظاهره الكفر، ويُستحال أن يكون ظاهر القرآن والسنّة الكفر، فالمراد بالقرب أنّ الله قريبٌ من عباده وهو على عرشه بائن من خلقه، لأنّ الله وصف نفسه بالقرب ووصفه نفسه بالعلوّ ولا تناقض ومن أسماء الله الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم، الأوّل والآخر دلّ على الإحاطة الزمانية والظاهر والباطن دلّ على الإحاطة المكانية، وقد قال النبيّ : «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ**

فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧١٣)، وفيه الحثُّ على الدعاء وفضله وعلى قُرب الله من عباده.

قال :

> وقال النبيُّ ﷺ: للصحابةِ لما رفعوا أصواتَهم بالذكرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».[1]

من حديث أبي موسى عند البخاري (٧٣٨٦) واللفظ له، مسلم (٢٧٠٤) وزاد قَوْلَهُ : «**إِنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**». والحديث على ظاهره من حيث إثبات القرب لله عز وجل مع ما هو متقرر من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل عليٌّ في دنوه، وقريب في علوه، فلا يلزم من ذلك حلولًا ولا اتحادًا ولا اختلاطًا.

أمّا قوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق:١٦]، فالمراد به قُرب الملائكة كما هو مبيّن، ولو قيل المراد به قرب الله تعالى فعلى المعنى المذكور.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠١):

وَهُوَ بِذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنْفُسُنَا مِنَّا فَكَيْفَ بِحَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُوعَمْرٍو الطلمنكي قَالَ: وَمَنْ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق:١٦] فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالدَّلِيلُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُ الْآيَةِ؛ فَقَالَ اللهُ

---

[1] تقدم تخريجه قريبًا.

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، لِأَنَّ اللهَ لَـمَّا كَانَ عَالِمًا بِوَسْوَسَتِهِ؛ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَحَبْلُ الْوَرِيدِ لَا يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ النَّفْسُ.

وَيَلْزَمُ الْمُلْحِدَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودُهُ مُخَالِطًا لِدَمِ الْإِنْسَانِ وَلَحْمِهِ وَأَنْ لَا يُجَرِّدَ الْإِنْسَانُ تَسْمِيَةَ الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَقُولَ: خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ لِأَنَّ مَعْبُودَهُ بِزَعْمِهِ دَاخِلُ حَبْلِ الْوَرِيدِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَخَارِجَهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ مُمْتَزِجٌ بِهِ غَيْرُ مُبَايِنٍ لَهُ.

قَالَ: وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ وَتَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَعَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ فِيمَنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة:٨٥] أَيْ بِالْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ إِذْ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى حِيلَةٍ وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْمَوْتَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١].

قُلْت: وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الثَّعْلَبِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق:١٦] وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة:٨٥] فَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْقَوْلَيْنِ: إِنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّهُ الْقُرْبُ بِالْعِلْمِ. وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَقْصُودُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ ذَاتَ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا قَرِيبَةٌ مِنْ وَرِيدِ الْعَبْدِوَمِنَ الْمَيِّتِ وَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُهُ وَحْدَهُ دُونَ قُرْبِ الْمَلَائِكَةِ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا فِي لَفْظِ الْمَعِيَّةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة:٨٥] أَيْ بِمَلَائِكَتِنَا فِي الْآيَتَيْنِ وَهَذَا بِخِلَافِ لَفْظِ الْمَعِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ

يَقُلْ: وَنَحْنُ مَعَهُ بَلْ جَعَلَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي مَعَ الْعِبَادِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا عَمِلُوا وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَلَا يُجْعَلُ لَفْظٌ مِثْلَ لَفْظٍ مَعَ تَفْرِيقِ الْقُرْآنِ بَيْنَهُمَا. اهـ

وقد ذهب بعض المبتدعة زاعمًا أن أهل السنة وقعوا في التأويل؛ حيث فسروا قول الله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق:١٦] بقرب الملائكة.

والجواب: أن تفسير القرب فيهما بقرب الملائكة ليس صرفًا للكلام عن ظاهره لمن تدبره.

فإن القرب مقيد فيها بما يدل على ذلك حيث قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٦-١٨] ففي قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾[ق:١٧] دليل على أن المراد به قرب الملكين ولو قيل المراد به قُرب الله سيكون المعنى ما تقدّم من أنّه قريب وهو في علوّه وهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه.

وبنحو هذا أجاب الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثلى .

ملخص الجمع بين أدلّة العلوِّ والقُرب والمعيّة:

قوله :

وما ذُكِرَ في الكتابِ والسنةِ مِنْ قُرْبِهِ ومعيتِهِ، لا يُنَافي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وفَوْقِيَّتِهِ، فإنه سبحانه؛ ليس كمثلِهِ شيءٌ في جميعِ نُعُوْتِهِ، وهو عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قريبٌ في عُلُوِّهِ.

وهذا الذي ذكره من أوجه الردّ على من زعم أنّ القول بالمعيّة والقرب يلزم منه الحلول والاتحاد فإذا كان ذلك يلزم في حقّ المخلوق فلا يلزم في حقّ الخالق لأنّ الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، لا في اسمائه ولا صفاته ولا أفعاله.

القول في القرآن

قال :

فصل

ومن الإيمانِ بِهِ وبكتبِهِ: الإيمانُ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدَأَ وإليه يعودُ.[(١)]

تقدّم الكلام على هذه المسألة وأنّ القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق أنزله تعالى منه وتكلّم به حقيقة، سمعه منه جبريل فبلّغه محمّد ومن زعم أنّ كلام الله مخلوق فقد زعم أنّ كلّ كلام حقّه وباطله كلام الله حتّى قال بعض من يعتقد هذا القول:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وكان أحدهم إذا سمع الكلب ينبح يقول (سبحانك يا أرحم الراحمين) لأنّه يعتقد أنّ صوت الكلب هو كلام الله ومن زعم أنّ كلام الله مخلوق جوّز للمخلوق أن يقول (إنّني أنا الله لا إله إلا أنا) ولكان فرعون لعنه الله محقا في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤].

---

(١) قوله: [وإليه يعود] صرح في الفتاوى (٣/ ١٧٤) بأن دليله ما رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) وغيره عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أن النبي قال: «يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشي الثَّوْبِ حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ» الحديث، وهو في الصحيحة للعلامة الألباني (٨٧)، و الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (٢٩٣)، وجاءت عدة آثار عن السلف في ذلك.

فالله تعالى متكلّم حقيقة بصوت وحرف يُسمع والأصل أنّهم يقال القرآن كلام الله كما نقول بصر الله وسمع الله وقدرة الله لكن لما زعمت الجهمية القول بخلق القرآن أجمع السلف رضوان الله عليهم على هذه الإضافة (القرآن كلام الله غير مخلوق).

القول في اللفظ

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي فقلت: إن قومًا يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة؟ قال: (هم جهمية، وهم شر ممن يقف). وقال: (هذا هو قول جهم) وعظم الأمر عنده في هذا، وقال: قال الله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، وقال رسول الله : «حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»، وقال : «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ» فمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي. قال: فقلت لأبي: إن الكرابيسي يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. فقال: (هذا كلام سوء رديء، وهو كلام الجهمية، كذب الكرابيسي، هتكه الله، الخبيث). وقال: (قد خلف هذا بشرًا المريسي). قال عبدالله: وكان أبي يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء، وأن يقال: لفظي به مخلوق أو غير مخلوق. أخرجه ابن بطة في الإبانة .

وأخرج أيضًا عنه قال: سألت أبي: ما تقول في رجل قال: التلاوة مخلوقة، وألفاظنا بالقرآن مخلوقة، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق؟ قال: هذا كافر، وهو فوق المبتدع، وهذا كلام الجهمية. قلت: ما ترى في مجانبته؟ وهل يسمى مبتدعا؟ فقال: (هذا يجانب، وهو فوق المبتدع، وهذا كلام الجهمية، ليس القرآن بمخلوق، قالت عائشة: تلا رسول الله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾[آل عمران:٧]، والقرآن ليس بمخلوق).

وأخرج عن المروذي: قلت لأبي عبدالله: إن رجلًا من أصحابنا زوج أخته من رجل، فإذا هو من هؤلاء اللفظية، يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وقد كتب

الحديث، فقال أبوعبدالله: (هذا شر من جهمي). قلت: فتفرق بينهما؟ قال: نعم، قلت: فإن أخاها يفرق بينهما؟ قال: (قد أحسن)، وقال: (أظهروا الجهمية، هذا كلام ينقض آخره أوله). قلت لأبي عبدالله: إن الكرابيسي يقول: من لم يقل: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر؟ قال: (بل هو الكافر). وقال: (مات بشر المريسي وخلفه حسين الكرابيسي) فكان أول من أظهر مسألة اللفظ هو حسين الكرابيسي ونشرها بين الناس، كما ترى وذلك سنة أربع وثلاثين ومئتين، ففي تاريخ بغداد (٨/ ٦٥) قال: جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال حسين الكرابيسي: كلام الله غير مخلوق، فقال له الرجل: فما تقول في لفظي بالقرآن، فقال له حسين: لفظك بالقرآن مخلوق، فمضى الرجل إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسينًا قال له: إن لفظه بالقرآن مخلوق؛ فأنكر ذلك، وقال: هي بدعة. فرجع الرجل إلى حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد بن حنبل لذلك، وقوله: هذا بدعة، فقال له حسين: تلفظك بالقرآن غير مخلوق؛ فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وأنه قال: تلفظك بالقرآن غير مخلوق. فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضًا، وقال: هذا أيضًا بدعة، فرجع الرجل إلى أبي علي حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد بن حنبل وقوله: هذا أيضًا بدعة، فقال حسين: أيش نعمل بهذا الصبي، إن قلنا مخلوق قال: بدعة، وإن قلنا: غير مخلوق، قال: بدعة، فبلغ ذلك أبا عبدالله، فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين، وكان ذلك سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك. اهـ

ومسألة اللفظ فيها إجمال ولهذا نهى السلف عن الخوض فيها، والمذهب الحق في إثبات كلام الله تعالى قد تقدم بيانه، وأن الله متكلم حقيقة بحرف وصوت متى شاء وكيف شاء. ولما وقعت المحنة التي مرت بها الأمة في زمن المأمون من القول بخلق القرآن، وأعز الله الدين وأهله وقمع الباطل وأهله، وصار الإمام أحمد علمًا لأهل السنة الجائين بعده، تلبس المبتدعة بألفاظ موهمة.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٢/ ٣٥٨):

وَصَارَتْ فُرُوعُ التَّجَهُّمِ تَجُولُ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ: وَلَا نَقُولُ مَخْلُوقٌ وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ بَلْ نَقِفُ وَبَاطِنُ أَكْثَرِهِمْ مُوَافِقٌ للمخلوقية وَلَكِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ.

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى قَالَتْ: نَقُولُ كَلَامُ اللهِ الَّذِي لَمْ يُنَزِّلْهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَمَّا الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَلَاهُ جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ وَالْمُؤْمِنُونَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ وَهَؤُلَاءِ هُمْ (اللَّفْظِيَّةُ). فَصَارَتِ الْأُمَّةُ تَفْزَعُ إِلَى إِمَامِهَا إِذْ ذَاكَ فَيَقُولُ لَهُمْ أَحْمَد: افْتَرَقَتِ الْجَهْمِيَّة عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ تَقُولُ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ وَفِرْقَةٌ تَقُولُ كَلَامُ اللهِ وَتَسْكُتُ وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: أَلْفَاظُنَا وَتِلَاوَتُنَا لِلْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ. فَإِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللهِ هُوَ قُرْآنٌ مَخْلُوقٌ لَمْ يَتَكَلَّمِ اللهُ بِهِ وَكَانَ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةٌ كَوْنِ أَفْعَالِنَا وَأَصْوَاتِنَا مَخْلُوقَةً وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْرَؤُهُ بِحَرَكَاتِنَا وَأَصْوَاتِنَا. وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ مَا عِنْدَنَا إِلَّا أَلْفَاظُنَا وَتِلَاوَتُنَا وَمَا فِي الْأَرْضِ قُرْآنٌ إِلَّا هَذَا. وَهَذَا مَخْلُوقٌ. فَقَابَلَهُمْ قَوْمٌ أَرَادُوا تَقْوِيمَ السُّنَّةِ فَوَقَعُوا فِي الْبِدْعَةِ. وَرَدُّوا بَاطِلًا بِبَاطِلٍ وَقَابَلُوا الْفَاسِدَ بِالْفَاسِدِ فَقَالُوا: تِلَاوَتُنَا لِلْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَأَلْفَاظُنَا بِهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ. وَالْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَمْ

يُفَرِّقُوا بَيْنَ الِاسْمِ الْمُطْلَقِ وَالِاسْمِ الْمُقَيَّدِ فِي الدَّلَالَةِ وَبَيْنَ حَالِ الْمُسَمَّى إذَا كَانَ مُجَرَّدًا وَحَالِهِ إذَا كَانَ مَقْرُونًا مُقَيَّدًا. فَأَنْكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَد أَيْضًا عَلَى مَنْ قَالَ: إنَّ تِلَاوَةَ الْعِبَادِ وَقِرَاءَتَهُمْ وَأَلْفَاظَهُمْ وَأَصْوَاتَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَأَمَرَ بِهِجْرَانِ هَؤُلَاءِ كَمَا جَهَّمَ الْأَوَّلِينَ وَبَدَّعَهُمْ. اهـ

وكما ترى أن الإمام أحمد قد أنكر على من قال لفظي بالقرآن مخلوق، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق؛ والسبب في ذلك الإجمال الحاصل في كلمة (اللفظ)، والقاعدة في الألفاظ المجملة قد بين السلف كيفية التعامل معها.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (٦٥): وما تنازع فيه المتأخرون نفيا واثباتا فليس على أحد بل ولا له: أن يوافق احد على اثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده فإن أراد حقا قبل وإن أراد باطلا رد وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى. اهـ

وقال في منهاج السنة (٢/ ٢١٧): وأما الألفاظ المجملة فالكلام فيها بالنفي والإثبات دون الاستفصال يوقع في الجهل والضلال والفتن والخبال والقيل والقال وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء. اهـ

قال ابن القيم في النونية مع شرح ابن عيسى (١/ ٣٢٥):

فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْـ ... إِطْـلَاقُ وَالْإِجْمَـالُ دُونَ بَيَـانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ ... أَذْهَـانَ وَالْآرَاءَ كُـلَّ زَمَـانِ

فهذا هو السبب الأول في نهي السلف عن الخوض في هذه المسألة وهو الإجمال في اللفظ أضف إلى ذلك النزاع في مسألة الإيمان هل هو مخلوق أو غير مخلوق.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٢/ ٤٣١): وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله تعالى من القرآن والإيمان الذي هو من صفاته وبين أفعال العباد وصفاتهم؛ فلعسر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي. اهـ

وقال شيخ الإسلام في بيان معنى اللفظ بالإجمال فيه (٢/ ٣٠٦-٣٠٧): واللفظ في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظا وكذلك التلاوة، والقراءة مصدران؛ لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو وهو المراد باللفظ في إطلاقهم فإذا قيل: لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: لفظي غير مخلوق أشعر أن شيئًا مما يضاف إليه غير مخلوق وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبدوقد يراد بها مجموعها؛ فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو وإذا أريد بها حركة العبدفالتلاوة ليست هي المتلو وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره. اهـ

وأما بالنسبة للإمام البخاري فقد قال الإمام ابن القيم كما في مختصر الصواعق مدافعًا عنه(٤/ ١٣٥٠) وما بعده: فالبخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه، وكلامه فيها أوضح وأمتن من كلام

أبي عبدالله، فإن الإمام أحمد وأرضاه سدَّ الذريعة حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفيًا وإثباتًا على اللفظ، فقالت طائفة: أراد سد باب الكلام في ذلك.

وقالت طائفة منهم ابن قتيبة: إنما كره أحمد ذلك ومُنع منه؛ لأن اللفظ في اللغة الرمي والإسقاط، يقال: لفظ الطعام من فيه ولفظ الشيء من يده إذا رمى به، فكره أحمد إطلاق ذلك على القرآن، وقالت طائفة: إنما مراد أحمد أن اللفظ غير الملفوظ، فلذلك قال: إن من زعم أن لفظه بالقرآن مخلوق فهو جهمي.

وأما منعه أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق، فإنما منع ذلك؛ لأنه عدول عن نفس قول السلف، فإنهم قالوا: القرآن غير مخلوق، والقرآن اسم يتناول اللفظ والمعني، فإذا خُص اللفظ بكونه غير مخلوق كان ذلك زيادة في الكلام ونقصًا من المعنى، فإن القرآن كله غير مخلوق، فلا وجه لتخصيص لكن هذا التخصيص ممنوع منه، وكل هذا عدول عمَّا أراده الإمام أحمد .

وهذا المنع في النفي والإثبات من كلام علمه باللغة والسنة وتحقيقه لهذا الباب، فإنه امتحن به مالم يمتحن به غيره، وصار كلامه قدوة وإمامًا لحزب رسول الله إلى يوم القيامة، والذي قصده أحمد أن اللفظ يراد به أمران: أحدهما: الملفوظ نفسه، وهو غير مقدور للعبدولا فعلَ له.

والثاني: والتلفظ به والأداء له وهو فعل العبد، فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول وهو خطأ، وإطلاق نفي الخلق عليه قد يوهم المعني الثاني، وهو خطأ، فمُنع للإطلاقين.

وأبوعبدالله البخاري ميَّز وفصل وأشبع الكلام في ذلك، وفرق بين ما قام بالرب، وبين ما قام بالعبد، وأوقع المخلوق على تلفظ العباد وأصواتهم

وحركاتهم وأكسابهم، ونفي اسم الخلق عن الملفوظ وهو القرآن الذي سمعه جبريل من الله تعالى وسمعه محمدٍ من جبريل، وقد شفي في هذه المسألة في كتاب خلق أفعال العباد وأتى فيها من الفرقان والبيان بما يزيل الشبهة ويوضح الحق ويبين محله من الإمامة والدين، ورد على الطائفتين أحسن رد.

قال أبوعبدالله البخاري : فأما ما احتج الفريقان لمذهب أحمد ويدَّعيه كلٌ لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم ورُبما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق، وما سواه فهو مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتفتيش عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء به العلم وبينه النبي . اهـ

وقوله: (مُنَزَّلٌ مِنْهُ بَدَأَ) تقدمت الأدلّة على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢]، و(من) للابتداء.

وقوله: (وَإِلَيْهِ يَعُودُ) في حديث حذيفة بن اليمان عند ابن ماجه (٤٠٤٩) قال : «**يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ**»، ويكون هذا الرفع حين يحصل من أهل الإسلام البعد عن هذا الكتاب قبل قيام الساعة.

قال :

وأن اللهَ تعالى تَكَلَّمَ به حقيقةً.

أي أن حروفه، وكلامته، ومعانيه من الله تعالى سمعه منه جبريل حقيقة، وبلغه محمد ، وهذا يردّ قول المبتدعة الذين يقولون إنّ كلام الله تكلّم به غيره أو أنّ كلام الله نفساني وتكلّم جبريل بما في نفس الله أو تكلّم النبيّ بما في نفس الله وهذا من أقبح القول لأن الله لا يعلم ما في نفسه إلّا هو، قال الله : ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة:١١٦]، وفي سنن أبي داود (٤٧٣٨): عن عبدالله ابن مسعود قال: قال رسول الله «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الحَقَّ، فَيَقُولُونَ: الحَقَّ، الحَقَّ». وعلقه البخاري.

قال :

وأن هذا القرآنَ الذي أنزلَهُ اللهُ على محمدٍ ﷺ، هو كلامُ اللهِ حقيقةً لا كلامُ غيرِه.

على ما تقدم، ولهذا لو حلفت بالقرآن لزمك أحكام اليمين المكفّرة ولو كان مخلوقًا كالشجر والحجر، لكان من حلف به أشرك، ولما جاز الاستعاذة به وفي قوله : «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، من حديث خولة بنت حكيم عند مسلم (٢٧٠٨) وجاء بنحوه عن أبي هريرة ، إذ لو جاز

الاستعاذة به وهو مخلوق لجاز الاستعاذة بالصنم والحجر والقبر ولم يبق في الإنكار على المشركين معنى ولكن النبيّ استعاذة بصفة الله وهي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر.

ولو كان القرآن كلام البشر لما كفّر الله من زعم أنّه قول البشر لكن لمّا قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٥]، أنزل الله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:١٨-٢٦].

قال الطحاوي (فلمّا توعّده الله بسقر علمنا أنّه ليس بقول البشر).

وقد تحدّاهم الله أن يأتوا بمثله قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨]، وتحدّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[هود:١٣] وتحدّاهم أن يأتوا بسورة فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يونس:٣٨]، فعجزوا وهم أفصح العرب لسانًا ولهذا نزل القرآن بلغتهم لفصاحتهم وبلاغتهم ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثل قول الله : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]، كلام عظيم، كلام جميل، معجز يجمع الله في الآية بين الخبر والأمر والنهي والوعد والوعيد وغير ذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧]، انظر إلى حياة موسى منذ خروجه من بطنه أمّه إلى أن أُرسل في آية يُخبر الله بها، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، كلّما قرأه الإنسان زاده انشراحًا في صدره وفهمًا له.

قال :

ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلامِ اللهِ، أو عبارةٌ عنه.

قال ابن القيم :

زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً   قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ
هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ مَخْلُوقٌ كَمَا   قَالَ الْوَلِيدُ وَبَعْدَهُ الْفِئَتَانِ

قال الهراس :

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ المَوْجُودَ بَيْنَنَا حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْكُلَّابِيَّةُ، أَوْ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْهُ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْأَشْعَرِيَّةُ؛ فَقَدْ قَالَ بِنِصْفِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ؛ حَيْثُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي، فَجَعَلَ الْأَلْفَاظَ مَخْلُوقَةً، وَالمَعَانِيَ عِبَارَةً عَنِ الصِّفَةِ الْقَدِيمَةِ؛ كَمَا أَنَّهُ ضَاهَى النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ بِحُلُولِ اللَّاهُوتِ وَهُوَ الْكَلِمَةُ فِي النَّاسُوتِ وَهُوَ جَسَدُ عِيسَى ؛ إِذْ قَالَ بِحُلُولِ المَعَانِي الَّتِي هِيَ الصِّفَةُ الْقَدِيمَةُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ المَخْلُوقَةِ، فَجَعَلَ الْأَلْفَاظَ نَاسُوتًا لَهَا. انتهى

قال :

بَلْ إذا قَرَأَهُ الناسُ، أو كَتَبُوهُ في المَصَاحِفِ، لم يَخْرُجْ بِذلك عَنْ أَنْ يكونَ كلامَ اللهِ تعالى حقيقةً، فإن الكلامَ إنما يضافُ حقيقةً، إلى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا، وهو كلامُ اللهِ حروفُهُ ومعانيه، ليس كلامُ اللهِ الحروفَ دُوْنَ المعانيْ، ولا المعانيَ دونَ الحروفِ.

وفي كتاب العقل والنقل (٢/ ٦٠) نقلًا عن أبي حامد: وكان عبدالله بن سعيد بن كلاب يقول: هي حكاية عن الأمر فخالفه أبوالحسن الأشعري، بأن الحكاية تحتاج أن تكون مثل المحكي، ولكن هو عبارة عن الأمر القائم بالنفس. انتهى

وقال ابن القيم :

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ حِكَايَةٌ ... عَنْـهُ وَقِيـلَ عِبَـارَةٌ لِبَيَـانِ
إِنْ كَانَ مَا يَحْكِي كَمَحْكِيٍّ وَهَـ ... ذَا اللَّفْـظُ وَالمَعْنَـى فَمُخْتَلِفَـانِ
وَلِذَا يُقَالُ حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ ... إِذْ كَـانَ أَوَّلُـهُ نَظِـيرَ الثَّـانِي
فَلِـذَاكَ قَـالُوا لَا نَقُـولُ حِكَايَـةً ... وَنَقُـولُ ذَاكَ عِبَـارَةُ الْفُرْقَـانِ
وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ... ظِيًّـا وَمَـا فِيـهِ كَبِـيرُ مَعَـانِي

إثبات الرؤية

قال :

فصل

وقد دخل أيضا فيما ذكرناه من الإيمانِ به، وبكتبِهِ،[١] وبرسلِهِ: الإيمانُ بأنَّ المؤمنينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيامَةِ [عيَانًا بِأَبْصَارِهِم]،[٢] كما يَرَوْنَ الشمسَ صَحْوًا ليس دُوْنَهَا[٣] سَحَابٌ، وكما يَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ، لا يُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سبحانه وهم في عَرَصَاتِ القيامةِ،[٤] ثم يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخولِ الجنةِ كما يشاءُ اللهُ .[٥]

قد تقدم الكلام عليها بما يغني عن الإعادة لكن كرر لكثرة المخالفين لأهل السنة في هذا الباب، واعلم أن الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة هو

(١) زاد في المطبوع: [وبملائكته].

(٢) هذه الجملة أخرجها البخاري (٧٤٣٥) عن جرير، تفرد بها أبو شهاب الحناط، وليس أهلًا للتفرد؛ قال الذهبي في الميزان : صدوق في حفظه شيء. اهـ وقال الحافظ في التقريب : صدوق يهم. اهـ وقال الطبراني في الأوسط (٩/٢٧) (٨٠٥٣) بعد أن ساق الحديث بسنده: لم يقل أحد ممن روى الحديث عن إسماعيل بن أبي خالد: «**ترون ربكم عيانًا**» إلا أبو شهاب، تفرد به خلف. اهـ وقد قال شيخنا يحيى الحجوري بشذوذها، أما العلامة الألباني فقد حكم بشذوذها في ظلال الجنة (٤٦١)، ورجع عنه في السلسلة الصحيحة (٣٠٥٦)، والصواب شذوذها.

(٣) جاء في الصحيحين خ(٨٠٦) م(١٨٢) عن أبي هريرة، وفي المطبوع: [بها].

(٤) متفق عليه: خ(٨٠٦) م(١٨٢) عن أبي هريرة مقرونًا بأبي سعيد، وهو حديث الشفاعة الطويل.

(٥) رواه مسلم (١٨١) من حديث صهيب.

معتقد أهل السنة والجماعة المؤيد بالأدلة الجلية والبراهين النقلية والشواهد العقلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في لاميته :

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيْرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ

وقال أبوبكر بن أبي داود في حائيته :

وَقُلْ يَتَجَلَّى اللهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً كَمَا الْبَدْرِ لَا يَخْفَى وَرَبُّكَ أَوْضَحُ

وَلَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَيْسَ لَهُ شِبْهٌ تَعَالَى الْمُسَبَّحُ

وَقَدْ يُنْكِرُ الْجَهْمِيُّ هَذَا وَعِنْدَنَا بِمِصْدَاقِ مَا قُلْنَا حَدِيثٌ مُصَرِّحُ

رَوَاهُ جَرِيرٌ عَنْ مَقَالِ مُحَمَّدٍ فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ فِي ذَاكَ تَنْجَحُ

قال الطحاوي (١٨٨) مع الشرح:

والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكلما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ؛ فهو كما قال، ومعناه ما أراد. اهـ

وقال الدارمي ص(١٠٤): قَدْ صَحَّتِ الآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ، فَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَكِتَابُ الله النَّاطِقِ بِهِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الكِتَابُ وَقَوْلُ الرَّسُولِ وَإِجْمَاعُ الأُمَّةِ لَمْ يَبْقَ لِمُتَأَوِّلٍ عِنْدَهَا تَأَوُّلٌ، إِلَّا لِمُكَابِرٍ أَوْ جَاحِدٍ. اهـ

وقال عبدالغني المقدسي في الاقتصاد في الاعتقاد ص(١٢٥): وأجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد والصدق أن الله تعالى يُرى في الآخرة، كما جاء في كتابه، وصح عن رسوله . اهـ

وأدلة الرؤية متواترة متكاثرة حتى قيل:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

الإيمان باليوم الآخر

قال :

فَصْلٌ

وَمنَ الإِيمانِ باليومِ الآخِرِ: الإيمانُ بكُلِّ ما أَخْبَرَ بِهِ النبيُّ ﷺ، مما يكونُ بعدَ الموتِ، فيُؤمِنون بفتنةِ القبرِ، وبِعذابِ القبرِ وبنعيمِهِ.

فأما الفتنةُ فإن الناسَ يُفْتَنُونَ في قبورِهم، فيُقالُ للرجلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومَنْ نبيُّكَ؟ فيثبتُ اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، فيقولُ المؤمنُ: اللهُ رَبي، والإسلامُ ديني، ومحمدٌ ﷺ نبيي. وأما المرتابُ فيقول: [هَاهْ هَاهْ]؛[1] لا أَدْرِي، سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُهُ، فيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سَمِعَهَا الإنسانُ لَصُعِقَ.[2] ثُمَّ بعدَ هذهِ الفتنةِ: إمَّا نعيمٌ، وإمَّا عذابٌ.

---

(١) وقع في (ظ) و(م): [آه آه].

(٢) متفق عليه: خ(١٣٣٨) م(٢٨٧٠) عن أنس، ورواه أبو داود (٤٧٥٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٨٠) عن البراء وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (١٤١)، لكن في حديثهما استثناء الثقلين، أما التي أشار إليها المصنف فليست في عذاب القبر، وإنما فيها تقول الجنازة حين تُحمل على الأعناق، كذا رواه البخاري (١٣٨٠) عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي؛ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟! يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ»، ولم أر أحدًا نبه على هذا فلله الحمد.

وبداية الإيمان باليوم الآخر الموت ففي حديث عثمان بن عفّان عند الترمذي (٢٣٠٨) وابن ماجه (٤٢٦٧)، قال النبيّ : «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَمَنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»، فقوله الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه أمور كثيرة من أمور الغيب مثل: الإيمان بملك الموت، الإيمان بالقبر وبما فيه من النعيم والعذاب والضمّة والفتنة، والإيمان بأنّ الإنسان يبلى إلّا عجب الذنب والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والصراط والميزان والحوض وتطاير الصحف ورؤية الله ومسائل الإيمان بالشفاعة، وسُمّي باليوم الآخر لأنّه ليس بعده يوم وهو يوم واحد للإنسان وإن قال قائل أنتم تقولون القبر أوّل منازل الآخرة وما زالت الأيّام والليالي تتعاقب يقال لهم ليس للميّت بعد ذلك تفريق بين الليل والنهار وإنّما هو امتداد شيء واحد إلّا ما كان من موتة خفيفة ما بين النفختين على ما ذكر قتادة ويبقى الناس بعد التمييز بين أهل الجنة، وأهل النار إمّا في نعيم خالد وإمّا في عذابٍ خالد، ومن أعظم الأسباب المعينة على العمل الصالح استحضار الإخلاص لله وأيضًا الرغبة في ذلك اليوم ولهذا قال الله : ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ**﴾[الأحزاب:٢١]، والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستّة قال الله : ﴿**لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾[البقرة:١٧٧]، وقال : ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا**﴾[النساء:١٣٦]، والنبيّ قال لمّا سُئل عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» من حديث عمر عند مسلم (٨).

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عند البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩)، قال الرسول : «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ**». وهو يتضمّنه، وهذا الركن من الأركان التي اتفقت عليه الرسل وأوّل ما نزل من القرآن كانت آيات فيها ذكرُ الجنّة والنار والقيامة لأنّ الناس كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله فكانوا لا يُبالون ماذا صنعوا وماذا فعلوا لأنّهم يعتقدون أنّهم سيموتون ويكونون ترابًا، فعن ابن عباس، أن العاصي بن وائل أخذ عظما من البطحاء ففتّه بيده، ثم قال لرسول الله : أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله : «**نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ يُحْيِيك، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ**». قال: ونزلت الآيات من آخر (يس).أخرجه ابن أبي حاتم، وهو قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس:٧٨-٧٩]، في كثير من الآيات يُقرّر الله البعث ومسائله وكان من أبلغ التقرير ما في آخر سورة ياسين حيث ضرب الله لهم المثل بتلك الشجرة الخضراء التي يخرج منها النار فالله لا يُعجزه شيء في السماوات ولا الأرض وممّا يستدلّ به العلماء وجاءت حجّيته في القرآن أنّ الإيجاد من العدم أشدّ من الإعادة وإذ كان الله لم يُعجزه إيجادهم من العدم فمن باب أولى أن لا تُعجزه الإعادة وفي سورة القيامة قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة: ٤٠]، وكثير من الملاحدة لا يؤمنون باليوم الآخر مثل البوذيين والهندوس وإنّما يعتقدون أنّ الروح الشريرة تخرج في الشرّير وهذا هو عذابها والروح الطيّبة تخرج إلى شيء طيّب فيقولون بتناسخ الأرواح.

الكلام في القبر وما فيه

وتضمّنت هذه الفقرة الإشارة إلى القبر وما فيه من النعيم والعذاب وقبل ذلك ما فيه من الفتنة والضمّة، أمّا الفتنة فيدلّ عليها قوله : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِى ٱلۡأَخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]، فقال النبيّ : «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»، من حديث البراء بن عازب عند مسلم (٢٨٧١) واللفظ له، والبخاري (١٣٦٩).

والفتنة هي السؤال قالت عائشة فيما ترويه عن النبيّ : «فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ: فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ» مسند أحمد (٢٥٠٨٩)، وبهذا استدلّ العلماء على أنّ الأنبياء لا يُفتنون في قبورهم وذلك لأنّ الناس يُسألون عن أنبيائهم ولا يُسأل الأنبياء فقول النبيّ : «فبي تُفتنون»، أيّ يقال: «من نبيّك؟»، كما في بعض الروايات وفي بعضها: «مَا عِلمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُوقِنُ لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا فَيُقَالُ نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ» من حديث أسماء عند البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

وهذا يدلّ على أنّ التقليد ليس بنافع ويسلم من هذه الفتنة الصدّيقون والشهداء والمرابطون، أمّا الصدّيقون فلم نجد دليلًا على إخراجهم منها لكنّهم أفضل من الشهداء بالإجماع، قال الله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ

رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩]، وأمّا الشهداء فقد صحّ عند النسائي (٢٠٥٢)، أنّ النبيّ سُئل عن الشهداء هل يُفتن في قبره؟ فقال : «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً». وأمّا المرابط فعن فضالة بن عُبيد عند أبي داود (٢٥٠٠)، قال الرسول : «كُلُّ المَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا المُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ»، فهؤلاء الأصناف السالمون الناجون من الفتنة.

وفي القبر ضمّةٌ وهي نائلة كلّ أحد ولم يستثن بعضهم حتى الأنبياء والصحيح أنّ الأنبياء يسلمُون منها؛ لأنّ النبيّ قال: «لِلْقَبْرِ ضَغْطَةٌ، لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» من حديث عائشة أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٣٢٨)، وابن حبّان في صحيحه (٣١١٢) وغيرهما، وقال النبيّ : «هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ» من حديث ابن عمر عند النسائي (٢٠٥٤). فلو أراد النبيّ الأنبياء لقال: (لنجوت منها أنا)، ولكن لمّا ذكر سعد بن معاذ دلّ على أنّ النبيّ أراد غير الأنبياء وإلى هذا القول ذهب الحكيم الترمذي ولم أر غيره ذكر هذا القول والحكيم الترمذي فيه ما فيه من الكلام لكن هذا القول الذي لا يصلح أن نذكر غيره، وكثير من العلماء يقولون ضمّة المؤمن في القبر كضمّة الأمّ الحنون، وهذا غير صحيح؛ لأنّ الحديث فيه: «ثم فرج عنه»، والتفريج يقع بعد شدّة، وهي ضمّة تتخالف فيها الأضلاع، نسأل الله السلامة، إلّا أنّ المؤمن يُفرج عنه بعدها والكافر يظلّ على ما هو فيه، على ما يأتي في حديث البراء.

ويدخل في الإيمان باليوم الأخر الإيمان بما في القبر من النعيم والعذاب وقد دلّ على عذاب القبر ونعيمه الكتاب والسنّة والإجماع، أمّا الكتاب فقوله : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[التكاثر:١-٢]، قد يقول قائل (حتى زرتم المقابر بأجسادكم وذهبتم تنظرون إلى القبور)، يُقال هذا المعنى ضعيف، بل المعنى المراد (حتى زرتم المقابر) أي دخلتم فيها أمواتًا، ويدلّ على ذلك أَنَّ النَّبِيَّ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: «**لاَ بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» فَقَالَ لَهُ: «**لاَ بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ، أَوْ تَثُورُ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**فَنَعَمْ إِذَنْ**» من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ عند البخاري (٣٦١٦) وغيره.

وقول الله : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، والعجب ممّن يتجرّأ على إنكار عذاب القبر مع دلالة هذه الآية ووضوح الاستدلال بها، فدلّت على عذاب قبل الساعة وعلى عذاب بعد الساعة، وقول الله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «**إِنَّ المَيِّتَ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلاَةُ عِنْدَ رَأْسِهُ، وَكَانَ الصَّوْمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلاَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلاَةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ**

مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ، وَتُمَثَّلُ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ فَيُقَالُ لَهُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَا تَشْهَدُ بِهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي عَنْهُ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي. فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ وَمَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدًا، أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُاللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ، لَوْ عَصَيْتَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ الجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا» وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم:٢٧] قَالَ: وَقَالَ أَبُوالحَكَمِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَيُقَالُ لَهُ: «أَرْقِدْهُ رَقْدَةَ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَعَزُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ». ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أُتِيَ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، وَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ خَائِفًا مَرْعُوبًا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَجُلٍ؟ فَيَقُولُونَ: الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ. قَالَ: فَلَا يَهْتَدِي لَهُ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا فَقُلْتُ كَمَا قَالُوا، فَيَقُولُونَ: عَلَى

ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ الجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ لَوْ كُنْتَ أَطَعْتَهُ فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وَثُبُورًا، قَالَ: ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ» قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤]. أخرجه الحاكم وهو حديث حسن.

واستدلّ بعض العلماء بقول الله : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة:٢١]، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام:٩٣]، وبما استدلّ به النبيّ : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]، قال: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ» متفق عليه عن البراء بن عازب .

ومن الأدلّة الصريحة ما ذكره الله في آخر سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة:٨٦-٩٦]، حيث ذكر الله هذه الآيات بعد سياقة خروج الروح من الجسد في آيات غير هذه ذكرناها في كتاب عذاب القبر ونعيمه .

وأمّا الأحاديث فهي متواترة، ومنها قوله : «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**» من حديث أبي هريرة عند مسلم (٥٨٨)، (٥٩٠) وعن ابن عباس .

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ ... فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**» قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ. أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

وفي مسلم (٥٨٤) عن عائشة قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ شَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ وَقَالَ: «**إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ**» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟**» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وفي حديث عائشة عند البخاري (١٣٧٢)، ومسلم، قال النبيّ : «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ».

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ، يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، بَدَأَ فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَرَأَ، فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضًا ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلَّا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ، وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ، حَتَّى انْتَهَيْنَا، وَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ، فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ، وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ** - وَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: لِمَوْتِ بَشَرٍ - **فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ**

حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ». أخرجه مسلم(٩٠٤).

ويدلّ عليه حديث سمرة بن جندب عند البخاري (١٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٢٧٥)، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ. فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: «إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ» - قَالَ يَزِيدُ، وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ: عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - «وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ

كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالاَ: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذْبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَالصِّبْيَانُ، حَوْلَهُ، فَأَوْلاَدُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ».

وفي حديث أبي أمامة عند الحاكم (٢٨٣٧)، قال : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، إِذْ أَتَانِي رَجُلاَنِ، فَأَخَذَا بِضَبْعِي، فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعْرًا، فَقَالاَ لِي: اصْعَدْ. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أُطِيقُ. فَقَالاَ: إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ، فَصَعِدْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي سَوَاءِ الجَبَلِ، إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا هُوَ عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ

انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَةً أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقَا بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، وَأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الْحَيَّاتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذَرَارِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَشْرَبُونَ مِنْ خَمْرٍ لَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ آخَرُ، فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَنْتَظِرُونَكَ».

وقال النبيّ : «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ» رواه أحمد (١٢٨٥٦) من حديث أنس .

وقال النبيّ : «لَـمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَـهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» رواه أبو داود (٤٨٧٨) من حديث أنس .

ومن أوسع الأدلّة في الباب حديث البراء قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ

رَأْسَهُ، فقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»، قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»، قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ

الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي»، قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَالْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»، قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[الأعراف:٤٠]، «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ

الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه (١٢٠٥٩)، وعبدالرزّاق (٣٧٣٧)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحمد لله.

ومن شبه منكري عذاب القبر قولهم: أخذنا ميّتا ووضعناه في القبر ووضعنا على صدره زئبقًا، وفي اليوم الثاني حفرنا فوجدنا الزئبق كما هو، وأنتم تزعمون أنّ الملائكة يُجلسون الميّت ويضربونه ويُضمّ وغير ذلك، فلو حصل هذا لسال الزئبق؟!

هؤلاء أصحاب عقول فاسدة وإلّا فحياة البرزخ ثابتة قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، فنحن يجب علينا أن نؤمن بالبرزخ وما فيه بعيدا عن هذه الشبه، ثم لو أن رجلين على فراش واحد ثم جاء أحدهما رؤيا محزنة، رؤيا عذاب والآخر جاءته رؤيا نعيم، فهذا يُنعّم في نومه ويُعذّب فيه، وقد يُسمع بعض عذاب القبر فقد سمع النبيّ ﷺ بعض الأصوات وقال: **«إِنَّ يَهُودَ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهِمْ»**، والذي يريد أن يجعل الأمر إلى عقله سيتعب، ويُتعب، وسيقع في الزندقة والإلحاد، ولو أردت أن تستجري مع الشيطان سيوسوس لك في كلّ شيء في الله، وفي رسله، وفي كتبه.

والعذاب أو النعيم في القبر يقع على الروح والجسد، قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٠١): وقد أخذ ابن جرير وجماعة من الكرامية بهذه القصة: أن العذاب في القبر يقع على البدن فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكًا بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم.

وذهب ابن هبيرة، وابن حزم إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، من غير عود إلى الجسد.

وذهب الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه، كما ثبت في الحديث ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص.

والحامل للقائلين أن السؤال يقع على الروح فقط: أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسائلة، لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب.

وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وألمًا لا يدركه جليسه، وإنما أتى اللفظ على ما قبله، والظاهر أن الله صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك، وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمر الملكوت، إلا من شاء الله، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور. اهـ

ونقل ابن القيم في الروح (٩٥) وكما هو في مجموع الفتاوي (٤/ ٢٦٢) عن شيخ الإسلام قوله: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما مجتمعين في هذه الحالة.

ثم ذكر أقوال طوائف ممن يثبتون عذاب القبر، ومذاهبهم فقال: وهؤلاء لهم في عذاب القبر **ثلاثة أقوال**:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط.

ثم قال : والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة، ثم قال: فجميع هذه الطوائف في أمر البرزخ ضُلَّال، إلا أنهم خير من الفلاسفة، فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى، فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقي بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، ويحصل لها النعيم أو العذاب. اهـ بتصرف

وقد ذكر ابن القيّم في كتاب الروح أنّ للروح مع الجسد **خمسة تعلّقات:**

- **الأوّل:** تعلّق في بطن الأمّ.
- **الثـاني:** تعلّق باليقظة في الدنيا.
- **الثالث:** تعلّق في المنام.
- **الرابـع:** تعلّق في القبر.
- **الخامس:** تعلّق يوم القيامة وهو أكمل التعلّقات، إذ النعيم أو العذاب واقع على الروح والجسد بصورة متساوية بينما في الدنيا الألم أو اللذّة يقع على الجسد والروح تبعًا له، وفي القبر وفي النوم اللذّة أو العذاب تقع على الروح والجسد تابع لها، أمّا في القيامة فالعذاب أو النعيم عليهما جميعًا؛ ولهذا كان أكمل التعلّقات.

والحياة البرزخيّة حياة حقيقية لها مميّزاتها ولها خصائصها فنحن نؤمن أنّ من مات ناله ما يستحقّه من النعيم أو العذاب قُبر أو لم يُقبر، كان في بطون السباع أو في بطون الأسماك أو في أيّ مكان كان، قال الله : ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، وتشمل الفتنة الأطفال حيث يخلق الله لهم إدراكًا يستطيعون الإجابة به، وقد قرر هذا شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم، وذهب ابن عبدالبرّ إلى أنّ الفتنة على أهل الإسلام ولا تشمل غيرهم والصحيح أنّها عامّة شاملة والأحاديث التي قالها النبيّ مثل: «فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ»، كونه يُخاطب أمّته وإلّا فهي عامّة، وممّا يجب الإيمان به أنّ الملكين اللذان يسألان المقبور في قبره هما منكر ونكير، صحّت التسمية عن النبيّ ، فعند الترمذي (١٠٧١) من حديث أبي هريرة ، قال : «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

قال :

إلى يوم القيامةِ الكبرى،[(١)] فتُعَادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ.

أي أن الحياة البرزخية نهايتها بقيام الساعة وهو البعث، والنشور، قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، وهو القيام في النفخة الأخرى قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨]، على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

(١) يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].

القيامة الكبرى وما فيها

قال :

فتقومُ القيامةُ التي أخبر اللهُ تعالى بها في كتابِهِ، وعلى لسانِ رسولِهِ ﷺ، وأَجْمَعَ عليها المسلمونَ، فيقومُ الناسُ مِنْ قبورِهِمْ لِربِّ العالمينَ، حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا.(١) وتَدْنُو مِنْهُمُ الشمسُ، ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ.(٢)

وتُنْصَبُ الموازينُ، فتُوزَنُ فيها أعمالُ العبادِ،(٣) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

وتُنْشَرُ الدَّوَاوِيْنُ، وهي: صَحَائِفُ الأعمالِ، فآخذٌ كتابَهُ بيمينِهِ، وآخذٌ كتابَهُ بشمالِهِ، أو من وراءِ ظهرِهِ، كما قال : ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٣-١٤].

ويُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ، ويَخْلُو بعبدِهِ المؤمنِ فيُقَرِّرُهُ بذنوبِهِ، كما وُصِفَ ذلك في الكتابِ والسنةِ،(٤) وأما الكفارُ فلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ

---

(١) متفق عليه: خ (٣٣٤٩ و٦٥٢٧) م (٢٨٥٩ و٢٨٦٠) عن عائشة وابن عباس.

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٦) من حديث المقداد بن الأسود.

(٣) يدل عليه قوله تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧]، قال ابن كثير في تفسير الآية: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. اهـ

(٤) إشارة إلى قوله عزوجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[الانشقاق: ٧-٩] الآيات، وإشارة أيضًا لما في الصحيحين خ(١٠٣) م(٢٨٧٦) عن عائشة، أما تقرير العبد المؤمن بذنوبه فإشارة لما في الصحيحين خ(٢٤٤١) م(٢٧٦٨) عن ابن عمر.

حسناتُهُ وسيئاتُهُ، فإنهم لا حسناتَ لهم،[١] ولكن تُعَدُّ أعمالُهُمْ وتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عليها، ويُقَرَّرُونَ بها، ويُجْزَونَ بها.

وفي عَرَصَةِ القيامةِ: الحوضُ الموردُ لمحمدٍ ﷺ، ماؤُهُ أشدُّ بياضًا مِنَ اللبَنِ، وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، آنيتُهُ عددُ نجومِ السماءِ، طولُهُ شهرٌ، وعرضُهُ شهرٌ، مَنْ يشربْ منه شَرْبَةً؛ لم يَظْمَأْ بعدها أبدًا.[٢]

والصِّراطُ مَنْصُوبٌ على متنِ جهنمَ، وهو: الجِسْرُ الذي بينَ الجنةِ والنارِ،[٣] يَمُرُّ الناسُ عليهِ على قَدْرِ أعمالِهِم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨) من حديث أنس.

(٢) أحاديث الحوض متواترة وكثيرة، منها: حديث سهل وعبدالله بن عمرو وأنس في الصحيحين خ (٧٠٥٠ و ٦٥٧٩ و٦٥٨٠)، م (٢٢٩٠و٢٢٩٢و٢٣٠٣)، ولمسلم (٢٢٩٩و٢٣٠٠ و٢٣٠١) عن ابن عمر وأبي ذر وثوبان.

(٣) الثابت في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد -وسيأتي- أن الجسر على جهنم، وفي رواية: بين ظهري جهنم. وأما أنه بين الجنة والنار فقد ورد من حديث أبي أمامة عند الآجري في الشريعة (٩٠٧)، من طريق عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة، وهذه نسخة رويت بها أحاديث كثيرة، وهي سلسلة متكلم فيها، فعثمان بن أبي العاتكة ضعيف ويشتد ضعفه إذا روى عن علي بن يزيد، وقال الحافظ في التقريب: صدوق ضعفوه في روايته عن علي بن يزيد الألهاني. اهـ وانظر التهذيب.

وفيه: علي بن يزيد الألهاني ضعفه أحمد، وقال يعقوب: واهي الحديث كثير المنكرات، وقال ابن معين: علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة ضعاف كلها، وكذا قال أبو حاتم، وقال أيضًا: ضعيف الحديث أحاديثه منكرات، وقال البخاري: منكر الحديث ضعيف، وكذا قال أبو نعيم الأصبهاني، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال مرة: متروك الحديث، وكذا قال الدارقطني والأزدي والبرقي، وقال أبو أحمد الحاكم: ذاهب الحديث، وقال الساجي: اتفق أهل العلم على ضعفه، انظر التهذيب.

وفيه أيضًا: القاسم بن عبد الرحمن شيخ علي بن يزيد، ضعفه قوم ووثقه آخرون وهو إلى الاحتجاج أقرب، وإنما الحمل فيما أنكر من حديثه على من روى عنه من الضعفاء، انظر التهذيب. =

البصرِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالبرقِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالفَرَسِ الجَوَادِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومنهم مَنْ يَعْدُو عدوًا، ومنهم مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، ومنهم مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، ومنهم مَنْ يُخْطَفُ فَيُلْقَى في جهنمَ، فإنَّ الجسرَ عليه كلاليبُ، تَخْطِفُ الناسَ بأعمالِهم،(١) فَمَنْ مَرَّ على الصراطِ دخل الجنةَ، فإذا عَبَرُوا عليهِ، وَقَفُوا على قَنْطَرَةٍ بينَ الجنةِ والنارِ، فَيُقْتَصُّ لبعضِهم مِنْ بَعْضٍ، فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخولِ الجنةِ.(٢)

وأولُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ: محمدٌ ﷺ،(٣) وأولُ مَنْ يدخلُ الجنةَ مِنَ الأُمَمِ: أُمَّتُهُ.(٤)

وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شفاعاتٍ:(٥)

= هذا من حيث الكلام على الحديث، أما من حيث معناه أصحيح أم لا؟ فإنه إذ ثبت أن الجنة في أعلى عليين، وأن النار في أسفل سافلين، تجد أن قول المصنف بأن الصراط بين الجنة والنار صحيح والله أعلم.

(١) يشير إلى حديث أبي سعيد في الصحيحين خ(٧٤٣٩) م(١٨٣)، وجاء نحوه عن أبي هريرة وحذيفة عند مسلم (١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد.

(٣) رواه مسلم (١٩٦) و(١٩٧) من حديث أنس.

(٤) يشير للحديث الذي في الصحيحين خ(٨٧٦) م(٨٥٥) -واللفظ له- عن أبي هريرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ**» الحديث.

(٥) انظر في الشفاعة أنواعها وأقسامها وما يتعلق بذلك مع أدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة: كتاب شيخنا الإمام الوادعي الحافل: الشفاعة ، فإن فيه ما يشفي ويكفي.

أما الشفاعةُ الأُولى: فَيَشْفَعُ في أهلِ الموقفِ حتى يُقْضَى بَيْنَهُمْ، بَعْدَ أنْ يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ؛ آدمُ، ونوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى ابنُ مريمَ الشفاعةَ[(١)] حتى تَنْتَهِيَ إليهِ.[(٢)]

وأما الشفاعةُ الثانيةُ: فيشفعُ في أهلِ الجنةِ أن يدخلوا الجنةَ،[(٣)] وهاتانِ الشفاعتانِ خاصتانِ لهُ.

وأما الشفاعةُ الثالثةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ استحقَّ النارَ -وهذه الشفاعةُ له، ولسائرِ النبيينَ، والصديقينَ وغيرِهِم- فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ استحقَّ النارَ أنْ لا يَدْخُلَهَا،[(٤)] ويشفعُ فيمَنْ دَخَلَهَا أنْ يَخْرُجَ منها.[(٥)]

---

(١) في المطبوع: [عن الشفاعة]، والمثبت أصوب، إذ معناه أن الأنبياء كل واحد منهم يُرْجِعُ الشفاعةَ إلى الآخر حتى انتهت للنبي .

(٢) وهذه هي الشفاعة العظمى وأدلتها متواترة، من ذلك: حديث أنس وأبي هريرة في الصحيحين خ (٤٧١٢و٦٥٦٥) م(١٩٣ و١٩٤).

(٣) رواه مسلم (١٩٦) من حديث أنس.

(٤) يدل عليه حديث عائشة وأنس في مسلم (٩٤٧)، وحديث ابن عباس في مسلم أيضًا (٩٤٨).

(٥) يدل عليه حديث الشفاعة الطويل في الصحيحين عن أبي سعيد وأنس خ(٤٤٧٦و٧٤٣٩) م(١٨٣و١٩٣)، وحديث جابر خ(٦٥٥٨) م(١٩١)، وعمران عند البخاري (٦٥٦٦)، وحديث أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) وغيرهم عن أنس، وهو صحيح بمجموع طرقه جاء عن جمع من الصحابة، انظر ظلال الجنة للعلامة الألباني (٨٣١)، والكتاب الحافل لشيخنا الإمام الوادعي الشفاعة (ص٩٨-١٠٨) ومن أحيل على مليء فليتبع.

ويُخْرِجُ اللهُ تعالى مِنَ النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ، بل بفضلِهِ ورحمتِهِ، ويَبْقَى في الجنةِ فَضْلٌ عمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أهلِ الدنيا، فَيُنْشِئُ اللهُ لها أقوامًا فيدخلُهُم الجنةَ.(١)

وأصنافُ ما تَتَضَمَّنُهُ الدارُ الآخرةُ مِنَ: الحسابِ، والعقابِ، والثوابِ، والجنةِ، والنارِ حقٌّ، وتفاصيلُ ذلك مَذْكُورَةٌ في الكتبِ المُنَزَّلَةِ من السماءِ، وفي الآثارِ من العلمِ المأثورةِ عن الأنبياءِ، وفي العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ من ذلك ما يَشْفِي ويَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

قوله: (وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ) كما في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[القارعة:١-٣]، وقال : ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة:١]، وقال : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[الواقعة:١]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[الأحزاب:٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا

---

(١) متفق عليه: خ(٧٣٨٤) م(٢٨٤٨) من حديث أنس، ولهما أيضًا خ(٤٨٥٠) م(٢٨٤٦) عن أبي هريرة.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[يس:٥١-٥٤]، وقال : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[النمل:٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠-١٠١].

ولها أسماء كثيرة، منها: يوم القيامة، كقوله تعالى: (اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) [النساء: ٨٧].

واليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧].

والآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠]، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص:٨٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:٦٤].

والساعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر:٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه:١٥].

ويوم البعث، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾[الروم:٥٦].

ويوم الخروج، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[ق:٤٢].

والقارعة: قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[القارعة:١-٣].

ويوم الفصل، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[النبأ:١٧].

ويوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[الانفطار:١٤-١٩].

والصاخة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[عبس:٣٣].

والطامة الكبرى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[النازعات:٣٤].

ويوم الحسرة، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم:٣٩]. ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

والغاشية، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[الغاشية:١].

ويوم الخلود، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[ق:٣٤].

ويوم الحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص:٢٦]. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧].

والواقعة، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[الواقعة:١].

ويوم الوعيد، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[ق:٢٠].

ويوم الآزفة: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾[غافر:١٨].

ويوم الجمع، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[الشورى:٧].

والحاقة، قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة:١-٣].

ويوم التلاق، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر:١٥].

ويوم التناد، قال تعالى حاكيًا نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[غافر:٣٢].

ويوم التغابن، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[التغابن:٩]. وكلّ اسم له معنى يتضمّنه.[(١)]

قوله: (فيقومُ الناسُ مِنْ قبورِهِمْ لِربِّ العالمينَ، حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا. وتَدْنُو مِنْهُمُ الشمسُ، ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ).

هذا القيام يكون بعد النفخ في الصور، ففي حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥)، قال النبيّ : «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ**

---

(١) من القيامة الكبرى (ص: ٥).

الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٢٩٤٠)، قال النبيّ : «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وأَحْلامِ السِّبَاعِ، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَـهُمُ الشَّيْطَانُ، فيقُولُ: ألا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تأمُرُنَا؟ فَيَأمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلا يَسْمَعُهُ أحَدٌ إلا أصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، وَأوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ فَيُصْعَقُ ويُصْعَقُ النَّاسُ حوله، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أو قال: يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقالُ: يا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً».

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ «تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ

أَصْحَابِي ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُالصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٧-١١٨]» رواه البخاري (٣٤٤٧).

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المطففين:٦]، وقال النبيّ : «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَاللهِ مَا أَدْرِى مَا يَعْنِى بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ المِيلَ الَّذِى تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ. قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِى الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» من حديث المقداد عند مسلم (٢٤٨٦).

وعن عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المطففين:٦] حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» رواه البخاري (٤٩٣٨) ومسلم (٢٨٦٢).

والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم أولياء الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[يونس:٦٢]، وأيضًا أهل الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠]، وما يتضمّنه حديث أبي هريرة عند أبي يعلى (٦١١٠)، قال النبيّ : «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ»

قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِنْ خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِنْ حَزِنَ النَّاسُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس:٦٢].

وقال النبيّ : «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ»، قَالَ يَزِيدُ: وَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعْكَةً أَوْ بَصَلَةً أَوْ كَذَا. من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٣٣٣).

وقوله : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

وتبدل الأرض، قال الله : ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه:١٠٧]، وعند تبديلها يكون الناس في ظلمة دون الجسر كما في حديث ثوبان عند مسلم (٣١٥): أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ». أي تحت الجسر حيث أراد الله .

وهذه الجبال تسيل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[القارعة:٤-٥]، وقال

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[طه:١٠٥-١٠٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[طه:١١١]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[إبراهيم:٤٨-٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[عبس:٣٣-٤٢].

إثبات الميزان

قوله: (وَتُنْصَبُ المَوَازِينُ، فتُوزَنُ فيها أعمالُ العبادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٢-١٠٣]).

وأهل السنة يؤمنون بالميزان يوم القيامة قال : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة:٦-٩]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[الأنبياء:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف:٨-٩].

وأما من السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة بلغت مبلغ التواتر، منها: حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم والبخاري (٤٧٢٩) قال: قال رسول الله : «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ».

ومنها: حديث البطاقة، الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ، فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ

الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مع اسْمِ الله».

ومنها: حديث أبي سلمى راعي النبي : «بَخٍ بَخٍ، لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدَاهُ» أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٣).

ومنها: حديث أبي مالك الأشعري عند الإمام مسلم (١٢٣) والنسائي أن رسول الله قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ».

ومنها: حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله : «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ» أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٦).

وأخرج أحمد من طريق شعبة عن عطاء بن السائب عن أبيه، وأبوداود (٥٠٦٥) من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعًا: «خَصْلَتَانِ، أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي المِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي المِيزَانِ». هذا حديث حسن، وشعبة قد سمع من عطاء قبل الاختلاط.

وأخرج أحمد (٣٩٩١) عن عبدالله بن مسعود: أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله : «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟». قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَـهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ».

قال ابن أبي العز (٤٧٢): قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. اهـ

واعلم أن الميزان واحد وأما قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الأنبياء:٤٧]، فالمراد به الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال، وهذا هو القول الصحيح، وإلا فقد قيل بأن لكل أمة ميزانا.

قال ابن عطية في التفسير (٧/ ١٣): الناس على خلافه أي لكل أمة ميزان وإنما لكل واحد وزن يختص به والميزان واحد.

ثم اعلم أيضًا أن الميزان الذي دلت عليه السنة له كفتان حسيتان مشاهدتان والدليل على ذلك حديث عبدالله بن عمرو السابق وفيه: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ**».

الموزونات:

يوزن العامل كما في حديث عبدالله بن مسعود .

ويوزن العمل كما في حديث أبي هريرة: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، متفق عليه.

وكما في حديث أبي سلمى راعي النبي ، وكما في حديث أبي مالك الأشعري .

وتوزن الصحف كما في حديث البطاقة.

والذين أنكروا الميزان من الملاحدة وأهل الاعتزال وغيرهم شبهتهم أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام فإن الله يقلب الأعراض أجسامًا ففي حديث أبي سعيد أنه: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ...**» أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

والحكمة من نصب الميزان، مع أن الله محيط بكل شيء علمًا، إظهار العدل وبيان الفضل حيث أن الله يزن مثاقيل الذر من خير وشر. انتهى أفاده ابن أبي العز .

مسألة: وزن أعمال الكفار:

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: أنها لا توزن إلا أعمال المؤمنين، مستدلين بقول الله عز وجل في شأن الكفار: ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا**﴾[الكهف:١٠٥]، وما في بابها.

والثاني: أنها توزن أعمال جميع الناس؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف:٩]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[المؤمنون:١٠٣-١٠٥].

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» وَقَالَ: اقْرَءُوا: ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾[الكهف:١٠٥]. والحديث ليس فيه نص أنه لا يوزن وإنما فيه أن وزنه لا مقدار له لأنه لا حسنات له.

وقد رجح هذا القول القرطبي في التذكرة (٢٧٢-٢٧٣) قال: فإن قيل أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن، والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب أن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن الكافر يُحضر له ميزان فيوضع كفره وسيئاته في إحدى كفتيه ثم يقال له هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى فلا يجد فيشال الميزان فترفع الكفة الفارغة وتقع المشغولة، فهذه خفت موازينه وهذا ظاهر الآية.

الثاني: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق مملوك وغيرها مما لو كانت للمسلم لكانت طاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها. انتهى

هل يقام الوزن لكل الناس؟

قال القرطبي في التذكرة (ص٢٧١): الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله فيقال: «**يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ**» الحديث. وقوله تعالى: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ**﴾[الرحمن:٤١]،

وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا من المؤمنين وقد يكون للكافرين على ما ذكرنا. انتهى

قال ابن كثير في النهاية بعد نقل كلام القرطبي: إن من لا حساب عليه ولا عذاب لا توزن أعماله وكذلك المجرمون الذين يعرفون بسيماهم، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقد توزن أعمال السعداء وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم وفضلهم على رؤوس الأشهاد والتنويه بسعادتهم ونجاتهم وإن كانوا لا حساب عليهم.

وأما الكفار فتوزن أعمالهم وإن لم يكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بها كفرهم... فتوزن لإظهار شقائهم وتوبيخهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد.

فائدة: نقل ابن كثير في النهاية عن القرطبي قوله: وقد روى عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان هنا بمعنى العدل والقضاء، وذكر الوزن والميزان ضرب مثل، كما يقال هذا الكلام في وزن هذا قلت: أي ابن كثير لعل هؤلاء إنما فسروا هذا عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن:٧-٩]. فههنا المراد بالميزان أن الله تعالى وضع العدل بين عباده وأمر عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، فأما الميزان الموضوع يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث كما رأيت وهو ظاهر القرآن العظيم: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[الأعراف:٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[الأعراف:٩]، وهذا إنما يكون لشيء محسوس.

إثبات نشر الدواوين وصحائف الأعمال

قوله: (وتُنْشَرُ الدَّوَاوِيْنُ، وهي: صَحَائِفُ الأعمالِ، فآخذٌ كتابَهُ بيمينِهِ، وآخذٌ كتابَهُ بشمالِهِ، أو من وراءِ ظهرِهِ، كما قال : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٣-١٤]).

ويؤمن أهل السنة بنشر الدواوين، وصحائف الأعمال، التي سُطرت فيها أعمال العباد، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة:١٩-٢٠]، وظننت هنا بمعنى استيقنت، قال الله : ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾[الحاقة:٢١-٢٩]، وفي الآية الأخرى قال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[الانشقاق:٦-١٢]، والجمع بين الآيتين أنّ الكافر يأخذ كتابه بشماله من خلف ظهره والمؤمن يأخذ كتابه بيمينه وهذا الكتاب لا يُغادر كبيرة ولا صغيرة إلّا أحصاها قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩] وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران:٣٠].

وقول : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٣-١٤].

إخبار عن كمال عدله تعالى وأن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب. انتهى من تفسير السعدي .

الإيمان بالحساب

قوله: (ويُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، ويَخْلُو بعبدِهِ المؤمنِ فيُقَرِّرُهُ بذنوبِهِ، كما وُصِفَ ذلك في الكتابِ والسنةِ).

الحساب يوم القيامة ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[البقرة:٢٠٢] وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[الرعد:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص:١٦].

وحساب المؤمن يكون تقريرًا، كما قال النبيّ : «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا» من حديث أبي ذرّ عند مسلم (١٩٠). يعني هناك كبائر ما أراها؛ لأنّه قد رأى رحمة الله حين بدّل الله السيّئات حسنات. وقول الله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾[الانشقاق:٨]، أي العرض، ففي حديث عائشة عند البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) قال عنه النبيّ : «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ»

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ الله تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَتْ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ». أي يعرض الله عليه أعماله عرضًا يُقرّره بها، ولكن من نوقش الحساب عُذّب، لأنّ الكافر حين تعرض عليه أعماله يُنكرها أمّا المؤمن حين تُعرض عليه أعماله يستقرّ بها فيتجاوز الله عنه ويعفو عنه عند ذلك. وفي حديث عديّ بن حاتم ، قَالَ النَّبِيُّ : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» أخرجه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦). وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند الترمذي (٢٦٣٩) واللفظ له، ابن ماجه (٤٣٠٠)، قال النبيّ : «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». ومن حديث أنس بن مالك عند مسلم (٢٦٩٦)، قال النبيّ : «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»، قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ

شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي، قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

قوله: (وأما الكفارُ فلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزنُ حسناتُهُ وسيئاتُهُ، فإنهم لا حسناتَ لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالُهُمْ وتُحْصَى، فيُوقَفُونَ عليها، ويُقَرَّرُونَ بها، ويُجْزَوْنَ بها).

أمّا الوزن تقدّم الكلام فيه وأنّهم يوزنون ولكن لا قيمة لوزنهم، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٦٨)، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟». قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَفَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا، فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَي الثَّانِيَ فَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا، فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ».

الإيمان بالحوض

قوله: (وفي عَرَصَةِ القيامةِ: الحوضُ المورودُ لمحمدٍ ﷺ، ماؤُهُ أشدُّ بياضًا مِنَ اللبَنِ، وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، آنيتُهُ عددُ نجومِ السماءِ، طولُهُ شهرٌ، وعرضُهُ شهرٌ، مَنْ يشربْ منه شَرْبَةً؛ لم يَظْمَأْ بعدها أبدًا).

هو المراد بقول الله : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾[الكوثر:١-٢]، عَنْ أَنَسٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**». فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾. ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**». فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّى عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُمِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِى. فَيَقُولُ مَا تَدْرِى مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ**». رواه مسلم (٤٠٠).

وأحاديث الحوض ذكر كثير منها البخاري في كتاب الرقاق وذكر منها الإمام مسلم كثير في كتابه فضائل النبيّ (باب الحوض)، وقد جمع مصنّف في مرويّات الحوض لبقيّ بن مخلد وعدد الروّاة الذين رووا أحاديث الحوض فوق الثمانين صحابيًّا ، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر .

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وحوض النبيّ موجود الآن، قال النبيّ : «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).

ولهما البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلاَتَهُ عَلَى المَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا**».

فحوضه موجود الآن وزواياه سواء ومسيرته شهر وآنيته أكثر من نجوم السماء وأحاديث الحوض متواترة فمنها ما جاء، عن سهل بن سعد قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُم**» أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠).

وعن عَبْدُاللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا**» أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

وعن أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنِّي عَلَى الحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**»، قَالَ

فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا. أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣).

وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُبَيْدِاللهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ: «**إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، فَوَاللهِ لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِي رِجَالٌ فَلَأَقُولَنَّ أَيْ رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**» أخرجه مسلم (٢٢٩٤).

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**»، فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ اسْتَأْخِرِي عَنِّي، قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرِّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ. فَقُلْتُ: إِنِّي مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيُذَبُّ عَنِّي كَمَا يُذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا**» أخرجه مسلم (٢٢٩٥).

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا**» البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

وعَنْ عَبْدِاللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَلَأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لَأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وعَنْ حارِثَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ قَالَ: حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ: أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ: الْأَوَانِي؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ: تُرَى فِيهِ الْآنِيَةُ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ. البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْهِ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ**» البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).

وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا آنِيَةُ الحَوْضِ؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ**» أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

وعَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ قَالَ: «**إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ**». فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ فَقَالَ: «**مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ**». وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: «**أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ**» أخرجه مسلم (٢٣٠١).

ويُطرد عنه طائفتان:

الأولى: المبتدعة لحديث النبيّ أنّه قال: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ وَلأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي. فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» من حديث عبدالله بن مسعود عند مسلم (٢٢٩٧) واللفظ له. وعن ابن عباس عند البخاري (٣٣٤٩).

الثانية: ويُطرد عنه بعض العصاة لحديث كعب بن عُجرة وجابر ، قال النبيّ : «أُعِيذُكَ بِاللهِ يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ» أخرجه الترمذي عن كعب بن عُجرة (٦١٤). ومن حديث جابر عند أحمد (١٤٤٤١).

ومَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ، أي: من جاء وسُمح له بالوصول إليه وهو المؤمن شرب، قال النبيّ : «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا» من حديث سهل بن سعد عند البخاري (٧٠٥٠) و(٧٠٥١)، والفرط هو الذي يسبق الناس.

وقال النبيّ : «هُوَ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، شَرَابُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ،

وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» من حديث ابن عباس عند أحمد (٥٩١٣)، يحتاجه الناس بعد خروجهم ولهذا قال العلماء (إنّ الحوض يقدم عليه الناس) أي المؤمنون بعد الخروج من قبورهم فإنّهم يخرجون عُطاشا فناسب أن يكون الحوض أوّلًا فيأتون الحوض فمن شرب منه لا يظمأ بعده أبدًا.

وهنا مسألة إذا عُذّب المؤمن الذي قد شرب من الحوض قالوا (يُعذّب بغير العطش حتى وإن دخل النار)، ويكون شُربه في الجنّة شُرب تلذّذ.

وأنكر الخوارج والمعتزلة وغيرهم من منكري الغيب الحوض، حتى قال أنس بن مالك : دخلت على ابن زياد، وهم يتذاكرون الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم قالوا: قد جاءكم أنس، فقالوا: يا أنس، ما تقول في الحوض؟ فقلت: والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم تشكون في الحوض، لقد تركت عجائز بالمدينة، ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد . قال محمد بن الحسين : ألا ترون إلى أنس بن مالك يتعجب ممن يشك في الحوض إذ كان عنده أن الحوض مما يؤمن به الخاصة والعامة حتى إن العجائز يسألن الله أن يسقيهن من حوضه فنعوذ بالله ممن لا يؤمن بالحوض، ويكذب به، وفيما ذكرناه من التصديق بالحوض الذي أعطاه الله نبينا محمدًا كفاية عن الإكثار، والأثر مذكور في الشريعة للآجرّي وسنده محتجٌّ به برقم (٨٣٠).

وأمّا ما يُذكر (أنّ لكلّ نبيّ حوض)، أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، فالحديث ضعيف فيه الحسن لم يسمع من سمُرة والصحيح فيه أنّه من مرسلات الحسن البصري ثمّ أيضًا أحاديث الحوض تُشعر أنّه من خصائص النبيّ كما نقل

ذلك غير واحد من أهل العلم ومعلوم أنّ ما كان من خصائصه أنّه انفرد به عن بقيّة الأنبياء والمرسلين وإن لم يكن لكلّ نبيّ حوض وإنّما هو حوض النبيّ فهل يشرب المؤمنون من كلّ أمّة من هذا الحوض؟ الظاهر نعم لأنّه حوض ترده عليه أمّة محمّد   ولا مانع أن يرد غيرهم ويكون في هذا كرامة للنبيّ   .

الإيمان بالصراط

قوله: (والصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ على متنِ جهنمَ، وهو: الجِسْرُ الذي بينَ الجنةِ والنارِ، يَمُرُّ الناسُ عليهِ على قَدْرِ أعمالِهِم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البصرِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالبرقِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالفَرَسِ الجَوَادِ، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبلِ، ومنهم مَنْ يَعْدُو عدوًا، ومنهم مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، ومنهم مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، ومنهم مَنْ يُخْطَفُ فَيُلْقَى في جهنمَ، فإنَّ الجسرَ عليه كلاليبُ، تَخْطِفُ الناسَ بأعمالِهِم، فَمَنْ مَرَّ على الصراطِ دخل الجنةَ، فإذا عَبَرُوا عليهِ، وَقَفُوا على قَنْطَرَةٍ بينَ الجنةِ والنارِ، فَيُقْتَصُّ لبعضِهِم مِنْ بَعْضٍ، فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخولِ الجنةِ).

في هذه الإشارة إلى مسألة عظيمة من مسائل الإيمان بالغيب وهي داخلة في مسائل الإيمان باليوم الآخر وهي مسألة الإيمان بالصراط ويُقال الزراط بالزاي ويقال السراط، وهو الجسر الممدود على متن جهنّم يمرّ عليه المؤمنون دون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم:٧١-٧٢]، وهذا الورود هو المرور على الصراط، وقلنا: يجوزه المؤمنون فقط لحديث أبي هريرة ، قال النبيّ : «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا - شَكَّ إِبْرَاهِيمُ -، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ،

فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُم السَّعْدَانَ؟» قالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمِنْهُمُ الْمُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ - أَوِ الْمُوثَقُ بِعَمَلِهِ -، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ، أَوِ الْمُجَازَى، أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ، وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، وَيَدْعُو اللهَ، حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ

عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لاَ أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ، يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ: اللهُ ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ» رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

وبنحوه عن أبي سعيد عند البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ

لَـهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ لَـهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَـهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا» قَالَ: «فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا. ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَـهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ.

فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا». وَكَانَ أَبُوسَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٠]، «فَيَقُولُ اللهُ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ! قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُ رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وقال النبيّ : «يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَةُ الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ قَالَ فَيُنْجِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ قَالَ

ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَزَادَ عَفَّانُ مَرَّةً فَقَالَ أَيْضًا وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيمَانٍ» رواه أحمد (٢٠٤٤٠) عن أبي بكرة .

وتكون الأمانة والرحم جانبتي الصراط، يعني الأمانة في جانب والرحم في جانب، وفي ذلك الموقف العظيم لا يتكلّم إلّا الرسل كما في حديث أبي هريرة وحذيفة عند مسلم (١٩٥)، قال النبيّ : «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَـهُمُ الجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ»، قَالَ: «فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُـهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا.

وقد تعجّب الصحابة لما قال النبيّ : «ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ» من حديث حذيفة عند مسلم (١٩٥).

هذا أمر من الله والسبب الأعمال الصالحة والصراط قد جاء وصفه في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٣)، قال النبيّ : «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ»، السعدان نعرفه إلا من كان في مدينة وإلّا عندنا يقال له الكلبان ويقال له السعدان، هذا الشوك إذا قربت منه قلّ أن تنجو إما يأخذ بالثوب أو بالرجل أو باليد وإذا اردت أن تبعده من جسمك يأخذ بإصبعك، والحسك أظنّكم تعرفونها تأتي مثل الثمرة في بعض الشجر مثل الكرة وفيها اشواك كثيرة من هنا ومن هنا إذا مسكت بالثوب لصقت وإذا مسكت بالجسم مسكت مثل الحسك عليها كلاليب وخطاطيف، الخطّاف معروف، فبعض المؤمنون يُسلّمهم الله لسرعتهم ولخلوص أعمالهم ومنهم من يُكردس على وجهه في نار جهنّم ومنهم المخدوش الذي ينجو وآخر من يخرج من الصراط رجل يحبو مرّة ويكبو مرّة، انظر تصوّر يعني كيف يحبو على متن جهنّم إذا سقط سقط في جهنّم، يحبو مرّة ويكبو مرّة.

وجاء في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٣)، قال : (بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ)، وفي وصفه مدحضة مزلّة فالدحض هو المكان الذي تمشي فيه بعد المطر تجد أماكن تزلق فيها دحضة مزلّة، إذا دحضت فيه انزلقت إلى جهنّم، وجاء عند الشيخين البخاري (٩٠١) ومسلم (٦٦٩)، عن ابن عباس قال لِمُؤَذِّنِهِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ: (إِذَا قُلْتَ أَشْهَدُ

أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَلَا تَقُلْ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ قُلْ صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ فَكَأَنَّ النَّاسَ اسْتَنْكَرُوا قَالَ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي إِنَّ الْجُمْعَةَ عَزْمَةٌ وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْرِجَكُمْ فَتَمْشُونَ فِي الطِّينِ وَالدَّحَضِ)؛ لأنّ الدحض يزلقون فيه وتتوسّخ ثيابهم وتتوسّخ أبدانهم وربّما تأثّرت ظهورهم إلى غير ذلك فالصراط دحضة مزلّة لا يجوزه إلّا المؤمنون والمنافقون يبقون مع المؤمنين في عرصات يوم القيامة كما تقدّم من حديث أبي سعيد فيصعدون على الصراط ويُعطيهم الله نورًا على قدر ما كانوا عليه من الإسلام فإذا صعدوا على الصراط انطفأ النور الذي معهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[الحديد:١٣-١٤]، كانوا بالظاهر مع المؤمنين بالقول لا بالاعتقاد ويريدون أن يلتمسوا نورًا فيتقادعون في النار ويكونون في الدرك الأسفل من النار ثم بعد أن يجوز المؤمنون الصراط تبقى القنطرة وهي طرف الصراط ممّا يلي الجنّة كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٥٣٥)، قال النبيّ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَـهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»، يبقى الناس عليها فلا يدخل أحد الجنّة وعنده مظلمة لأحد يتجاوز الله عن بعضهم ويصلون إلى هذه المرتبة لكن تبقى مظالم فيقع القصاص حتى إذا نقّوا هذّبوا دخلوا كأنّ أحدهم يعرف بيته ويفتح لهم النبيّ وهو أوّل شافع وأوّل مشفّع وأوّل من يفتح باب الجنّة.

أول من يستفتح باب الجنة وأولهم دخولا

قوله: (وأولُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ: محمدٌ ﷺ، وأولُ مَنْ يدخلُ الجنةَ مِنَ الأُمَمِ: أُمَّتُهُ).

وهذه من خصائص النبي وأمته، ويدل على ذلك حديث أنس عند مسلم (١٩٧)، قال النبيّ : «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

وأوّل من يدخل الجنّة من الأمم أمّته، قال النبيّ : «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» من حديث حذيفة عند مسلم (٨٥٦)، وجاء عند مسلم (١٨٢) واللفظ له وبنحوه عند البخاري (٦٥٧٣). وعن أبي هريرة ، قال النبيّ : «فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ» متفق عليه.

ويدخل من أمّته سبعون ألفًا على صورة القمر ليلة البدر لقوله : «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا زُمْرَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ» من حديث أبي هريرة عند مسلم واللفظ له (٢١٧)، والبخاري (٣٢٤٧) عن سهل بن سعد . وقال : «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ

بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤). وقال عليه الصلاة والسلام: **«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الحُسْنِ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا لَا يَسْقَمُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ»** من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٢٤٦). وقال النبيّ : **«إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ الْأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ الْعِينُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»** من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٢٧).

وللجنّة ثمانية أبواب، قال النبيّ : **«فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»** من حديث عبادة بن الصامت في البخاري (٣٢٥٧).

وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[الحجر:٤٣-٤٤]، وقال النبيّ : **«الجَنَّةُ لَهَا ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ وَالنَّارُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ»** من حديث عتبة بن عمرو السلمي عند ابن سعد (٧/ ٤٣٠).

والجنة درجات، قال النبيّ : «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» من حديث عبدالله بن عمرو عند أبي داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤).

والنار دركات، قال : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء:١٤٥]، وفي هذا بيان لفضيلة النبيّ أنّه هو الذي يفتح باب الجنّة ومن فضيلته وفضيلة أمّته أنّ أمّته أوّل وأكثر الأمم دُخولًا، قال النبيّ : «هَاهُنَا تُحْشَرُونَ هَاهُنَا تُحْشَرُونَ هَاهُنَا تُحْشَرُونَ ثَلَاثًا رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِكُمْ تُوفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عند أحمد (٢٠٠١١). وقال النبيّ : «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ» من حديث بريدة عند الترمذي (٢٥٤٦) وابن ماجه (٤٢٨٩). وقال : «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» من حديث أبي موسى عند ابن ماجه (٤٣١١).

وفي الصحيحين: البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا

وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

الإيمان بالشفاعة وخروج الموحّدين من النار

قوله: (وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شفاعاتٍ: أما الشفاعةُ الأُولى: فَيَشْفَعُ في أهلِ الموقفِ حتى يُقْضَى بَيْنَهُمْ، بَعْدَ أنْ يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ؛ آدمُ، ونوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى ابنُ مريمَ الشفاعةَ حتى تَنْتَهِيَ إليهِ).

أي: من خصائصه ثلاث شفاعات:

فالأولى: هي الشفاعة العظمى التي دل عليه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء:٧٩]، وكما قال جابر بن عبدالله : فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ يَعْنِى الَّذِى يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ؟

وهي المذكورة في حديث أبي هريرة وأنس وأبي سعيد وفي غيرها من الأحاديث، قال النبيّ : «**فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُوالْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ**

مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَـهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

فيه دليل على أنّ أسماء الله وصفاته ليست محصورة بعدد معلوم لنا وكلّ الرواة رووا الحديث مختصرًا ولم يذكروا فيه الشفاعة العظمى وإنّما ذكروا شفاعة النبيّ لأمّته؛ والسبب أنّهم يسوقون الحديث للردّ على أهل البدع فيذكرون الشاهد منه وهي الشفاعة في أهل الكبائر من أمّة محمّد أمّا

الشفاعة العظمى فهي متفق عليها بين أهل السنّة والمعتزلة والخوارج، وهذه الشفاعة لفصل القضاء بين العباد، وأمّا الشفاعة في أهل الكبائر من أمّة محمد فيُنكرها المعتزلة والخوارج ومن إليهم، ويستدلّون بقول الله : ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، وبقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[آل عمران:١٩٢]، وبقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، زعموا أنّ هذه الآيات عامة فيمن دخل النار.

ويرد هذه ما رواه يَزِيدُ الْفَقِيرُ حيث قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِى رَأْىٌ مِنْ رَأْىِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِى عِصَابَةٍ ذَوِى عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِاللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، مَا هَذَا الَّذِى تُحَدِّثُونَ؟! وَاللهُ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾[آل عمران:١٩٢]، وَ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[الحج:٢٢]، فَمَا هَذَا الَّذِى تَقُولُونَ؟! قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ ، يَعْنِى الَّذِى يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ؟ رواه مسلم (١٩١). وقد تقدم الحديث.

ويقصدون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخروج على الحكّام وقتل المسلمين، فالخوارج شُبههم ركيكة وممّا يدلّ على أنّ من دخل النار من أمّة محمّد ويخرج منها حديث أبي سعيد : «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ

بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» رواه مسلم (١٨٥).

وفيه بيان أنّ الكفّار يُخلّدون في العذاب قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧].

قوله: (وأما الشفاعةُ الثانيةُ: فيشفعُ في أهلِ الجنةِ أن يدخلوا الجنةَ، وهاتانِ الشفاعتانِ خاصتانِ لهُ).

دليل هذه الشفاعة ما تقدّم في حديث أنس عند مسلم (١٩٧)، قال النبيّ : «آتِى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

قوله: (وأما الشفاعةُ الثالثةُ: فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ استحقَّ النارَ -وهذه الشفاعةُ له، ولسائرِ النبيينَ، والصديقينَ وغيرِهِم- فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ استحقَّ النارَ أنْ لا يَدْخُلَها، ويشفعُ فيمَنْ دَخَلَهَا أنْ يَخْرُجَ منها).

إذ قد يستجيب الله له ويُدخل من شاء الجنة ابتداءً من غير عذاب، وقد يدخل قوم النار فيشفع فيهم فيخرجهم الله تعالى، وفي حديث أنس وغيره قال النبي : «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» رواه أبوداود (٤٧٣٩)، الترمذي (٢٤٣٥)، ابن ماجه (٤٣١٠). وقال : «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» من حديث أبي موسى عند ابن ماجه (٤٣١١)، وأحمد (١٩٦١٨)، وفي حديث أنس عند البخاري (٧٥١٠)،

قال النبيّ فيما يرويه عن ربّه: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ»، زاد مسلم (١٨٣) وعن أبي سعيد «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». ويقول النبيّ : «يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» من حديث أنس عند البخاري (٧٥١٠).

وآخر من يخرج من النار كما في حديث جابر : «قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا نَرَى نَفَعَكُمْ إِسْلَامُكُمْ شَيْئًا» وفي رواية: «مَا نَرَى نَفَعَتْكُمْ عِبَادَتُكُمْ شَيْئًا» وفي رواية: «مَا نَرَى نَفَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ شَيْئًا» فعند ذلك يأمر الله أن يخرج من النار عند ذلك قال الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[الحجر:٢].

وجاء من حديث أبي موسى عند الحاكم (٢٩٥٤)، والكلام في الشفاعة يطول ويستدلّ من يقول بعدم كفر تارك الصلاة بأحاديث الشفاعة والصحيح أنّ لا دلالة لهم في هذه الأحاديث، لأنّنا لو جمعنا طرق حديث الشفاعة نجد أنّ المشفوع لهم يميّزون بمواطن السجود. وقوله : «لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطْ»، فيُحمل على أناس لم يتمكّنوا من العمل كما هو حال متأخّري الأمّة الذين ذكرهم في حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله : «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا» فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا

اللهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: (يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ) ثَلَاثًا. أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩).

أو يُحمل على أناس قالوا لا إله إلّا الله ثمّ لم يتمكنوا من العمل، أو على قوم من أعراب المسلمين أو ممن أسلم في بلاد العجم كما كان الحال في بلاد الروس وغيرهم من بلدان الاشتراكيين، وانتهى الجيل الأوّل من المسلمين وجاء الجيل الثاني لا يعرف من الإسلام إلّا أنّه مختون يقول لا إله إلّا الله، ما أُقيمت عليهم الحجّة فهؤلاء يدخلون في عموم أدلّة العذر بالجهل، أمّا أن نقول أنّ تارك الصلاة ليس بكافر مع صحت الأدلة عن النبيّ مثل حديث: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» من حديث بريدة عند الترمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩)، والنسائي (٤٦٢) وأحمد (٢٢٩٣٧). وقال : «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**» من حديث جابر عند مسلم (٨٢). إلى غير ذلك، بل إن القول بكفره يعد إجماعا من الصحابة.

وقوله : (وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ).

أي: عنده أعمال سيّئة تكون سببًا لاستحقاقه العذاب لكن قد يتجاوز الله عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

وقوله : (وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ).

وهذه تكون في أصحاب الكبائر خلا الشرك بالله، وهي شفاعة عامة للنبي ولغيره من الأنبياء والصالحين.

ويشفع الشهداء، ويشفع رجل من أمّة محمّد في مثل ربيعة ومضر، وهو ابن أبي الجدعاء ويشفع الأب لولده والولد لأبيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[الطور:٢١]، وهذه الشفاعة يُثبتها المعتزلة وهي رفع بعض درجات المؤمنين في الجنّة ويُنكرون الشفاعة في أهل الكبائر فالله من رحمته إذا مات الأب على صلاح يرفع الولد إليه، ويشفع أبناء الآباء في آبائهم، فعَنْ أَبِى حَسَّانَ قَالَ قُلْتُ لأَبِى هُرَيْرَةَ إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِى عَنْ رَسُولِ اللهِ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا، قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، «**صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ – أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ – فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ – أَوْ قَالَ بِيَدِهِ – كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا فَلَا يَتَنَاهَى – أَوْ قَالَ فَلَا يَنْتَهِى – حَتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ**» رواه مسلم (٢٦٣٥).

ومن أسباب الشفاعة قراءة سورة الملك، قال النبيّ : «**سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**» من حديث أبي هريرة عند أبي داود (١٤٠٠) واللفظ له، الترمذي (٢٨٩١)، ابن ماجه (٣٧٩٦)، وله طرق.

ومن أسبابها الصلاة على النبيّ عند الآذان ثمّ الدعاء له بالوسيلة، كما في حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٣٨٤)، قال النبيّ : «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**».

ومن أسبابها العمل بالقرآن، قال النبيّ : «**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحَلَّ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قادَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**» من حديث ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (٣٠٠٥٤). وقال : «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**» من حديث أبي أمامة عند مسلم (٨٠٤).

ومن أسبابها الموت في المدينة، فعند مسلم (١٣٦٣) عن سعد قال قال رسول الله : «**إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَي المَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا**»، وَقَالَ: «**المَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا، أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». وغير ذلك من الأسباب.

قوله: (وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا. ويُخْرِجُ اللهُ تعالى مِنَ النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ، بل بفضلِهِ ورحمتِهِ، ويَبْقَى في الجنةِ فَضْلٌ عمَّنْ دَخلَهَا مِنْ أهلِ الدنيا، فَيُنْشِئُ اللهُ لها أقوامًا فيدخلُهُم الجنةَ).

أي: يشفع فيمن دخل النار أن يخرج منها وقد تقدّمت الأدلّة ويخرج الله تعالى أقوامًا بفضله ورحمته على ما تقدّم في الأحاديث وقوله: وَيَبْقَى فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ قد تقدم التنبيه على ماء جاء أنه ينشئ للنار وهي زيادة شاذة بل منكرة، قال الله تعالى:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]، فلا يدخل النار إلا من استحقّها ووجب عليه الخلود فيها أمّا الجنّة لفضله الواسع ينشئ لها نشأً أي يُخلق لها خلقًا يتنعّمون فيها فضلًا منه ورحمة ؛ لأنّه وعد النار ووعد الجنّة بملأيهما، قال النبيّ : «**احْتَجَّتِ النَّارُ وَالجَنَّةُ فَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِى الجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِى الضُّعَفَاءُ وَالمَسَاكِينُ فَقَالَ اللهُ لِهَذِهِ أَنْتِ عَذَابِى أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَرُبَّمَا قَالَ أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِهَذِهِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا**» من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٨٤٦).

وهل هناك شفاعة في الدنيا؟ الجواب نعم، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**» ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ : «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**» رواه البخاري (١٣٦١) ومسلم (٣٠١٢)، فالدعاء شفاعة لهما، ويدلّ على ذلك قوله : «**مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ**» من حديث عائشة عند مسلم (٩٤٧)، فالصلاة على الميّت تُعتبر شفاعة.

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى : «ائْتُوا مُحَمَّدًا ، فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ: سَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ، أَوِ الرَّابِعَةِ...». ذكرها ثلاث مرات.

التوسل بذوات الصالحين:

وأما الاستشفاع بالنبي وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقًّا.

ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:٤٧]. وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله لمعاذ ، وهو رديفه: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال:

«**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**». فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبدنفسه مستحق على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سببًا.

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي ، في قول الماشي إلى الصلاة: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا**»، فهذا حق السائلين، هو أوجبه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهْوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فإن قيل: فأي فرق بين قول الداعي: «**بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ**» وبين قوله: (بحق نبيك)، أو نحو ذلك؟

فالجواب: أن معنى قوله: «**بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ**»، أنك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان - فإن فلانا وإن كان له حق على الله بوعده الصادق- فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل. فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء! وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥].

وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، لم ينقل عن النبي ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية.

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع. وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضًا، لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟! وقد قال : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

ولهذا قال أبوحنيفة وصاحباه رحمهم الله: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك حتى كره أبوحنيفة ومحمد أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكره أبويوسف لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك. ومراده أن فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا. وهذا أيضًا محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمّنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره. فلما مات قال عمر - لما خرجوا يستسقون-: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا). معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مرادا لكان جاه النبي أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه: فإن أريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محبا له، مطيعا لأمره، مقتديا به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سببا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون. فهؤلاء: دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبدإلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل: أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعه في الطلب، بمعنى أنه صار شفعًا فيه بعد

أن كان وترًا، فهو أيضًا قد شفع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلًا للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر، لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه.

فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ**»، فالأمر كله لله. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[آل عمران:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:١٥٧]، فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ**».

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ، إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**».

وفي الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ: «**لَا أُلْفِيَنَّ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا،**

قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا».

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: «**إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»، فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبدللتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه. وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء؛ انتهى من شرح الطحاوية لابن أبي العز .

الإيمان المجمل بكل ما علمنا وما لم نعلم مما ذكر الله تعالى ورسوله

قوله: (وأصنافُ ما تَتَضَمَّنُهُ الدارُ الآخرةُ مِنَ: الحسابِ، والعقابِ، والثوابِ، والجنةِ، والنارِ حقٌّ، وتفاصيلُ ذلك مَذْكُورَةٌ في الكتبِ المُنَزَّلَةِ من السماءِ، وفي الآثارِ من العلمِ المأثورةِ عن الأنبياءِ، وفي العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ من ذلك ما يَشْفِي ويَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ).

هذه إشارة من المصنف إلى أنّ تفاصيل اليوم الآخر ليس هذا موطن بسطها، ولكن هذه إشارات، وإذا أردت أن تنظر في تفاصيله فاقرأ جزء (عم) مع التفكّر والتدبّر تجد ذلك عيانًا مثل سورة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ① وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾[الانفطار:١-٢]، و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[التكوير:١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[الانشقاق:١]، وسورة (القارعة)، و(عبس)، و(عمّ)، و(المرسلات)، و(الزلزلة). ففي البخاري عن يوسف بن ماهك قال: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟! قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟! إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر:٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ.

وله في أخرى مختصرًا قال: قالت عائشة: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾. أخرجه البخاري. وفي القرآن، والسنة من هذا كثير جدًّا.

الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان الآن

ومن قول أهل السنة أن الجنة والنار قد خلقتا، قال : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة:٣٥]، وقال: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾[يس:٢٦]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦].

ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع من المعتزلة والخوارج، والأدلة على ذلك متوافرة متواترة استقصينا كثيرًا منها في كتاب الإيمان ولله الحمد منها:

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[الحديد:٢١]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

وقوله : «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[النبأ:٢١-٢٢]، وقوله تعالى في الجنة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[النجم:١٣-١٥].

ومن السنة، ما أخرجه في الصحيحين، أخرج البخاري (٥٢٢٦): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ أَوْ أَتَيْتُ الجَنَّةَ فَأَبْصَرْتُ قَصْرًا فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَلَمْ يَمْنَعْنِي إِلَّا عِلْمِي بِغَيْرَتِكَ**». قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ اللهِ، أَوَ عَلَيْكَ أَغَارُ؟! أخرجه مسلم (٢٣٩٤).

وأخرج (٣٢٤٢): عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ إِذْ قَالَ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الخطَّابِ؛ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا**» فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ. أخرجه مسلم (٢٣٩٥).

وأخرج (٣٢٤١): حَدَّثَنَا أَبُوالْوَلِيدِ حَدَّثَنَا سَلمُ بْنُ زَرِيرٍ حَدَّثَنَا أَبُورَجَاءٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**».

وأخرج (٣٢٤٠): عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ**». أخرجه مسلم (٨٦٦).

وأخرج البخاري (٤٥٠): عن عُبَيْدَ اللهِ الخَوْلَانِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «**مَنْ بَنَى مَسْجِدًا** -قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ- **بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ**»، أخرجه مسلم (٥٣٣).

وأخرج مسلم (٢٤٥٦): عن أنس: عن النبي قال: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلحَانَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ**».

وأخرج (٢٤٥٧): عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله قال: «**أُرِيتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةَ أَبِي طَلحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ**».

وأخرج (٢٤٥٨): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لبلال عند صلاة الغداة: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ، عِنْدَكَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْفَعَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ». قال: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طُهُورًا تَامًّا، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ.

وأخرج (٤٢٦): عن المختار بن فلفل عن أنس قال: صلى بنا رسول الله ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالِانْصِرَافِ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي»، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وأخرج البخاري (٣٥٢١): عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ الْبَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَالَ وَقَالَ أَبُوهُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ : «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»، أخرجه مسلم (٢٨٥٦).

وأخرج مسلم (٢٨٤٦): عن أبي هريرة: عن النبي قال: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ، وَعَجَزُهُمْ، فَقَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، أخرجه البخاري (٤٨٥٠).

وأخرج (١٩١٤): عن أبي هريرة: عن النبي قال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**».

وأخرج البخاري (٣٤٨٢): عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»، أخرجه مسلم (٢٢٤٢).

وأخرج مسلم (٢٦١٩): عن أبي هريرة عن رسول الله فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله : «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا، أَوْ هِرٍّ، رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا**».

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٠): أما قوله: (الجنة والنار مخلوقتان)، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة كذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية وأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يعلمه الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل فيهم التجهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى. اهـ

فيا ليت شعري كيف سيتأولون حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٧٤٤): «لَـمَّا خَلَقَ اللهُ الجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

ومن الأدلة على وجودهما ما أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦). عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وعن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٨٦) وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٥) والآجري في الشريعة (٣٩٢) وابن ماجه (٤٢٧١).

والحديث يدل على أن أرواح المؤمنين في الجنة إلا من حبس لدين أو غيره والشاهد من الحديث قوله: «طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى

جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، فلو كانت غير موجودة الآن لكان هذا الكلام لغوٌ وكذب والعياذ بالله.

فائدة: هذا الحديث يدل على أن أرواح المؤمنين طيرٌ في الجنة، أما أرواح الشهداء فهي في أجواف طير خضر كما أخرج مسلم (١٨٨٧) في صحيحه من حديث ابن مسعود قال مسروق: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[آل عمران:١٩٦]، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ**».

وعن عبدالله بن عباس أنه قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله والناس معه، ثم ذكر الحديث وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم تكعكعت، فقال رسول الله : «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**» أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

والحديث نص لا يحتمل التأويل والتحريف أن النبي رأى الجنة بعينيه ورأى النار بعينيه، فلا ينكر وجود الجنة والنار مع وجود هذه الأدلة الصراح الصحاح إلا من أزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

الإيمان بأن الجنة والنار لا تفنيان

وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا تفنيان ولا يموت أهلها قال : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:٦٤]. وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[غافر:٣٩]، وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل:٩٦]. وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾[الدخان:٥٦].

وقد تقدم في الباب الأول بيان أن الجنة والنار موجودتان الآن وسوق الأدلة على ذلك وبيان أن ذلك هو مذهب أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا الشواذ من أهل البدع والريب، ويلتحق بهذا الباب الكلام على أبديتهما قال شيخ الإسلام في رسالته الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٤١): وللناس في ذلك ثلاثة أقوال: قوم قالوا ببقائهما جميعًا، وقوم قالوا بفناء دار الجزاء وبقاء دار الإفضال والإنعام والإكرام... وأما القول بفنائهما إنما حكوه عن الجهم. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٣): قوله: (لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان)، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث. اهـ

والآيات البينات والأحاديث الصحيحات على هذه المسألة كثيرات وواضحات لا يعتقد خلافها إلا أهل الضلالات قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٨]، أي غير مقطوع، وسيأتي الإجابة على الاستثناء إن شاء الله تعالى.

وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[ص:٥٤]، وقال: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[الرعد:٣٥]، وقال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾[المائدة:٣٧]، وقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[الواقعة:٣٣].

وقال مؤكدًا خلود أهل الجنة فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[الدخان:٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، والمراد به أنهم ماتوا في الوقت الذين لم يكونوا في الجنة.

ومن الأدلة على أبدية الجنة من السنة، ما أخرجه مسلم (٢٨٣٦) وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : **«مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»**.

وفي حديث أبي سعيد: **«يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»** متفق عليه.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٣): الباب السابع والستون في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد: وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول الله أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٨]، أي مقطوع ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[هود:١٠٨].

وقال (ص٣٢٨): والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٩-٣٣٠): وأما أبدية النار ودوامها فقال عنها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين قال: وقلت هاهنا أقوال **سبعة**:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبدًا، بل من دخلها خلد فيها أبد الآبدين بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

الثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعية نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي والطائي...

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها أقوام آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي فأكذبهم الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[آل عمران:٢٣-٢٤].

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضًا يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحال بقائه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عندهم بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة.

السابع: قول من يقول بل يفنيها ربها، وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم. اهـ

وذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٦)، هذا التقسيم وقال في آخره:

الثامن: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئًا ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

التاسع: أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

وما عدا هذين القولين الأخيرين، ظاهر البطلان وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها. انتهى والقول الحق هو التاسع، والقول الثامن وإن كان قد قال به بعض السلف فهو قول غير صحيح، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[المائدة:٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[الزخرف:٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف:٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان:٦٥].

قال ابن أبي العز : وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله)، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

فائدة: ما لايدخل في الفناء ثمانية نُضمت في هذا البيت:

ثَمَانِيَــةٌ حُكْــمُ الْبَقَــاءِ يَعُمُّهَــا ... مِنَ الْخَلْقِ وَالْبَاقُونَ فِي حَيِّزِ الْعَدَمْ
هِيَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ نَارٌ وَجَنَّـةٌ ... وَعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمْ

الإيمان بالقدر

قال :

وتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ الناجيةُ أهلُ السنةِ والجماعةِ: بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ.

و(من) هنا ليست للتبعيض وإنّما هي لبيان الجنس أي ويؤمن أهل السنّة والجماعة وهي مثل قول الله في آخر سورة الفتح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح:٢٩]، حيث قالت الرافضة (من) للتبعيض (وعد الله المؤمنين من الصحابة بالجنّة)، لأنّهم يذهبون إلى تكفير عامّة الصحابة إلّا أحد عشر أو سبعة عشر صحابيًّا بينما أهل السنّة يقولون (من) لبيان الجنس وهذه هو الصحيح في معنى الآية (أي من جنسهم) كما في قول الله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢]، فـ(من) لبيان عموم الجنس فالقرآن كلّه شفاء.

والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلًا قبل وجودها.

قال الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المرسلات:٢٠-٢٣].

وفي حديث عمر عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٥٥): «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**»، والقدر سر الله لم يُطلع عليه نبيا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبما اقتضت الحكمة؛ قاله الراغب.

قال القرطبي في المفهم (١/ ١٤٥): والإيمانُ بالقدر: هو التصديقُ بما تقدَّم ذكره، وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وقولُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[القمر:٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[التكوير:٢٩]، وإجماعُ السلف والخلف على صِدْقِ قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يَشَأْ لم يكن. اهـ

قال النووي في شرح كتاب القدر من صحيح مسلم : سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها، والله أعلم.

ومراتبه أربعة: ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها:

الأولى: العلم:

ودليلها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[البقرة:٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾[الحشر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[سبأ:٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام:٥٩].

وفي البخاري عن ابن عباس قال: سئل رسول الله عن أبناء المشركين فقال: «اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ».

ويتم الإيمان بهذه المرتبة بأن تعتقد وتقر بأن الله تعالى عالم بكل شيء جملة وتفصيلًا أزلًا، وأبدًا سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده فعلمه محيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار -ومرتبة العلم السابق- اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة -القدرية الغلاة-.[1]

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٣) لإبراهيم الحمد (٦٢).

المرتبة الثانية: الكتابة:

يدل على هذه المرتبة قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠]. وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس:١٢]، وقال تعالى في ذكر محاجة موسى لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥١-٥٢].

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١٣/ ١١٧): «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

وفي حديث علي : «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً، أَوْ سَعِيدَةً» متفق عليه.

وفي حديث عبادة بن الصامت المتقدم في باب الإيمان بالقلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ».

فيجب على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون وجميع أهل السنة، والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر والإمام المبين والكتاب المبين[(١)].

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٣).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

يدل على هذه المرتبة قول الله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام:٣٩].

وفي حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥): «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

وفي صحيح مسلم : «**فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**».

وهذه المرتبة هي المعبّر عنها بقول الناس: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وتكون بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيئته وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله الناس عليها خلقه وأدلة العقل والبيان.

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة وما لم يشأ كونه فإنه لا يكون لعدم مشيئته لا لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣]، فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرته ولكن لعدم مشيئته ذلك[١].

المرتبة الرابعة: الخلق:

قال الله : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله : «**إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ**»، أخرجه البخاري في كتاب أفعال العباد.

وهذه المرتبة تقتضي أن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها وحركاتها وبأن كل ما سوى الله مخلوق مُوجدٌ من العدم كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة.

وقد جُمِعَتْ هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

عِلْـمٌ كِتَابَـةُ مَوْلَانَـا مَـشِيئَتُهُ   وَخَلْقُـهُ وَهْـوَ إِيجَـادٌ وَتَكْـوِينٌ

فلا يتم إيمان عبدبالقضاء والقدر حتى يؤمن بهذه المراتب الأربع.

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٥).

أنواع التقدير:

الأول: التقدير العام الشامل: وهو شامل لجميع الكائنات وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وقد تقدم دليله.

الثاني: التقدير المفصَّل للتقدير العام، وينقسم إلى أنواع:

النوع الأول: التقدير البشري، وهو المذكور في قوله الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف:١٧٢].

النوع الثاني: التقدير العمري؛ كما في حديث عَبْدِاللهِ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَاللهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**» متفق عليه.

النوع الثالث: التقدير الحولي، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤].

النوع الرابع: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل، إلى غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩].

ولا بد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفاصيله؛ فمن جحد شيئا منهما؛ لم يكن مؤمنا بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر؛ فقد جحد ركنا من أركان الإيمان[1].

الإرادة الربانية:

تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية:

١- **فالإرادة الكونية:** هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾[الرعد:١١].

٢- **والإرادة الشرعية:** تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[النساء:٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾[المائدة:٦].

الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية:

١- الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

٢- الإرادة الكونية لابد أن تقع.

- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفوزان (٣٠٧-٣٠٨).

٣- الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة.

- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٤- الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.

٥- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه.

- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.

٦- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفترقان في حق العاصي مثاله إيمان أبي بكر أراده الله كونًا وشرعًا، إما كونه أراده كونًا فوقوعه دليل عليه، وأما أنه أراده شرعًا، فالإيمان محبوب إلى الله، بينما إيمان أبي جهل أراده الله شرعًا ولم يرده كونًا، ولو أراده كونًا لوقع[1].

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر:

والناس في هذا الباب ينقسمون إلى طرفين ووسط:

أما الوسط فهم أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أهل الحديث السلفيون.

---

(١) انظر منهاج السنة (٣/ ١٨٠-١٨٣)، الطحاوية (١١٤)، الإيمان بالقضاء والقدر (٩٧-٩٩).

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/ ٤٤٩-٤٥٠): مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئا إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء.

وقال (٨/ ٤٥٢): وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضًا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة. اهـ

وأما الطرفان المخالفان في هذا الباب فهما:

الجبرية: أصل قولهم من جهم بن صفوان، وأن فعل العبدبمنزلة طوله ولونه، وغَلَوْ في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبدفعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا فعل كالريشة في مهب الريح، وإنما تُسند إليه الأفعال مجازًا فيقال: صلى وصام، وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح،

ونزل المطر، ومؤدى قولهم إلى اتهام الله بالظالم، وتكليف العباد ما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من أفعالهم واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة والأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون.

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هوالفاعل الحقيقي لأفعالهم بخلاف ما عليه أهل السنة الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبدهو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب.

ومن أسماء الجبرية القدرية المشركة؛ لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [(١)] [الأنعام: ١٤٨].

وبلغ الجبر لدى غلاة الصوفية حتى قال بعضهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ   مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

وهؤلاء يرون كل ما يصدر من العبدمن ظلم وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره، فهو محبوب لديه مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكاب هذه المحظورات، فقد أطاع بإرادة الله ونفَّذ مشيئته فمن أطاع الله في قضاءه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله [(٢)].

وعلى هذا القول فالكل مطيع، قوم نوح الذين أهلكهم الله وقوم فرعون وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح، ولازمه أن يكون الله ظالمًا لهم، تعالى الله عما افتراه الظالمون علوًا كبيرًا.

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (١٧٥).

(٢) شرح النونية للهراس (١/ ٣٧٢).

القدرية: وهم نفاة القدر وينقسمون إلى قسمين:

الأول: نفاة العلم: وهم الذين يقولون بأن الله لا يعلم الشيء إلا عند وقوعه، وكان أول ظهورهم في أواخر عهد الصحابة. قال يحيى بن يعمر: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى، وَالَّذِى يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. الحديث في صحيح مسلم رقم (٨)، وهذه الطائفة قد كفّرها العلماء، وقد حكى النووي، وكذا شيخ الإسلام انقراضهم[١].

قال النووي : هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر، قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية فى الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم.

وهذه القدرية تسمى: مجوس هذه الأمة.

---

(١) شرح صحيح مسلم (١/ ١٥٣).

قال النووي : وقد قال رسول الله : «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»، شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر فى حكم الإرادة، كما قسمت المجوس، فصرفت الخير إلى يزدان، والشر إلى أهرمن.

قال الخطابي: إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس فى قولهم بالأصلين النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره، والله خالق الخير والشر جميعًا لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه خلقًا، وإيجادًا، وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلًا واكتسابًا. اهـ

و مما يدل على أن الله خالق الخير والشر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وقول النبي : «**إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ**».

والعجب أن هؤلاء يخرجون أفعال العباد المخلوقة المربوبة من عموم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، ويدخلون في عموم هذه الآية القرآن الذي هو صفة الله .

وملخص القول أن سبب ضلال من ضل من هذه الفرق عدم جمعه بين الأدلة من القرآن والسنة، فعلى هذا كل دليل صحيح يستدل به الجبري فيه رد على القدرية النفاة، وكل دليل صحيح يستدل به القدري فيه رد على الجبرية، ولشيخنا الوادعي كتاب قيم بعنوان الجامع الصحيح في القدر ألفه للرّد على الشيعة القدرية النفاة.

تنبيه: ينظر إلى الشر بمنظورين:

الأول الشرعي: يجب عليك طاعة الله والابتعاد عن الشرّ، والله أمرك بطاعته: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٢].

الثاني الكوني: تعلم أنّ الله خلق الشرّ لحكمة ولذلك قال السفاريني:

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِالرِّضَا بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

فالزنا، والخمر، والقتل، والغيبة، والنميمة، والكفر، والبدعة، التي تحصل من العبدمقضيات ولا يجوز له أن يرضى بها، ولا يجوز له أن يرضى بالكفر والنفاق ولكن يرضى بما هو من فعل الله، وأنّ الله خلق هذه الأشياء لحكمة علمها ولمصالح أرادها، فالشرّ بالنسبة لله تعالى ليس بشرّ.

واعلم انّك لن تحقّق الإيمان بالقدر على وجهه حتى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليُخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، قال النبيّ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ**» من حديث أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت عند أبي داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧).

وفي حديث عمر بن الخطّاب في أركان الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، أي أنه من الله.

وقد خاصم الكفّار النبيّ في القدر، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ فِي الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[القمر:٤٨-٤٩]، رواه مسلم (٢٦٥٦).

قال :

والإيمانُ بالقَدَرِ على درجتينِ، كلُّ درجةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:
فالدرجةُ الأولى: الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ ما الخلقُ عاملون بِعِلْمِهِ القديمِ، الذي هو موصوفٌ به أزلًا وأبدًا، وعَلِمَ جميعَ أحوالِهم من: الطاعاتِ والمعاصي، والأرزاقِ والآجالِ.

هذه هي المرتبة الأولى من مراتب القدر على ما تقدّم، قال النبيّ : «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»، من حديث ابن مسعود عند البخاري (٣٣٣٢) ومسلم (٢٦٤٣)، وقال النبيّ : «لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ مِنَ الحَلَالِ وَتَرْكِ الحَرَامِ»، من حديث جابر عند الحاكم (٢١٣٤).

قال :

ثم كتبَ اللهُ تعالى في اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلائقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قال: ما أكتبُ؟ قال: اكتبْ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.[(١)]

وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب القدر، وهذا الحديث يستدلّ به من يرى أنّ القلم أوّل المخلوقات، والصحيح أنّ أوّل المخلوقات هو العرش العظيم وإنّما المعنى كما تقول العرب (أوّل ما دخل زيدٌ قلت له اجلس) وليس معنى ذلك إنّ أوّل الداخلين من الباب زيد لكن مبدأ دخول زيد قلنا له اجلس فالله لّما خلق القلم قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال :

فما أصابَ الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وما أَخْطَأَهُ لم يكنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأقلامُ.

يدلّ على ذلك عدّة أحاديث في الباب منها قوله : «**وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ**

---

(١) صحيح بمجموع طرقه: هذا الحديث جاء عن جمع من الصحابة، أصحها حديث عبادة بن الصامت، رواه أبو داود (٤٧٠٠) بسند حسن، وشيخ أبي داود: جعفر بن مسافر فيه كلام يسير لا يخرجه عن مرتبة الاحتجاج، وله طرق أخرى.

انظر: ظلال الجنة للعلامة الألباني كما في الأرقام (١٠٣و١٠٤و١٠٥و١٠٧)، و الجامع الصحيح في القدر لشيخنا الإمام الوادعي (ص١٠٤-١٠٨).

لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ» من حديث أُبيّ بن كعب عند أبي داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧).

وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ : «يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أخرجه أحمد (٢٦٦٩).

وقال النبيّ : «وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ فَمَا الرِّزْقُ فَمَا الْأَجَلُ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» من حديث أنس عند البخاري (٦٥٩٥) ومسلم (٢٦٤٦).

وعن عليّ قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[الليل:٥-١٠]. أخرجه البخاري (٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧).

وهو الذي أقسم به في قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم:١].

والأقلام مجموعة:

❁ الأوّل: القلم العام: وهو القلم المذكور في هذا الحديث الذي كتب مقادير كلّ شيء، قال النبيّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ قَالَ وَمَا أَكْتُبُ قَالَ فَاكْتُبْ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**» من حديث عبادة بن الصامت ؓ عند أحمد (٢٢٧٠٧)، وبنحوه عند أبي داود (٤٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥).

❁ الثاني: القلم البشري: وهو الذي أُخذ على بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾[الأعراف:١٧٢]، هذا تقدير بشري وهو مكتوب بالقلم البشري.

❁ الثالث: القلم العمري: ويُطلق عليه التقدير العمري وهو أنّ الله ﷻ حين يتكوّن الجنين في بطن أمّه يُرسل الملك فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد، وهو المذكور في حديث أنس ؓ المذكور قبل.

❁ الرابع: القلم التكليفي: وهو المذكور في حديث عائشة ؓ عند البيهقي في الكبرى (٢٢١٢٠)، وغيره قال النبيّ ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيقَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ**».

❁ الخامس: القلم السنوي: وهو تقدير سنوي، كما أخبر الله ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[الدخان:٤-٥].

السادس: القلم اليومي: والتقدير اليومي، قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩]. وأشرف هذه الأقلام هو القلم الأوّل المذكور في حديث عبادة بن الصامت وجميع الأقلام هو حاكمها وكلّها عائدة إليه.

قال :

وطُوِيَتِ الصُحُفُ.[١]

كناية على أنّ القدر قد فُرغ منه ففي مسند أحمد (٦٥٦٣) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» قَالَ: قُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا

---

(١) حسن بشواهده: رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) والطبراني في الكبير (١١٢٤٣و١١٥٦٠) من طرق عن ابن عباس أن النبي قال له: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ» الحديث، وهو حسن بشواهده كما بينته في تحقيق الأربعين ، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : وبكل حال فطريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة. اهـ وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي رقم (٦٨٥).

قوله: [فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه....] يشهد لها مع ما تقدم ما رواه أحمد (٦/ ٤٤١) عن أبي الدرداء عن النبي قال: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي رقم (١٠٤٦)، وجاء نحوه عند أحمد (٥/ ١٨٢)، وأبي داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، من حديث زيد بن ثابت مرفوعًا، وجاء موقوفًا عن ابن مسعود وأبي بن كعب وحذيفة كما في المصادر السابقة، ومصرحًا به عند أحمد (٥/ ١٨٥، ١٨٩)، وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٢٤٥)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (٣٥٠)، وقال: هذا حديث حسن.

تنبيه: قول المصنف [جفت الأقلام، وطويت الصحف] بهذا اللفظ عند الآجري في الشريعة (٤١٢) بسند ضعيف.

رَسُولَ اللهِ، قَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ : فَلِأَيِّ شَيْءٍ إِذَنْ نَعْمَلُ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرًا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ لَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ» ثُمَّ قَالَ: بِيَدِهِ فَقَبَضَهَا ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ» ثُمَّ قَالَ بِالْيُمْنَى: فَنَبَذَ بِهَا، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ»، وَنَبَذَ بِالْيُسْرَى، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

قال :

> كَمَا قَالَ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠].

هذه الآية وما في بابها تدلّ على المرتبة الأولى وبيان أنّ الله يعلم ما في السماوات والأرض وذلك الذي يعلمه في كتاب، إنّ ذلك على الله يسير، قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]، لكمال علمه .

قال :

وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

وفي هذه الآية بيان من الله على أنّ أيّ شيء يقع فيه العبدفهو مكتوب في كتاب يدلّ على ما تضمّنه حديث عبادة وما في بابه وهي دالّة على المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة.

قال :

وهذا التَّقْدِيْرُ التَّابعُ لِعِلْمِهِ سبحانه، يكونُ في مواضعَ جملةً وتفصيلًا، فقد كتبَ في اللوحِ المحفوظِ ما شاءَ، وإذا خلقَ جسدَ الجنينِ قبلَ نفخ الروحِ فيهِ، بعثَ إليه مَلَكًا فيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ، فيُقالُ له: اكتبْ: رزقَهُ، وأجلَهُ، وعملَهُ، وشقيٌّ أو سعيدٌ وَنَحْوَ ذلك.(١)

تقدّم الكلام على أنواع التقدير والذي ذُكر ودلّ عليه حديث ابن مسعود في الصحيحين وجاء من حديث أنس بن مالك وحذيفة بن أَسِيد ، قال النبيّ : «إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ» -قَالَ زُهَيْرٌ: حَسِبْتُهُ قَالَ: الَّذِي يَخْلُقُهَا- «فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيَجْعَلُهُ اللهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ فَيَجْعَلُهُ اللهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ مَا رِزْقُهُ مَا أَجَلُهُ مَا خُلُقُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا» رواه مسلم (٦٨٩٨).

---

(١) هذه إشارة إلى حديث ابن مسعود المشهور، الذي رواه الشيخان خ(٣٢٠٨) م(٢٦٤٣): «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» الحديث.

قال :

فهذا القَدَرُ قد كان يُنْكِرُهُ غلاةُ القَدَرِيَّةِ قديمًا؛ ومُنْكِرُوهُ اليومَ قليلٌ.

أي: مرتبة العلم والذين يُنكرون هذا التقدير كفّار لأنّهم يُنكرون ما تظافرت الأدلّة على إثباته وما عُلم ضرورة بأنّ الله بكلّ شيء عليم وبكلّ شيء محيط، وقد كفرهم ابن عمر عند مسلم(٨) عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ

يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

وكان الشافعي يقول: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا.

قال :

وأما الدرجةُ الثانيةُ: فهو مشيئةُ اللهِ تعالى النَّافِذَةُ، وقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وهو: الإيمانُ بأنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ،[1] وأنَّه ما في السمواتِ والأرضِ مِنْ حَرَكَةٍ ولا سُكُونٍ، إلَّا بمشيئةِ اللهِ سبحانه، لا يكونُ في مُلْكِهِ إلَّا ما يُريدُ، وأنَّه سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ مِنَ: المَوْجُودَاتِ، والمَعْدُوماتِ، فما مِنْ مَخْلُوقٍ في الأرضِ ولا في السماءِ، إلَّا اللهُ خالقُهُ سبحانه، لا خالقَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواهُ.

---

(١) هو أمر مجمع عليه عند أهل السنة كما أبانه المصنف هنا، وقد جاء في معناه عدة أحاديث كلها ضعاف، يغني عنها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقد نقل الإجماع على هذا أيضًا: ابن قتيبة في مقدمة كتابه الاختلاف في اللفظ، وأبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين ص(٣٤٦).

تضمّنت هذه الفقرة الإشارة إلى مرتبتين عظيمتين من القدر، كما تضمّنت الفقرة التي قبلها **مرتبتين عظيمتين** العلم والكتابة وهذه تضمّنت المشيئة والخلق.

الأولى: المشيئة وأدلّتها أكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر وقد تقدّم شيءٌ منها ومن أشهرها ما يعلمه الناس ويسمعونه وهو قول الله : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[التكوير:٢٩]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[البقرة:٢٥٣]، وقال : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام:١٢٥]، وكلّ المسلمين يقولون هذه العبارة (ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن)، وكان النبيّ إذا أمر أنس بن مالك بأمرٍ فلم يتحقّق ذلك الأمر، قال : «**لَوْ قُضِيَ لَكَانَ، وَلَوْ قُدِّرَ لَكَانَ**» رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٧١٤)، وابن حبّان في صحيحه (٧١٧٩). وقال النبيّ : «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرِهُ لَهُ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٩). وهكذا في حديث عبدالله بن مسعود عند مسلم (١٨٧)، قال النبيّ فيما يرويه عن ربّه : «**إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّى عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**»، فمشيئة الله نافذة، ولا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء من صغار الأمور وكبارها إلّا بمشيئة الله، وأنّ المشيئة الكونية لا تعلّق لها بالمحبّة بل هي في المحبوب وغير المحبوب.

الثانية: أنّ الله خالق الخلق وأعمال الخلق لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقال النبيّ : «إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» من حديث حذيفة ، ومن عجيب أمر المعتزلة أنّهم يزعمون أنّ الله لم يخلق أفعال العباد التي هي مخلوقة مربوبة ويذهبون إلى أنّ القرآن مخلوق، ما دليلكم على أنّ القرآن مخلوق؟ قالوا: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، والقرآن شيء، ولماذا أفعال العباد ليست مخلوقة؟ قالوا: هم يخلقون أفعالهم، والنبيّ يقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، فأخرجوا المخلوق من عموم (كلّ) وأدخلوا صفة الله في عموم (كلّ)، وهذا من تناقضهم.

قال :

ومع ذلك فقد أمرَ العبادَ بطاعتِهِ، وطاعةِ رسلِهِ، ونهاهم عن معصيتِهِ.

يعني مع كون القدر مفروغ منه فلا حجة في ترك العمل فقد أمر الله تعالى العباد بطاعته ونهاهم عن معصيّته فالواجب على الإنسان أن يلزم الطاعة ويبتعد عن المعصية وإن قُدّر عليه شيء من ذلك يستغفر الله، ولذلك لمّا قال المشركون كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٤٨]، أخبر الله أنّ هذا هو التكذيب وأنّ هذا هو الكفر، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، فردّ الله عليهم الاحتجاج بالقدر.

قال :

وهو سبحانه يحبُّ المتقينَ، والمحسنينَ، والمقسطينَ، ويَرْضَى عن الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ، ولا يُحِبُّ الكافرينَ، ولا يَرْضَى عَنِ القومِ الفاسقينَ، ولا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، ولا يَرْضَى لعبادِهِ الكُفْرَ، ولا يحبُّ الفسادَ. وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، والله خالقُ أفعالِهِم.

إشارة لفساد قول من يزعم أن الإرادة الكونية التي هي المشيئة مرادفة للمحبة، وبمعرفة الفوارق بين الإرادتين ينتفي الإشكال ومن الفوارق:

الأوّل: أنّ الإرادة الكونيّة لا بدّ أن تقع والإرادة الشرعية قد تقع أو لا تقع.

الثاني: الإرادة الكونيّة تكون في المحبوب وغيره والإرادة الشرعية لا تكون إلّا في المحبوب.

الثالث: الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما أراد الله كونًا كان وما لم يرد لم يكن، بينما الإرادة الشرعية مرادفة للأمر والنهي والمحبّة.

الرابع: تجتمع الإرادة الكونية والإرادة الشرعيّة في حقّ المؤمن المطيع، وتفترق الإرادة الكونية عن الإرادة الشرعية في حقّ العاصي.

الردّ على الجبريّة والقدريّة

قوله : (وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً) رد على الجبرية. (وَاللهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُم) رد على نفاة القدر من المعتزلة يقولون إنّ الله لم يخلق أفعال العباد، والحقّ الذي

لا غيره أنّ الله خلقها للابتلاء والاختبار، خلق شرها وهو غير راضي بها، لكن لحكمة علمها وقد تقدّم أنّ الشرّ بالنسبة إلى الله تعالى ليس بشرّ محض، لأنّ الله أوجده لمصلحة.

قال :

والعبدُ هو: المؤمنُ والكافرُ، والبَرُّ والفاجرُ، والمصلِّي والصائمُ. وللعبادِ قدرةٌ على أعمالِهِم، ولهم إرادةٌ، واللهُ خالقُهُم، وخالقُ قُدْرَتِهِم وإرادَتِهِم.

هذا هو حال العبدمع أنّ الله خالق لفعله، فالخلق لله والفعل من العبدويُنسب إليه وتلحقه أحكامه.

هذا ردٌّ على الجبريّة لأنّهم يزعمون أنّ العبدكالريشة في مكان تتلاطم فيه الرياح، فالعبدلديه قدرة واستطاعة وإرادة وفعل وهذا الذي يقول هذا القول، لو أُخذ حجرٌ وكسر رأسه سيذهب إلى السلطان ويقول فلان كسر رأسي، إذا قال له السلطان الله الذي كسر رأسك، سيرضى أم يخالف؟ سيخالف بلا شكّ ولا ريب.

والقول بالجبر تضييع للحدود، ومن قولهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِـمَا يَخْتَارُهُ مِنِّـي فَفِعْـــلِي كُلُّـــهُ طَاعَـــاتُ

الزنا والفجور والخمر والصلاة والصيام والذبح للقبر والذبح للصنم ودعاء غير الله فكلّ هذا طاعات، نقول له أيّها الجبري الله لم يرضى من المشركين هذا الاعتذار، لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:١٤٨]،قال

لهم الله : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾[الأنعام: ١٤٨].

قال :

> كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٨-٢٩].

فأثبت سبحانه للعبدمشيئة، لكنها تابعة لمشيئته، والمعتزلة يستدلّون بالآية الأولى ويتركون الثانية والجبرية يستدلّون بالآية الثانية ويتركون الأولى وأهل السنّة يستدلّون بالآيتين، ففي الآية الأولى إثبات مشيئة العبدوالآية الثانية فيها إثبات مشيئة الله النافذة وأنّ مشيئة العبدمقيّدة بمشيئة الله، ويستدلّ الجبرية بقول الله : ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال:١٧]، وهذا الدليل فيه ردٌّ عليهم من أنّ الله يقول لمحمّد: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾، فأثبت له رميًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾، أثبت فعلًا وهو رمي الحصى ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي سدّد، فالآية ردٌّ عليهم فكلّ دليل يستدلّ به الجبري على بدعته فيه ردٌّ على النفاة النفاة من المعتزلة، إذ يستدلّ الجبري بعموم أدلّة المشيئة والإرادة الكونية والعلم والكتابة والخلق، لكنه يستدلّ بها على أنّ الله هو الفاعل.

والجبري يعطل العبدمن الإرادة والاستطاعة والقوّة والمشيئة، والمعتزلي يُثبتها للعبد، فأيّ دليل يستدلّ به القدري فيه ردٌّ على الجبرية وسبب ضلال

القدرية والجبرية أنّهم أخذوا جزءًا من الأدلّة وتركوا الجزء الآخر بينما أهل السنّة أخذوا بعموم أدلّة القدر فسلموا من الجبر وسلموا من الاعتزال.

والسبب الثاني في ضلال المعتزلة والجبرية أنّهم جعلوا الإرادة والمشيئة هي المحبّة وقد تقدّم الفرق بين الإرادة الكونيّة والإرادة الشرعية وعلمنا أنّ القدر الكوني يكون في المحبوب وغيره.

فالشبهة واحدة وهي أنّ المشيئة (الإرادة الكونية) هي المحبوب ثمّ انقسموا إلى فرقتين، فرقة قالت كلّ ما يقع في هذا الكون فهو محبوب لله وهم الجبرية، وفرقة قالوا ما يقع في الكون من معاصي ومن سيّئات غير مخلوق لله لأنّه غير محبوب، وأهل السنّة قالوا القدر الكوني الذي يقع منه المحبوب ومنه غير محبوب، فالمحبوب مراد لذاته وغير المحبوب مراد لغيره أي للمصالح التي تحقّق.

قال :

وهذه الدرجةُ من القَدَرِ، يُكَذِّبُ بها عامةُ القدريةِ الذين سَمَّاهُمُ النبيُّ ﷺ: «مَجُوْسَ هذهِ الأُمَّةِ»[(١)].

(١) حسن بشواهده: هذا الحديث جاء عن جمع من الصحابة منهم: أنس وحذيفة وابن عمر وسهل وأبو هريرة وجابر وعائشة، وكلها -فيما وقفنا عليه- أحاديث ضعاف؛ لا تخلو طريق من مقال إلا من طريق واحدة، وقد جمعت طرقها من نحو خمس وعشرين طريقًا -ولله الحمد والمنة-، ولولا خشية الإطالة لسقتها، ولكن نقتصر على أحسنها وهي **ثلاثة** فقط:

الأولى: من طريق موسى بن إسماعيل عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه أبي حازم عن ابن عمر. أخرجه أبوداود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وهو حسن إلى أبي حازم لكنه منقطع.

ورواه عمر مولى غفرة وزكريا بن منظور عن أبي حازم عن نافع عن ابن عمر، وهما ضعيفان=

أي مرتبة الخلق ومرتبة المشيئة يُكذّب بها القدرية الذين هم مجوس هذه الأمّة، وهم المعتزلة لحديث عن ابن عمر عند أبي داود (٤٦٩١) وله شواهد يُحسّن بها، قال النبي : «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**»، وسموا مجوسًا؛ لأنّ المجوس يعتقدون أنّ للكون خالقيْن، خالق النور وخالق الظلمة وخالق النور الذي يُعطي الخير وخالق الظلمة ضدّ ذلك، حتى قال بعض الشعراء:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... تُحَدِّثُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

يعني كم من إنسان يقوم آخر الليل ويقول: (ياربّ اغفر لي، يارب انصرني، يارب ارحمني) وتأتي الإجابة ويأتي الفرج في الليل، والمجوس يعتقدون أنّ الظلمة إله الشرّ فجاء القدرية النفاة وزعموا أنّ كلّ مخلوق يخلق

= وقد اضطربا في الحديث كثيرًا، فروايتهما منكرة لضعفهما، ثم لمخالفتهما لعبدالعزيز بن أبي حازم وهو أرجح منهما.

الثانية: من طريق محمد بن عبدالملك بن زنجويه عن حجاج بن منهال عن معتمر بن سليمان عن حجاج بن فرافصة عن نافع عن ابن عمر. أخرجه ابن بشران في أماليه (٤٣٢)، ورجاله ثقات ما عدا معتمر بن سليمان حسن الحديث، وشيخه حجاج بن فرافصة فيه كلام لا يخرجه عن مرتبة الاحتجاج والله أعلم.

الثالثة: من طريق بقية بن الوليد عن الأوزاعي عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر. أخرجه ابن ماجه (٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، والآجري في الشريعة (٣٨٤)، وبقية وابن جريج وأبو الزبير مدلسون وقد عنعنوا.

لكن صرح بقية بالتحديث في رواية ابن أبي عاصم، فبَقِيَ عنعنة ابن جريج وأبي الزبير وهي في الشواهد الآن.

والحديث حسنه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٣٣٨و٣٤٢)، وغيره، ولولا خشية الطول لذكرنا أقوالهم.

فعل نفسه فجعلوا مع الله خالقين، مع أن الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال :

ويغلو فيها قومٌ من أهلِ الإثباتِ، حتى يَسْلُبُوا العبدَ قدرتَهُ واختيارَهُ، ويُخْرِجُونَ عن أفعالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ، حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

وهؤلاء هم الجبرية على ما تقدم

القول في الإيمان

قال :

> فصلٌ
>
> ومن أصولِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: أنَّ الدِّينَ والإيمانَ: قولٌ وعملٌ، قولُ القلبِ واللسانِ، وعَمَلُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ، وأَنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ.

تحقيق هذا الأصل من المهمات؛ وذلك لأن سبب ضلال الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة لعدم تحقيقه، قد نقل الإمام الشافعي وغيره من الأئمّة الإجماع على هذا التعريف فأهل السنّة والجماعة على أنّ الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان وعبر بعض السلف إلى الاقتصار بقولهم: الإيمان قول وعمل، والمراد بالقول قول القلب واللسان وقول القلب هو تصديقه وقول اللسان هو نطقه والمراد بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب هو إخلاصه وخشيته وخوفه ورجاءه وتوكّله إلى غير ذلك، والدليل على ما قلنا حديث أبي هريرة عند البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، قال النبيّ : «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»، ومن المعلوم أنّ قول لا إله إلّا الله باللسان مجرّد عن الاعتقاد لا يفيد صاحبه وإنّما الذي يُفيد صاحبه هو الاعتقاد والنطق الموافق للاعتقاد وقوله: (وأدناها إماطة الأذى عن الطريق

والحياء شعبة من الإيمان)، فالحياء عمل قلبي وإماطة الأذى عمل الجوارح، ولهذا نجد أن الله قد قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من خمسين موضعًا في القرآن وهذا يدلّ دلالة صريحة على أنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان ومعنى ذلك أنّ الصلاة من الإيمان والحجّ من الإيمان والصدق من الإيمان وبرّ الوالدين من الإيمان والإحسان إلى الأرحام من الإيمان والإحسان إلى الجيران من الإيمان وقيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا من الإيمان وصيام رمضان من الإيمان كما قال النبيّ : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠). وقال النبيّ : «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا فَإِنَّه يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٧). وقال النبيّ : «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦) واللفظ له. وقال النبيّ : «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ

أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» من حديث أنس عند البخاري (٢١) ومسلم (٤٣).

وقال الله : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧]، وفي آيات كثيرات وفي أحاديث كثيرات تدلّ على أنّ الأعمال من الإيمان.

وقد انقسم المخالفون لأهل السنة في مسمى الإيمان إلى **أقسام**:

أوّلهم: الخوارج حيث زعموا أنّ فاعل الكبيرة كافر كفر أكبر مخرج من الملّة والسبب في ذلك أنّ الخوارج يُخالفون أهل السنّة في الزياده والنقصان والأدلّة على زيادة الإيمان، ونقصانه كثيرة منها قول الله : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢]، فذكر الله الزيادة وقال الله : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[المدثر:٣١]، وقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[محمد:١٧]، ويقول الله : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، قال الإمام البخاري :

(فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص)، ومازال الإيمان ينزل على النبيّ والناس يعملون به فيزداد إيمانهم وخيرهم وبرّهم ومن الأحاديث الدالّة على هذه المسألة حديث أبي سعيد عند مسلم (٤٩)، قال النبيّ : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»، وفي الحديث الآخر قال النبيّ : «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» من حديث ابن مسعود عند مسلم (٥٠). وفي حديث أنس في الصحيحين عند البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣)، قال النبيّ فيما يرويه عن الله : «فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ». وقال النبيّ : «فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» من حديث أبي سعيد عند البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣). والنبيّ يقول للنساء: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ قُلْنَ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا

رَسُولَ اللهِ قَالَ أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ قُلْنَ بَلَى قَالَ فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ قُلْنَ بَلَى قَالَ فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا» من حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٠٤) ومسلم (٧٩)، ففسّر نقصان الدين بأنّها تترك الصلاة فالمرأة حين تترك الصلاة وهي معذورة ينقص دينها بنصّ الحديث فكيف بالذي يرتكب المعاصي ويرتكب السيّئات، والنبيّ يقول كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧): «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

والأدلّة المتواترة على زيادة الإيمان ونقصانه إمّا لفظًا وإمّا معنًا ثمّ إنّ المرء يجده من نفسه ذل، فَعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُوبَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُوبَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ،

لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. أخرجه مسلم (٢٧٥٠). وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: غَدَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكْنَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالُوا: النِّفَاقُ، النِّفَاقُ. قَالَ: «**أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ النِّفَاقَ**» أخرجه أبويعلى (٣٣٠٤).

ثم إنه من المعلوم عند الناس أنّهم إذا رأوا المستقيم بلحية وثوب قصير ويُحافظ على الصلوات في وقتها ويبرّ والديه ويُحسن إلى الأرحام يقولون هذا إيمانه زائد، وإذا رأوا حالق لحية يستخدم الأغاني ويعصي الله بأنواع المعاصي قالوا هذا إيمانه ناقص ثمّ إنّنا نجد أنّ الإنسان كلّما ازداد علمه وعمله وجد ذلك، في سبعة أوجه ذكرها شيخ الإسلام في كتابه الإيمان الأوسط .

وممن ذهب إلى أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص المرجئة والخوارج فزعموا أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأنّ زيادة الإيمان ونقصانه كفر ويستدلّون بحديث رواه مكحول عن أبي هريرة : «**الْإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ**»، وهذا حديث لا يصحّ.

فتلخص أن عقيدة أهل السنة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهذا التعريف هو الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة، وأقوال السلف.

قال اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٥/ ٩٠٧):

قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال يعقوب بن سفيان: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك.

وقال عبدالرزاق: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمر بن راشد وسفيان ابن عيينة يقولون: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال عبدالرزاق أيضًا: لقيت اثنين وستين شيخًا منهم معمر والأوزاعي والثوري والوليد بن محمد القرشي ويزيد بن السائب وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة وشعيب بن حرب ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وإسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، ومن لم يسمعه كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

فمسمى الإيمان عند أهل السنة مرتكز على **خمسة أمور**:

١- قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.

٢- قول اللسان وهو النطق بالشهادتين.

٣- عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل وغيرها.

٤- عمل اللسان وهو الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلام المعروف وقراءة القرآن... إلى غير ذلك.

٥- عمل الجوارح وهو العمل الذي لا يؤدى إلى بواسطتها من ركوع وسجود ومشي إلى المساجد وسفر الحج والجهاد وغير ذلك.

وهذا هو تعريف أهل الحق والهدى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢]، فهذه فيها عمل القلب.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الأنفال:٣]، وهذه جمعت بين عمل القلب واللسان والجوارح.

أما المرجئة ومن وافقهم فقد ذهبوا في تعريف الإيمان مذاهب بعيدة عن الحق.

فقال بعضهم: هو الإقرار باللسان وتصديق بالجنان، وإلى هذا ذهب الطحاوي.

ومنهم من يقول: إنه تصديق بالجنان فقط، والإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب الماتريدي ويُروى عن أبي حنيفة.

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط.

وذهب الجهمية ومن وافقهم إلى أنه المعرفة بالقلب، وكل هذه الأقوال باطلة ومخالفة لطريقة الرشد.

وأبعدها عن الحق قول الجهم، فإنه لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم صدقوا موسى وهارون عليهما السلام ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، بل إبليس يكون عند جهم مؤمنًا كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه: ﴿ قَالَ

رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[ص:٧٩]، وقوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الأعراف:١٦]، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص:٨٢].

والكفر عند جهم هو الجهل بالرب ولا أحدًا أجهل منه بربه. اهـ[(١)].

وعلى قول الكرامية: المنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الإيمان.

وعلى قول مرجئة الفقهاء: بأن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد، يكون الفسقة وقطاع الصلاة وغيرهم من أهل الإجرام كاملي الإيمان، لأنهم قد أقروا بألسنتهم الإسلام والإيمان واعتقدوا بقلوبهم، وأنَّ لهم هذا، ورحم الله ميمون بن مهران إذ يقول عندما رأى جارية تغني فقال: الخيبة لمن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم بنت عمران.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان أما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عند الكرامية، أو بالقلب وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبومنصور الماتريدي، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر. اهـ[(٢)].

وكان السبب في ضلال هذه الطوائف كونهم جعلوا الإيمان حقيقة واحدة لا تتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة...

---

(١) شرح الطحاوية (٣٣٢).
(٢) شرح الطحاوية (٣٣٣).

وقالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان...

وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة...

قالوا: فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنًا بما فيه من الإيمان كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، ثم إن هذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر.[(١)]

ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها، وقد صرح بذلك مجموعة من السلف فقالوا: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[(٢)].

وفي مرتكب الكبيرة كان أهل السنة هم الوسط الخيار، قال شيخ الإسلام: ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب[(٣)].

---

(١) راجع مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠-٥١٢).
(٢) الفتح لا بن رجب (١/ ٩).
(٣) المجموع (٧/ ٦٧٩).

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾[البقرة:١٧٨]، إلى أن قال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[البقرة:١٧٨]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾[الحجرات:٩]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[الحجرات:١٠].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**» أخرجاه في الصحيحين.

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**». قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ،**

وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤]. فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد[(١)].

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام، وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان اسمان لمعنى واحد، وممن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المرزوي، وابن مندة، وابن عبدالبر.

وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[الحجرات:١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول ﷺ كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

---

(١) شرح الطحاوية (٣٦٠-٣٦١).

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخاري ومسلم وفيه: «**آمُرُكُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟**». قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغَانِمِ الخُمُسَ**».

وجماع القول أنهما إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.

القول في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان كأن تقول أنا مؤمن إن شاء الله أو أن يُقال لك أنت مؤمن؟ تقول أرجو ذلك، أو تُسأل أنت مؤمن؟ فتقول مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبهذا تنوّعت عبارات السلف في الاستثناء، والناس في مسألة الاستثناء انقسموا إلى ثلاثة أقسام، طرفان ووسط:

الطرف الأوّل: الأشاعرة: حيث أوجبوا الاستثناء.

الطرف الثاني: المرجئة: الذين زعموا أنّ من قال أنا مؤمن إن شاء الله كان كافر، لأنّه شكّ في إيمانه ولهذا حرّم المرجئة زواج الحنفية من الشافعي.

واوسط هم أهل السنّة والجماعة: حيث ذهبوا إلى استحباب الاستثناء في الإيمان كما قال ابن مهدي : (أصل الإرجاء ترك الاستثناء)، والدليل على ذلك من كتاب الله وسنّة رسوله ، أمّا من كتاب الله فإنّ الله يقول: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾[الفتح:٢٧]، وقد علم أنّهم داخلون ومع ذلك قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وبهذه الآية استدلّ الإمام أحمد ومن إليه من أهل العلم على استحباب الاستثناء في الإيمان، وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ فَيَقُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا مُؤَجَّلُونَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ اللهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ**» رواه مسلم (٩٧٤). وقد علم أنّه لاحق بهم، وجاء رجل إلى

عبدالله بن مسعود ، فقال: (أنا مؤمن)، فقال له : (قل في الجنة؟)، فأبى فقال له: (كما استثنيت في الثانية فاستثن في الأولى).

ويكون الاستثناء جائزًا إذا كان خائفًا من تزكية النفس وباعتبار ما يختم له،أو على التبرك بذكر الله تعالى، أما إن كان الاستثناء على الشك فهذا محرم لا يجوز قطعًا، بل هو كفر.

وقد نقل أبويعلى، وغيره إجماع السلف على جواز الاستثناء في الإيمان.

العلاقة بين مسمّى الإيمان ومسمّى الإسلام

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام، وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان اسمان لمعنى واحد، وممن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المرزوي، وابن مندة، وابن عبدالبر.

وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[الحجرات:١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس في الصحيحين البخاري (٥٣) ومسلم (١٧)، أنّ وفد عبد قيس جاءوا إلى النبيّ ، فقال : «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»، ففسّر الإيمان بأركان الإسلام.

وجماع القول أنهما إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.

واستدلّ بعض العلماء على أنّ المسمى واحد بقول الله : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الذاريات:٣٥-٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان الأوسط وقال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد. وعارضوا بين الآيتين؛ وليس كذلك؛ بل هذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمنا وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين. وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين ولم تكن من المخرجين الذين نجوا؛ بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه وفي الباطن مع قومها على دينهم خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه.

قال :

وَهُمْ مَعَ ذلك لا يُكَفِّرُونَ أهلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المعاصي والكبائرِ، كما تَفْعَلُهُ الخوارجُ.

أي وأهل السنة لا يكفرون بالمعاصي غير المكفرة كما هو دين الخوارج الذين يكفرون المسلمين بالكبائر فيما دون الشرك وخالفوا بذلك إجماع المسلمين،

وطريقة المستقيمين، وبهذه البدعة الشنيعة استحلوا دماء المسلمين وكفروهم وقد حذر رسول الله من بدعتهم في أحاديث كثيرة، ذكر بعضها الإمام مسلم في آخر كتاب الزكاة ما يبين خطر هذه البدعة وغيرها من البدع، فمنها:

أخرج الإمام مسلم (١٠٦٣): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللهِ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعدِلْ، قَالَ: «**وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؛ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: «**مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ؛ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نَبْهَانَ، قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: أَتُعْطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ**»؛ فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ يَا مُحَمَّدُ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**فَمَنْ يُطِعِ اللهَ إِنْ عَصَيْتُهُ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا تَأْمَنُونِي؟**» قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،**

يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ مِنَ الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ، فَقَالَ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا: قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، -قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ:- لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ».

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّهُمَا أَتَيَا أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ فَسَأَلَاهُ عَنْ الْحَرُورِيَّةِ: هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ يَذْكُرُهَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي مَنْ الْحَرُورِيَّةُ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، فَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ أَوْ

حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رِصَافِهِ فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ، هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ؟».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْقِدْحُ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ**» قَالَ أَبُوسَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ؛ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَوُجِدَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللهِ الَّذِي نَعَتَ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ذَكَرَ قَوْمًا يَكُونُونَ فِي أُمَّتِهِ، يَخْرُجُونَ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ سِيمَاهُمُ التَّحَالُقُ، قَالَ: «**هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ أَوْ مِنْ أَشَرِّ الْخَلْقِ، يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ**» قَالَ: فَضَرَبَ النَّبِيُّ لَهُمْ مَثَلًا، أَوْ قَالَ قَوْلًا: «**الرَّجُلُ يَرْمِي الرَّمِيَّةَ**» أَوْ قَالَ: «**الْغَرَضَ فَيَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى بَصِيرَةً، وَيَنْظُرُ فِي النَّضِيِّ فَلَا يَرَى بَصِيرَةً، وَيَنْظُرُ فِي الْفُوقِ فَلَا يَرَى بَصِيرَةً**»، قَالَ: قَالَ أَبُوسَعِيدٍ: وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ».

وعَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ : إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ فَلأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: ذَكَرَ الْخَوَارِجَ، فَقَالَ فِيهِمْ: «رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ أَوْ مُودَنُ الْيَدِ أَوْ مَثْدُونُ الْيَدِ، لَوْلَا أَنْ تَبْطَرُوا؛ لَحَدَّثْتُكُمْ بِمَا وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» قَالَ: قُلْتُ: آنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

وعن زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ الْجُهَنِيُّ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ، فَقَالَ عَلِيٌّ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ

فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ» فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ؛ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ: فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُاللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ وَسَلُّوا السُّيُوفَ وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ، قَالَ: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ، فَقَالَ عَلِيٌّ : الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ؛ فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: أَخِّرُوهُمْ؛ فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ؟ فَقَالَ: إِي وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ.

وَعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ؛ أَنَّ الْحَرُورِيَّةَ لَـمَّا خَرَجَتْ وَهُوَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، قَالُوا: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ، قَالَ عَلِيٌّ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ وَصَفَ نَاسًا إِنِّي لَأَعْرِفُ صِفَتَهُمْ فِي هَؤُلَاءِ، يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ، لَا يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ، مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ إِلَيْهِ، مِنْهُمْ أَسْوَدُ إِحْدَى يَدَيْهِ طُبْيُ شَاةٍ، أَوْ حَلَمَةُ ثَدْيٍ؛ فَلَمَّا قَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ: انْظُرُوا؛ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، فَقَالَ: ارْجِعُوا فَوَاللهِ مَا

كَذَبْتُ، وَلَا كُذِبْتُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ وَجَدُوهُ فِي خَرِبَةٍ فَأَتَوْا بِهِ حَتَّى وَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: وَأَنَا حَاضِرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَقَوْلِ عَلِيٍّ فِيهِمْ.

عَنْ يُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَأَلْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْخَوَارِجَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ: «**قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ**».

وعَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؛ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَتِيهُ قَوْمٌ قِبَلَ الْمَشْرِقِ مُحَلَّقَةٌ رُءُوسُهُمْ**».

وعند أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٠) من طريق سيار قال: لَـمَّا أُتِيَ بِرُءُوسِ الْأَزَارِقَةِ فَنُصِبَتْ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، جَاءَ أَبُو أُمَامَةَ فَلَمَّا رَآهُمْ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ: «**كِلَابُ النَّارِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، هَؤُلَاءِ شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وَخَيْرُ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ هَؤُلَاءِ**» قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَا شَأْنُكَ دَمَعَتْ عَيْنَاكَ؟ قَالَ: رَحْمَةً لَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: قُلْنَا: أَبِرَأْيِك قُلْتَ: هَؤُلَاءِ كِلَابُ النَّارِ، أَوْ شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَجَرِيءٌ بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا اثْنَتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ قَالَ: فَعَدَّ مِرَارًا.

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٣٠١-٣٠٢): من طريق قَطَنُ بْنُ عَبدِاللهِ أَبُومُرَيٍّ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءُوا بِسَبْعِينَ رَأْسًا مِنْ رُءُوسِ الْحَرُورِيَّةِ، فَنُصِبَتْ عَلَى دُرَجِ الْمَسْجِد، فَجَاءَ أَبُوأُمَامَةَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**كِلَابُ جَهَنَّمَ، شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ، وَمَنْ قَتَلُوا خَيْرُ قَتْلَى تَحْتَ السَّمَاءِ**» وَبَكَى وَنَظَرَ إِلَيَّ، وَقَالَ: يَا أَبَا غَالِبٍ، إِنَّك مِنْ بَلَدِ هَؤُلَاءِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَعَاذَك، قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ: اللهُ مِنْهُمْ، قَالَ: تَقْرَأُ آلَ عِمْرَانَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ:

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وقَالَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قُلْتُ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُك تَهْرِيقُ عَبْرَتَكَ، قَالَ: نَعَمْ، رَحْمَةً لَهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، قَالَ: قد افْتَرَقَتْ بَنُوإِسْرَائِيلَ عَلَى وَاحِدَةٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَزِيدُ هَذِهِ الأُمَّةُ فِرْقَةً وَاحِدَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ السَّوَادَ الأَعْظَمَ عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ، السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ خَيْرٌ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، أَمِنْ رَأْيِكَ تَقُولُ أَمْ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ، قَالَ: بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلاَ مَرَّتَيْنِ حَتَّى ذَكَرَ سَبْعًا.

وعند أحمد (٤/ ٣٨٢-٣٨٣) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الْأَزَارِقَةُ، قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ، لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ، قَالَ: قُلْتُ: الْأَزَارِقَةُ وَحْدَهُمْ أَمِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا؟ قَالَ: بَلِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ يَدِي فَغَمَزَهَا بِيَدِهِ غَمْزَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ جُمْهَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأْتِهِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعْلَمُ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعْهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعْلَمَ مِنْهُ.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٢٤) عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤] أَهُمُ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا: لَيْسَ فِيهَا طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ، وَلَكِنَّ الْحَرُورِيَّةَ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧] وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٢٨) قال:

يَحْيَى بْنُ آدَمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ حَسِيلِ بْنِ سَعْدِ بْنِ حُذَيْفَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا حَبِيبُ أَبُو الْحَسَنِ الْعَبْسِيُّ، عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: دَخَلَ رَجُلٌ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ ثُمَّ قَالَ آخَرُ: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ فَمَا تَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ؟ يَقُولُونَ: لَا إِمَارَةَ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يُصْلِحُكُمْ إِلَّا أَمِيرٌ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ، قَالُوا: هَذَا الْبَرُّ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا بَالُ الْفَاجِرِ؟ فَقَالَ: يَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ وَيُمْلِي لِلْفَاجِرِ، وَيُبَلِّغُ اللهُ الْأَجَلَ، وَتَأْمَنُ سُبُلُكُمْ، وَتَقُومُ أَسْوَاقُكُمْ، وَيُقَسَّمُ فَيْؤُكُمْ وَيُجَاهَدُ عَدُوُّكُمْ وَيُؤْخَذُ الضَّعِيفُ مِنَ الْقَوِيِّ أَوْ قَالَ: مِنَ الشَّدِيدِ مِنْكُمْ.

قال :

> بل الأخوةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصي، كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:٩-١٠].

إذ لو لم يكن فاعل المعصية فيما دون الشرك مسلمًا لما وصفه الله تعالى بالأخ، ولكان حد العاصي المرتكب لما يوجب الحد القتل دائمًا، لكن الواقع أن الله نوع الحدود؛ فالسارق تقطع يده، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨]، والزاني البكر يجلد، وهكذا قاذف المحصن، قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[النور:٢-٤]، وشارب الخمر. وتأمل ما قاله تعالى في حق القاتل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ وسماه أخا، وهكذا في الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

قال أبوعبيد القاسم بن سلام: ثم قد وجدنا الله تبارك وتعالى يكذب مقالتهم وذلك أنه حكم في السارق بقطع اليد، وفي الزاني والقاذف بالجلد، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء إلا القتل؛ لأن رسول الله قال : «**من بدل دينه فاقتلوه**»[(١)] أفلا ترى أنهم لو كانوا كفارًا لما كانت عقوباتهم القطع والجلد؟ وكذلك قول الله فيمن قتل مظلومًا: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، فلو كان القتل كفرًا ما كان للولي عفو ولا أخذ دية، ولزمه القتل، وأما القول الرابع الذي فيه تضعيف هذه الآثار، فليس مذهب من يعتد بقوله، فلا يلتفت إليه، إنما هو احتجاج أهل الأهواء والبدع، الذين قصر علمهم عن الاتساع، وعييت أذهانهم عن وجوهها، فلم يجدوا شيئًا أهون عليهم من أن يقولوا: متناقضة، فأبطلوها كلها. وإن الذي عندنا في هذا الباب كله: أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانًا، ولا توجب كفرًا، ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه. انتهى

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس (٣٠١٧-٦٩٢٢) و أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) من حديث معاذ في قصته مع أبي موسى في اليهودي الذي ارتد، فقال: لا أجلس حتى يقتل؛ سمعت رسول الله يقول: «**من بدل دينه فاقتلوه**». لكن الحديث صورته الإرسال، وهذا الحديث بعينه قد أخرجه البخاري (٢٢٦١-٦٩٢٣-٧١٥٦)، ومسلم (١٧٣٣) وفيه: لا أجلس حتى يقتل قضاء الله و رسوله.

قال :

ولا يَسْلِبُونَ الفاسقَ المِلِّيَّ اسمَ الإيمانِ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُخَلِّدُونَهُ في النارِ، كما تقولُه المعتزلةُ، بل الفاسقُ يدخلُ في [اسمِ الإيمانِ][1] في مثلِ قوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[النساء: ٩٢]، وقد لا يدخلُ في اسمِ الإيمانِ المُطْلَقِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[الأنفال: ٢]، وقولِ النبيِّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»،[2] ويقولون:[3] هو مُؤْمِنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مُؤْمِنٌ بإيمانِهِ، فَاسِقٌ بكبيرتِهِ، فلا يُعْطَى الاسمَ المُطْلَقَ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ.

بل الفاسق مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ويدخل في مطلق الإيمان فيجزئ في عتق الرقبة ولا يدخل فيمن يُثنى عليهم على ما تقدم بيانه.

فعقيدة أهل السنة والجماعة أن أصحاب الكبائر من أمة محمد لا يخلدون في النار، ففي حديث أبي سعيد عند مسلم قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ**

(١) كذا الصواب، والذي في المطبوع: [اسم الإيمان المطلق] وهو خطأ.

(٢) متفق عليه: خ(٥٥٧٨) م(٥٧) عن أبي هريرة.

(٣) كذا في المخطوطتين و(ف) وهو الصواب، لأنه يحكي قول أهل السنة لا قوله هو، والذي في المطبوع: [ونقول].

أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ.

القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال :

فصلٌ

ومنْ أُصُولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ: سلامةُ قلوبِهم وألْسِنَتِهم لِأَصْحَابِ رسولِ اللهِ ﷺ، كما وَصَفَهُمُ اللهُ به في قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وَطَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».[1]

الحديث بهذا اللفظ جاء عن أبي هريرة عند مسلم (٢٥٤٠)، والمتفق عليه من حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)

---

(١) متفق عليه: خ(٣٦٧٣) –واللفظ له– م(٢٥٤١) عن أبي سعيد إلا قوله: «**فوالذي نفسي بيده**» فلمسلم، وهو بهذا اللفظ عند أبي داود (٤٦٥٨)، والحديث رواه مسلم أيضًا عن أبي هريرة (٢٥٤٠) وهو معلول، أعله الدارقطني وأبو مسعود الدمشقي، وأبانا أن الصواب عن أبي سعيد، وذكر الحافظ في الفتح (٣٦٧٣) أنه شاذ، لكن اختلف المحمل فيه على مَنْ؟ فذهب المزي في تحفة الأشراف أن مُسْلِمًا وَهِمَ فيه وَهْمَ كتابة يظهر من السياق، ورد هذا الحافظ بأن المحمل فيه على من دون مسلم لأمرين:

الأول: أن أبا نعيم لم ينبه على هذا في مستخرجه.

الثاني: أن الدارقطني أعله كما في العلل، ومع ذلك لم ينبه عليه في تعقباته على الشيخين، دلَّ على أن الوهم فيه ليس من مسلم.

انظر: تحفة الأشراف ، وشرح مسلم للنووي، والفتح فإنه بحثه بحثًا نفيسًا فليراجع.

ولفظه «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

وقد تضمّنت هذه الفقرة أصل من أصول أهل السنّة والجماعة وهو سلامة قلوبهم من بغض أصحاب النبيّ وسلامة ألسنتهم من سبّهم وتنقّصهم والخوض فيما شجر بينهم بل طريقتهم الدعاء لهم والاستغفار لهم ممتثلين قول الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، قالت عائشة : ابْنَ أُخْتِي أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ فَسَبُّوهُمْ. رواه مسلم (٣٠٢٢)، وفي الحديث فضل أصحاب رسول الله على غيرهم وتحريم سبّهم وتنقّصهم وسيأتي مزيد بيانٍ.

قال :

> ويَقْبَلُونَ ما جاء به الكتابُ والسنةُ والإجماعُ، مِنْ فضائلِهِم ومراتِبِهِم، فيُفَضِّلُونَ مَنْ أنفقَ مِنْ قبلِ الفتحِ -وهو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ- وقاتلَ، على من أنفقَ مِنْ بعدِه وقاتلَ.

أمّا فضائلهم في القرآن فأكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تذكر منها قول الله :

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال:٧٢].

وقال : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٧٤-٧٥]، وقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٨-٩]، وقال : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[آل عمران:١٩١-١٩٥].

وقال : ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:٨٨-٨٩]، وقال : ﴿وَمَن

يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء:١٠٠].

وقال : ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، وقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل:١١٠]، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٤١-٤٢].

وقال : ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[التحريم:٨]، وقال : ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾[الفتح:١٨].

وقال : ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وقال : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح:٢٩].

وقال : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[النور:٥٥].

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:٨-١٠]

قال القرطبي في جامع أحكام القرآن (١٨/ ٣٢): في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والإستغفار لهم، وأن من سبهم، أو واحدًا منهم، أو اعتقد فيه شرًا إنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره.

قال مالك : من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠].

ومن فضائلهم من السنّة ما في البخاري (٢٨٩٧) ومسلم(٢٥٣٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ».

وفِي مسلم (٢٥٣٣) عَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وفِي مسلم (٢٥٣٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» وَاللهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا، قَالَ: «**ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا**»

وفِي مسلم (٢٥٣٥) عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللهِ بَعْدَ قَرْنِهِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً - «**ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»

وفِي مسلم (٢٥٣٦) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ**».

وفِي صحيح البخاري (٣٦٩٢) عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، قَالَ: لَـمَّا طُعِنَ عُمَرُ جَعَلَ يَأْلَمُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ.

وفي البخاري (٣٦٧٣) ومسلم(٢٥٤١) واللفظ له: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**».

وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**».

قال :

ويُقَدِّمُونَ المهاجرينَ على الأنصارِ.

لتقديم الله لهم حيث قال الله : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٨-٩]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩]، فالمهاجرون أفضل من الأنصار في الجملة ومن أفراد الأنصار من هو أفضل من أفراد المهاجرين.

قال :

ويؤمنون بأنَّ اللهَ تعالى قال لأَهْلِ بَدْرٍ -وكانوا ثلاثمائةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ-: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».[١]

وكانت في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة وكان عدد الذين شهدوا غزوة بدر ثلاث مائة وبضعة عشر كما صحّ في البخاري (٣٩٥٩) عن البراء بن عازب قال: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ. وعنه قال: اسْتُصْغِرْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نَيِّفًا عَلَى سِتِّينَ وَالْأَنْصَارُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ. أخرجه البخاري (٣٩٥٦).

وقوله: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) جاء عن عدّة من أصحاب رسول الله منها حديث عليّ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ، قَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟!**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ،

---

(١) متفق عليه: خ(٣٠٠٧) م(٢٤٩٤) عن علي في حديث طويل.

فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «لَقَدْ صَدَقَكُمْ» قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ!» أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤). وفي سنن أبي داود (٤٦٥٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - قَالَ مُوسَى - «فَلَعَلَّ اللهَ» - وَقَالَ ابْنُ سِنَانٍ - «اطَّلَعَ اللهُ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ!».

وفي البخاري (٣٩٩٢) عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَ: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: «وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ».

وكانت أوّل معركة في الإسلام ولهم السابقية ولهذا رفع الله قدرهم وتجاوز عن سيّئاتهم المستقبلية وهذا فضل عظيم.

قال :

وبأَنَّهُ لا يَدْخُلُ النارَ أَحدٌ بايعَ تحت الشَّجرَةِ، كما أَخْبَرَ بِهِ النبيُّ ﷺ،(١) بَلْ قد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنه، وكانوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وأربعمائةٍ.(٢)

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم بشر.

(٢) يشير المصنف إلى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وإلى ما رواه الشيخان خ(٤١٥٤) م(١٨٥٦) عن جابر قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ» وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ.

كما في حديث حفصة ، أنّ النبيّ قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**». قَالَتْ: (بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ)، فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[مريم:٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**قَدْ قَالَ اللهُ** : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم:٧٢]» أخرجه مسلم (٢٤٩٦). وكانوا ألف وأربعة مائة أو ألف وخمسمائة بحذف الكسر أو إضافة الكسر كما أخبر في سورة الفتح، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، وهذا خبر الله الصادق وممّا يدلّ على هذا العدد حديث جابر قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ. رواه البخاري (٤٨٤٠)، وفي رواية مسلم (١٨٥٦) قال : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ. وَقَالَ : بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلَا نَفِرَّ، وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ. وفي رواية قال : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ : «**أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ**»، وَقَالَ جَابِرٌ لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ عَنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ فَقَالَ : لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ. رواه مسلم (١٨٥٦). ومن حديث ابن أبي أوفى قال: كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثَمِائَةٍ وَكَانَتْ أَسْلَمُ ثُمُنَ الْمُهَاجِرِينَ. أخرجه مسلم (١٨٥٧). ومن حديث معقل بن يسار قال: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيُّ يُبَايِعُ النَّاسَ وَأَنَا رَافِعٌ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً قَالَ لَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ. عند مسلم (١٨٥٨).

قال :

ويَشْهَدُونَ بالجنةِ لِمَنْ شَهِدَ له رسولُ اللهِ ﷺ: كالعَشَرَةِ.[١]

سُمّوا بالعشرة لأنّ النبيّ ذكرهم في حديث واحد، فقال : «أَبُوبَكْرٍ فِي الجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ وَطَلحَةُ فِي الجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ وَعَبْدُالرَّحمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ وَأَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»، من حديث عبدالرحمن بن عوف من حديث عبدالرحمن بن عوف الترمذي (٣٧٤٧) و(٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣) عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، بمجموع الطريقين حسن.

قال :

وكَثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ.[٢]

ويدلّ على ذلك ما أخرجه مسلم (١١٩) عن أنس بن مالك أَنَّهُ قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا

(١) صحيح: يشير المصنف إلى حديث أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذي رواه أبوداود (٤٦٤٨، ٤٦٤٩) والترمذي (٣٧٤٨) وغيرهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ: أَبُوبَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ، وَأَبُوعُبَيْدَةَ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ» قَالَ: فَعَدَّ هَؤُلَاءِ التِّسْعَةَ وَسَكَتَ عَنِ الْعَاشِرِ؛ فَقَالَ الْقَوْمُ: نَنْشُدُكَ اللهَ يَا أَبَا الْأَعْوَرِ مَنِ الْعَاشِرُ؟ قَالَ: نَشَدْتُمُونِي بِاللهِ، «أَبُوالْأَعْوَرِ فِي الجَنَّةِ»، وليس في لفظ أبي داود ذكر أبي عبيدة، والحديث قد جاء عن عبد الرحمن بن عوف كما عند الترمذي (٣٧٤٧) وغيره لكنه معل، **انظر**: أحاديث معلة لشيخنا الإمام الوادعي (ص٢٨٤-٢٨٥).

(٢) متفق عليه: خ(٤٨٤٦) م(١١٩) -واللفظ له- عن أنس.

تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢]، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: «**يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكَى؟**» قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى. قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

قال :

وغيرِهم مِنَ الصحابةِ.[1]

مثل بلال ، فعن أبي هريرة عند مسلم (٢٤٥٨)، قَالَ رَسُولُ اللهِ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ: «**يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ**

(١) وهم كثير، منهم:
١- عكاشة بن محصن: خ(٦٥٤١و٦٥٤٢) م(٢١٦و٢٢٠) عن ابن عباس وأبي هريرة.
٢- عبد الله بن سلام: خ(٣٨١٢و٣٨١٣) م(٢٤٨٣و٢٤٨٤) عن سعد بن أبي وقاص ورجل مبهم من أصحاب رسول الله.
٣- خديجة: خ(١٧٩٢و٣٨٢٠) م(٢٤٣٢و٢٤٣٣) عن أبي هريرة وعبدالله بن أبي أوفى.
٤- فاطمة بنت رسول الله: خ(٣٦٢٤) م(٢٤٥٠) عن عائشة، ولأحمد (١/ ٢٩٣) عن ابن عباس، وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (٥٩٦).
٥- الحسن والحسين: رواه أحمد (٣/ ٣) عن أبي سعيد وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (٤٢١).
٦- بلال بن رباح: خ(١١٤٩و٢٦٧٩) م(٢٤٥٧و٢٤٥٨) عن أبي هريرة وجابر.
٧- أم سليم: خ(٣٦٧٩) م(٢٤٥٧) عن جابر، ورواه مسلم أيضًا عن أنس (٢٤٥٦).
٨- عبدالله بن مسعود: رواه أحمد (١/ ٤٤٥) عنه، وهو في الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (٨٥٢).

عِنْدَكَ فِي الإِسْلَامِ مَنْفَعَةً فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ»، قَالَ بِلَالٌ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنْفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طُهُورًا تَامًّا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كَتَبَ اللهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ.

ومثل الغميصاء ، فعن جابر عند مسلم (٢٤٥٧)، قَالَ النبيّ : **«أُرِيتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةَ أَبِي طَلحَةَ ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ»**.

ومثل عبدالله بن سلّام ، فعند مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقّاص قال: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ لِحَيٍّ يَمْشِي أَنَّهُ فِي الجَنَّةِ إِلَّا لِعَبْدِاللهِ بْنِ سَلَامٍ.

ومثل الحسن والحسين ، من حديث أبي سعيد عند أحمد (١٠٩٩٩)، قال النبيّ : **«الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ»**.

ومثل خديجة ، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)، قال : أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ.

وبُشِّرت عائشة ، فقال عمار: إِنَّهَا زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكِنَّهَا مِمَّا ابْتُلِيتُمْ. رواه البخاري (٧١٠١).

قال :

ويُقِرُّونَ بما تَواتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وعَنْ غَيْرِه، مِنْ أَنَّ خَيْرَ هذهِ الأُمَّةِ بعدَ نَبِيِّهَا: أَبُوبَكْرٍ، ثَمَّ عُمَرُ،[١] ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ،[٢] ويُرَبِّعُونَ بعليٍّ ، كما دَلَّتْ عليهِ الآثارُ، وكما أَجْمَعَ عليهِ الصحابةُ على تَقْدِيمِ عُثْمَانَ في البَيْعَةِ.

أمّا ما جاء عن عليّ فقد أخرجه البخاري (٣٦٧١)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ قَالَ أَبُوبَكْرٍ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وحديث عبدالله ابن عمر في البخاري (٣٦٩٧)، قال: كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثْمَانَ ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ لَا نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ.

وهذا إقرار.

وَمَا جَرَى فِي عَصْرِهِ ثُمَّ اطَّلَعْ عَلَيْهِ إِنْ أَقَرَّهُ فَلْيُتَّبَعْ

وعبدالرحمن بن عوف يقول: لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِالرَّحْمَنِ، فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَالرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِالرَّحْمَنِ حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلَا يَطَأُ عَقِبَهُ، وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِالرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي، حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ قَالَ الْمِسْوَرُ:

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١) عن علي.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥، ٣٦٩٧) عن ابن عمر.

طَرَقَنِي عَبْدُالرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ فَضَرَبَ الْبَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَقَالَ: أَرَاكَ نَائِمًا، فَوَاللهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ، انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ، فَشَاوَرَهُمَا، ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ: ادْعُ لِي عَلِيًّا، فَدَعَوْتُهُ، فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُالرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي عُثْمَانَ، فَدَعَوْتُهُ، فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْمُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ، فَلَمَّا صَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ فَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الْحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُالرَّحْمَنِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ، فَبَايَعَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ وَبَايَعَهُ النَّاسُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ. رواه البخاري (٧٢٠٧).

فهذا إجماع الصحابة على أنّه أفضل من عليّ بن أبي طالب وفضيلتهم على حسب الخلافة فترتيبهم في الخلافة هو ترتيبهم في الفضل.

قال :

مَعَ أنَّ بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قد اختَلَفُوا في عثمانَ وَعَلِيٍّ ، بَعْدَ اتفاقِهِم على تقديمِ أبي بكرٍ وعمرَ، أيهما أفضلُ؟ فَقَدَّمَ قومٌ عثمانَ وَسَكَتُوا، [أوْ رَبَّعُوا](١) بعليٍّ، وقَدَّمَ قومٌ عليًّا، وقومٌ تَوَقَّفُوا؛ لَكِن استَقَرَّ أَمْرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ ثم عليٍّ وإنْ كانت هذهِ المسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عثمانَ وعليٍّ- ليستْ مِنَ الأُصولِ التي يُضَلَّلُ المخَالِفُ فيها عندَ جُمْهُورِ أهلِ السنةِ، لَكِنِ المسألةُ التي يُضَلَّلُ المخالِفُ فيها هي: مسألةُ الخلافةِ، وذلك بأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بأنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ: أبوبكرٍ، ثم عُمَرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، وَمَنْ طَعَنَ في خلافةِ أحدٍ مِنْ هؤلاءِ الأئمةِ، فهو أضلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

يعني اختلفوا من حيث التفضيل لا من حيث الخلافة، فأمّا الخلافة فلا خلاف فيها ثمّ إنّ هذا القول لا أعلم أحدًا يقول به إلى الآن، بل صارت المسألة من الأصول فمن قدّم عليّ عن عثمان فهو مخطأ لأنّه خالف ما استقرّت عليه الأمّة وخالف الأدلّة، وعليّ فضائله مشهورة وفي غير كتاب مذكورة.

والكلام على فضائل أصحاب رسول الله جميل وطويل وقد يطول الكتاب بذكر فضائلهم ولو لم يكن إلّا أنّ الله قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال عبدالله بن مسعود : إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ،

(١) في (م): [وربعوا].

فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ. أخرجه أحمد (٣٦٠٠) وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٨٤٢).

والمراد بالمسلمين هنا الصحابة رضوان الله عليهم وحذّر الله من مشاقتهم فقال : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وقال الله : ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾[الفتح:٢٩]، مثلهم في التوراة أنّهم يُصلّون ويُكثرون من السجود ومن دعاء الله، ثم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[الفتح: ٢٩]، مثّلهم الله في الإنجيل كالزرع الطيّب الأخضر الذي نمى يعجب الزرّاع، والمراد بالكفار هنا الزُرّاع، والواجب علينا تجاه الصحابة **ثلاثة أمور:**

١) ذكر فضائلهم لأنّ ذكر فضائلهم هو نقل للكتاب والسنّة وهو دلالة على الخير وتحذير من الشرّ وهو من النفاح على الحقّ وأهله.

٢) الكفّ عن مساويهم مع الاستغفار لهم لقول الله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، قالت عائشة : (أمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم).

٣) الكفّ عن ما شجر بينهم، قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[البقرة:١٣٤]، وقد قيل:

دَعِ الصَّحَابَةَ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فَكُلُّهُمُ فِي الحَشْرِ مَغْفُورٌ لَهُمْ

فهم ذروة الأمّة وجب أن يُذكروا بالجميل ومن ذكرهم بغير الجميل فهو على غير السبيل ويُستغفر لهم فهذا الإسلام الذي نعبدالله به جاءنا من قبلهم، قدّموا أنفسهم وبذلوها من أجل تبليغ دين الله ، قال النبيّ : «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا وَارَى إِبْطُ بِلَالٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (١٥١). وفي حديث عبدالله بن مسعود : كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ، وَأَبُوبَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ. فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُوبَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ. أخرجه ابن ماجه (١٥٠)، وقد أُعلّ بالإرسال، والصحيح أنّه روي على الوجهين.

أفضل هذه الأمّة على التعيين بعد نبيّها :

الأوّل: أبوبكر الصدّيق :

وهو عبدالله بن عثمان بن أبي قُحافة وهو أوّل من أسلم من الرجال ومّما يدل على سابقية أبي بكر في الإسلام ما أخرجه مسلم في صحيحه (٨٣٢) من حديث عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ قال: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: **«أَنَا نَبِيٌّ»**، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: **«أَرْسَلَنِي اللهُ»**، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: **«أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»**، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: **«حُرٌّ، وَعَبْدٌ»**، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُوبَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»**.

وفي البخاري (٣٦٦٠) عن عمّار قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ وَمَا مَعَهُ، إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ، وَامْرَأَتَانِ وَأَبُوبَكْرٍ.

قال ابن حجر:

الأعبدالمذكورون هم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبوفكيهة وياسر والد عمار والمرأتان خديجة وسمية والدة عمار أو أم أيمن. اهـ

وفيه (٣٦٦) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُوبَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «**يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُوبَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُوبَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُوبَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

قال الحافظ: وفي هذا الحديث أنّ أبا بكر أوّ من أسلم من الأحرار مطلقًا ولكن مراد عمّار بذلك ممّن أظهر إسلامه. اهـ

وما جاء بأنّ عليّ هو أوّل من أسلم ليس عليه دليل يصحّ ولو صحّ فإن عليًّا كان في ذلك الوقت لم يُكلّف بعد ومعلوم الفرق بين إسلام المكلّف وإسلام غير المكلّف وكم كانت لأبي بكر من المناصرات والمآزرات للنبيّ حتّى قال النبيّ : «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُوبَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ**» من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٤٦٦)، مسلم (٢٣٨٢).

وقال النبيّ : «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ**

أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» من حديث جندب عند مسلم (٥٣٢).

وفضائله في القرآن قال الله : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، فكان الثاني أبوبكر فأبوبكر يقول قُلْتُ لِلنَّبِيِّ وَأَنَا فِي الْغَارِ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» من حديث أبي بكر عند البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

ومن فضائله ما قاله النبيّ لعائشة : «ادْعِى لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ» رواه مسلم (٢٣٨٧).

وفعلًا كان ما قاله الرسول من أنّ الله قضى كونًا أن يكون أبوبكر هو خليفة المسلمين وهكذا المؤمنون صاروا على ذلك وهو من المبشّرين بالجنّة فقد اهتزّ جبل أُحد وفي رواية حراء فقال النبيّ : «اسْكُنْ أُحُدُ أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ» من حديث أنس عند البخاري (٣٦٩٩).

وعن أبي هريرة عند مسلم (٢٤١٧)، وكان معه أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ وكلّهم شهداء، والنبيّ كان في سفر فقال: «مَا تَرَوْنَ النَّاسَ صَنَعُوا؟». قَالَ ثُمَّ قَالَ: «أَصْبَحَ النَّاسُ فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ، فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ

رَسُولُ اللهِ بَعْدَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخَلِّفَكُمْ، وَقَالَ النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا» من حديث قتادة عند مسلم (٦٨١)، وفي بعض الروايات قال : «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ» من حديث حذيفة عند الترمذي (٣٦٦٢). وأفضلهم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وأرضاهم.

فمن فضائل الصديق الأكبر: أبوبكر ؛ ما جاء عند البخاري (٣٦٥٦) عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي».

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، أن رسول الله جلس على المنبر؛ فقال: «عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ؛ فَبَكَى أَبُوبَكْرٍ وَبَكَى»، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُوبَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُوبَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ؛ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ».

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٣٨٣) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا».

وفي الصحيحين: البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عمرو بن العاص، أن رسول الله بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ؛ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ

النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ»؛ فَعَدَّ رِجَالًا.

وأخرج مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟». قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟». قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟». قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟». قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

وأخرج البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله : «بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهَا حَتَّى اسْتَنْقَذَهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ»، وَمَا ثَمَّ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ.

وأخرج البخاري (٣٦٦٤)، ومسلم (٢٣٩١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ».

وفيهما البخاري (٣٦٦٦) ومسلم عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَا عَبْدَاللهِ، هَذَا خَيْرٌ لَكَ وَلِلجَنَّةِ أَبْوَابٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ

الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ» قَالَ أَبُوبَكْرٍ: هَلْ عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**» يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ.

وفي البخاري (٣٦٦٧-٣٦٧٠) عن عائشة زوج النبي ، أن رسول الله مَاتَ وَأَبُوبَكْرٍ بِالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: -يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُوبَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ؛ فَحَمِدَ اللهَ أَبُوبَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٤].

قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ. قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُوبَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُوبَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُوبَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ،

وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ؛ فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ؛ فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ؛ فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللهُ.

وفي الصحيحين البخاري (٣٦٧٤) ومسلم عن أبي موسى الأشعري: أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقُلْتُ: لَأَلْزَمَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَلَأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا، فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاجَتَهُ، فَتَوَضَّأَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ فَقُلْتُ: لَأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْيَوْمَ فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ فَدَفَعَ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُوبَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**». فَأَقْبَلْتُ: حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ؛ فَدَخَلَ أَبُوبَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَهُ فِي الْقُفِّ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يُرِيدُ أَخَاهُ يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ

فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ بِالْجَنَّةِ. فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي الْقُفِّ عَنْ يَسَارِهِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**»، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخَرِ. قَالَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِاللهِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ.

خلافته بالنصّ أو بالإشارة:

اختلف العلماء في هذا فذهب بعضهم إلى أنّ خلافته بالإشارة واستدلّ بحديث جبير بن مطعم عند البخاري (٧٣٦٠)، ومسلم (٢٣٨٦) واللفظ له: أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ شَيْئًا، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ - قَالَ أَبِي: كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ - قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**».

وذهب بعض أهل العلم إلى أنّ خلافته كانت بالنصّ الخفيّ وهذا هو الصحيح، وأنّها بالنصّ الخفيّ، ولو كانت بالنصّ الجليّ لما عمُد الأنصار رضوان الله عليهم إلى تنصيب سعد بن عُبادة ، وقد استدلّ عليهم عمر فقال: أيكم يحب أن يتقدّم أبا بكر في الصلاة وقد قدّمه رسول الله في الصلاة؟ قالوا: لا أيّنا، وقال أبوبكر : أليس الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[التوبة:١١٩]، فأنتم المؤمنون ونحن الصادقون.

وقد تقدم حديث عائشة في شأن أبي بكر حين دخل على النبي بعد موته.

ونصر الله به الإسلام في الردّة حيث أرسل جيش أسامة وانتصر المسلمون وتهيّب كثير من الأعراب ممّن ارتدّ عن الإسلام وقالوا ما زال المسلمون أقوياء وبعضهم رجع عن ردّته وهكذا لَـمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ وَاسْتُخْلِفَ أَبُوبَكْرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ، لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ. أخرجه البخاري (٧٢٨٤) و(٧٢٨٥) ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة .

وعن عائشة قالت: وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكٍ وَصَدَقَتَهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَى أَبُوبَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللهِ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْبَرُ وَفَدَكٌ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللهِ كَانَتَا لِحُقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ، قَالَ: فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ. عند البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٩).

وقال : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا في أَهْلِ بَيْتِهِ. أخرجه البخاري (٣٧١٣).

وقال : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي. أخرجه البخاري (٣٧١٢).

وكان يعمل بعض العمل في مؤنة أهله فلمّا وُلّي الخلافة أشار عليهم المسلمون بالتفرّغ لشئون المسلمين ويأخذ من مال المسلمين ما يكفيه وفعلًا، قال عمر لمّا استخلف بعده: (اتعبت من بعدك)؛ لأنّه أرسل ببعض الغلمان الذين كانوا يخدمون في بيت المال ومع ذلك يبغضه الرافضة جدًّا ويسبّونه ويلعنونه، قاتلهم الله، حتى قال الهبل لعنه الله:

الْعَنْ أَبَا بَكْرِ الطَّاغِي وَثَانِيَهُ وَالثَّالِثَ الرِّجْسَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَا
يَا رَبِّ فَالْعَنْهُمُ وَالْعَنْ مُحِبِّيهُمُ وَلَا تُقِمْ لَهُمُ فِي الْحَشْرِ مِيزَانَا
ثَلَاثَةٌ لَهُمُ فِي النَّارِ مَنْزِلَةٌ مِنْ تَحْتِ مَنْزِلِ فِرْعَونٍ وَهَامَانَا

لعنه الله! أما علم أنّ محبهم رسول الله ومحبّهم علي بن أبي طالب والله أيضًا أحبّهم كذلك، فالشاهد أنّ الرافضة غلوا في بغض صحابة رسول الله غلوًّا مفرطًا وغلوا في تعظيم عليّ غلوًّا مفرطًا فكفروا من جهتين:

- من جهة غلوّهم في بغض الصحابة .
- ومن جهة غلوّهم في عليّ .

الثاني: عمر بن الخطّاب :

وهو أبوحفص أمير المؤمنين الذي قال عنه عبدالله بن مسعود : (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر)، رواه البخاري (٣٨٦٣)، وهذا خبر من عبدالله بن مسعود الذي عايش الأيام الأولى من البعثة يُخبر أنّ الإسلام وقعت له العزّة والظهور منذ أسلم عمر وكان المسلمون إذا أسلم بعضهم تخفّى بإسلامه فلمّا أسلم عمر قال: (أي بُنيّ، أيُّ الناس أكثر نقلًا للحديث)، قالوا: (أبوجميل أو أبوجميلة) فذهب إليه فقال: (أما علمت أنّي أسلمت؟)، فما انتظر حتى ثانية إلّا ويمشي مباشرة: (صبأ عمر، صبأ عمر) فاجتمع عليه المشركون فجالدهم بالسيف حتى انتصف النهار فقال عبدالله بن عمر : (وأنا أنظر من على البيت)، فقال: (فبينما هم كذلك إذ جاء رجل مقبلٌ (وهو العاص بن وائل كافر من سادات قريش)، فقال: (ما شأنكم؟)، قالوا: (صبأ عمر)، فقال: (وإن صبأ)، يعني حتّى لو صبأ ماذا فيه؟ قال: (فانفرجوا عنه ولم يبق حوله أحد)، ثمّ أعزّ الله به الإسلام. وأصل القصة في البخاري (٣٨٦٥).

وفي سيرة ابن إسحاق قصّة لكنّها من طريق رجل لم يُوثّق أنّ عمر مرّ على أمّ عبدالله وهي تريد الحبشة فقال: أين يا أم عبدالله؟ فقالت له: آذيتمونا في ديننا فنذهب إلى أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله فقال: صحبكم الله قالت: فذهب ثم جاء زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال: أترجين يسلم؟ فقلت: نعم فقال: (والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب). الحديث حسنه بعضهم. فكان شديدًا على المسلمين قبل إسلامه حتى خرج يريد بعض الموالي لضربه والتضييق عليه فقال بعضهم (اذهب إلى ختنك) يعني

اذهب إلى زوج اختك وإذا بأخته قد أسلمت فالشاهد أنّ الله منّ على المسلمين بإسلام عمر . وقد كان النبيّ يدعو الله أن يُعزّ الإسلام بعمر والحديث بمجموعه يصحّ، وأما حديث: «**اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ العمرين إليك**» فلا يثبت وهما عمرو بن هشام أبوجهل وعمر بن الخطّاب، وأمّا حديث: «**أعزّ الإسلام بعمر**» له طرق ولمّا أسلم كان قويًّا في إسلامه حتى قال ابنه عبدالله : (إنّي لا أحسب القرآن ينزل على لسان عمر)، وحتى قال : وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[البقرة:١٢٥]. وَآيَةُ الْحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[التحريم:٥]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. أخرجه البخاري (٤٠٢) ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر ، وهذا ليس على سبيل الحصر فقد صحّ أنّه وافق القرآن في غير ذلك فلمّا أراد الرسول أن يُصلّي على ابن أُبيّ فقال: (كيف تصلي عليه وقد نُهيت عن ذلك)، قال : «**إنّما خيّرني ربّي**» رواه البخاري (٤٦٧٠) و(٤٧٦٢) ومسلم (٢٤٠٠) و(٢٧٧٤)، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[التوبة:٨٤].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنّ عمر وافق القرآن في أربعة عشر موضعًا وهذه بركة عظيمة لهذا الرجل العظيم أن يتكلّم بالكلام ثم يأتي وحي الله مؤيّدًا لهذا، هذا يدلّ على إيمان وعلم وتقوى وخير عظيم وتوفيق وتسديد من الله مؤدّاه إلى ما تضمّنه حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٢)

قال الرسول : «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، أي يُوفّق الله جوارحه إلى خير عظيم، حتى قال النبيّ في شأنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**» رواه البخاري (٣٢٩٤) و(٣٦٨٣) و(٦٠٨٥) ومسلم (٢٣٩٦)، وقال النبيّ : «**إِنِّي لَأَحْسِبُ الشَّيْطَانَ يَفْرُقُ مِنْكَ يَا عُمَرُ**» من حديث بريدة عند ابن أبي شيبة (٣١٩٩٥) وأحمد (٢٢٩٩٠)، أي يخاف.

وفضائله كثيرة وهذه إشارة إلى بعضها، ومنها: رؤيا رسول الله الحقّ التي قال فيها: «**أُتِيتُ وَأَنَا نَائِمٌ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى جَعَلَ اللَّبَنُ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا أَوَّلْتَهُ؟ قَالَ: «**الْعِلْمُ**» أخرجه البخاري (٣٦٨١) ومسلم (٢٣٩١) من حديث عمر .

وفي الحديث الآخر قال الرسول : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ**» قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الدِّينَ**» من حديث أبي سعيد الخدريّ عند البخاري (٣٦٩١).

وقال : «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الخَطَّابِ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ**» قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ؟! من حديث جابر بن عبدالله عند البخاري (٧٠٢٤) ومسلم (٢٣٩٤).

وعليّ لمّا مات عمر جاء إليه وقال: مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ يَقُولُ ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ. من حديث ابن عباس عند البخاري (٣٦٨٥) ومسلم (٢٣٨٩).

وربّما كان يُحدّثهم بالحديث كما في حديث أبي هريرة وهو في الصحيح (٣٤٧١)، قال رسول الله : **«وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ قَالَ فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ»**.

وقال النبيّ : **«بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ قَالَ آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ»** من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٣٢٤) ومسلم (٢٣٨٨).

الثالث: عثمان بن عفّان :

الذي قال لمّا حُصر: إِنَّهُمْ لَيَتَوَاعَدُونِي بِالْقَتْلِ! فَلِمَ يَقْتُلُونِي؟ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ: رَجُلٌ زَنَى وَهُوَ مُحْصَنٌ فَرُجِمَ، أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ رَجُلٌ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ**» فَوَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إِسْلَامٍ، وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا مُسْلِمَةً، وَلَا ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ. أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٣)، والنسائي (٤٠٣١).

وقال : والله ما زنيت لا في جاهلية ولا في إسلام وما تمنّيت أنّ في ديني شيء بعد أن دخلت فيه وما قتلت نفسًا.

وذُكر عنه لم يشرب الخمر أو أنّه حرّمها على نفسه في الجاهلية.

ومن فضائله أنّه زوج ابنتي رسول الله وهذا لم يكن لأحد على مرّ الدنيا أنّ واحدًا تزوّج ابنتي نبيّ إلّا هو، تزوّج رُقيّة وتزوّج بعد مماتها أمّ كلثوم

.

وكانوا يُغلظون عليه فَقَالَ الْوَلِيدُ: لبعض أصحاب رسول الله مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ ؟ فَقَالَ: أَبْلِغْهُ عَنِّي أَنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ، قَالَ عَاصِمٌ: هُوَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَلَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ فَانْطَلَقَ يُخْبِرُ ذَاكَ عُثْمَانَ ، فَقَالَ عُثْمَانُ : أَمَّا قَوْلُهُ يَوْمَ عَيْنَيْنِ فَكَيْفَ يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ قَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ اللهُ : ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ**﴾[آل عمران:١٥٥]، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، كُنْتُ أُمَرِّضُ رُقَيَّةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى مَاتَتْ، وَقَدْ ضُرِبَ لِي بِسَهْمٍ، وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهِ

بِسَهْمٍ فَقَدْ شَهِدَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي أَتْرُكُ سُنَّةَ عُمَرَ ، فَإِنِّي لَا أُطِيقُهَا أَنَا وَلَا هُوَ، فَأَتَيْتُهُ فَحَدَّثْتُهُ بِذَلِكَ. انظر اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٧/ ٧١)، و المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٣٩١٣).

وعن عُثْمَانَ حَيْثُ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ وَلَا أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**مَنْ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ**»، فَحَفَرْتُهَا. أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**»، فَجَهَّزْتُهُمْ، فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٧٨).

وأخرج البخاري (٣٦٩٦) عن عُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ؛ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِيَغُوثَ قَالَا: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُكَلِّمَ عُثْمَانَ لِأَخِيهِ الْوَلِيدِ؛ فَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَصَدْتُ لِعُثْمَانَ حَتَّى خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، قُلْتُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً وَهِيَ نَصِيحَةٌ لَكَ، قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ، قَالَ مَعْمَرٌ: أُرَاهُ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ؛ فَانْصَرَفْتُ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ إِذْ جَاءَ رَسُولُ عُثْمَانَ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: مَا نَصِيحَتُكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ للهِ وَلِرَسُولِهِ ؛ فَهَاجَرْتَ الْهِجْرَتَيْنِ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللهِ ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَخْلُصُ إِلَى الْعَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنِ اسْتَجَابَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ وَهَاجَرْتُ الْهِجْرَتَيْنِ كَمَا قُلْتَ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللهِ وَبَايَعْتُهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ، ثُمَّ أَبُوبَكْرٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ؛ أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى،

قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الْوَلِيدِ؛ فَسَنَأْخُذُ فِيهِ بِالْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا؛ فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ.

وأخرج رقم (٣٦٩٨): عن عُثْمَانُ ابْنُ مَوْهَبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتَ؛ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنِ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ؛ فَحَدِّثْنِي: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ؛ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ**»، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «**هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ**»؛ فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ.

وأخرج مسلم (٢٢٠١) عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُوبَكْرٍ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ؛ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ دَخَلَ أَبُوبَكْرٍ، فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ

تُبالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ**».

وفي حديث أبي موسى : أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقُلْتُ: لَأَلْزَمَنَّ رَسُولَ اللهِ ، وَلَأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا، قَالَ: فَجَاءَ المَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ، فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا، فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ، وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللهِ حَاجَتَهُ فَتَوَضَّأَ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي البِئْرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ، فَقُلْتُ لَأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللهِ اليَوْمَ، فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ فَدَفَعَ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَبُوبَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُوبَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**» . فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ، وَرَسُولُ اللهِ يُبَشِّرُكَ بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ أَبُوبَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ مَعَهُ فِي القُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا - يُرِيدُ أَخَاهُ - يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقُلْتُ عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ،

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**» فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنَ الشَّقِّ الآخَرِ قَالَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِاللهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ. رواه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٤٠٣).

وقال رسول الله : «**سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ**»، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**» من حديث أبي حوالة عند أبي داود (٢٤٨٣).

وقد قُتل مظلومًا بعد أن جاوز الثمانين وهو يقرأ القرآن من قبل الخوارج المارقين عليهم من الله ما يستحقّون، كذبوا وبغوا وتمالئوا عليه حتى منعوه أن يُصلّي بأصحابه، فَعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ فَقَالَ إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ. أخرجه البخاري (٦٩٥).

ومما يُذكر أنّه رأى قبل قتله النبيَّ منتظرًا له، فأصبح صائمًا، فدخلوا عليه في الصحن وقتلوه وهو يقرأ القرآن. وقيل إنّه سقطت قطرة من دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٣٧]، وفعلًا قتل الله الخوارج الذين شاركوا في قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان .

الرابع: عليّ :

وهو ابن عمّ الرسول أسلم صغيرًا وجاهد وكان زوجًا لابنة رسول الله وقد استخلفه رسول الله على المدينة فقال المنافقون جعلك مع القواعد فلحق بالنبيّ فقال له : «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» من حديث سعد بن أبي وقّاص عند البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ له.

ومن فضائله أنّه قال : وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَيَّ: «**أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ**» رواه مسلم (٧٨).

ولقّبه النبيّ بأبي تراب؛ وذلك في حديث سهل بن سعد عند البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، قال : جَاءَ رَسُولُ اللهِ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي البَيْتِ، فَقَالَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**» قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِإِنْسَانٍ: «**انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟**» فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ يَمْسَحُهُ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**».

وكان بعد ذلك أحبّ الألقاب إليه وأرضاه.

ومن فضائل رابعهم وهو: علي بن أبي طالب، ما أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ يَوْمَ

خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**». فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «**فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ**»؛ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ؛ فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

وقال عنه رسول الله : «**أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي**» رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

وعن بريدة عند أحمد وغيره مرفوعًا: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**».

وهو من العشرة ففي حديث عبدالرحمن بن عوف عند الترمذي (٣٧٤٧) قال: قال رسول الله : «**أَبُوبَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ**».

وجاء الحديث عن سعيد بن زيد أيضًا عند الترمذي (٣٧٤٨)، والحديث حسن.

وقد مات رسول الله وهو عنهم راضٍ كما في البخاري (٣٧٠٠) عن عمر ، وذكر عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وسعيدًا.

وهو أفضل أهل زمانه بعد الثلاثة الذين تقدّموا ، قال أبوبكر بن أبي داود :

وَرَابِعُهُــمْ خَــيْرُ الْبَرِيَّــةِ بَعْــدَهُمْ عَلِيٌّ حَلِيفُ الْخَيْرِ وَالْخَـيْرُ مُـنْجِحُ

فـرضي الله عنهم جميعًا وفضائلهم عظيمة ومنازلهم جليلة ومع ذلك أبى الخوارج والرافضة والنواصب إلّا أن يقعوا فيهم.

القول في آل البيت النبيّ صلى الله عليه وسلم

قال :

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بيتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُم، وَيَحْفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رسولِ الله ﷺ، حيثُ قال يومَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»،(١) وقال أيضًا للعباسِ عمِّهِ -وقد شكى إليه أنَّ بعضَ قريشٍ يَجْفُو بني هاشمٍ- فقال: «والَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ للهِ ولِقَرَابَتِيْ»،(٢) وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَعِيلَ،

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم.

(٢) حسن بشواهده: بمعناه عند أحمد (٤/ ١٦٥)، و فضائل الصحابة له (١٧٥٧)، والترمذي (٣٧٥٨) من طريق يزيد بن أبي زياد عن عبدالله بن الحارث عن عبد المطلب بن ربيعة، ورواه أحمد أيضًا (١/ ٢٠٧)، وفي فضائل الصحابة (١٧٧٣)، والحاكم (٥٥٠١) من طريق يزيد بن أبي زياد عن عبدالله بن الحارث عن العباس، وفي سندهما: يزيد بن أبي زياد الهاشمي مولاهم شيعي ضعيف، فالحديث ضعيف، وهو في الضعيفة للعلامة الألباني (٤٤٣٠)، و المشكاة (٦١٤٧).

لكن للحديث شاهدان يرتقي بهما للحجية:

الأول: ما رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٧٥٦) عن وكيع، ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٧٥٠) عن ابن نمير، ورواه ابن عساكر في تاريخه (٢٦/ ٣٣٨) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين وأبي داود الحفري، كل هؤلاء الأربعة -وكيع وابن نمير وأبو نعيم وأبوداود الحفري- عن الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح مرسلًا، وهو مرسل صحيح. وقد روي موصولًا من عدة طرق منها: ما هو شاذ، ومنها: ما هو منكر.

الثاني: ما رواه عبد الله بن أحمد في زوائد فضائل الصحابة (١٧٩٢)، وابن ماجه (١٤٠) من طريق الأعمش عن أبي سبرة النخعي عن محمد بن كعب القرظي عن العباس، وفيه علتان: =

وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».(١)

فيما تقدم بيان وجوب محبّة الصالحين من آل بيت النبيّ وهي اجب شرعي، وطريق نبوي، والأحاديث في فضلهم كثيرة، منها ما تقدّم في فضل أبي بكر ، وزد على ذلك أنّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣].

وهذا الحديث يستدلّ به الرافضة -عليهم لعائن الله- على ما لا دلالة لهم فيه، فيستدلّون به على أنّ النبيّ نصّب عليًّا في ذلك اليوم خليفةً للمسلمين، وليس فيه ذلك، ويستدلّون به على أنّ متابعةَ آل البيت -وإن أحدثوا وغيّروا وبدّلوا- واجبٌ لهذا الحديث.

والحديث عن يَزِيدُ بْنُ حَيَّانَ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ، إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللهِ ، وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ لَقَدْ لَقِيتَ، يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي وَاللهِ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَقَدُمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ

= **أحدهما**: الانقطاع: محمد بن كعب عن العباس قال المزي في تهذيب الكمال: يقال إنه مرسل، وجزم يعقوب بن شيبة بنفي سماعه كما في المصدر السابق.

الأخرى: فيه أبو سبرة النخعي، قال ابن معين: لا أعرفه، وقال الحافظ: مقبول. وهو الآن في الشواهد.

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع نحوه.

بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا، وَمَا لَا، فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ، ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**» فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. رواه مسلم (٢٤٠٨).

وإن تتبعت الطرق والشواهد لوجدت أنّ الأمر الثاني لم يُذكر في الحديث وهو السنّة، قال : «**أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ**» من حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨).

ثمّ استطرد رسول الله وقال: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»، أي أدّوا إليهم حقّهم وأحسنوا إليهم هذا هو والإحسان يكون لمحسنهم فمن أحسن منهم باتباع النبيّ وبالتزام الإسلام الحقّ فإنّه يُحبّ حبّين، حبًّا لقرابته وحبًّا لدينه، وإلّا فالنبيّ الذي ذكّر بآل البيت هو الذي ردّ عليهم قبل موته كما في حديث معاذ وهو يقول له: «**إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا**» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١).

والنبيّ يقول كما في حديث عمرو بن العاص رواه مسلم (٢١٥): «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يَعْنِي فُلَانًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**».

فأهل بيت النبيّ الصالحون منهم يُحبّ حبًّا شرعيًّا وله منزلة عظيمة في قلوب أهل السنّة والجماعة حتى أنّ أبا بكر يقول: (ارقبوا محمدًا في آل بيته)، ويقول : (لئن أصل قرابة رسول الله أحبّ إليّ من أصل قرابتي).

وقال : «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» من حديث واثلة بن الأسقع عند مسلم (٢٢٧٦).

في هذا الحديث بيان لاصطفاء الله تعالى لذرية إسماعيل بن إبراهيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران:٣٣-٣٤]، وآل البيت الصلحاء لهم من هذا الاصطفاء.

قال ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.

وَاصْطَفَى نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، لَـمَّا عَبَدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ، وَأَشْرَكُوا فِي دِينِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَانْتَقَمَ لَهُ لَـمَّا

طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجِهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمُ اللهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ بِهِ.

وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ: سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا: هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، أُمِّ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ .

وقد قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[القصص: ٦٨]، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٠٠): «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ**».

فمن هذه الأدلة وغيرها كثير يظهر جليًّا اصطفاء الله تعالى لمحمد ومن شاء من خلقه. ونسبُ النبيِّ إلى إسماعيل بن إبراهيم ، وليس في هذا خلاف، قال الذهبي في السير : هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب واسم عبد المطلب شيبة، ابن هاشم واسمه عمرو، ابن عبد مناف واسمه المغيرة، ابن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، واسمه عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم -صلى الله عليهما وعلى نبينا وسلم- بإجماع الناس.

لكن اختلفوا فيما بين عدنان وبين إسماعيل من الآباء، فقيل: بينهما تسعة آباء، وقيل: سبعة، وقيل مثل ذلك عن جماعة. لكن اختلفوا في أسماء بعض الآباء، وقيل: بينهما خمسة عشر أبًا، وقيل: بينهما أربعون أبًا وهو بعيد وقد ورد عن طائفة من العرب ذلك.

وأما عروة بن الزبير، فقال: ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصًا.

وعن ابن عباس قال: بين معد بن عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أبًا، قاله هشام بن الكلبي النسّابة، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، ولكن هشام وأبوه متروكان. انتهى

القول في أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم

قال :

ويَتَوَلَّوْنَ أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ أمهاتِ المؤمنينَ، [وَيُقِرُّونَ][١] بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ في الآخرةِ، خصوصًا خديجةَ -رضي الله عنها-، أمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وأولَ مَنْ آمنَ به، وَعَاضَدَهُ على أمرِهِ، وكان لها منه المنزلةُ [العليَّةُ][٢].

تسميتهم بأمّهات المؤمنات ثبت بالنصّ، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾[الأحزاب:٦]، وفي مسلم (٣٤٩) عن أبي موسى قال: اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصارِيُّونَ: لَا يَجِبُ الْغُسْلُ إِلَّا مِنَ الدَّفْقِ أَوْ مِنَ المَاءِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: بَلْ إِذَا خَالَطَ فَقَدْ وَجبَ الْغُسْلُ، قَالَ أَبُوموسَى: فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ. فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَأُذِنَ لِي، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهْ - أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكِ. فَقَالَتْ: لَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتَ سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، فَإِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ، قُلْتُ: فَمَا يُوجِبُ الْغُسْلَ؟ قَالَتْ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : **«إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ»**.

---

(١) في (م) و(ف): [ويؤمنون].

(٢) في (ف): [العالية].

وقد قال النبيّ في شأن خديجة كما قَالَ أَبُوزُرْعَةَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ فَقَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ**» عند البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢). وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: بَشَّرَ النَّبِيُّ خَدِيجَةَ، قَالَ: نَعَمْ بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَب. أخرجه البخاري (٣٨١٩)، ومسلم (٢٤٣٣).

وعائشة، كما قال عمّار في البخاري (٧١٠٠): إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ وَوَاللهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وخديجة أمّ أولاده إلّا إبراهيم فإنّه من مارية القبطية.

ومات النبيّ عن تسع يقسم لهنّ فمن اتهم إحداهن ممّا برّأ الله منه عائشة فقد كفر؛ لأنّ الله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور:٢٦]، والعجب أنّ الرافضة يزعمون أنّ زينب وأمّ كلثوم ورُقيّة لسن بنات النبيّ، وإنّما هنّ بنات خديجة ممّن كان قبل النبيّ. وقولهم في غاية البطلان، بل أنّهن بنات النبيّ بدلالة السنّة والإجماع، ولا عبرة بمخالفة الروافض.

وممّا يدلّ على مناصرتها له: ما أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة قالت: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، فَكَانَ

يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ المَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:١-٥]» فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**»، فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: «**أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، فَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ .

وممّا يدلّ على المنزلة العالية حديث عائشة قالت: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**» رواه البخاري (٣٨١٨). ولفظ مسلم (٢٤٣٥): قالت : مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ؛ لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا.

قال :

والصديقةَ بنتَ الصديقِ -رضي الله عنهما-، التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ،كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».[(١)]

والحديث عن أبي موسى عند البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١).

وهي عائشة بنت أبي بكر وفضائلها كثيرة، وفي الحديث الآخر قال النبيّ : «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ**» في جامع الأصول في أحاديث الرسول (٦٦٦٩).

واختلف العلماء في أيّهما أفضل خديجة أم عائشة ، فكانت عائشة أفضل في العلم وخديجة أفضل في السابقية والنصرة، وخديجة لم يتزوّج

(١) متفق عليه: خ(٢٧٦٩و٢٧٧٠) م(٢٤٣١و٢٤٤٦) عن أبي موسى وأنس.

عليها النبيّ حتّى ماتت وعاضدت الرسول لمّا رجع يرتجف من غار حراء لمّا جاءه الوحي، قالت : كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ. من حديث عائشة في البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠). وقال النبيّ كما في حديث عليّ عند البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠) واللفظ له: **«خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»**.

وفي ذكر أحاديث فضائلهنّ عند مسلم يظهر أنّه يُقدّم عائشة ؛ لأنّه ساق بعد هذا الحديث حديث أبي موسى عند البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١) قال النبيّ : **«وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»**، وقد برّأها الله ممّا اتهمت به، فَعَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللهُ مِنْهُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ

لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي

رَسُولُ اللهِ ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلاَ نَعْلَمُ وَاللهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «**يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟**»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ العَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا وَاللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، وَاللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللهِ عَلَى المِنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ

وبَكَيْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَهُوَ

يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «**يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ**»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَقُلْتُ: لاَ وَاللهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ**﴾[النور:١١] الآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُوبَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ** ﴾[النور:٢٢]، فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «**يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ؟**»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي،فَعَصَمَهَااللهُبِالوَرَعِ.رواهالبخاري(٢٦٦١)ومسلم(٢٧٧٠).

فمن اتهمها بما برّأها الله فهو كافر، والحمد لله.

قال رسول الله : «**وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»، من حديث أبي موسى عند مسلم (٢٤٣١).

ففي هذا الحديث أنّ الصحابة يتفاضلون وهذا فيه ردّ على المرجئة الذين يزعمون أنّ الإيمان واحد والناس في أصله سواء فلو كان كما يقولون لما كان التفاضل بين الصحابة وهكذا التفاضل بين الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليهم، قال الله تعالى: ﴿**تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ**﴾[البقرة:٢٥٣]، وهذا أحد الأوجه التي يُستدلّ بها على زيادة الإيمان ونقصانه.

بيان طريقة الروافض

قال :

وَيَبْرَؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ، الذين يُبْغِضُونَ الصحابةَ ويَسُبُّونَهُم. ومِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ، الذين يُؤذُونَ أَهْلَ البيتِ بقولٍ أَوْ عَمَلٍ.

البراءة من طريقة المخالفين لدين الإسلام واجب وحتم، قال الله : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢]، وفي قصّة ابن عمر عند مسلم (٨) عن يحيى بن يعمر قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

والرافضة كفّار؛ لطعنهم في أمّ المؤمنين عائشة مما برّأها الله ، ولتكفيرهم لصحابة رسول الله ، ولقولهم بخلق القرآن، وغير ذلك، على ما هو مُبيّن في كتب الملل. ومن أحسن الكتب في الردّ عليهم منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية، قال (١/ ٢٢):

وَمِنْ أَعْظَمِ خَبَثِ الْقُلُوبِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِغِلٌّ لِخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ، وَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَى فِي الْفَيْءِ نَصِيبًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[سُورَةُالْحَشْرِ:١٠] .

وَلِهَذَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ مِنَ الْمُشَابَهَةِ فِي الْخُبْثِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الْيَهُودِ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّصَارَى مِنَ الْمُشَابَهَةِ فِي الْغُلُوِّ، وَالْجَهْلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّصَارَى مَا أَشْبَهُوا بِهِ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ، وَمَا زَالَ النَّاسُ يَصِفُونَهُمْ بِذَلِكَ.

وَمِنْ أَخْبَرِ [النَّاسِ بِهِمُ] الشَّعْبِيُّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحْمَقَ مِنَ الْخَشَبِيَّةِ لَوْ كَانُوا مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمُرًا، وَاللهِ لَوْ طَلَبْتُ مِنْهُمْ أَنْ يَمْلَئُوا لِي هَذَا الْبَيْتَ ذَهَبًا عَلَى أَنْ أَكْذِبَ عَلَى عَلِيٍّ لَأَعْطَوْنِي، وَوَاللهِ مَا أَكْذِبُ عَلَيْهِ أَبَدًا)، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْكَلَامُ مَبْسُوطًا عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، لَكِنَّ الْأَظْهَرُ أَنَّ الْمَبْسُوطَ مِنْ كَلَامِ غَيْرِهِ.

كَمَا رَوَى أَبُوحَفْصِ بْنُ شَاهِينَ فِي كِتَابِ اللَّطِيفِ فِي السُّنَّةِ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ هَارُونَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ نُصَيْرٍ الطُّوسِيُّ الْوَاسِطِيُّ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

قَالَ لِي الشَّعْبِيُّ: (أُحَذِّرُكُمْ هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ، وَشَرُّهَا الرَّافِضَةُ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ رَغْبَةً، وَلَا رَهْبَةً، وَلَكِنْ مَقْتًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَبَغْيًا عَلَيْهِمْ قَدْ حَرَّقَهُمْ عَلِيٌّ بِالنَّارِ، وَنَفَاهُمْ إِلَى الْبُلْدَانِ، مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ سَبَأٍ: يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ صَنْعَاءَ نَفَاهُ إِلَى سَابَاطَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ يَسَارٍ نَفَاهُ إِلَى خَازِرَ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ مِحْنَةَ الرَّافِضَةِ مِحْنَةُ الْيَهُودِ، قَالَتِ الْيَهُودُ: لَا يَصْلُحُ الْمُلْكُ إِلَّا فِي آلِ دَاوُدَ، وَقَالَتِ الرَّافِضَةُ: لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا فِي وَلَدِ عَلِيٍّ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ : لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ، وَيَنْزِلَ سَيْفٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَالَتِ الرَّافِضَةُ: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَهْدِيُّ، وَيُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْيَهُودُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يُؤَخِّرُونَ الْمَغْرِبَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ، وَالْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : «**لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ مَا لَمْ يُؤَخِّرُوا الْمَغْرِبَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ**»، وَالْيَهُودُ تَزُولُ عَنِ الْقِبْلَةِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تَنُودُ فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تُسْدِلُ أَثْوَابَهَا فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ عَلَى النِّسَاءِ عِدَّةً، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ حَرَّفُوا الْقُرْآنَ، وَالْيَهُودُ قَالُوا: افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ وَالْيَهُودُ لَا يُخْلِصُونَ السَّلَامَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَأْكُلُونَ الْجِرِّيَّ، وَالْمَرْمَاهَى، وَالذِّنَابَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران:٧٥]،

وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تَسْجُدُ عَلَى قُرُونِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا تَسْجُدُ حَتَّى تَخْفُقَ بِرُءُوسِهَا مِرَارًا شِبْهَ الرُّكُوعِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تُبْغِضُ جِبْرِيلَ، وَيَقُولُونَ هُوَ عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَقُولُونَ: غَلِطَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ وَافَقُوا النَّصَارَى فِي خَصْلَةِ النَّصَارَى: لَيْسَ لِنِسَائِهِمْ صَدَاقٌ إِنَّمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِنَّ تَمَتُّعًا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَتَزَوَّجُونَ بِالْمُتْعَةِ، وَيَسْتَحِلُّونَ الْمُتْعَةَ.

وَفُضِّلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى الرَّافِضَةِ بِخَصْلَتَيْنِ: سُئِلَتِ الْيَهُودُ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَسُئِلَتِ النَّصَارَى مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: حَوَارِيُّ عِيسَى، وَسُئِلَتِ الرَّافِضَةُ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أُمِرُوا بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ فَسَبُّوهُمْ، فَالسَّيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُولٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا تَقُومُ لَهُمْ رَايَةٌ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُمْ قَدَمٌ، وَلَا تَجْتَمِعُ لَهُمْ كَلِمَةٌ، وَلَا تُجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ، دَعْوَتُهُمْ مَدْحُوضَةٌ، وَكَلِمَتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، وَجَمْعُهُمْ مُتَفَرِّقٌ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ.

قُلْتُ: هَذَا الْكَلَامُ بَعْضُهُ ثَابِتٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ كَقَوْلِهِ: لَوْ كَانَتِ الشِّيعَةُ مِنَ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمُرًا، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا، فَإِنَّ هَذَا ثَابِتٌ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ شَاهِينَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ النَّحْوِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُوالرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيُّ، حَدَّثَنَا وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ، فَذَكَرَهُ، وَأَمَّا السِّيَاقُ الْمَذْكُورُ، فَهُوَ مَعْرُوفٌ عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الشَّعْبِيِّ.

وَرَوَى أَبُوعَاصِمٍ خُشَيْشُ بْنُ أَصْرَمَ. فِي كِتَابِهِ، وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِهِ أَبُوعَمْرٍو الطَّلَمَنْكِيُّ فِي كِتَابِهِ فِي الْأُصُولِ قَالَ أَبُوعَاصِمٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَعَبْدُالْوَارِثِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا السَّنَدِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْفَارِسِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ جَعْفَرٍ الرَّقِّيُّ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : (قُلْتُ لِعَامِرٍ الشَّعْبِيِّ: مَا رَدُّكَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ رَأْسًا؟ قَالَ: رَأَيْتُهُمْ يَأْخُذُونَ بِأَعْجَازٍ لَا صُدُورَ لَهَا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مَالِكُ لَوْ أَرَدْتُ أَنْ يُعْطُونِي رِقَابَهُمْ عَبِيدًا، أَوْ يَمْلَئُوا لِي بَيْتِي ذَهَبًا، أَوْ يَحُجُّوا إِلَى بَيْتِي هَذَا عَلَى أَنْ أَكْذِبَ عَلَى عَلِيٍّ لَفَعَلُوا، وَلَا وَاللهِ لَا أَكْذِبُ عَلَيْهِ أَبَدًا. يَا مَالِكُ إِنِّي قَدْ دَرَسْتُ الْأَهْوَاءَ، فَلَمْ أَرَ فِيهَا أَحْمَقَ مِنَ الْخَشَبِيَّةِ، فَلَوْ كَانُوا مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الدَّوَابِّ لَكَانُوا حُمُرًا. يَا مَالِكُ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ رَغْبَةً فِيهِ لِلهِ، وَلَا رَهْبَةً مِنَ اللهِ، وَلَكِنْ مَقْتًا مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَبَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْمِصُوا دِينَ الْإِسْلَامِ، كَمَا غَمِصَ بُولِصُ بْنُ يُوشَعَ مَلِكُ الْيَهُودِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَلَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ آذَانَهُمْ، قَدْ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالنَّارِ، وَنَفَاهُمْ مِنَ الْبِلَادِ، مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ سَبَأٍ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ صَنْعَاءَ نَفَاهُ إِلَى سَابَاطِ، وَأَبُوبَكْرٍ الْكَرَوَّسُ نَفَاهُ إِلَى الْجَابِيَةِ، وَحَرَّقَ مِنْهُمْ قَوْمًا أَتَوْهُ، فَقَالُوا: أَنْتَ هُوَ، فَقَالَ: مَنْ أَنَا؟ فَقَالُوا: أَنْتَ رَبُّنَا، فَأَمَرَ بِنَارٍ، فَأُجِّجَتْ، فَأُلْقُوا فِيهَا، وَفِيهِمْ قَالَ عَلِيٌّ :

لَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا   أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرَا

يَا مَالِكُ، إِنَّ مِحْنَتَهُمْ مِحْنَةُ الْيَهُودِ قَالَتِ الْيَهُودُ: لَا يَصْلُحُ الْمُلْكُ إِلَّا فِي آلِ دَاوُدَ، وَكَذَلِكَ قَالَتِ الرَّافِضَةُ: لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا فِي. وَلَدِ عَلِيٍّ، وَقَالَتِ

الْيَهُودُ: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، وَيَنْزِلَ سَيْفٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُوهُ.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ: فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يُصَلُّونَ الْمَغْرِبَ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ : «**لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يُؤَخِّرُوا الْمَغْرِبَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ مُضَاهَاةً لِلْيَهُودِ**»، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ إِذَا صَلَّوْا زَالُوا عَنِ الْقِبْلَةِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ تَنُودُ فِي صَلَاتِهَا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ يُسْدِلُونَ أَثْوَابَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ مَرَّ بِرَجُلٍ سَادِلٍ ثَوْبَهُ، فَعَطَفَهُ عَلَيْهِ، وَالْيَهُودُ يَسْجُدُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ الْكُنْدُرَةَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يُخْلِصُونَ بِالسَّلَامِ إِنَّمَا يَقُولُونَ: سَامٌ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الْمَوْتُ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ حَرَّفُوا الْقُرْآنَ، وَالْيَهُودُ عَادَوْا جِبْرِيلَ، فَقَالُوا: هُوَ عَدُوُّنَا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ قَالُوا: أَخْطَأَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَقَدْ نَبَّأَنَا اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران:٧٥]، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَسْتَحِلُّونَ مَالَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ دَمَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ يَرَوْنَ غِشَّ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يَعُدُّونَ الطَّلَاقَ شَيْئًا إِلَّا عِنْدَ كُلِّ حَيْضَةٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَيْسَ لِنِسَائِهِمْ صَدَاقٌ إِنَّمَا يُمَتِّعُوهُنَّ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَسْتَحِلُّونَ الْمُتْعَةَ، وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ الْعَزْلَ عَنِ السَّرَارِي، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ يُحَرِّمُونَ الْجِرِّيَّ، وَالْمَرْمَاهَى، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ حَرَّمُوا الْأَرْنَبَ، وَالطِّحَالَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يُلْحِدُونَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَقَدْ أُلْحِدَ لِنَبِيِّنَا ، وَالْيَهُودُ يُدْخِلُونَ مَعَ مَوْتَاهُمْ فِي الْكَفَنِ سَعَفَةً رَطْبَةً، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مَالِكُ: وَفُضِّلَتْهُمُ الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ. قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: حَوَارِيُّ عِيسَى، وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: حَوَارِيُّ مُحَمَّدٍ يَعْنُونَ بِذَلِكَ طَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ.

أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ فَسَبُّوهُمْ، فَالسَّيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُولٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَدَعْوَتُهُمْ مَدْحُوضَةٌ، وَرَايَتُهُمْ مَهْزُومَةٌ، وَأَمْرُهُمْ مُتَشَتِّتٌ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرِيُّ فِي شَرْحِ أُصُولِ السُّنَّةِ نَحْوَ هَذَا الْكَلَامِ مِنْ حَدِيثِ وَهْبِ بْنِ بَقِيَّةَ الْوَاسِطِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَجَرٍ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، فَهَذَا الْأَثَرُ قَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ مِنْ. وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَبَعْضُهَا يَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ، لَكِنَّ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ ضَعِيفٌ، وَذَمُّ الشَّعْبِيِّ لَهُمْ ثَابِتٌ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى.

لَكِنَّ لَفْظَ الرَّافِضَةِ إِنَّمَا ظَهَرَ لَـمَّا رَفَضُوا زَيْدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي خِلَافَةِ هِشَامٍ، وَقِصَّةُ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ كَانَتْ بَعْدَ الْعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، سَنَةَ إِحْدَى

وَعِشْرِينَ، أَوِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ هِشَامٍ. قَالَ أَبُوحَاتِمٍ الْبَسْتِيُّ: قُتِلَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بِالْكُوفَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَصُلِبَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَكَانَتِ الشِّيعَةُ تَنْتَحِلُهُ. انتهى

والنواصب: هم الذين نصبوا العداء لآل بيت النبيّ ، وسبّوهم على المنابر ولعنوهم، وكانوا ظاهرين في عهد الدولة الأُمويّة، حتى جاء عمر بن عبدالعزيز ، وكانوا يظنّون أنّه سيسلك طريقة أسلافه في سبّ أهل البيت، فقال في خطبته المشهورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، وتلى الآية الأخرى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[البقرة:١٣٤].

وطريقة أوائلهم في الأسماء والصفات أنّهم يُمثّلون الله بخلقه، ثمّ رجعوا إلى التعطيل، وذُكر أنّ الأعمش لقي جنيًّا فقال: من شرّكم؟ فقال: (الرافضة)، وقال: أنتم من شرّكم؟ قال (الرافضة).

ويستحلّون الكذب حتى قال الإمام الشافعي : (أُجيز شهادة أهل الأهواء إلّا الرافضة)؛ لأنّهم يستحلّون الكذب ودينهم التقيّة، حتى قالوا: (لا دين لمن لا تقيّة له)، فربّما يُظهر لك السنّة والإسلام والاستقامة والمحبّة فإذا تمكّن منك انقلب في ساعة.

قتل عليّ بن أبي طالب مقدّمتهم، وهم الذين زعموا أنّه إله، فخدّ الأخاديد وحفرها، وأشعل فيها النار، فقال ابن عبّاس : لو كنت أنا لقتلتهم؛ لأنّ النبيّ يقول «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» رواه البخاري (٣٠١٧).

وإذا نظرت إلى مبدأ الرفض تجده من الزنادقة من عبدالله بن سبأ اليهودي ثم بعد ذلك اجتمع زنادقة المجوس وأخرجوا مذهبًا وهو مذهب الباطنيّة الذي ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض واستدلّ الإمام مالك على تكفير الرافضة بقول الله : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح:٢٩]، واستدلّ علدم إعطاء الرافضة من الفيء والخُمس بقول الله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وكان الإمام أحمد يأمر بإعادة الصلاة خلف الجهمي والرافضي.

وقال ابن حزم مقولته المشهورة: (يستدلّون علينا بقول الرافضة ما هم بمسلمين). يعني كيف تستدلّ عليّ بقول كافر.

وهم طرائق قددًا وأقسام شتّى، تجدها في كتب الملل والنحل، فهم يُبغضون الصحابة ؛ لحملهم الإسلام، ويسبّونهم ويتنقّصونهم، ومن أدعيتهم التي يتقرّبون بها إلى الله: (اللهم العن صنمي قريش وابنتيهما) ويقصدون بذلك أبابكر وعمر وعائشة وحفصة ، مع أنّ حفصة لمّا طلّقها النبيّ جاءه جبريل وقال له: «**رَاجِعْ حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَإِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الجَنَّةِ**» من حديث قيس بن زيد عند الحاكم في مستدركه (٦٧٥٣). وعائشة قد أثنى الله عليها وذكر فضلها ثم هم يقعون في أحباب

وخلفاء وأصحاب الرسول حتى قال بعضهم: (سئل اليهود: من أفضلكم؟ قالوا: أصحاب موسى)، وهذا معلوم عند جميع الأمم فإذا سألت النصراني: من أفضلكم؟ سيقول: (أصحاب عيسى)، ولمّا سئل الروافض من شرّكم؟ قالوا: (أصحاب محمّد)، جاءوا بما يُخالف المعقول والمنقول والأصول، فزعموا أنّ (غدير خُمْ) كان لعقد الخلافة لعليّ بن أبي طالب ، سبحان الله، والصحابة جهلوا هذا الحكم أو أنكروه، وعليّ لم يُطالب بحقّه حتّى يأتي زنادقة المجوس ويزعمون أنّ الخلافة كانت لعليّ بن أبي طالب .

القول فيما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم

قال :

> ويُمْسِكُون عمَّا شَجَرَ بينَ الصحابةِ.

لأنّ الصحابة مجتهدون، فمصيبهم له أجران، ومخطئهم له أجر، والمجتهد لا يؤاخذ عند الله ، مع أنّنا نعتقد أن الحق في جميع الحروب التي خاضها عليّ بن أبي طالب مع الصحابة كان معه، سواء في وقعة الجمل أو في صفّين أو كقتاله للخوارج في معركة النهروان. ومعاوية ومن معه كان عندهم شيء من الحقّ؛ فقد قال النبيّ كما في حديث أبي سعيد في البخاري (٦١٦٣) ومسلم (١٠٦٤): «**يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ، هُمْ شَرُّ الخَلْقِ - أَوْ مِنْ أَشَرِّ الخَلْقِ - يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الحَقِّ**»، فهم كانوا متأولين على أنهم يُطالبون بدم عثمان ويقولون لعليّ بن أبي طالب : سلّم قتلة عثمان حتى نبايعك، وكان عليّ بن أبي طالب معذورًا لم يستطع تسليم قتلة عثمان ؛ لكثرتهم ولتوغّلهم في جيشه ولخوفه من الفتنة، أو لعدم قيام البيّنة على واحد بعينه.

وعائشة لّما خرجت من مكّة إلى الكوفة ومعها طلحة والزبيّر وغيرهم من أصحاب النبيّ لم تكن نيّتها الحرب بل كان نيّتها الإصلاح بين علي بن أبي طالب وبين من خالفه، فلمّا بلغت عائشة بعض مياه بني عامر ليلًا نبحت الكلاب عليها، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: هذا ماء الحوءب، فوقفت وقالت: ما أظنني إلا راجعة، سمعت رسول الله يقول لنا ذات

يوم: «كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الحَوْءَبِ» عن أنس ، انظر اتحاف المهرة في زوائد المسانيد العشرة (٨/٨)، فقالوا لها: يا أمّ المؤمنين اخرجي لعلّ الله أن يحقن بك الدماء، ويُصلح بك بين المسلمين.

فمن عقيدة أهل السنّة والجماعة الكفُّ عمّا شجر بينهم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[البقرة:١٣٤].

وممّا ذكر ابن القيّم في كتابه الروح (٢٦/١) والله أعلم بصحّتها، قال سعيد بن أبى عروبة: عن عمر بن عبدالعزيز: رأيت رسول الله وأبوبكر وعمر جالسان عنده، فسلمت، فبينا أنا جالس إذ أُتِيَ بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليها الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضى لى ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبى هاشم جاء رجل إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: رأيت رسول الله في المنام وأبوبكر عن يمينه وعمر عن شماله، وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس، فقال لك: يا عمر، إذا عملت فاعمل بعمل هذين، لأبى بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله، أرأيت هذه الرؤيا؟ فحلف! فبكى عمر.

فهذا هو الذي يُوافق الأدلّة من أنّ الله قد نهى عن الخوض فيما شجر بينهم والله رحيم بعباده.

قال :

ويقولون: إنَّ هذهِ الآثارَ المروية في مَسَاوِيهِمْ منها: ما هو كَذِبٌ.

وهذا هو الواقع لأنّها من طريق لوط بن أبي مخنف والواقدي والكلبي ومن طريق عمر بن شمر ومن طريق عمر بن خالد الواسطي وهؤلاء رافضة كذّابون.

قال :

ومنها: ما قَدْ زِيْدَ فيه ونُقِصَ وغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ.

وهذا هو الواقع فإنّك إذا نظرت إلى كتاب البداية والنهاية لابن كثير أو تاريخ والأمم الملوك للطبري أو غير ذلك من الكتب تجد ما لا يليق بالصحابة ولا بالتابعين، ومنها ما ذُكر في الحرّة حيث يقولون إنّ يزيد بن معاوية استباح إلى المدينة ثلاثة أيّام وحملت سبعة ألف عذراء، سبحان الله أنت في زمن قوّة الإسلام ولله الحمد، وفي زمن الخشية، والخوف من الله، نعم قاتلوهم على أنّهم خرجوا على يزيد أمّا أن يستبيحوا دماءهم ونساءهم، كلّ هذا من كذب الرافضة والخطأ أنّه نقلها أهل سنّة عنهم ونحن نعلم أنّ باب السيرة والتاريخ لم يُهذّب، لو نقل لنا الواقدي حديثًا في الأحكام ما قبلنا منه فكيف نقبل منه هذه التي فيها طعن ظاهر في الإسلام، الإسلام مازال قويًّا والصحابة متوافرون، ثمّ يقولون: زنى بسبعة آلاف امرأة، أليس رسول الله يقول: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَـهُمْ**» من حديث أمّ حرام عند البخاري (٢٩٢٤). وكان قائده يزيد .

أليس لمّا قُتل الحسين وجاء أولاد الحسين أكرمهم يزيد وأحسن إليهم وإنّما قال الإمام أحمد : (لا نسبّه ولا نحبّه). وكثير ممّا يذكرونه عن يزيد ليس بثابت، مثل أنّه كان يُجاهر بشرب الخمر، وكان يفعل وكان يفعل، هذا تاريخ رافضي دخل في تاريخ الإسلام فينبغي أن يُنقّى التاريخ ومن أحسن من ألّف في هذه المسألة ابن العربي العواصم من القواصم ، وحقّقه محبّ الدين الخطيب، فيراجعه من أراد الاستفادة وقد رأيت مؤلّفًا في تحقيق المرويّات في التاريخ.

قال :

والصحيحُ منه؛ هم فيه مَعْذُوْرُوْنَ، إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

يعني إذا صحّ شيء ممّا نُقل هم فيه معذورون لماذا؟ إمّا مجتهدون مصيبون وإمّا مجتهدون مخطئون وفي حديث عمرو بن العاص عند البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦)، أنّ النبيّ : «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**».

القول في عصمة الصحابة رضي الله عنهم

قال :

وَهُمْ مَعَ ذلك لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصحابةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وصَغَائِرِهِ.

أي أهل السنّة لا يعتقدون أنّ كلّ واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره فإنّ من الصحابة من وقع في الزنا في عهد النبيّ ورجمه كما فعل في الغامديّة وكما فعل في ماعز ومنهم من قُطعت يده ومنهم من غلّ وأخبر النبيّ أنّه في النار لشملة أو عباءة ومنهم من قتل نفسه والصحبة ثابتة لهم لكن إجماع الصحابة معصوم، قال النبيّ : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند أبي داود (٣٩٥٠).

بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم ويذكر العلماء عشرة أسباب لمغفرة الذنوب فالصحابة لهم الحظّ الأوفر من هذه العشرة الأسباب: التوبة، والإسلام الحقّ، قال الله تبارك تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، وقال النبيّ : «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا». والمصائب والأمراض والأسقام، قال النبيّ : «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» رواه ابن أبي شيبة (١٠٨١١) من حديث أبي هريرة . والمحافظة على العبادات مثل الصلاة وصيام رمضان، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٣)، قال النبيّ : «الصَّلَوَاتُ

الخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

قال :

بل [يَجُوزُ][1] عليهم الذُّنُوبُ في الجُمْلَةِ، ولهم مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ ما يُوجِبُ مَغْفِرَةَ ما يَصْدُرُ منهم إنْ صَدَرَ، حتى إنَّه يُغْفَرُ لهم مِنَ السيئاتِ ما لا يُغْفَرُ لمن بعدَهُم، لأنَّ لهم مِنَ الحسناتِ التي تَمْحُو السيئاتِ ما ليس لمن بعدَهُم.

بل قد قال النبيّ في حقّ أهل بدر: «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» من حديث عليّ عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤). وقال النبيّ : «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» من حديث جابر عند مسلم (٢٤٩٦).

ولهم دعوة إلى الإسلام وسبق، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[الحديد:١٠]، فالله غفر لهم وتجاوز عنهم.

---

(١) في (م) و(ف): [بل تجوز].

قال :

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: أنهم خير القرون.[(١)]

كما في حديث عمران بن حصين ، قال النبيّ : «خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ : «إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ» رواه البخاري (٢٦٥١) و(٣٦٥٠) و(٦٤٢٨) و(٦٦٩٥)، مسلم (٢٥٣٥). وَعَنْ عَبْدِاللهِ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ» أخرجه البخاري (٢٦٥٢) و(٣٦٥١) و(٦٤٢٩) و(٦٦٥٨). وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ زَعَمَ أَبُوسَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُبْعَثُ مِنْهُمُ الْبَعْثُ فَيَقُولُونَ انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ فِيكُمْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّانِي فَيَقُولُونَ هَلْ فِيهِمْ مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّالِثُ فَيُقَالُ انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ ثُمَّ يَكُونُ الْبَعْثُ الرَّابِعُ فَيُقَالُ انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ أَحَدًا رَأَى مَنْ رَأَى أَحَدًا رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ» رواه مسلم (٢٥٣٢). وَعَنْ عَبْدِاللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ

---

(١) متفق عليه: خ (٢٦٥١و٢٦٥٢) م (٢٥٣٣و٢٥٣٥) عن ابن مسعود وعمران، ولمسلم عن أبي هريرة وعائشة (٢٥٣٤و٢٥٣٦).

الَّذِينَ يَلُونِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» رواه مسلم (٢٥٣٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، وَاللهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا قَالَ: «ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» رواه مسلم (٢٥٣٤). وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ : «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ» رواه مسلم (٢٥٣٦).

قال :

> وأنَّ المدَّ مِنْ أَحدِهِمْ إذا تَصَدَّقَ بِهِ، كان أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذهبًا مِمَّنْ بَعْدَهم.[1]

وهذا الحديث قاله النبيّ في شأن خالد وعبدالرحمن بن عوف ، ومن المعلوم أنّ خالدًا من أصحاب رسول الله أسلم بعد الأحزاب وعبدالرحمن بن عوف أسلم قبل وهو من المهاجرين الأوّلين، فلمّا وقع بين خالد وعبدالرحمن ما وقع قال النبيّ : «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» من حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١). يقول هذا لخالد أحد أصحابه، لكن عبدالرحمن بن عوف له صحبة أكثر؛ لأنّه هاجر الهجرة الأولى وله سابقيّة. والمُدّ هو جمع اليدين، والنصيف بالكفّ، فإذا كان خالد بن

---

(١) هذه إشارة إلى حديث أبي سعيد المتقدم: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي».

الوليد لو أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ عبدالرحمن بن عوف ولا نصيفه! فكيف بالمتأخّرين الذين يقعون فيهم؟!

قال :

ثم إذا كان قد صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِم ذَنْبٌ، فيكونَ قد تابَ منه.

والتوبة من مكفرات الذنوب يدلّ على ذلك قول الله : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٦٨-٧٠]، قال النبيّ : «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»، من حديث عمرو بن العاص عند ابن ماجه (٤٢٥٠)، وأصحّ منه حديث عائشة في البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، قال النبيّ : «**فَإِنَّ الْعَبْدَإِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

قال :

أو أتى بحسناتٍ تَمْحُوهُ.

من حجٍّ وصيام وجهادٍ ومعلوم أنّ الحسنات تذهب السيّئات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤].

قال :

أَوْ غُفِرَ له بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ.

كما في أصحاب بدر وبيعة الرضوان وقد تقدّم الحديث فيهم.

قال :

أَوْ بِشَفَاعَةِ محمدٍ ﷺ -الذين هُمْ أَحَقُّ الناسِ بِشَفَاعَتِهِ-.

والنبيّ يقول: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، أَوْ يَدْخُلُ نِصْفُ أُمَّتِي الجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِيْنَ، لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُتَلَوِّثِينَ الخَطَّاءُونَ**» من حديث عبدالله بن عمر عند أحمد (٥٤٥٢). وعن عوف بن مالك عند الترمذي (٢٤٤١)، وابن ماجه (٤٣١١)، و(٤٣١٧).

قال :

أو ابْتُلِيَ ببلاءٍ في الدُّنْيا كُفِّرَ به عنه. فَإِذَا كان هذا في الذنوبِ المُحَقَّقَةِ.

كما قال الرسول : «**لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ**» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٥٩). وفي الصحيح قال النبيّ : «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**» من حديث عائشة عند مسلم (٢٥٧٢). وقال النبيّ : «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الهَمِّ يُهَمُّهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**» من حديث أبي سعيد

وأبي هريرة عند مسلم (٢٥٧٣). وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣] بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**» أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

قال :

فكيف بِالأُمُورِ التي كانوا فيها مجتهدينَ؛ إنْ أصابوا فلهم أَجْرَانِ، وإنْ أَخْطَأُوا فلهم أجرٌ واحدٌ، والخطأُ مغفورٌ لهم.

ثم القَدْرُ الذي قد يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بعضِهِم قليلٌ نزرٌ، مغمورٌ في جَنْبِ فضائلِ القومِ ومحاسنِهم، مِنْ: الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، والجهادِ في سبيلِهِ، والهجرةِ، والنصرةِ، والعلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ.

ويدل على ذلك ما فعله النبيّ ، بحاطب بن أبي بلتعة لمّا كتب إلى قريش كتابًا يُخبرهم بمسير النبيّ إليهم، فلمّا قال عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ : «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» من حديث عليّ عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

قال :

> وَمَنْ نَظَرَ في سيرةِ القومِ -بِعِلْمٍ وبصيرةٍ، وما مَنَّ اللهُ به عليهم مِنَ الفَضَائِلِ- عَلِمَ يقينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الخَلْقِ بعدَ الأَنْبِيَاءِ، لا كَانَ ولا يكونُ مثلُهُم.

يعني بالعلمٍ أدلّة الكتاب والسنّة وبصيرة بمعرفة فضلهم وبعدم التعصّب والهوى، فيجد ما منّ الله عليهم به من الفضائل يعلم علمًا يقينيًّا لا ظنّيًا أنّهم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا كان في الأمم السابقة مثلهم كما لن يكون في اللاحقين، جاءت الرميصاء، أو الغميصاء إلى النبيّ فيقول لها: «**لَقَدْ سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكِ فِي الجَنَّةِ**». ويقول لبلال : «**يَا بِلَالُ، بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الجَنَّةِ؟ مَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ قَطُّ إِلَّا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، دَخَلْتُ البَارِحَةَ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي**» من حديث بريدة عند الترمذي (٣٦٨٩). وقال النبيّ : «**بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا لِعُمَرَ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٢٢٧). ويقول لعبدالله بن سلّام في الجنّة ولثابت بن قيس في الجنّة ويقول لأصحاب بيعة الرضوان وهم أكثر من ألف وأربع مائة: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» من حديث جابر عند مسلم (٢٤٩٦)، هذا لا يكون لغيرهم يقول هذا مع علمه أنّهم بشر وأنّهم يُخطئون ويعلمون ويجهلون ومع علم الله الأزلي الأبدي بأحوالهم وبما سيقع منهم ومع ذلك يقول الله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[المائدة:١١٩]، فلا يتنقّصهم إلّا من لم

يعرف قدرهم ومنزلتهم والإسلام الحقّ، فمن كان عارفًا بالإسلام الحقّ علم منزلة الصحابة ، فهم الذين نقلوه لنا وبذلوا دماءهم وأموالهم وهاجروا من بلدانهم وجاعوا وعروا وسهروا وتعبوا ونصبوا من أجل تبليغ هذا الدين ثم يأتي زنادقة الروافض وجُهّال المبتدعة ويتكلّمون فيهم، الروافض يُكفّرونهم والمبتدعة يقولون هم رجال ونحن رجال أو طريقتهم أسلم وطريقتنا أعلم وأحكم، والله ما يقول هذا القول إلّا من سفه نفسه.

قال :

> وأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هذهِ الأُمَّةِ، التي هي خَيْرُ الأُمَمِ، وأَكْرَمُها على اللهِ تعالى.

قد تقدّم البيان أنّ الخيريّة هي في القرون الثلاثة وأفضل هذه القرون هم الصحابة وإنّ اللسان ليتعثّر عن المجيء بما هم أهله وإنّ القلم لا يعجز عن كتابة فضائلهم وإنّ الوقت ليضيق بذكر محاسنهم هم صفوة خلق الله بعد الأنبياء والمرسلين ولا مثلهم ولن يكون مثلهم.

وتوسّع شيخ الإسلام في باب الصحابة للحاجة إلى ذلك فإنّ المخالفين في باب الصحابة كثير فلهذا أتى على شبههم فلو سلّمنا أنّ الصحابة وقعوا في خطأ فهو مغفور لأسباب:

- **السبب الأوّل:** لسابقيّتهم.
- **السبب الثاني:** أنّ لهم حسنات تُذهب تلك السيّئات.

السبب الثالث: قد يكونوا مجتهدين في هذا الخطأ والمجتهد إن أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر، فهم مُثابون على أيّ حال، وقد يكونوا تابوا منه.

فلا يجوز الطعن في الصحابة والازدراء لهم ولا التحذير منهم بل الواجب كفّ الألسنة عمّا شجر بينهم ولا يُذكرون إلّا بالجميل ولا يُذكرون إلّا بالخير وبالأوصاف التي تؤدّي إلى محبّة الناس لهم، أمّا الأوصاف البذيئة المنكرة فلا يجوز أن تُطلق عليهم؛ ولهذا ردّ العلماء على عائض القرني لمّا قال: (الأقرع بن حابس أحمق)، وعلى غيره، فلا يجوز تنقّص الصحابة بأيّ حال من الأحوال، ولا تُذكر مثالبهم، فلهم من الخير والجميل ما يُغطّي تلك المثالب -إذا وُجدت- فنحن قد نقول في حقّ عالم من العلماء تُدفن في بحر حسناته، فكيف بصحابي من الصحابة الأجلّاء الفضلاء الذين هجروا الأهل والأوطان وعادوا الأقارب والخلّان من أجل دين ربّ العالمين، ثم بعد ذلك يطعن فيهم طاعن ويُزهّد فيهم مزهّد، أمّا من كفّرهم أو فسّقهم فليس من أهل الإسلام.

القول في كرامات الأولياء

قال :

وَمِنْ أُصُولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ: التصديقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، وما يُجْرِي اللهُ على أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ، في أَنْوَاعِ العُلُومِ والمُكَاشَفَاتِ، وأنواعِ القُدْرَةِ والتَّأْثِيرَاتِ، كَالْمَأْثُورِ[1] عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ، في سُورَةِ الكَهْفِ وغيرِها، وعن صَدْرِ هذهِ الأُمَّةِ، مِنَ الصحابةِ، والتابعينَ، وسائرِ قرونِ الأُمَّةِ،[2] وهي موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ.

وهذه من الأصول التي خالف فيها المعتزلة ومن إليهم من الرافضة، والجهمية، مع أن كرامات الأولياء ثابتة بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف الصالحين.

وقد انقسم الناس في كرامات الأولياء إلى **ثلاثة أقسام**:

الأوّل: هم أهل السنّة والجماعة الذين يؤمنون بكرامات الأولياء بما قصّ الله في القرآن من شأن أهل الكهف، قال الله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف:١٣]، ومكثوا في ذلك الكهف سنوات عديدة وأعوام مديدة ويسخّر الله لهم الشمس تدخل عليهم في الصباح والمساء وسلموا من الثعابين والحيّات وسلموا من الموت والجوع مع أنّ الإنسان إذا نام أربع وعشرين ساعة أو اثنى عشر ساعة ربّما

(١) في المطبوع: [والمأثور] وهو خطأ.
(٢) في المطبوع: [فرق الأمة]، ومعناه لا يستقيم.

يحتاج إلى طعام وإذا نام ولم يقع له تحوّل من فراشه يقوم وقد أثّر الفراش في جنبه فكيف بثلاث مائة وتسعة سنين وحفظهم الله وأكرمهم وهكذا جاءت كرامات للصحابة رضوان الله عليهم ومنها أنّ الله كان يُبارك لهم في الطعام القليل ومنها أنّ الله ربّما جعل لبعضهم نورًا يمشي به كما حصل لأسيد بن حضير وعبّاد بن بشر فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: إِنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا. رواه البخاري (٣٨٢٠). ودخل أبوذرّ إلى مكّة ومكث أيّامًا يشرب من ماء زمزم حيث قال : وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ. رواه مسلم (٢٤٧٣). أكرمه الله بالبركة في ذلك الماء، فكان طعام طعم وشفاء سقم.

وما أكرمهم به الله في غزوة بدر وفي غزوة أُحد وفي أسفارهم وفي حضرهم ومع ثبوت الكرامات بالكتاب والسنّة وإجماع أهل السنّة فإنّ الواقع يدلّ عليها، فكم أكرم الله من المؤمنين في سالف الدهر وحاضره ولا تزال الكرامات مستمرّة حتى يرث الله الأرض فعن أبي سعيد أن النبي **«يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ مَسَالِحُ الدَّجَّالِ فَيَقُولُونَ لَهُ أَيْنَ تَعْمِدُ فَيَقُولُ أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِى خَرَجَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ أَوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا فَيَقُولُ مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ. فَيَقُولُونَ اقْتُلُوهُ. فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِى ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ قَالَ فَيَأْمُرُ**

الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ فَيَقُولُ خُذُوهُ وَشُجُّوهُ. فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ أَوَمَا تُؤْمِنُ بِى قَالَ فَيَقُولُ أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ يَمْشِى الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ قُمْ. فَيَسْتَوِى قَائِمًا، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَتُؤْمِنُ بِى فَيَقُولُ مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِى بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ وَإِنَّمَا أُلْقِىَ فِى الْجَنَّةِ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ» متفق عليه.

ومن الكرامات التي تحصل في ذلك الزمان أنّ المسلمين حين يُحصرون في الجبال ولا يستطيعون النزول ويمنع عنهم الأكل وغير ذلك بسبب يأجوج مأجوج يكون طعامهم التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل كما صحّ من طرق عن النبيّ ، جاء عن أبي أمامة وعائشة وجابر على ما بيّنته في كتاب تحذير العقّال من فتنة المسيح الدجّال .

وقد ألّف العلماء في كرامات الأولياء، ألّف الإمام اللالكائي وهكذا من المؤلّفات العصرية كتاب الشيخ عبدالرقيب الإبّي فيه الصحيح من كرامات الأولياء.

وكرامات الأولياء تُعتبر معجزة للنبيّ والفرق بين كرامات الأولياء وخرافات الفسّاق الأشقياء أنّ الوليّ يحرص على إخفاء الكرامة، والأمر الثاني أنّه لا يتكلّف حصولها وإنّما يُصلّي ويصوم ويحجّ ويعتمر ويقرأ القرآن ويدع الله

فإن حصلت فالحمد لله وإن لم تحصل ما يتكلّف حصولها والأمر الثالث أنّ الكرامة تكون في حقّ المستقيمين على كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا حتّى قال شيخ الإسلام : (أفضل كرامة دوام الاستقامة)، أمّا الصنف الثاني فهو يتكلّف في الكرامة، ربّما أجاع نفسه وربّما عرّاها وأتعبها ويكون حريصًا على إظهارها وربّما حصلت له خوارق العادات من المكاشفات وغيرها بسبب ما يحصل لنفسه من الجوع وفراغ الذهن من أمور الدنيا وهو مع ذلك على غير طريقة النبيّ فمثل هذا لا تكون في حقّه كرامة وإنّما تكون في حقّه مهانة وقد تكلّم الشيخ مقبل تعالى على باب الكرامات وباب الخرافات في كتابه الصحيح المسند من دلائل النبوّة ، وتكلّم شيخ الإسلام في كتابه النبوّات و الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فيُذكر عن أبي السليل ضريب بن نفير قال: كنت مرافقًا للعلاء بن الحضرمي حين بعث إلى البحرين، فسلكنا مفازة فعطشنا عطشًا شديدًا حتى خشينا على أنفسنا الهلاك وما ندري ما مسافة الأرض. فذكر ذلك له فنزل فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا، قال: فإذا نحن بسحابة كأنها جناح طائر قد أظلتنا حتى أتينا على خليج من البحر ماخيض قبل ذلك اليوم ولا خيض بعده فالتمسنا سفنا فلم نجد. فذكرنا ذلك له فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجرنا،ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله.

قال أبوهريرة فمشينا على الماء فوالله ما ابتلت قدم ولا خف بعير ولا حافر دابة وكان الجيش أربعة آلاف.

فلما جزنا قال: هل تفقدون شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فأتينا البحرين فافتتحها وأقام بها سنة، ثم مات رحمة الله عليه .

ويُذكر عن ابن عمر أن عمر خطب يوما بالمدينة فقال يا سارية بن زنيم الجبل من استرعى الذئب فقد ظلم.

قال: فقيل له: تذكر سارية وسارية بالعراق؟! فقال الناس لعلي: أما سمعت عمر يقول: يا سارية وهو يخطب على المنبر؟! فقال: ويحكم دعوا عمر؛ فإنه ما دخل في شيء إلا خرج منه، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى قدم سارية، فقال: سمعت صوت عمر فصعدت الجبل. ذكرهما اللالكائي في كرامات الأولياء .

وممّا يُذكر في الباب ما حصل لشيخ الإسلام من الكرامات سواء في حربه مع الرافضة أو مع الحشّاشين أو التتر، وما زالت الكرامات مستمرّة لأوليائه المتقين.

يقول الشيخ ابن باز : تظهر الكرامة للمؤمن في وقت الحاجة، سنّة الله في أوليائه وسنّة الله في أصفيائه أنّه يُكرمهم في قوت الحاجة.

ففي يوم بدر أنزل الله على المؤمنين المطر والنعاس أمنة منه، وأنزل عليهم الملائكة قال تعالى،﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[الأنفال:٩-١٢].

وفي الصحيحين عن عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ أَبِى بَكْرٍ أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ مَرَّةً: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلاثَةٍ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ**». أَوْ كَمَا قَالَ. وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ وَانْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ بِعَشَرَةٍ وَأَبُوبَكْرٍ بِثَلاثَةٍ، قَالَ: فَهُوَ وَأَنَا وَأَبِى وَأُمِّى – وَلَا أَدْرِى هَلْ قَالَ وَامْرَأَتِى وَخَادِمٌ بَيْنَ بَيْتِنَا وَبَيْتِ أَبِى بَكْرٍ – قَالَ: وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ . ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صُلِّيَتِ الْعِشَاءُ ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حَتَّى نَعَسَ رَسُولُ اللهِ فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ – أَوْ قَالَتْ – ضَيْفِكَ قَالَ أَوَمَا عَشَّيْتِهِمْ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ وَقَالَ يَا غُنْثَرُ. فَجَدَّعَ وَسَبَّ وَقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئًا. وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَايْمُ اللهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُوبَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ. قَالَ لِامْرَأَتِهِ يَا أُخْتَ بَنِى فِرَاسٍ مَا هَذَا قَالَتْ لَا وَقُرَّةِ عَيْنِى لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مِرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُوبَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ – يَعْنِى يَمِينَهُ – ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ: وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ فَمَضَى الأَجَلُ فَعَرَّفْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ.

وفي مسلم: عَنِ الْمِقْدَادِ قَالَ أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِى وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا فَأَتَيْنَا النَّبِىَّ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا ثَلاثَةُ أَعْنُزٍ فَقَالَ النَّبِىُّ «**احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا**». قَالَ فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ وَنَرْفَعُ لِلنَّبِىِّ نَصِيبَهُ، قَالَ: فَيَجِىءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لاَ يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِى الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّى ثُمَّ يَأْتِى شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ فَأَتَانِى الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِى فَقَالَ مُحَمَّدٌ يَأْتِى الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِى بَطْنِى وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَّمَنِى الشَّيْطَانُ فَقَالَ وَيْحَكَ مَا صَنَعْتَ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ فَيَجِىءُ فَلاَ يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ. وَعَلَىَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَىَّ خَرَجَ رَأْسِى وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِى خَرَجَ قَدَمَاىَ وَجَعَلَ لاَ يَجِيئُنِى النَّوْمُ وَأَمَّا صَاحِبَاىَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِىُّ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقُلْتُ الآنَ يَدْعُو عَلَىَّ فَأَهْلِكُ. فَقَالَ: «**اللهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِى وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِى**». قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَىَّ وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللهِ فَإِذَا هِىَ حَافِلَةٌ وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لآلِ مُحَمَّدٍ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ: «**أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِى فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِى فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِىَّ قَدْ رَوِىَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ

إِلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ «**إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ**». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ مِنْ أَمْرِى كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا. فَقَالَ النَّبِيُّ «**مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِى فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا**». قَالَ فَقُلْتُ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ.

وما حصل لنا بحمد الله في أيّام حصار الرافضة لأهل السنة في دماج من الطمأنينة والسكينة وهدوء البال والنصر والرفق في الجرحى، وما أظهره الله تعالى من جثث القتلى بعد سنة ونصف من دفنهم بحيث لم تأكلهم الأرض، وغير ذلك ممّا كان يحصل فالله لطيف بعباده ولا يُشترط أن تظهر لك كرامة على صورة كذا وكذا كما يذكرون فأحسن كرامة هي دوام الاستقامة ثمّ إذا جعل الله ما يظهر، فله الحمد وهذا فضل الله يُؤتيه من يشاء.

قال السفاريني في منظومته:

وَكُلُّ خَارِقٍ أَتَى عَنْ صَالِحِ   مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنَا وَنَاصِحِ
فَإِنَّهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ الَّتِي   بِهَا نَقُولُ فَاقْفُ لِلْأَدِلَّةِ
وَمَنْ نَفَاهَا مِنْ ذَوِي الضَّلَالِ   فَقَدْ أَتَى فِي ذَاكَ بِالْمُحَالِ
فَإِنَّهَا شَهِيرَةٌ وَلَمْ تَزَلْ   فِي كُلِّ عَصْرٍ يَا شَقَا أَهْلِ الزَّلَلْ

الثاني: المعتزلة ومن إليهم الذين يُنكرون حصول الكرامات بالكليّة ولا يؤمنون بها، وزعموا أن الخوارق لو جاز ظهورها من الأولياء لالتبس النبي بغيره إذ فرق ما بينهما -عندهم- إنما هو المعجزة، وبنوا على ذلك أنه لا يجوز ظهور خارق إلا لنبي.

الثالث: من يتكلّف ادعائها وفي البحث عنها وهم الصوفيّة حتى إنهم يجعلون ما ليس بكرامة كرامة، بل يجعلون ما هو من خصائص الله وحده كرامة لأوليائهم؛ كقول بعضهم: أن لله عبادًا لو شاءوا من الله ألا يقيم القيامة لما أقامها، وقول بعضهم: إنه يعطى في أي شيء أراده قول كن فيكون، وقول بعضهم: لا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعزب عن قدرة ربه محال إلى غير ذلك من الضلالات والكفريات، ويُثبتونها للفسّاق والضُّلّال ومن هذا الباب كتاب كرامات الأولياء للنبهاني، و كرامات الأولياء لليافعي، فهي كتب فيها الزندقة والإلحاد وفيها المخاريق الباطلة ومنها زعمهم أنّ العيدروس أحيا امرأته عائشة بنت عمر المحضار وأحيا الشاب الذي سرق مزرعته، ويتكلّفون ادّعاء الكرامات وربّما أجاعوا أنفسهم وأتعبوها بالسهر وغير ذلك حتى تظهر له كرامة فيما يزعم بل ويجعلون المخاريق التي يقوم بها السحرة والمشعوذون من هذه فتجد أحدهم يسير في البلدان والأوطان وفي يده خنجر ويستغيث بابن علوان ويطعن نفسه، فيُخيّل للناس أنّه طعن عينه وهو ما طعنها وإنّما هو سحر وشعوذة فهذه ليست من الكرامة في شيء بل هي من أسباب الذلّة والمهانة.

أهمّيّة الاتباع

قال :

فصلٌ

ثم من طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ: اتباعُ آثارِ رسولِ اللهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا.

(ثُمَّ) بضم الثاء المثلثة حرف عطف، وبفتحها اسم إشارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان:٢٠]، وقد اختلفوا فيه: هل يدلّ على الترتيب أو عدمه؟ والصحيح: أنّه لا يفيده، حتى قال الشاعر:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

فمن طريقة أهل السنّة اتباع الآثار اعتقادًا وعملًا وما سُمّوا أهل الأثر إلّا لهذا والمتابعة تكون للنبي في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، من أعظم وسائل نصرة الدعوة: قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[الأحزاب:٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

ومن الفتن العظيمة أنهيار الدعوات والرجوع إلى القهقرى.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ومن أعظم الفلاح هو انتصار وتمكن الدعوة السلفية، فكن كما أراد الله تُمَكَّن في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد كما قال السيوطي في الأمر بالاتباع (٥٣): الطرق كلها مسدودة إلا على المقتفين آثار رسول الله ، والمتبعين سنته وطريقته، فإن طرق الخير مفتوحة عليه كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وقال الأوزاعي : (إيّاك وأقوال الرجال وإن زخرفوا لك بالقول)، وقال سفيان : (وجدنا الأمر كله في الاتباع) وقال عبدالله بن مسعود : (اتبعوا ولا تبدعوا فقد كُفيتم)، ويقول عمر بن الخطّاب : (أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم السنن أن يفهموها فقالوا برأيهم)، ومن جعل دينه عرضةً للرأي والخصومات أكثر التنقّل. وقال عبدالله بن عمر لَمّا سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ اسْتِلاَمِ الحَجَرِ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ زُحِمْتُ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ غُلِبْتُ؟ قَالَ: (اجْعَلْ أَرَأَيْتَ بِاليَمَنِ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ). رواه البخاري (١٦١١).

وسهل بن حُنيف يقول: (يا أيّها الناس اتهموا رأيكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل لو أستطيع أن أرد أمر النبيّ لرددته)، ومع ذلك كادوا أن يهلكوا بسبب ذلك الأمر لولا أنّ الله منّ عليهم بمشورة أمّ سلمة على أنّ النبيّ يخرج ويحلق رأسه وينحر هديه فخرج فتتابع المسلمون على متابعة النبيّ وسبب الضلال الرأي كما في حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (١٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٣)، قال النبيّ : «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»، وفي رواية عند البخاري «**فأفتوا برأيهم**»، فالرأي بلاء ومرض أصاب كثيرا من الأمّة حتّى سُمّوا بالرائيين، وقال الإمام أحمد بن حنبل : (عجبت لمن عرف الإسناد وصحّته ثمّ يعمد إلى قول سفيان)، وقال: (لو استطعت أن لا تحكّ ظهرك إلّا بأثر فافعل)، ويُذكر أنّه عند موته جعل يئنّ ثمّ ترك الأنين

لحديث بلغه عن طاووس أنّ الأنين يُكتب، وفي فتنة القول بخلق القرآن جعل يقول : (إيتوني بحديث عن رسول الله أو بآية من كتاب الله حتّى أقول به)، ومن أعظم ما يدل على أن الاتباع سبب للأستمرار في الخير، والابتداع سبب للانحراف والضير: ما أخرجه الإمام مسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله من خيبر وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبوبكر عليها ذلك وقال: لست تاركًا شيئًا كان النبي يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

ونقل الإمام الذهبي في السير (٨/ ٩٨) عن الإمام مالك ابن أنس قوله: سن رسول الله وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدي بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا.

وكان السلف رضوان الله عليهم يرون الاتباع كالجهاد في سبيل الله، قال أبوعبيد القاسم بن سلام كما في السير (١٠/ ٤٩٩): المتبع السنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب بالسيف في سبيل الله.

ومعلوم أن الضرب بالسيف في سبيل الله من أسباب انتشار الدين واستمرارية عزته، قال : «**وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

والأثر يُطلق ويُراد به آثار الرسول ويُطلق ويراد به آثار الصحابة رضوان الله عليهم.

قال :

واتباعُ سبيلِ السابقينَ الأولينَ، من المهاجرينَ والأنصارِ.

ومن طريقهم اتباع سبيل السابقين من المهاجرين والأنصار في فهم الكتاب والسنّة لقول الله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠]، فسبب رضوان الله على العبداتباع المهاجرين والأنصار في دين الله الذي بعث به محمّد وعدم مشاقتهم قال الله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

قال :

واتباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي».

الدليل على أنّهم وصيّة رسول الله حديث العرباض بن سارية قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ الْفَجْرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا أَوْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا. قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» رواه أبوداود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢)، أحمد (١٧١٤٤)، وهم أبوبكر ثم عمر ثم

عثمان ثم عليّ وعند التجوّز فأصحاب النبيّ كلّهم خلفاء مهديين، من حيث أخذهم للعلم وتعظيمهم له والعمل به والنقل له فكلّهم خلفاء لرسول الله لكن الحديث يُراد به الخلفاء الأربعة الذين ولوا أمر المسلمين ظاهرًا وباطنًا.

رشدوا بسبب أخذهم بالرشد وهو الكتاب، قال الله : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[الجن:١-٢]، والسنّة ففي حديث عديّ بن حاتم عند مسلم من يطع الله ورسوله فقد رشد.

وهدوا لأخذهم بالقرآن والسنّة فإنّ الهدى فيهما والضلال في غيرهما، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى:٥٢-٥٣].

وقوله: (من بعدي) أي الذين تولّوا أمر المسلمين من بعده ولا يزال الإسلام عزيزًا منيعًا إلى اثني عشر خليفة كلّهم من قريش كما في حديث جابر بن سمرة عند مسلم (١٨٢١)، وهذا الحديث يعتبر قاصمة ظهر للرافضة ومن إليهم فهم يزعمون أنّ زمن بني أُميّة كان زمن ظلم وبغي وذلّة للإسلام والمسلمين والنبيّ يُخبر أنّ الإسلام مازال عزيزًا منيعًا في هذه الفترة وفيه بيان أنّ حكّام بني أُميّة يُسمّون خلفاء وإن كانوا ليسوا كالخلفاء الأربعة وحديث سفينة عند أحمد (٢١٩٢٨) قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكًا بَعْدَ ذَلِكَ**»، ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: (أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَخِلَافَةَ عُمَرَ، وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ، وَأَمْسِكْ خِلَافَةَ عَلِيٍّ)، قَالَ: (فَوَجَدْنَاهَا

ثَلَاثِينَ سَنَةً، ثُمَّ نَظَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْخُلَفَاءِ، فَلَمْ أَجِدْهُ يَتَّفِقُ لَهُمْ ثَلَاثُونَ) أنكره ابن العربي وقال: هذا يُخالف ما في الصحيح، وهو حديث جابر بن سمُرة السابق ذكره.

قال :

«تَمَسَّكُوا بِهَا».

والتمسّك بالكتاب والسنّة أجره عظيم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[الأعراف:١٧٠]، وقال أبوبكر بن أبي داود في الحائيّة:

تَمَسَّكْ بحَبْلِ اللهِ واتَّبِعِ الهُدَى ولا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
وَدِنْ بِكِتَابِ اللهِ والسُّنَنِ التِي أَتَتْ عَن رَسُولِ اللهِ تَنْجُ وَتَرْبَحُ
وَلا تَكُ مِن قَوْمٍ تَلَهَّوْ بِدِينِهِم فَتَطْعَنَ في أَهْلِ الحَدِيثِ وتَقْدَحُ

فالتمسّك بالأثر واجب وحتم لهذه الأدلّة وغيرها.

قال :

«وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

العضُّ بالنواجذ وهي الأضراس كناية على شدّة التمسّك بالسنّة لأنّك لو مسكت بيدك ربّما يفلت الحبل ولو مسكت بأسنانك وثناياك ربّما انقلعت لكن النواجذ المسك بها قويٌّ فلهذا قال النبيّ : **«تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»** من حديث العرباض عند أبي داود (٤٦٠٧) واللفظ له،

والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) وأحمد (١٧١٤٤)، وفي هذا بيان لحاجة العبدللتمسّك بالسنّة والنبيّ يقول: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ» من حديث أنس عند الترمذي (٢٢٦٠). وهذا الحديث من ثلاثيّات الترمذي، ولكن للحديث شواهد، منها: قول النبيّ : «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا» من حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (١٤٦)، ونحوه عن أبي هريرة .

قال :

«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».[(١)]

فكلّ محدثة في الدين لم يشرعها الله ولم يُبلّغها رسول الله فهي بدعة، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى:٢١]، فكلّ محدثة في الدين بدعة سواء أحدثها هو أو غيره ويدلّ على ذلك قوله : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» من حديث عائشة عند البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، ولمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وفي الأثر المشهور الذي أخرجه الدارمي في

---

(١) صحيح بشواهده: رواه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣و٤٤) وغيرهم عن العرباض بن سارية، وقد تكلمنا على طرق الحديث في تحقيق الأربعين النووية بما يغني عن إعادته هنا -ولله الحمد- فراجعه إن شئت.

مقدّمة سننه وهو في آخر مصنّف ابن أبي شيبة أنّ أبا موسى الأشعريّ جاء إلى باب ابن مسعود فقال: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُوعَبْدِالرَّحْمَنِ قُلْنَا: لَا، بَعْدُ. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُومُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي المَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ - وَالْحَمْدُ للهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي المَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حصًا، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ: (أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ)، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: (مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟) قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ حصًا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: (فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ) . قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الخَيْرَ. قَالَ: (وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ)، إِنَّ رَسُولَ اللهِ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الخَوَارِجِ. سنن الدارمي (٢٠٤)، فالشاهد أنّ كلّ محدثة في الدين بدعة وضلالة لأمور:

الأوّل: أنّ المحدث شرع في الدين ما لم يأذن به الله.

الثـاني: أنّ الإحداث فيه طعن في تبليغ النبيّ .

الثالث: فيه طعن في الإسلام وإنه ناقص حتى أحدث هذا المحدث.

والبدعة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (هو الدين الذي لم يأذن الله به).

وتقسيم البدع إلى حسنة، وسيئة يرده، قول النبيّ : «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» من حديث العرباض عند أبي داود (٤٦٠٧)، وقوله : «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**» من حديث عائشة عند البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وأمّا قول النبيّ : «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**» من حديث جرير عند مسلم (١٠١٧)، فهذا محمول على من أحيى سنّة من السنن التي شرعها الله وشرعها رسول الله فإنّ الحديث قاله النبيّ في شأن ذلك الذي تصدّق بصدقة فتتابع الناس، والسنّة الحسنة هي طريقة النبيّ والسنّة السيّئة هي ما أحدثها غيره وأمّا قول عمر : (نعمة البدعة) فالمراد بها البدعة اللغوية كما قال أهل العلم ومع ذلك مازال كثير من أهل العلم يرون أنّ الصلاة في البيت أفضل بل هو قول جماهيرهم عند التحقيق والرسول صلّى في المسجد لمّا كان معتكفًا وصلّى الناس خلفه فمن تأسّى بالنبيّ فلا يُنكر عليه ولا يُبدّع لأنّ الصلاة في المسجد عبادة لها أصل، أمّا من أحدث حدثًا لم يكن عليه النبيّ ولم يكن عليه أصحابه فهنا تقع البدعة فالبدعة هي الدين الذي لم يأذن الله به.

قال :

ويَعْلَمُونَ أنَّ أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هديُ محمدٍ ﷺ.

لقول الله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]، فأصدق الكلام كلام الله، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الأنعام:١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، وقال النبيّ : «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**» من حديث خولة بنت حكيم عند مسلم (٢٧٠٨) وجاء عن أبي هريرة عنده (٢٧٠٩)، وهذا الاعتقاد مؤدّاه إلى الإيمان بما دلّ عليه كلام الله وكلام رسوله لأنّه يجب قبوله، ولا يردّ هذا الخبر إلّا من سفه نفسه فكون الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، يجب علينا الإيمان باستواء الله على عرشه على ما يليق بجلاله لأنّ الذي أخبر بهذا هو الله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩]، وهو أصدق قيلًا وأحسن حديثًا، وكذا والإيمان بأنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل يجب الإيمان به لأنّ المتكلّم به رسول الله وهو أصدق الخلق لسانًا وأفصحهم بيانًا وأعلمهم بربّه وأنصحهم للأمّة وخير الهدي هدي محمّد رسول الله وهذا هو الذي دلّ عليه حديث جابر في مسلم (٨٦٧)، قال النبيّ : «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ**»، وفي رواية (فإنّ أصدق الكلام

كلام الله)، فطريقة أهل السنّة طريقة رشد مع الله ومع رسوله ومع الصحابة ومع العلم وفي جميع ما يأتيهم من عند الله فهنيئًا لمن حقّق طريقهم وسار على سيرهم.

تقديم أهل السنّة للدليل على غيره

قال :

ويُؤْثِرُونَ كلامَ اللهِ على كلامِ غيرِه مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ الناسِ.

لأنّ كلام الله أصدق الكلام، وأحسن الكلام وأوضح البيان، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الزخرف:١-٣]، وقال : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١]، وقال : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[الجاثية:١-٢]، فهو كتاب عظيم، المتكلم به هو العالم العليم بكلّ شيء لا تخفى عليه خافية وهو أصدق قيلا وأحسن حديثًا فكيف لا يكون كلامه هو المقدّم وهو المأخوذ به، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت:٤٢]، بينما الناس يصيبون ويخطؤون ويعلمون ويجهلون ووحي الله لا يأتيه الباطل لأنه تنزيل من موصوف بصفة الحكمة الذي لا يمكن أن يضع الشيء في غير موضعه، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥]، وتنزيل من حميد المتصف بالمحامد العظيمة والصفات الجليلة فكلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنّ المتكلّم به والمنزّل له حكيم حميد ومع ذلك يدخل في قوله حميد العلم والقدرة والإرادة وجميع صفات الكمال لله والناس تتفاوت مداركهم وتختلف أفكارهم ولهذا قال الله : ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢]، أي اضطرابًا وتفاوتًا وتباينا،

لكن كلام الله ليس فيه اختلافا وما ظنّه المبتدعة اختلاف كالمعتزلة والجهمية ومن إليهم من الممثّلة والأشاعرة والجبرية والقدرية إنّما هو لسوء معتقداتهم ولتعمّق جهلهم وإلّا فعلماء السنّة يعلمون أنّ كلام الله لا يُناقض بعضه بعضًا ولهذا ألّف الإمام الشنقيطي كتاب دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وبابه الجمع بين الآيات التي يُظنّ أنّ بينها اختلافًا أو تضاربًا فيُبيّن مراد الله أو مراد رسوله ولهذا قال ابن خزيمة : (لا أُؤتى بحديثين صحيحين ظاهرهما التعارض إلّا جمعت بينهما)، فالفقيه إذا نظر إلى قول النبيّ : «إِنَّمَا المَاءُ مِنَ المَاءِ» من حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٣٤٣)، وحديث: (إِنَّمَا كَانَ المَاءُ مِنَ المَاءِ رُخْصَةً فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ، ثُمَّ نُهِيَ عَنْهَا) من حديث أُبيّ بن كعب عند الترمذي (١١٠) و(١١١)، فيقال: ليس بينهما تناقض وإنّما هذا متأخّر وهو ناسخ للمتقدّم ويقول المبتدع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦]، هذه الآيات متضاربات مختلفات فيقول أهل السنّة ليس بينهما اختلافًا ولا اضطرابًا بل نُثبت لله العلوّ كما يليق بجلاله ونُثبت له معيّة تليق بجلاله على ما تقدّم بيانه فهو معنا وهو على عرشه بائن من خلقه معنا بعلمه وقهره وسلطانه وغير ذلك من خصائص ربوبيّته ومن ذلك ما زعمته الزنادقة، فقالوا في القرآن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[الرحمن:١٧]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[الشعراء:٢٨]، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[المعارج:٤٠]، وهذا تناقض واختلاف فبيّن لهم الإمام أحمد كما في كتابه الردّ على الجهميّة أن لا تناقض ولا اختلاف، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ المشرق الذي تطلع منه الشمس والمغرب الذي تغرب فيه الشمس، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مشرق الصيف

ومشرق الشتاء ومغرب الصيف ومغرب الشتاء، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ المراد بها منازل الشمس والقمر، كلّ يوم يطلع من منزلة ويغرب من منزلة وقالوا أنتم تُثبتون لله يدًا أم يدين أم تُثبتون لله أيادي في قول الله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[الملك:١]، وقوله : ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، وقوله : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[يس:٧١]؟ فكان جوب أهل السنّة أن لا تناقض بل اعتقادهم وكلامهم على مقتضى لغة العرب فإنّك عند إن قلت يد فلان وتضيفها تشمل جميع ما يتصف به وإذا جمعت يأتي على التعظيم والله يُعظّم نفسه وفي قولهم إن أقلّ الجمع اثنان فيكون على ظاهرها، وقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ ذكر ما ثبت لله من صفة اليدين وهكذا في جميع ما يظنّه المبتدعة تناقضًا، قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[الأنعام:١٠٣]، قالوا فيها نفي الرؤية وهذا يتعارض مع قول الله : ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، فقال لهم أهل السنّة بل آية الأنعام موافقة ودالّة دلالة صريحة على ما تضمّنته آية القيامة وذلك لأنّ الإدراك رؤية وزيادة فالله يُرى ولا يُدرك وعندنا قاعدة أنّ الصفات السلبيّة لا بدّ أن تتضمّن كمال الضدّ فقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ يُثبت به الرؤية ويُنفى به الإدراك على ما تقدّم بيانه، هذه أمثلة نسوقها لكم وإلّا فإنّ المبتدعة يأخذون بمتشابه القرآن ولهذا قال النبيّ : **«فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»** من حديث عائشة عند البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)، والمبتدعة يتمسّكون بالقرآن أكثر من تمسّكهم بالسنّة لأنّ السنّة مبيّنة للقرآن وقاضية عليه كما قال يحيى بن أبي كثير وإن كان الإمام أحمد تحرّج من قوله

(وقاضية عليه) لكن معنى قاضية أي مبيّنة موضّحة مجلّية ولهذا قال عمر بن الخطّاب : (أصحاب الرأي أعداء السنن)؛ لأنّ السنن أعيتهم وثقلت عليهم فذهبوا يأخذون بمتشابه القرآن والقرآن قد وُصف أنّه بكلّه متشابه كما قال الله : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[الزمر:٢٣]، ووصف أنه كله محكم قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١]، ووصف بأنّ منه المحكم والمتشابه قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾[آل عمران:٧]، فالتشابه في سورة الزمر يُراد به تشابه ألفاظه وسياقته وأحكامه وقصصه وبيانه والإحكام في سورة هود يريد به الاتقان والبيان والإحكام في سورة آل عمران يراد به البيّن الواضح المحكم النصّ والمتشابه يراد به المشكل فأهل البدع يذهبون إلى ما يظنّونه مشكلًا من آيات الكتاب ويجعلونه دينهم والله قد حذّرنا من هذا الصنف قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٧]، أي ما يعلم حقيقة هذه الصفات إلّا الله والكلام على هذا الباب يطول وإلّا فالآيات التي يحتجّ بها المبطلون على فساد مذهبهم كثيرة جدًّا مثل قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣] يُقدّمونها على قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الزمر:٦٢]، قالوا القرآن شيء فهو مخلوق وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[الزخرف:٣]، فقالوا (جعل) بمعنى خلق وقد تقدّم الجواب عنها جميعًا فكلّ آية يستدلّ بها المبتدعة هي ردٌّ عليهم وفيها بيان لضلالهم، فالضرر الذي يقع على المبتدعة بسبب سوء فهمهم للقرآن لا بسبب

القرآن فالقرآن حقٌّ لا باطل فيه ونور لا ظلام فيه وهدى لا ضلال فيه وصدقٌ لا كذب فيه لكن الخلل يقع من فساد معتقد المبتدعة قاتلهم الله أنّ يؤفكون.

قال :

ويُقدِّمُون هَدْيَ محمدٍ ﷺ على هَدْيِ كلِّ أحدٍ.

لأنّ هدي محمّد أصله القرآن ولمّا سئلت عائشة عن خُلُقِ النبيّ ، قالت : فإن خلق نبي الله كان القرآن. مسلم (٧٤٦)، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا فَرُبَّمَا تَحْضُرُ الصَّلَاةُ وَهُوَ فِى بَيْتِنَا فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِى تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ ثُمَّ يُنْضَحُ ثُمَّ يَؤُمُّ رَسُولُ اللهِ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّى بِنَا وَكَانَ بِسَاطُهُمْ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ. متفق عليه. وعَنْ أَبِى إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُمْ خَلْقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الذَّاهِبِ وَلَا بِالْقَصِيرِ. متفق عليه. وقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. متفق عليه عن عائشة .

وقال الله تعالى في وصف نبيّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]، وكيف لا يكون عظيمًا وهو يتأوّل القرآن في خروجه ودخوله وفي جميع لحظاته وسكناته، قالت عائشة : كَانَ النَّبِيُّ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. رواه البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤)، أي يعمل بالقرآن فهديُ رسول الله أفضل الهدي

وأكمل الهدي قال الله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، فكلامه وحي من الله وفعله ناتج عن الوحي من الله واعتقاده كذلك ولهذا كان يقول في خطبه: «فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ» من حديث جابر بن عبدالله عند مسلم (٨٦٧)، ولأنّ الله أمر بذلك فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]، وقال : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١]، وقال : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]، وقال : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

قال :

وبهذا سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ، وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ؛ لأنَّ الجماعة هي: الاجتماعُ.

وسمّوا بأهل الكتاب لأخذهم بكتاب الله وبدلالته الحقّة وسمّوا أهل السنّة لأخذهم بطريقة رسول الله فأسماء أهل السنّة ناتجة عن أفعالهم وعن معتقداتهم فأسمائهم أعلام وأوصاف، وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الحقّ، والسلف لتعظيمهم منهج السلف، وأهل الأثر لجعل الآثار هي المصباح الذي يسيرون خلفه، وأهل الحديث لتعظيمهم حديث النبيّ حتى قال الخوّاص:

ذَهَبَتْ دَوْلَةُ أَصْحَابِ الْبِدَعْ وَوَهَى حَبْلُهُمُ ثُمَّ انْقَطَعْ
وَتَدَاعَى بِانْصِرَامٍ جَمْعُهُمْ جَمْعُ إِبْلِيسَ الَّذِي كَانَ جَمَعْ
هَلْ لَهُمْ يَا قَوْمِ فِي بِدْعَتِهِمْ مِنْ فَقِيهٍ أَوْ إِمَامٍ يُتَّبَعْ
مِثْلُ سُفْيَانَ أَخِي ثَوْرِ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ دَقِيقَاتِ الْوَرَعْ
أَوْ سُلَيْمَانَ أَخِي التَّيْمِ الَّذِي تَرَكَ النَّوْمَ لِهَوْلِ الْمُطَّلَعْ
أَوْ فَتَى الْإِسْلَامِ أَعْنِي أَحْمَدَا ذَاكَ لَوْ قَارَعَهُ الْقُرَّا قَرَعْ
لَمْ يَخَفْ سَوْطَهُمُ إِذْ خَوَّفُوا لَا وَلَا سَيْفَهُمُ حِينَ لَمَعْ

قال :

وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ.

أي ضدّ السنّة الفُرقة بضمّ الفاء من الافتراق والاختلاف، قال الله : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣]، والفُرقة ضلالةٌ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود:١١٨-١١٩]، وحذّر منها بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم:٣١-٣٢]، وقال النبيّ : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٩٥٠).

ولهذا بين النبي أسباب ضلال هذه الأمة، ومنها ما تقدم. فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا

شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**» رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال النووي : السنن بفتح السين والنون وهو الطريق والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. اهـ

وفي البخاري (٧٣١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «**وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟!**».

قال محمد بن الحسن الآجري في الشريعة بعد رقم (٣٥): من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي . والله المستعان.

ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، وأن يميز هذا: إلا عاقل عالم قد أدبه العلم. اهـ

أقول: هذا في زمنه ، فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار، وقد تسلط الكفار، وقويت شوكتهم، فقلدهم الناس في الملبس والمأكل والمشرب وأمور الدول والجيوش والألعاب، فالله المستعان من غربة الزمان، ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزًا منيعًا يحفظه الله إنجازًا لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضًا اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض، وقد حذرنا رسول الله من هذا الصنف كما في حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران:٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**» رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات، وباب الإيمان باليوم الآخر من هذا الباب، حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعمله إلا الله والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم البيِّن الواضح.

ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف: الجدل بالباطل، قال الله : ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾[غافر:٤]، وفي حديث أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. أخرجه الترمذي (٣٢٥٣).

ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (٢٦٦٦) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ».

قال النووي : الْمُرَاد بِهَلَاكِ مَنْ قَبْلنَا هُنَا هَلَاكهمْ فِي الدِّين بِكُفْرِهِمْ، وَابْتِدَاعهمْ، فَحَذَّرَ رَسُولُ اللهِ مِنْ مِثْل فِعْلهمْ. اهـ

ومنها: الغلو في الدين، فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (٢٦٧٠) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

قال النووي : قَوْله : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) أَيْ: الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُود فِي أَقْوَالهمْ وَأَفْعَالهمْ. اهـ

والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتنفيرهم وصدهم عن الخير. والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة:٧٧]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى، وكلهم غلا في عيسى ، فالنصارى ألَّهوه، واليهود اتهموه أنه ولد زنا، والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة: الفتور عن السنة وعن الطريقة السلفية، ففي حديث عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**» رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وأحمد (٢/ ٢١٠) واللفظ له.

ومن أسبابها: علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» وفي رواية للبخاري (٧٣٠٧): «**فيفتون برأيهم**».

قال :

وإنْ كانَ لفظُ الجماعةِ قد صار اسمًا لنفسِ القومِ المجتمعينَ.

الجماعة: هي جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون ومن سار على سيرهم إلى يوم الدين.

وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح، والهدى والفلاح، المتمثل في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة، ومن سار على سيرهم من الأئمة.

وقد أمر ربنا بلزوم الجماعة، ونهى عن الفرقة، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم:٣١-٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠].

وحث رسول الله على الجماعة؛ لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين، ففي حديث عمر عند الآجري في الشريعة (٦)، و السنة لابن أبي عاصم ص(٨٨)، وأحمد (١/ ١٨) أن النبي قال: «**مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ**».

وبحبوحة الجنة: وسطها كما في النهاية .

وفي حديث الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣)، قال: قَالَ النَّبِيُّ : «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالجِهَادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ**». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ: المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله : «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة .

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطإ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود عليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة. أخرجه ابن أبي عاصم (٨٥). وجاء مرفوعًا عن ابن عباس أخرجه الحاكم (١/ ١١٦).

والجماعة هي الإسلام الحق، والسنة تدل على ذلك.

أخرج أحمد (٣/ ٣٩٧) وغيره عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ! لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وقال عبدالله بن مسعود كما في الشريعة رقم (١٦): (إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين، ينادون، يا عبدالله هلم هذا الصراط، ليصدوا عن سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله تبارك وتعالى. فإن حبل الله هو كتاب الله جل وعلا).

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع الذي هو علم الكتاب والسنة على ما قرره علماء الأمة.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب النجدي: والعلم هو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقد بين رسول الله أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية قال: قال رسول الله : «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وأخرج الآجري رقم (١٩) عن أبي العالية قوله: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسنة نبيكم والذي عليه أصحابه، فإنا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء. فحدثت به الحسن فقال: صدق ونصح. وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: أحدثت بهذا محمدًا؟ قلت: لا. قالت: فحدثه إذًا).

فالواجب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة وملازمة الاتباع.

قال الله : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣] لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. هكذا فسرها السلف.

قال :

[والإجماعُ][1] هُو الأصلُ الثالثُ الذي يُعْتَمَدُ عليه في العلمِ والدينِ، وهم يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ، جميعَ ما عليه الناسُ، من أقوالٍ وأعمالٍ، باطنةٍ أو ظاهرةٍ مما له تَعَلُّقٌ بالدينِ.

الأدلة عند أهل السنّة ثلاثة:

---

(١) في (ظ) و(م): [والاجتماع]، ولعل ما أثبتناه أصوب.

الكتاب، والسنّة، والإجماع؛ يدلّ عليه قول الله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وبهذه الآية استدلّ الإمام الشافعي وغيره من أهل العلم على أنّ إجماع الصحابة حجّةٌ، وممّا يُستدلّ به حديث العرباض بن سارية عند أبي داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢)، قال النبيّ : «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»، فإذا أجمعوا على أمر وجب الأخذ به وإنّك لتعجب من بعض من لم يُحقّق العلم حين تستدلّ عليه بقول صحابي فيقول لك ليس بحجّة، تقول ليس بحجّة إذا خالف الكتاب والسنّة أمّا إذا لم تجد في المسألة إلّا قول الصحابي فربّما كان عن اجتهاد أو أنه أخذه من عموم نصوص الشرع فلا ينبغي أن يُهمل ولهذا تجد ابن القيّم وغيره من أهل العلم يُقدّمون قول أبي بكر على قول عمر كما أنّهم يُقدّمون قول عمر على قول عثمان أمّا إذا وُجد الدليل فالحجّة بالدليل فنكون في حقّ الصحابة وسط، نستفيد من فهمهم ومن علمهم ومن طريقتهم، فالقرآن نزل بلغتهم وعاينوا أسباب نزوله وتلقّوه من النبيّ غضًّا طريًّا.

ومن أدلّة الإجماع قول النبيّ : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٩٥٠). ومنه حديث عمر : «فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ، فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ» رواه أحمد (١٧٧). وأدلّة ساقها أهل العلم وإنّما ما يَنكر

حجّيّة الإجماع الرافضة والشيعة ومن إليهم، وما نُقل أنّ الشيخ مقبل كان لا يرى حجّية الإجماع فليس كما نُقل وإنّما كان الشيخ مقبل لا يحتجّ بالإجماعات غير الثابتة، ربّما تجد النووي ينقل الإجماع والباجي وابن عبدالبرّ والمسالة خلافية بين أهل العلم فمثل هذه الإجماعات ليست بحجّة وإنّما الحجّة الإجماع المتيقّن الذي لا يجوز خلافه ولهذا قال الإمام أحمد : (من أعيته الأمور ادّعى الإجماع)، والإجماع المتيقّن هو الإجماع الذي يكون على نصّ ولا يمكن أن يوجد إجماع خلاف النصّ وقد بيّنت هذه المسألة في كتابي فتح المجيد في القول الراجح في خطبة العيد ، وحتى في كتب الإجماع مثل الإجماع لابن قطّان، والإجماع لابن المنذر، ينقلون الاجماع في بعض المسائل ثم يقولون خالف الحسن، الحسن خلافه معتبر، فالحجّة هو الكتاب والسنّة والإجماع المنضبط وهو الإجماع الذي يقوم على النصوص الشرعيّة.

وهل تُثبت الصفات بالإجماع؟ نقل ابن عبدالبرّ الإجماع على ذلك، وكذلك شيخ الإسلام ويعنون بالإجماع الإجماع المتيقّن الذي يقوم على النصّ لكن قد يكون النصّ خفي علينا ووجده أسلافنا ولهذا استدلّ شيخ الإسلام على إثبات صفة السكوت لله بالإجماع على ذلك.

وأمّا القياس فقد اختلف العلماء فيه هل هو من الأدلّة أم لا؟ والصحيح أنّه ليس من الأدلّة الشرعيّة وهذا هو ما تطمئنّ له النفس ثمّ ما ذهب إليه أصحاب القياس من الاستدلال بأحاديث النبيّ على أنّه قاس استدلال فيه نظر، وإنّما العمل بالعمومات مثل قول النبيّ : «فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا قَوْلَ اللهِ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَـرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧-٨]»، عندما سئل عن الحُمُر، قال: «**مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ**» رواه البخاري (٢٣٧١) ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ، فهذا استدلال بعموم والحُمُر داخلة تحت هذا العموم. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ! فقَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَنَّى ذَلِكَ؟**» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ**» رواه البخاري (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠)، فهذا ليس بقياس وإنّما هذا مثل ضربه النبيّ ، وقد تكلّم الإمام ابن حزم في كتاب (الصادع) على القياس وأبطله وهكذا الشيخ مقبل كان يقول: (القياس ليس بحجّة ولا بأس للعالم المتمكّن أن يقيس ولا يُلزم غيره به)، لكن نقول بدل كلمة القياس نقول العمل بعموم الأدلّة فإنّ أدلّة القرآن والسنّة منها العام الذي تدخل تحته أفراد كثيرة، فمثلًا الذي يذهب إلى إباحة بعض الحيوان من أصحاب القياس يستدلّ بالقياس فيقول كذا حلال قياسًا على الضبع أو كذا حلال قياسًا على الحمر الوحشيّة أو قياس على الدجاج، يأتي الذي ما يرى القياس ويقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[الجاثية:١٣]، فالحجّة عموم الآية والمحرّم ما حرّمه الله بأدلّة أخرى أو ما حرّمه الرسول بأدلّة أخرى وليس هذا بسط هذه المسألة وإنّما باب بسطها كتب الأصول لكن هذه إشارة وبعضهم يرى مشروعيّة الاستصحاب والبراءة الأصلية وغير ذلك لكن الأدلّة عند أهل السنّة الكتاب والسنّة والإجماع، هذه هي الأدلّة المجمع عليها والمنضبطة.

قال :

[والإجماعُ][1] الذي يَنْضَبِطُ هو: ما كان عليه السلفُ الصالحُ، إذ بعدَهم كَثُرَ الاختلافُ، وانتشرتِ الأمةُ.[2]

أي إجماع الصحابة أمّا بعد ذلك حصل الاختلاف وتفرّق الناس في البلدان والشعوب فربّما يدّعي الإجماع ولا إجماع.

---

(١) في (ظ) و(م): [والاجتماع]، ولعل ما أثبتناه أصوب.

(٢) في المطبوع: [وانتشر في الأمة]، والمثبت أولى لأن فيه زيادة في المعنى.

من أصول أهل السنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال :

فصلٌ

ثم هُمْ مَعَ هذهِ الأُصولِ: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ، على ما تُوجِبُهُ الشريعةُ.(١)

قال الله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ قَالَ: هُمِ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ، إِلَى الْمَدِينَةِ. أخرجه أحمد (٢٤٦٣)، وذهب السندي إلى أنها لا تتنزّل إلّا عليهم لقول الله : ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولم يخرج من دياره ومن وطنه ويُحقّق الجهاد بالنفس والمال واللسان إلّا هم وما بعدهم تابع لهم والصحيح أنّ الآية على عمومها والمهاجرون يدخلون فيها دخولًا أوّليًّا وقال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٨-٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[التوبة:٧١]، وقال : ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ

(١) وأدلة هذه معروفة مشهورة مبثوثة في الكتاب والسنة.

يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران:١١٣-١١٤]، وهذه الآية نزلت في قوم ممّن أسلم من أهل الكتاب ومعلوم ما حلّ بأصحاب السبت ولم ينج منهم إلّا الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف:١٦٤-١٦٥].

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر باع نفسه من الله، ووعد بالحسنى، فهنيئًا له قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١١١-١١٢].

والنبيّ يقول: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» من حديث أبي سعيد الخدريّ عند مسلم (٤٩). وقال النبيّ : «**لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ فِي حَقٍّ إِذَا رَآهُ، أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ**» من حديث أبي سعيد

عند أحمد (١١٠١٧). وقال النبيّ : «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَكُونَ فِيمَا يُسْأَلُ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُنْكِرَ الْمُنْكَرَ إِذْ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: فَمَنْ لَقَّنَهُ اللهُ حُجَّتَهُ قَالَ: رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَخِفْتُ النَّاسَ**» من حديث أبي سعيد عند أحمد (١١٢١٤)، فعسى أن يُعذر هذا ومراتب الأمر بالمعروف ثلاثة على ما تضمّنه حديث أبي سعيد :

المرتبة الأولى: الإنكار باليد وهو أعظم أنواع الإنكار.

المرتبة الثانية: الإنكار باللسان.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب.

ولا بدّ من ضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّ بعض الناس قد يُغيّر المنكر فيجلب لنفسه ولغيره ما هو أنكر منه فيقولون إن كان المنكر يُغيّر أو يُزال بالكليّة فهذا واجب، وإن أزاله بما هو دونه أيضًا واجب وإن أزاله بما هو مثله فلا مصلحة وأن يُزال بأشدّ منه فهذا حرام حتى قال بعضهم:

وَمَنْ أَزَالَ مُنْكَرًا بِأَنْكَرَا   كَغَاسِلِ الْحَيْضِ بِبَوْلٍ أَغْبَرَا

وقد تكلّم الإمام النووي على هذه المرتبة عند الحديث المذكور وذكرنا قوله وقول غيره في كتابنا (الوسائل الجليّة في نصرة الدعوة السلفيّة) فأهل السنّة يُحقّقون هذا الباب، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمعروف كلّ ما وافق الكتاب والسنّة فيدخل فيه ابتداءً التوحيد وما دونه إلى أن تصل إلى إزالة الأذى عن الطريق، والمنكر كلّ ما خالف الكتاب والسنّة فأعمقه الشرك إلى أن يصل إلى ما دونه ومنها النخامة في المسجد وكلُّ معروف صدقة.

قول أهل السنة في إِقَامَة الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ

قال :

ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ، والجهادِ، والجُمَعِ، والأعيادِ مع الأمراءِ، أبرارًا كانوا أو فجارًا،(١) ويحافظون على الجماعاتِ.

في هذا ردّ على الخوارج والروافض والمعتزلة ومن نحى نحوهم ممّن يقول لا جهاد ولا حجّ ولا عمرة ولا عيد إلّا مع الأئمّة الأبرار وما زال الرافضة إلى زمن قريب لا يُجمّعون ولا يُعيّدون حتى جاءهم الخُميني ببدعة ولاية الفقيه، ويزعم أنّ الفقيه مفوّض من المهدي فصاروا يعملون نوع من الجمع والأعياد بإذن الفقيه، وفي اعتقادهم أنه لا يجوز جمعة ولا جماعة ولا عيد إلّا مع الإمام المعصوم وهذا الإمام ما زال في السرداب فلا يُعيّدون مع المسلمين وحتى الحجّ فعندهم زيارة للمشاهد فقط وأهل السنّة عندهم الحجّ والجهاد والجمعة والأعياد ماضية مع كلّ إمام كان برًّا أو فاجرًا، قال النبيّ : «يُصَلُّونَ لَكُمْ

(١) يدل عليه حديث أبي هريرة في البخاري (٦٩٤) عن النبي قال: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»، وبوب البخاري: باب إِمَامَةِ الْمَفْتُونِ وَالْمُبْتَدِعِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: صَلِّ وَعَلَيْهِ بِدْعَتُهُ. ثم ذكر بسنده (٦٩٥) عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ: إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ، وَنَزَلَ بِكَ مَا تَرَى، وَيُصَلِي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ؟! فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ. وانظر لهذه المسألة مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥٢-٣٥٣) و شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٣٧٣-٣٧٧).

وأما حديث «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ» فلم يثبت عن النبي جزم به شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥٨) وانظر: الإرواء للعلامة الألباني (٥٢٧).

فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٩٤). وقال النبيّ لأبي ذر: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟» قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ» من حديث أبي ذرٍّ عند مسلم (٦٤٨). وعَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَدِيِّ بْنِ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ فَقَالَ: إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ. أخرجه البخاري (٦٩٥). ولهذا كان الإمام أحمد يرى الجمعة والعيد والجماعة خلف أئمّة الجهميّة حتى لا تُضيّع الشعيرة وتُعاد الصلاة لأنّه يعتقد أنّهم من أهل الردّة، وقال أحمد بن الدورقي سمعت زهير بن البابي يقول إذا تيقنت أنه جهمي أعدت الصلاة خلفه الجمعة وغيرها، أخرجه عبدالله في السنة.

ومن عقيدة أهل السنّة أنّ ترك الصلاة خلف المبتدع بدعة، إذا لم يوجد إلّا مسجد بدعة، فالسلف قد صلّوا خلف الحجّاج، صلّى خلفه أنس بن مالك وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وهم أحرص الناس على الخير وإنّما إذا وُجد مسجد سنّة ومسجد بدعة يُقدّم مسجد السنّة. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٧٤): اعلم -رحمك الله وإيانا- أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟! بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر

الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك؛ فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف.

وكذلك أنس ، وكذلك عبدالله بن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!!

وفي صحيح البخاري (٦٩٥): أن عثمان بن عفان لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم، والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه - فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية، ولم تفت المأموم الجمعة ولا الجماعة.

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررًا من ضرر ما أظهر من المنكر؛ فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر وحينئذ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد العلماء: منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع، وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدم، وقد صلى عمر وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبي حنيفة، خلافا لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع.

ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء!! فليس له أن يصلي خلفه، لأنه لاعب، وليس بمصل، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية. ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع، وحديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري (٦٩٤)، أن رسول الله قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**». نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم.

والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجبا، أو فعل محظورا اعتقد أنه ليس محظورا، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به!! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد. اهـ

والجهاد كذلك مع الأئمّة الفجّار مازال المسلمون يُجاهدون ويفتحون الأمصار ربّما مع وُلّاة يشربون الخمور ويرتكبون المخالفات والبدع فالجهاد ماضي لا يمنعه جور جائر ولا ظلم ظالم وما جاء من الأحاديث وأنّ الجهاد ماضي مع الأئمّة الفجّار كانوا أو أبرارًا والصلاة مع الأئمّة فجّارًا كانوا أو أبرارًا لا يثبت فيه شيئًا ولكن هذا هو معتقد السلف المبني على عمومات أدلّة الكتاب والسنّة.

من أصول أهل السنة الدين بالنصيحة

قال :

ويَدِيْنُونَ بالنصيحةِ لِلأُمَّةِ.[1]

أي: من عقيدة أهل السنّة أيضًا النصيحة للأمّة وهم أنصح الناس للأمّة ويعتقدون معنى قول النبيّ : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» من حديث تميم الداري عند مسلم (٥٥)، وقال تعالى مخبرًا عن نوح : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٦٢]، وقال عن هود يقول: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨]، وقال عن صالح : ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٩]، فالرسل بعثوا بالنصيحة وتحقيقًا لحديث النبيّ : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ : «لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» من حديث تميم الداري عند مسلم (٥٥)، وفي رواية تكرار لفظة (الدين النصيحة) ثلاثة مرّات، وهذا حصر للدين في النصيحة، فالنصيحة مع الله بتوحيده وإفراده بما يجب له، والنصيحة لكتاب الله بالعمل به، ويكون العمل باعتقاد خبره وفعل أمره والانتهاء عن نهيه وزجره، والنصيحة لرسول الله هي الإيمان به وبما جاء به، ويدخل في ذلك طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عن ما نهى عنه وزجر، وألّا يعبد الله إلّا بما شرع، والنصيحة للمسلمين بدعوتهم إلى الخير وتحذيرهم من

---

(١) عملًا بما جاء في مسلم (٥٥) -وغيره من الأدلة- عن أبي رقية تميم الداري عن النبي قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لله، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ».

الشرّ، قال جرير بن عبدالله : بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. أخرجه البخاري (٥٧)، مسلم (٥٦). وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: «**فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ**». رواه البخاري (٧٢٠٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٦٧). وفي حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**»، قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**» رواه مسلم (٢١٦٢). وفي حديث النعمان بن بشير عند البخاري (٢٤٩٣)، قال النبيّ : «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**». فالنصيحة مطلوبة شرعًا وقدرًا، شرعًا لما تقدّم وقدرًا أنّ المجتمع لا يصلح إلّا بالنصيحة فالمجتمع الذي ليس فيه نصيحة يفسد ويكثر شرّه ويقلّ خيره.

اعتقاد الأخوّة الدينيّة

قال :

> ويَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قولِهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ﷺ.(١)

حديث أبي موسى الأشعريّ عند البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

قال :

> وقولِهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ».(٢)

من حديث النعمان بن بشير عند البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

ويعتقدون الأخوّة في الدين قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء:٩٢]، ويؤمنون بحديث النبيّ : «كُلُّكُمْ لِآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ». وقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» من حديث أبي نضرة عند أحمد (٢٣٤٨٩).

---

(١) متفق عليه: خ(٤٨١) م(٢٥٨٥) عن أبي موسى.

(٢) متفق عليه: خ(٦٠١١) م(٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير.

فيعتقدون معاني الآيات والأحاديث الدالة على الإخاء والقرب من المؤمنين والبراء من المخالفين قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢]، ومفهوم الآية أنّ المؤمن يحبّ المؤمن أين كان وعلى أيّ لون كان وفي أيّ قطر كان قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠].

والناس في هذا الباب كغيره من الأبواب طرفان ووسط، منهم من لا يُبالي بالأخوّة ولا يرفع لها رأسًا ولا يُبالي هجر إخوانه أو تركهم وصلهم أم قطعهم والنبيّ يقول: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ» من حديث جبير بن مطعم عند البخاري (٥٩٨٤)، مسلم (٢٥٥٦)، وبعضهم أُخوّته لكلّ أحد حتّى مع الكافر كما هو قول القرضاوي: (أتحرّج أن أقول لهم كفّار وإنما هم مسلمون بالثقافة)، ويواصل المبتدعة ويجالسهم ويآنسهم غير محقّقٍ لقول الله : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢]، وقول الله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ

عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾[الأنعام:٦٨]، وأهل السنّة وسط هم الذين يُحبّون في الله ويُعادون في الله فأوثق عرى الإيمان أن تُحبّ في الله وتُبغض في الله، قال النبيّ : «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ» من حديث البراء بن عازب عند أحمد (١٨٥٢٤). وقال النبيّ : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)، وهكذا في النصيحة والأمر بالمعروف الناس **ينقسمون إلى طرفين ووسط:**

الطرف الأوّل: الخوارج والمعتزلة: فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم الخروج بالسيف على الحكّام وقتل المسلمين وقطع الطرق ونهب الأموال والتفجيرات.

الطرف الثاني: المرجئة: لا يُبالون عُبدت الأوثان والأصنام، شُربت الخمور ولا ينصحون ولا يُنكرون.

الوسط هم: أهل السنّة: يُنكرون المنكر ويبذلون النصيحة بضوابطها الشرعية محقّقون للآثار المروية عن النبيّ محمّد خير البريّة فهذه من أعلى المراتب ومن أعظم الهبات أن تكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر قائمًا بشريعة الأنبياء والمرسلين فإنّ الله أرسل رسله وأنزل كتبه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلّ الرسل يدعون إلى المعروف قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ

أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[النحل:٣٦]، والطواغيت والشرك منكر وكلّهم يُحذّر منه قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[الأنعام:١٥١]، والنصيحة أحيانًا تكون بالرفق وأحيانًا تحتاج إلى تخشين وأحيانًا تكون بالجلاد كما قال الإمام ابن القيّم في تفسير قول الله : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم﴾[النحل:١٢٥]، فبعض الناس ينظر إلى أوّل الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾، كلّما نهيت عن منكر قال الحكمة فلو ضربت ولدك يقول الحكمة، لو كسرت آلة لهو وطرب تستطيع كسرها وما وراءها فتنة يقول الحكمة، فمثلًا إذا كان الرجل المؤمن طائعًا منيبًا وقعت منه المعصية لغفلةٍ تقول له (هذا حرام) فيترك: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، رجل عنده خير لكن يميل إلى المعاصي، يحتاج إلى تخويف بالله ، وتخويف بالعذاب، وتخويف بالنار، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]، وقد يكون بالسيف كما فعل رسول الله مع اليهود والنصارى ومع المشركين، جادلهم بالكلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤]، فلمّا أعرضوا جالدهم بالسيف، والسنان فلا نفرط ولا نُفرّط بل نعمل بالكتاب والسنّة، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ للهِ. أخرجه البخاري (٦٧٨٦).

من أصول أهل السنة الحث على الصبر

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ.

لقول الله : ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل:١٢٧]، ولقوله : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١-٣]، ولقول الله : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[الزمر:١٠]، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]، ولقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠]، ولقول النبيّ : «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» من حديث صهيب عند مسلم (٢٩٩٩). وقال : «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» من حديث أبي الدرداء عند أحمد (٢٧٤٩٠). وقال النبيّ : «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٥٩). ولمّا جاء خُبيّب للنبيّ وقال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا، قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ

بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رواه البخاري (٣٦١٢) و(٦٩٤٣). وقال النبيّ «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» من حديث أبي مالك الأشعريّ عند مسلم (٢٢٣). وكذلك قال النبيّ : «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» من حديث أبي سعيد الخدريّ عند البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

قال ابن القيم في عدة الصابرين (٥٥): الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر على المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وقال كقوله: افعل المأمور واجتنب المحظور، واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة التي أوصى بها لقمان ابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾[لقمان:١٧]، فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حديث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي، فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي، وذكر الله هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ

ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد:١٩-٢٢].

قال: والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام، واشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر الله تعالى هذه الأصول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠].

فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإنه حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور. اهـ

طريقتهم الشكر عند الرخاء

قال :

والشكرِ عند الرخاءِ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:٧].

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ

وقال النبيّ : «يَا مُعَاذُ، قَلْبٌ شَاكِرٌ وَلِسَانٌ ذَاكِرٌ وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعِينُكَ عَلَى أَمْرِ دُنْيَاكَ وَدِينِكَ، خَيْرُ مَا اكْتَنَزَ النَّاسُ» من حديث أبي أمامة عند البيهقي في الشعب (٤٤٣٠)، ونظمها بعضهم في بيتٍ بقوله:

وَخَيْرُ مَا يَدَّخِرُ الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ كَيْ مَا يَسْتَقِيمُ دِينُهُ
قَلْبًا شَكُورًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ

والنبيّ كان يقول: «اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». وقال معلمًا معاذ بن جبل: «يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ» فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ، قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». قَالَ: وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ وَأَوْصَى أَبُوعَبْدِالرَّحْمَنِ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ. أخرجه أبوداود (١٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٤٥).

وبين رسول الله عظم الشكر في قوله: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» الحديث عند مسلم (٢٩٩٩).

وأخرج أحمد (١/ ٢٢٧) من حديث ابن عباس أن النبي كان يقول: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**».

والله يقول: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح، وعن عائشة قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» أخرجه مسلم (٢٨٢٠)، ومن حديث المغيرة عند البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)، وجاء عن أبي موسى خارج الصحيح. وأخرج أحمد (١/ ٢٢٧) من حديث ابن عباس أن النبي كان يقول: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**».

قال محمود الوراق :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ ... تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

قال ابن القيم في المدارج (٢/ ٢٤٤): الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور وحبه له، واعترافه بنعمته وثناؤه عليه بها،وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم بالشكر وحده، فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

والشكر يجب أن يكون على جميع نعم الله ، وأعظمها الإسلام والتوحيد، قال ابن القيم: شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب. اهـ

طريقتهم الرضا بالقضاء

قال :

وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

أي يرضون بما قضاه الله عليهم من المصائب لعلمهم أنّ الأمور بقدر الله ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢]، وقال : ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدًا﴾[النساء:٧٢].

ويصبرون على قضاء الله كما قال السَّفَّارِيني :

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِالرِّضَا بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

فلا ترضى بالكفر والمعصية والشرك والمخالفات وإنّما بما قضاه وقدّره لأنّ ما قضاه الله وقدّر صادر عن حكمته وعلمه بينما أفعال العباد قد يكون الرضا ببعضها كفر فمن رضي بالسجود للصنم كافر ومن رضي بالزنا عاصٍ ومن رضي بالصيام والصلاة والحجّ مطيع فالمقضيات منها الطاعات والمعاصي والسيّئات ومنها غير ذلك.

دعوتهم إلى مكارم الأخلاق

قال :

ويَدْعُونَ إلى مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الأعمالِ.

لأنّ النبيّ بُعث من أجلها كما قال : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٥٢).

ولقول النبيّ : «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» من حديث شدّاد بن أوس عند مسلم (١٩٥٥)، وليس له في مسلم إلّا هذا الحديث. وله في البخاري حديثًا واحدًا نذكره من باب الفائدة وهو حديث سيّد الاستغفار، قال النبيّ : «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

ويعتقدون قول الله : ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[البقرة:١٩٥]، والنبيّ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ» من حديث أبي ذرّ عند مسلم (٥٥٣).

وكان النبيّ يسأل الله أحسن الأخلاق، فعن عليّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّى وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِى وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِى لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّى سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّى سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» رواه مسلم (٧٧١).

قال :

وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قولِ النبيِّ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».(١)

من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٦٨٢)، الترمذي (١١٦٢)، ابن ماجه (٤٢٥٩)، وله طريقٌ حسنةٌ لذاتها.

وحسن الخلق من الإيمان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» الترمذي (٢٠٠٤). والنبيّ يقول: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» من

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٢٥٠) وأبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) عن أبي هريرة بسند حسن، وجاء عن غيره، والحديث في الصحيحة للعلامة الألباني (٢٨٤)، وفي الصحيح المسند لشيخنا الإمام الوادعي (١٣٢٧).

حديث أبي الدرداء عند أبي داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣). والنبيّ يقول: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**» من حديث جابر عند الترمذي (٢٠١٨). والنبيّ كان خلقه القرآن، فَعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) أخرجه مسلم. فأحسن الأخلاق وأقومها التمسّك بالقرآن والعمل بالسنّة والأخذ بهدي النبيّ وهذه الشعائر التي تقدّم ذكرها بحمد الله تكلّمنا عليها بتوسّع في كتاب الوسائل الجليّة لنصرة الدعوة السلفيّة ؛ لأنّ مثل هذه القربات تنصر بها الدعوة السلفيّة وينصر بها الداعي إلى الله وتحصل به البركات.

الأمر بصلة القاطع

قال :

ويَنْدِبُونَ إلى أَنْ تَصِلَ من قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ من حَرَمَكَ، وتَعْفُوَ عمَّنْ ظَلَمَكَ.(١)

أي: يحثُّون على صلة الرحم وإن قُطعت وأدبرت، لحديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٥٨)، أنّ رجلًا قال: إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**». وفي الحديث: «**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**» من حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (٥٩٩١).

قوله: (وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) لقول النبيّ : «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**» من حديث

(١) حسن: جاء في هذه الجمل عدة أحاديث، منها: حديث عقبة بن عامر وله طرق أحسنها: من طريق إسماعيل بن عياش عن أسيد بن عبد الرحمن الخثعمي عن فروة بن مجاهد اللخمي عن عقبة بن عامر. أخرجه أحمد (٤/١٥٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٤٥): رجاله ثقات. اهـ وهو كما قال؛ إلا فروة بن مجاهد – وقال البخاري وأبو حاتم: ابن مجالد – فقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ في التقريب: مختلف في صحبته، وكان عابدًا. اهـ وإسماعيل بن عياش عن الشاميين حديثه صحيح وهذا منه، وهذا الحديث لولا الاختلاف في صحبة فروة لحكمنا بصحته، فلذا هو حسن مع ما في الباب من شواهد، وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٩١) و(٢٨٦١) من حديث عقبة، وهو في الضعيفة (٢٨٥٦) من حديث معاذ بن أنس.

أبي هريرة عند مسلم (٢٥٨٨). ولقول الله : ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾[البقرة:١٠٩]. وقال أنس : مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ رُفِعَ إِلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِ قِصَاصٌ، إِلَّا أَمَرَ فِيهِ بِالْعَفْوِ. رواه أبوداود (٤٤٩٧)، والنسائي (٤٧٨٣). فإن تمّ العفو وإلّا انتقل إلى الأرش والديّة، فإن لم يتمّ لا الأرش ولا الديّة فالقصاص، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[الشورى:٤٣]. ومن حديث ابن عباس قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ. رواه البخاري (٤٦٤٢). والعفو عن الكريم يؤدّي إلى كرمه.

(إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ)

والعفو عن اللئيم يؤدّي إلى تكبّره وغطرسته، وكما قيل:

(وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا)

والعفو يُستحبّ إذا كان فيه مصلحة لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٠]، والنبيّ يقول: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ**» من حديث عائشة عند أبي داود (٤٣٧٥).

قال شيخ الإسلام والشيخ العثيمين رحمة الله عليهما أنّه لو وُجد قاتل وكان متسلّطًا على الدماء لا يجوز العفو عنه وإنّما إذا قتل خطأً أو قتل وندم وكان العفو فيه مصلحة فلا بأس، وأمّا إن كان يستجري على الأذيّة لا يجوز العفو عنه.

وهذه الثلاثة التي ذكرها: (أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) تدلّ على مكارم الأخلاق؛ لأنّ النفس مجبولة على قطيعة القاطع ومجبولة على منع المُحرم ومجبولة على الانتقام من الظالم، فحين أن تُجاهد نفسك وتُقدّم أمر الله وأمر رسوله على هواك فهذا من مكارم الأخلاق العظيمة.

الأمر ببرّ الوالدين

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

لأمر الله بذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١]، وقال : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣]، وقال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأحقاف:١٥]، فأمر الله بالإحسان إلى الوالدين والبرّ بهم، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عند البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨)، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ؟ «ثُمَّ أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ؟ «ثُمَّ أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ». وفي لفظ لمسلم: قال النبيّ : «أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

فبرّ الوالدين من أسباب دخول الجنّة والنبيّ يقول: «**الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَابَ أَوِ احْفَظْهُ**» من حديث أبي الدرداء عند الترمذي (١٩٠٠)، ابن ماجه (٣٦٦٣). وعن مالك بن الحويرث

أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَقى عَتَبَةَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَقى عَتَبَةً أُخْرَى، فقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَقَى عَتَبَةً أُخْرَى، فَقَالَ: «آمِينَ»، فَقَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦٤٩).

وصحّ عن أبي هريرة وعن ابن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي. رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥).

فمن أفضل الأعمال برّ الوالدين والإحسان إليهم، وهو داخل في العمل، بقول النبيّ : «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٨١١)، الترمذي (١٩٥٤).

فالذي لا يشكر والديه فهو لمن سواهم أظلم وأبعد، إذا كان الأب الذي يقوم عليك وكان السبب في وجودك وأطعمك وسقاك وكساك وربّاك، بعد الله تعالى، وأمّك التي سهرت من أجلك وتعبت ونصبت ثمّ أوذيت من قبلك هذا يدلّ على عدم شكر ولهذا وصّى الله بالحقوق في آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٣-٢٤].

الأمر بصلة الرحم

قال :

وَصِلَةِ الأَرْحَامِ.

لقول الله : ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[محمد:٢٢-٢٣].

ولقول النبيّ : «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ» من حديث جُبيّر بن مطعم عند البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦).

وقول النبيّ : «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ» قَالَ أَبُوهُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[محمد: ٢٢-٢٣]. من حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٨٣٠) ومسلم (٢٥٥٤).

وقال النبيّ : «إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ اللهُ مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٩٨٨).

ومن علامات الإيمان بالله وباليوم الآخر صلة الرحم والإحسان إلى الرحمن، فعن أبي هريرة ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» رواه البخاري (٦١٣٨).

وقال النبيّ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» من حديث أنس عند البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

الأمر بحسن الجوار

قال :

وَحُسْنِ الْجِوَارِ.

لأنّ الله وصّى به، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾[النساء:٣٦]، الصاحب بالجنب: الزوجة، والجار الجنب: الجار من غير العائلة، والجار ذي القربى: هو الجار من العائلة، فَعَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا» أخرجه البخاري (٢٢٥٩). وقال النبيّ : «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» من حديث عائشة عند أحمد (٢٥٢٥٩).

والإحسان إلى الجيران مرتبته عظيمة، قال النبيّ : «مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» من حديث عائشة عند البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥). فجبريل يوصي بالجار والله أمر بتأدية حقّ الجار، قال النبيّ : «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْجَارُ، جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٧٨). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» رواه مسلم (٤٦)، أي: لا يدخل دخولًا أوّليًّا وإن

كان من المسلمين فهو داخل وهذا وعيد عظيم يدل على أنّ أذيّة الجيران كبيرة من كبائر الذنوب.

فالجار حقّه أن يُكرم ويُعان، فلهذا كان من صفة النبيّ الإحسان إلى الجوار، عندما قالت له خديجة : (وتحسن الجوار)، وابن الدغنة يقول لأبي بكر : (إنّك لتحسن الجوار).

الأمر بالإحسان إلى الأيتام

قال :

وَالإِحْسانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالمَمْلُوكِ.

لعموم الأدلّة في ذلك، قال النبيّ : «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا» من حديث سهل بن سعد الساعدي عند البخاري (٥٣٠٤) و(٦٠٠٥).

وكذلك المساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك، فَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَـلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» رواه مسلم (١٦٥٩).

وقال النبيّ : «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩).

وعَنْ وَاصِلٍ الْأَحْدَبِ، عَنِ المَعْرُورِ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ : «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ،

وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)، فكان أبوذرّ يُكرمه.

والنبيّ يقول: «**إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٧)؛ لأنّه أصلحه وتعب فيه فيُكرم، فالإسلام أمر بالرفق والإحسان إليهم بل قد أمر بمكاتبتهم فإذا أراد الخادم أن يُكاتب يُكاتب ويُعان، قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ**﴾[النور:٣٣].

النهي عن مساوئ الأخلاق

قال :

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ. (١)

أي: من طريقة أهل السنّة النهي عن سفاسف الأخلاق، وقد تقدّم حديث عليّ عند مسلم (٧٧١)، قال النبيّ : «**وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**».

والفخر والخيلاء والبغي كلّها أمراض عظيمة تدلّ على عدم التواضع، والنبيّ يقول: «**وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**» من حديث عياض بن حمار عند مسلم (٢٨٦٥).

وما من ذنب تُعجّل عقوبته في الدنيا مثل الإثم والبغي كما في حديث أبي بكرة عند أبي داود (٤٩٠٢)، الترمذي (٢٥١١)، ابن ماجه (٤٢١١)، قال النبيّ : «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا أَخَّرَ اللهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[يونس:٢٣]، فبغي المرء على نفسه يؤدّي إلى دمارها وانتكاستها فلا تبغي على الخلق ولا تختال ولا تمشي في الأرض مرحًا ولا تفخر فأنت وغيرك لآدم وإنّما الفضل بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، والتقوى لا تؤدّي إلى التعاظم والتعالي وإنّما تجعلُ

(١) وأدلة هذه معروفة مشهورة مبثوثة في الكتاب والسنة.

الرجل كسيرًا خائفًا وجلًا لا يزدري الخلق، قال النبيّ : «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٧٨٩). وقال النبيّ : «**مَنْ تَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» من حديث ابن عمر عند الحاكم في مستدركه (٢٠١) وبنحوه عند أحمد (٥٩٩٥) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٩). والنبيّ كان يخصف نعله ويخيّط ثوبه، فَعَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣). ويحلب شاته فعنها قَالَتْ: سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ) عند أحمد (٢٦١٩٤). وركب على الحمار تواضعًا وأردف خلفه ابن عبّاس ومعاذ وغيرهم ، فَعن أبي ذر قال: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللهِ وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ، فَرَأَى الشَّمْسَ حِينَ غَرَبَتْ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَيْنَ تَغْرُبُ هَذِهِ؟**» فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ**» غَيْرَ مَهْمُوزَةٍ. رواه الحاكم في المستدرك (٢٩٦١)، وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ : «**يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ...**» أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، فالكبر والخيلاء مرضان عظيمان يفتكان باستقامة المرء، وقد أخبر الله عن وصيّة لقمان لابنه وفيها قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان:١٨-١٩]، وقال الله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولٗا﴾[الإسراء:٣٧].

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سِفْسَافِهَا.[(١)]

(١) هذه إشارة إلى ما رواه الحاكم (١٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٨)، والطبراني في الكبير (٥٩٢٨) وفي الأوسط (٢٩٦٤) وغيرهم من طريق فضيل بن عياض عن محمد بن ثور الصنعاني عن معمر عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي قال: «**إن الله كريم، يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها**» وفي رواية الطبراني: «**ويكره سفسافها**» ظاهر إسناده الصحة. قال أبونعيم: غريب تفرد به عن أبي حازم: معمر، وعن فضيل: أحمد بن يونس. اهـ

قلت: إن عنى من وجه صحيح فنعم؛ وإلا فليس كذلك؛ فقد تابع معمرًا عن أبي حازم: أبو غسان المدني محمد بن مطرف، أخرجه الحاكم (١٥١)، ومحمد بن مطرف قال ابن معين: شيخ ثقة ثبت. لكنه من طريق حجاج بن سليمان القمري عن أبي غسان، وحجاج هذا قال عنه الحاكم: وحجاج بن قمري شيخ من أهل مصر ثقة مأمون. اهـ وقال أبوزرعة: منكر الحديث. وقال ابن عدي: وإذا روى حجاج هذا عن غير ابن لهيعة فهو مستقيم إن شاء الله اهـ من الكامل (٢/ ٥٣٧)، وحديثه هذا عن غير ابن لهيعة كما ترى.

وخالف معمرًا وأبا غسان: الثوريُّ؛ فرواه عن أبي حازم عن طلحة بن عبيدالله بن كريز مرسلًا، أخرجه الحاكم (١٥٣)، وقال شيخنا الوادعي في تعليقه على المستدرك : يخشى أن يكون معمر وحجاج بن سليمان سلكا الجادة، والثوري أحفظ منهما. اهـ

وتابع الثوريَّ: سليمان بن سحيم عن طلحة بن عبيدالله مرسلًا، أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٢).

ثم وقفت عليه من طريق معمر عن أبي حازم عن طلحة بن كريز الخزاعي به مرسلًا، كذا أخرجه عبد الرزاق (٢٠١٥٠)، وهو يرجح قول الثوري، وعليه فالصحيح فيه الإرسال.

لكن له طرق يتقوى بها، فقد جاء من حديث جابر وله طريقان:

الأولى: عند الطبراني في الأوسط (٦٩٠٢)، وفيه علتان: محمد بن صالح المدني مجهول حال، وعثمان بن سعيد الصيداوي ترجم له ابن عساكر في تاريخه (٣٨/ ٣٦٧) وذكر له=

على ما تقدّم بيانه لقول النبيّ : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٥٢)، وصالح الأخلاق ما وافق الكتاب والسنّة فأهل السنّة يأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها يعني سقط الأخلاق والأخلاق الرديئة، وسفاسف الأمور أي سقط الأمور، وهذا من العام بعد الخاص.

قال :

وكلُّ ما يَقولُونَه أَوْ يَفْعَلُونَهُ مِنْ هذا أَوْ غَيْرِه، فإنَّما هُمْ فيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ والسنةِ.

ومن اتبع الكتاب والسنّة سلم له دينه ودنياه، ونعمت الطريقة طريقتهم والسمت سمتهم فينطقون بالكتاب ويعملون به استجابةً لله ولرسوله ، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال: ٢٤].

= هذا الحديث، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٥): فيه من لم أعرفه. اهـ

الثانية: عند ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (١٠) وفيه: مبارك بن فضالة، يدلس تدليس التسوية وقد عنعن.

والحديث حسن بمجموع هذه الطرق، وهو في الصحيحة (١٣٧٨، ١٦٢٧)، وله طرق أخرى أعرضنا عنها لشدة ضعفها.

مجمل طريقة أهل السنّة

قال :

وَطَرِيْقَتُهُمْ هِيَ: دِينُ الإِسْلَامِ، الذي بعثَ اللهُ بِهِ محمدًا ﷺ.

هذا هو الإجمال لطريقة أهل السنّة والجماعة، طريقتهم ودينهم وقولهم وفعلهم واعتقادهم صادر عن دين الإسلام الذي بعث الله به محمّد فهم أهل الخير والأثر والفقه والنظر.

قال :

لكنْ لما أخبرَ النبيُّ ﷺ: «أنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا في النارِ إلا وَاحِدَةً، وهي: الجماعةُ».(١)

---

(١) صحيح: جاء هذا الحديث عن جمع من الصحابة منهم:

١- أبو هريرة: أخرجه أبوداود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، بسند حسن من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

٢- عوف بن مالك: أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣) بسند صحيح.

٣- أنس بن مالك: أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) بسند حسن.

٤- معاوية بن أبي سفيان: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢) بسند فيه ضعف يشهد له ما قبله، فيه: أزهر بن عبدالله الحرازي روى عنه جمع ولم يوثقه معتبر، وقال الحافظ: صدوق تكلموا فيه للنصب.

٥- أبو أمامة: أخرجه الطبراني في الكبير في عدة مواضع منها:

أ) (٨/ ٢٦٨) سنده حسن.

ب) (٨/ ٢٧٣) سنده حسن، وذكره في نفس الصفحة من طرق أخرى تصلح في الشواهد. =

هذا الحديث صحيح لا مطعن فيه على الصحيح، جاء عن معاوية وجاء عن غيره، والحديث مخرّج في السلسلة الصحيحة (٢٠٤) وتكلّم العلّامة الألباني بكلام نفيس عليه وذلك بسبب أنّ محمّد بن إبراهيم الوزير أنكر متنه وهكذا الشوكاني متابعة للوزير وقد ردّ على الإمام الوزير المقبلي في كتاب العلم الشامخ على أنّ الحديث لا نكارة فيه. واستنكره ابن الوزير لأنّ أكثر أمّة محمّد من أهل الجنّة، فكيف يقول النبيّ كلّها في النار إلّا واحدة. وأمّا المتبدعة لا تبالي باستنكارهم لكن هذا الإمام له وجه فقال العلماء إنّ أكثر الذين يدخلون الجنّة هم أمّة محمّد على ظاهر تلك الأحاديث وهذا الحديث لا يُعارضها وذلك أنّ أهل السنّة يدخل فيهم عوام الناس وجُهّال الناس معذورون وأهل البدع إذا كانت بدعتهم غير مكفّرة مآلهم إلى الجنّة وإن عُذّبوا وهُذّبوا في النار فيبقى الحديث على دلالته وهو أنّ أهل البدع مستحقّون للوعيد والنار، ولفظ (ستفترق هذه الأمّة على ثلاثة وسبعين فرقة) فقد صحّ عن أبي هريرة من دون زيادة (كلّها في النار) وهي ثابتة عن معاوية وغيره، وقد أُلّف كتاب في تصحيح هذا الحديث وبيان معناه، وهذا الحديث فيه علمٌ من أعلام نُبوّة النبيّ فقد افترقت الأمّة إلى ثلاثة وسبعين فرقة وليس معنى ذلك أنّ العدد للحصر ولكن هذه أصول البدع وإلّا فالرافضة وحدها ربّما يدخل تحتها أكثر من ثلاثة مائة

= وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٦٨)، وفيه: قطن بن عبدالله أبومري ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٧٨)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٧/ ١٣٧)، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا.

تنبيه: لفظة: «**كلها في النار إلا واحدة، وهي: الجماعة**» ليست في حديث أبي هريرة، وأما حديث أبي أمامة ففيه: «**السواد الأعظم**» بدل «**الجماعة**».

فرقة والخوارج يدخل تحتها عشرات الفرق والمعتزلة والجهمية كذلك وقد جاء عن يوسف بن أسباط أنّ أصول المبتدعة أربعة (الجهمية، الروافض، الخوارج، المرجئة).

قال :

وفي حديثٍ عنه ﷺ أنه قال: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».[1]

---

(١) ضعيفة سندًا، صحيحة معنى: رواه الترمذي (٢٦٤١) عن عبدالله بن عمرو ثم قال عقبه: هذا حديث حسن غريب مُفَسَّرٌ؛ لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. اهـ فهذه الزيادة تفرد بها عبدالرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف ليس أهلًا للتفرد، ولهذا كان شيخنا الإمام الوادعي يضعفها.

وأما ما رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٤٦٠)، وفي الصغير (٧١١) من حديث أنس بذكر هذه الزيادة فلا يصح، تفرد بها عبدالله بن سفيان الخزاعي عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن أنس، قال العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٦٢) عقب حديثه هذا: ليس له من حديث يحيى بن سعيد أصل، وإنما يعرف هذا الحديث من حديث الإفريقي. اهـ ونقله الذهبي عنه في الميزان .

ورواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٢) عن أبي الدرداء وواثلة وأبي أمامة وأنس، وهي من طريق عبدالله بن يزيد بن آدم الدمشقي، قال أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال الجوزجاني: أحاديثه منكرة. اهـ من الميزان . وفيه: كثير بن مروان الفلسطيني، ضعفه ابن معين وغير واحد كما في تعجيل المنفعة ، وقال ابن معين مرة: كذاب. اهـ

فهذه الزيادة من حيث الإسناد ضعيفة، وقد ضعفها شيخنا الإمام الوادعي كما في المصارعة (ص٢٥١)، أما من حيث المعنى فصحيحة؛ يدل عليها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ =

وهو متابعة لذلك الحديث وفي بعضها (الذين يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم) وأهل السنّة الذين يعصيهم أكثر ممّن يُطيعهم وهم نُزّاع من القبائل يُصلحون ما أفسد الناس، فأهل السنّة هم المتميّزون بهذا كلّه، ويدلّ على مثل هذا الحديث قول النبيّ : «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**» من حديث معاوية عند مسلم (١٠٣٧)، وجاء عن أكثر من تسعة منها في الصحيح عن المغيرة بن شعبة وثوبان وجابر بن سمرة وجابر بن عبدالله وسعد بن أبي وقّاص .

قال :

صَارَ الُمتمسِّكُونَ بِالإِسْلَامِ المَحْضِ، الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ، هُمْ: أهلُ السنةِ والجماعةِ.

أي الذين يتمسّكون بالإسلام الحقّ الذي جاء به النبيّ قليل وهم أهل السنّة والجماعة فالمراد بالإسلام المحض والسنّة المحضة من تمسّك بالدين الحقّ الذي أنزله الله وشرعه الله، وهذا قول الله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

= وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[الواقعة:١٠-٤٠]، في أصحاب اليمين.

قال :

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحُونَ.

أي أنّهم من أهل السنّة والجماعة، فأيّ فضل لهذه الأمّة يدخل فيه دخولًا أوّليًّا أهل السنّة والجماعة وهم أحقّ الناس به، قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[الفتح:٢٦]، وقال تعالى مبيّنًا ذلك: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩].

قال :

وَمِنْهُمْ أَعْلامُ الهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجى، أُولو المَنَاقِبِ المَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ المَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ[١].

المراد بهم أئمة الدين، والعلماء المجددين، وأما قوله الأبدال فهو مصطلح صوفي كان الأولى تركه والتعبير بغيره.

(١) الأبدال: جمع بَدْلٍ، وهم الذين يَخلُفُ بعضُهم بعضًا في تجديد الدين والدفاع عنه.

قال :

وفيهم الأَئِمَّةُ، الذين أَجْمَعَ المسلمونَ على هِدَايَتِهِمْ، ودِرَايَتِهِمْ.

والمجدّدون منهم لا يصلح أن يكون مجدّدًا من الصوفيّة أو من الإخوان المسلمين أو من جماعة التبليغ أو من الرافضة أو من المعتزلة لا يصلح ولا يجوز أن يكون المجدّد منهم لأنّ النبيّ يقول: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٢٩١). والمجدّد هو الذي يدع إلى السنّة ويُحذّر من البدعة فأمّا المبتدع فأنّى له التجديد وهو يدعو إلى البدع ويدعو إلى محدثات الأمور وكان من رءوس المجدّدين في هذا القرن الإمام ابن باز، الإمام الوادعي، الإمام ابن عثيمين والإمام الألباني رحمة الله عليهم أجمعين.

قال :

وَهُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصُوْرَةُ، التي قال فيهم النبيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُم، ولا مَنْ خَذَلَـهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».[(١)]

وفي رواية (ظاهرة) والمراد بقيام الساعة قُرب قيام الساعة على ما تقدم، فإنّنا نعلم أنّ الساعة لا تقوم وعلى الأرض من يقول (الله، الله) وهذا لأنّ الله يبعث ريحًا من قِبَلِ اليمن ألين من الحرير لا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرّة من إيمان إلّا قبضته وإن كان في جوف جبل، فلا يبقى إلّا شرار الخلق عليهم تقوم الساعة فهذا هو الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر.

---

(١) متفق عليه: خ(٧١ و٣٦٤٠) م(١٩٢١و١٠٣٧) بعد رقم (١٩٢٣) عن المغيرة ومعاوية، ولمسلم عن ثوبان وجابر بن سمرة وجابر بن عبدالله وعقبة بن عامر (١٩٢٠و١٩٢٢و١٩٢٣و١٩٢٤)، وجاء عن غيرهم انظر الصحيح المسند من دلائل النبوة (ص٥٤٠-٥٤٣)، و الجامع الصحيح في القدر (ص٤١٢-٤١٥)، كلاهما لشيخنا الإمام الوادعي .

تم ولله الحمد تحقيق هذه الرسالة المباركة ظهر الإثنين

٦/ من شهر ذي القعدة / عام ١٤٢٧هـ

وتمت المراجعة الأخيرة والمقابلة ظهر الثلاثاء

١٦ربيع الأول عام ١٤٢٨هـ

بدار الحديث بدماج

رحم الله بانيها

وحرسها

من كل

سوء

وختم عقيدته بهذه الخاتمة النفيسة التي لو أراد الشارح أن يتوسّع فيها لطال المقام جدًّا وخرج عن المقصود لأنّها خاتمة تضمّنت مكارم الأخلاق ومعاليها في أبواب كثيرة فجاءت بكلمات جامعة مانعة ليُبيّن أنّ أهل السنّة طريقتهم لا تنحصر في الفصول التي ذكرها قبلُ وإنّما طريقتهم هي التمسّك بالإسلام المحض والإسلام الحقّ الذي جاء به النبيّ ، والإسلام الذي لم يُشبْ ولم يتغيّر ولم يتبدّل في العقيدة والأقوال والمعاملات والعبادات وانظر كم أنواع العبادات (الصوم والصلاة والحجّ والقيام والزكاة...) وكم أنواع المعاملات (برّ الوالدين والإحسان إلى الجيران وصلة الأرحام وطاعة أولياء الأمور والمعاملة مع العدوّ والصديق والقريب والبعيد مع المؤمن والكافر والبرّ والفاجر...) وكم الاعتقادات التي يعتقدها المسلم وكم من الأقوال التي يتلفّظ بها المسلم، فأهل السنّة والجماعة هم المتمسّكون بالإسلام الحقّ والإسلام المحض على ما جاء به النبيّ وعلى ما أجمعت عليه الأمّة.

قال :

فَنَسْأَلُ اللهَ العظيمَ أنْ يجعلَنَا منهم، وأنْ لا يُزِيْغَ قلوبَنَا بعدَ إذ هدانا، ويَهَبَ لنا من لَدُنْهُ رحمةً، إنَّه هو الوهابُ.

وهذا الدعاء في القرآن، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨]، فالهداية لطريق الحقّ والاستقامة رحمة، والثبات عليها منة؛ ولهذا جاء عن أنس عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، عن النبي قال: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

وعند أحمد (٣٧٩٧) عَنْ عَبْدِاللهِ بن مسعود ، أَنَّهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ يَدْعُو، فَدَخَلَ النَّبِيُّ وَهُوَ يَدْعُو، فَقَالَ: «**سَلْ تُعْطَهْ**»، وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ النَّبِيِّ فِي أَعْلَى جنات الخلد.

وفي الدعاء للطبراني: عن عبدالله بن الحارث أن ابن عمر كَانَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهُمَّ اهْدِنَا بِالْهُدَى، وَزَيِّنَّا بِالتَّقْوَى، وَاغْفِرْ لَنَا فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. ثُمَّ يَخْفِضُ صَوْتَهُ ثُمَّ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ وَعَطَائِكَ رِزْقًا طَيِّبًا مُبَارَكًا، اللهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَ بِالدُّعَاءِ، وَقَضَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالِاسْتِجَابَةِ، وَأَنْتَ لَا تُخْلِفُ وَعْدَكَ، وَلَا تَكْذِبُ عَهْدَكَ، اللهُمَّ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ خَيْرٍ فَحَبِّبْهُ إِلَيْنَا وَيَسِّرْهُ لَنَا، وَمَا كَرِهْتَ مِنْ شَيْءٍ فَكَرِّهْهُ إِلَيْنَا وَجَنِّبْنَاهُ، وَلَا تَنْزِعْ عَنَّا الْإِسْلَامَ بَعْدَ إِذْ أَعْطَيْتَنَا.

قال :

واللهُ أَعْلَمُ. وصَلَّى اللهُ على محمدٍ، وآلِهِ، وصحبِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

قد تقدّم الكلام على الصلاة على النبيّ في بداية الكتاب.

وبهذا نكون قد انتهينا من تدريس هذا الدرس في ثلاثة وأربعين مجلسًا، ويُعتبر ليس بالتطويل المملّ ولا بالاختصار المخلّ، وإلّا فالكتاب حقّه أكثر من هذا، ويمكن أن يُدرّس في أقلّ من هذا، والحمد لله ربّ العالمين.

وقد زدت فيــه ونقصـت، وهذبت ورتبت؛ تتميمًا للفائدة

وكان التمام من هذه المراجعة في (٢١ رمضان ١٤٣٤)

في مدينة دار السلام من بلاد تنزانيا

❋ ❋ ❋

المحتويات

مقدّمة الشارح ٥

فوائد تتعلّق بالبسملة ١٥

فوائد تتعلّق بالحمدلة ٣٤

الفرق بين الحمد والشكر: ٣٦

أنواع التوحيد ٥٧

أولاً: توحيد الربوبية: ٥٨

ثانيًا: توحيد الألوهية: ٦٠

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات: ٦٧

الأصول الستة التي اتفق عليها الرسل ٨٧

- الأصل الأوّل: الإيمان بالله : ٨٩
- الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة: ٩١
- الأصل الثالث: الإيمان بالكتب: ٩٧
- الأصل الرابع: الإيمان بالرسل: ٩٨
- الأصل الخامس: الإيمان بالبعث بعد الموت: ٩٩
- الأصل السادس: الإيمان بالقدر: ١٠٠

الشبه التي أوصلت المبتدعة إلى التعطيل والتمثيل والرد عليها ١٠٤

الرد على أنواع أهل البدع في هذا الباب: ١٠٤

الرد على الجهمية: ١٠٤

شبهة الجهمي والرد عليها: ١٠٦

الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات: ١٠٧
شبهة المعتزلي والرد عليها: ١٠٨
القول في الصفات كالقول في الذات ١٠٩
الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط: ١٠٩
الرد على الممثلة: ١١٠
الرد على أهل التفويض: ١١٢
بيان قوله تعالى: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) ١٣٢
• ونذكر هنا للفائدة بعض المواطن التي يُشرع فيها التسبيح: ١٣٣
الشروع في ذكر بعض آيات الصفات.............................. ١٤٨
وهنا قواعد أذكرها قبل الشروع في التفصيل: ١٤٨
إثبات صفة الحياة لله ١٧١
إثبات صفتي العلم والحكمة.................................. ١٧٣
إثبات صفة القوّة ١٨٣
إثبات صفتي السمع والبصر ١٨٦
إثبات صفة المشيئة... ١٩٤
إثبات صفة الإرادة لله ٢٠٠
التفريق بين الإرادتين: ٢٠٤
إثبات صفة المحبّة لله ٢٠٧
إثبات صفة الودّ لله ٢٢٦

القول في صفة الرحمة ٢٣٠
إثبات صفة الرضا لله ٢٣٨
إثبات صفة الغضب لله ٢٤٠
إثبات صفة السخط لله ٢٤٥
إثبات صفة الأسف لله ٢٤٧
إثبات صفة الكراهة لله ٢٤٨
إثبات صفة المقت لله ٢٤٩
إثبات صفتي المجيء والإتيان لله ٢٥٢
إثبات صفة الوجه لله ٢٥٧
إثبات صفة اليدين لله ٢٦٣
شبهة والجواب عليها: ٢٧٤
فائدة في خلق إبليس لعنة الله عليه: ٢٧٨
إثبات صفة العينين لله ٢٨٠
إثبات صفة السمع لله ٢٨٤
إثبات أنّ الله يرى بعينين حقيقيتين: ٢٨٨
إثبات صفات الجزاء والمقابلة لله ٢٩١
إثبات صفتي العفو والمغفرة لله ٢٩٤
إثبات صفة العزّة لله ٣٠٠

القول في الإثبات المفصل والنفي المجمل ٣٠٣

إثبات صفة الاستواء ٣٢٤

إثبات صفة العلوّ ٣٣٤

شبه المعطّلة على أنّ الله في كلّ مكان: ٣٤٩

القول في المعيّة ٣٥٣

القول في المعيّة الخاصّة: ٣٥٦

إثبات صفة الكلام لله ٣٥٨

القول في القرآن ٣٧٥

افتراق الناس في مسألة الكلام: ٣٨٢

الرد على الفلاسفة والصابئة في تعريف الكلام: ٣٨٣

وأما الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن: ٣٨٤

البيان في أن القرآن منزلٌ من الله ٣٩٩

القول في الرؤية ٤٠٨

الردّ على نفاة الرؤية: ٤١٨

مسألة: رؤية الله في المنام: ٤٢١

مسألة: أنّ محمّدًا رأى ربّه: ٤٢٣

مذهب الأشاعرة في الرؤية: ٤٢٥

خاتمة الفصل ٤٢٧

إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل ٤٣٤

شبهات أهل التحريف في أهل النزول: ٤٤٤

هل نقول: نزل بذاته أم لا؟ ٤٤٥
مسألة هل يخلو منه العرش أم لا؟ ٤٤٧
الحركة والانتقال: ٤٤٨
معنى النزول عند الأشعري: ٤٥٠
إثبات صفة الفرح لله ٤٥٢
إثبات صفة الضحك لله ٤٥٥
إثبات صفة العجب لله ٤٥٨
إثبات صفة الرجل والقدم لله ٤٦١
إثبات صفة اليدين لله ٤٦٥
إثبات صفة العلوّ لله ٤٦٧
القول في المعيّة ٤٧٧
القول في حديث: «فإنّ اللهَ قِبَلَ وجهِهِ» ٤٧٩
إثبات صفتي السمع والبصر لله ٤٨٥
القول في الرؤية ٤٨٨
مجمل طريقة الفرقة الناجية في أبواب الإيمان بالأسماء والصفات ٤٩٠
أهل السنّة الوسط العدل الخيار ٤٩٢
• الطرف الأوّل: الخوارج: ٤٩٩
• الطرف الثاني: المرجئة: ٤٩٩
• والوسط هم أهل السنّة: ٤٩٩

القول في المعيّة ٥١٠
إثبات صفة القُرب لله ٥١٧
ملخص الجمع بين أدلّة العلوِّ والقُرب والمعيّة: ٥٢١
القول في القرآن ٥٢٢
القول في اللفظ ٥٢٤
إثبات الرؤية ٥٣٥
الإيمان باليوم الآخر ٥٣٨
الكلام في القبر وما فيه ٥٤١
القيامة الكبرى وما فيها ٥٥٨
إثبات الميزان ٥٧٠
الموزونات: ٥٧٢
مسألة: وزن أعمال الكفار: ٥٧٣
هل يقام الوزن لكل الناس؟ ٥٧٤
إثبات نشر الدواوين وصحائف الأعمال ٥٧٦
الإيمان بالحساب ٥٧٨
الإيمان بالحوض ٥٨١
الإيمان بالصراط ٥٨٨
أول من يستفتح باب الجنة وأولهم دخولا ٥٩٦
الإيمان بالشفاعة وخروج الموحّدين من النار ٦٠٠
ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: ٦٠٨

التوسل بذوات الصالحين: ٦٠٩

الإيمان المجمل بكل ما علمنا وما لم نعلم مما ذكر الله تعالى ورسوله ٦١٥

الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان الآن ٦١٧

الإيمان بأن الجنة والنار لا تفنيان ٦٢٣

الإيمان بالقدر ٦٢٨

الأولى: العلم: ٦٣٠

المرتبة الثانية: الكتابة: ٦٣١

المرتبة الثالثة: المشيئة: ٦٣٢

المرتبة الرابعة: الخلق: ٦٣٣

أنواع التقدير: ٦٣٤

الإرادة الربانية: ٦٣٥

تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية: ٦٣٥

الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية: ٦٣٥

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر: ٦٣٦

القول في الإيمان ٦٥٩

القول في الاستثناء في الإيمان ٦٧٢

العلاقة بين مسمّى الإيمان ومسمّى الإسلام ٦٧٤

القول في أصحاب رسول الله ٦٨٨

أفضل هذه الأمّة على التعيين بعد نبيّها : ٧٠٧

الأوّل: أبوبكر الصدّيق : ٧٠٧

خلافته بالنصّ أو بالإشارة: ٧١٤

الثاني: عمر بن الخطّاب : ٧١٧
الثالث: عثمان بن عفّان : ٧٢١
الرابع: عليّ : ٧٢٦
القول في آل البيت النبيّ ٧٢٩
القول في أزواج النبيّ ٧٣٥
بيان طريقة الروافض ٧٤٤
القول فيما شجر بين الصحابة ٧٥٤
القول في عصمة الصحابة ٧٥٨
القول في كرامات الأولياء ٧٦٨
أهميّة الاتباع ٧٧٧
تقديم أهل السنّة للدليل على غيره ٧٨٩
من أصول أهل السنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٠٧
قول أهل السنة في إِقَامَة الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ ٨١٠
من أصول أهل السنة الدين بالنصيحة ٨١٦
اعتقاد الأخوّة الدينيّة ٨١٨
من أصول أهل السنة الحث على الصبر ٨٢٢
طريقتهم الشكر عند الرخاء ٨٢٥
طريقتهم الرضا بالقضاء ٨٢٨

دعوتهم إلى مكارم الأخلاق.................................... ٨٢٩

الأمر بصلة القاطع ٨٣٢

الأمر ببرّ الوالدين ٨٣٥

الأمر بصلة الرحم.................................... ٨٣٧

الأمر بحسن الجوار.................................... ٨٣٩

الأمر بالإحسان إلى الأيتام.................................... ٨٤١

النهي عن مساوئ الأخلاق ٨٤٣

مجمل طريقة أهل السنّة ٨٤٧

المحتويات.................................... ٨٥٦